

كتاب الهلال



التاريخ الذي أحمله على ظهره

# ماء الحياة

سلسلة  
ثقافية  
شهرية

د. سيد عويس





# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٩ - ذو الحجة ١٤٠٦ - سبتمبر ١٩٨٦

NO : 429 SEPTEMBER 1986

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ( ١٢ عددا ) في جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادي وفي بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفي سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بتيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاذ عند الطلب .

# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان  
حلمي التونسي



التاريخ الذى أحمله على ظهري  
(الجزء الثانى)

# ماد الحياة



بقلم

الدكتور سيد عوليس



دار الهلاك







## السفر إلى الخارج طلباً للعلم

فى يوم ١٥ من شهر أبريل عام ١٩٤٠ تكونت أول هيئة تنفيذية « لمكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » . وقد روعى فى تكوينها تمثيل وزارة الشؤون الاجتماعية ومدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وأحد المستشارين القانونيين وأحد رجال التربية ومديرة المكتب . وقد مثل أعضاء هذه الهيئة السادة الاستاذ محمد عبد الخالق حسونه « وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية » والسيدة برقا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة والمستشار محمد فتحى والاستاذ اسماعيل القبباني والسيدة الزا ثابت « مديرة المكتب » . واصبحت السيدة الزا منذ ذلك الحين مديرة المكتب . واستمرت فى هذا المنصب حتى يوم ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ عندما عينت مديراً لهذا المكتب فى أول يناير عام ١٩٤٤ . ولن أنسى ماحيت هذا اليوم . وكم من الايام التى لا أنساها منذ أن مات أبى وتركت مدرسة الخديوية الثانوية ثم أشرفت على وكالة أبى بعد وفاته وعندما تركتها للتفرغ للدراسة وعند حصولى على شهادة البكالوريا ثم يوم تعيينى بمصلحة الحدود ويوم التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ويوم استقالتي من مصلحة الحدود لأعمل بمؤسسة الزفاف الملكى ثم تركها مضطراً لأعمل مديراً لمعسكر الاطفال بكوم أمبو ويوم عودتي الى المؤسسة ، ويوم حصولى على دبلوم الخدمة



الاجتماعية ، وهانذا اترك المؤسسة لكي اعمل مديرا  
لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . ايام  
من ايام عمرى لا يمكن ان انسها تركت آثارها فى نفسى  
كما تركت بصماتها على شخصيتى . وبدأت على الجديد  
وكان لا يختلف اختلافا جذريا عن عملى بالمؤسسة . ولم  
يكن عمل المكتب غريبا على فى اثناء عملى بالمؤسسة ،  
حيث كانت الصلة بين المؤسسة وبين المكتب فى شخص  
السيدة مديرتة والسادة الزملاء اخصائى المكتب صلة  
وثيقة . وأذكر من هؤلاء الاخصائين الاعزاء الاستاذ  
محمود فهمى والاستاذ أحمد مرزوق والاستاذ توفيق  
عمار والاستاذ واصف يوسف . ومع ذلك فالبيئة الجديدة  
غير بيئة المؤسسة ، والأوضاع غير الأوضاع . كنت فى  
المؤسسة أعمل فى مجال تطبيق « طريقة خدمة الجماعة »  
وأنا الآن فى المكتب أعمل فى مجال تطبيق « طريقة  
خدمة الفرد » وفى مجال تطبيق « البحث العلمى  
الاجتماعى فى ميدان الجريمة وانجناح » . وبدأت عملى  
فى المكتب من حيث انتهت السيدة الزا أول مديرة له .  
كانت أهدافى فى أول الامر ان أدرس دراسة موضوعية  
ماهو كائن حتى أعمل فى سبيل تحقيق مهام المكتب  
وأغراضه التى وضعت فى خلال الفترة السابقة  
مااستطعت الى ذلك سبيلا . وقد تضمن نشاط المكتب  
الاجتماعى الطبى النفسى فى ذلك الحين مايلى :

— القيام ببحث دقيق لحالة كل حدث « يحول من  
محكمة الأحداث بالقاهرة » وبحث دقيق للبيئة التى  
يعيش فيها وعلاقة هذا كله بأعمال التشرد أو الاجرام  
التي تصدر عنها . ويشفع مثل هذا البحث الاجتماعى  
ببحث عن حالة الحدث الصحية والنفسية ولذا يكون



فى متناول القاضى المعلومات الدقيقة التى يستعين بها فى فهم حالة كل حدث .

— اقتراح الحل الملائم لكل حالة تعرض سواء فيما يتعلق بالتربية أو المعالجة النفسية أو بتغيير بيئة الحدث أو بالحاقه بأحدى المؤسسات التى تلائم حالته الخاصة .  
— المساعدة فى تنفيذ العلاج المقترح وبوجه خاص مراقبة الحدث وإسرتة اجتماعيا « فى حالة إعادة الحدث الى أهله أى الحكم بالتسليم » والتأثير الصالح فى كل منهما .

وكانت مهام المكتب وأغراضه التى كان على وزملائى بالمكتب تحت إشراف الهيئة التنفيذية القيام بتحقيقها مايلى :

— الاقتصار على مشروع الخدمة الاجتماعية فى محكمة الأحداث بالقاهرة دون سواها فى الوقت الحاضر ، واعتباره تجربة اذا نجحت أمكن تعميمها . « تيسر لمحافظة الاسكندرية انشاء مكتب للابحاث الاجتماعية على غرار مكتب القاهرة فى عام ١٩٤٣ » .

— أن تكون الهيئة التى تشرف على هذا المشروع هيئة خاصة « الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية » الى أن يثبت نجاحه وفائدته للبلاد .

— السعى لدى وزارة العدل لتقديم المعاونة فى تنفيذ هذا المشروع بنجاح ، حيث أن سماح السيد النائب العام بإجراء بعض الابحاث فى محاكم الأحداث قد أفاد كثيرا . ولكنه لم يكن سوى خطوة أولى فى هذا السبيل .

وفى ضوء تحديد هذه المهام والأغراض رأت الهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث



بالقاهرة الاهتمام بدراسة بعض الموضوعات الآتية :  
- الاعتراف الرسمي من وزارة العدل بالخدمات الاجتماعية لمحاكم الاحداث كمشروع تقوم به هيئة خاصة.  
- الاعتراف الرسمي بمؤسسة الزفاف الملكى كماوى مؤقت ويضع المعاهد التعليمية الاخرى كملجأ الحرية مثلا .

- عقد جلستين اخريين اسبوعيا بمحاكم الاحداث وتعيين وكيل نيابة آخر .  
- سرية الجلسات التى تعقد بمحاكم الاحداث .  
- اصدار قانون اسقاط السلطة الأبوية .  
- تخصيص مكان فى الاصلاحيات لقبول الاطفال المحكوم عليهم .

- بدء تعاون مكتب الخدمة الاجتماعية لمحاكمة الاحداث بالقاهرة مع مكتب الاداب بشأن الاحداث المتهمين بالتشرد والتسول وجمع الاعقاب .  
- الاهتمام بانشاء شرطة خاصة بالاحداث .  
- طلب الاعتراف بمؤسسة الزفاف الملكى للاحاق الاحداث الذين تحت اشراف المكتب بها بدلا من ارسالهم الى الاصلاحيات .

- الاهتمام بانشاء مكان خاص لحجز الاحداث فى خلال فترة المحاكمة ، اى انشاء دار للملاحظة .  
- طلب الاعتراف بملجأ السيوفية الخاص بالفتيات لاقامة الفتيات الاحداث اللائى تحت اشراف المكتب .  
- الموافقة على قيام المكتب بحفظ كل حالة حدث يودع فى مؤسسة . « أى اقتصار عمل المكتب على القيام بالمراقبة الاجتماعية للحدث وأسرته اذا اقتضت الضرورة ذلك أو بعد الحكم على الحدث بالتسليم » .

٣ - الاهتمام بتعديل قانون تشرد الأحداث .

٤ - الاهتمام ببدل بعض الجهود لدى وزارة العدل على استقرار قاضي محكمة الأحداث بمنصبه حتى يتمكن من دراسة مشاكل الأحداث وفهم نفسياتهم لطول خبرته بهم على أن يحصل على كل ترقياته مع وجوده في نفس المركز .

٥ - الاهتمام بإنشاء مؤسسات لضعاف العقول وذوى العاهات من الأحداث . .

٦ - الاهتمام بتكوين اتحاد يضم الهيئات المهتمة بالأحداث الجانحين ويشرف على أعمالها وينسقها بحيث لا تتعارض مع بعضها .

٧ - طلب مساهمة وزارة العدل في توسيع نطاق أعمال المكتب وتدريبه مالياً .

وظل مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٨ يعمل على تحقيق مهامه وأغراضه وأن تعددت . وقد تحمل هذا المكتب في خلال هذه الفترة عبثاً كبيراً جداً . وقد اضطر إلى ذلك اضطراباً على الرغم من وجود بعض الظروف المواتية التي مهدت السبيل إلى وجوده . أن المكتب في هذه المرحلة كان رائداً في ميدان علاج الأحداث الجانحين . وقد تحمل العبء وحده . لقد بدأ كما يلاحظ القارئ كجهاز للمراقبة الاجتماعية

في محيط الأحداث الجانحين في مدينة القاهرة . فأغراضه على المستوى النظري تدل دلالة واضحة على ذلك . وعمله كان يقوم على أساس تقديم البحوث الاجتماعية والطبية والنفسية إلى المحكمة لتتویرها . وفي حالة صلاحية البيئة المنزلية لتسليم الحدث إليها يطلب



المكتب من المحكمة الحكم بالتسليم ، ثم يقوم المكتب بعد ذلك بالمراقبة الاجتماعية للحدث وأسرته فترة من الزمن . أى ان عمل المكتب كان فى حالة الحكم بتسليم الحدث ، أى اطلاق سراحه ليعيش فى بيئته المنزلية ، هو القيام بمراقبته والإشراف عليه فى هذه البيئة فترة من الوقت ، وفضلا عن ذلك كان يقوم بالبحوث اللازمة السابقة على الحكم .

وإذا كان لكل شىء تاريخ ، فالملاحظ ان مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى ضوء خبرة السيدة الزا اول مديرة له ، وهى خبرة سويسرية فرنسية ، قد حاكى اول ماحاكي الاعمال التى كانت تقوم بها المكاتب التى على غرارها فى سويسرا وفى فرنسا فى ذلك الحين . والواقع انه حاكى اعمال « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين » . وكانت اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث والمراهقين بمقاطعة السين فى ضوء المشروع الذى قدمته السيدة الزا الى مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية فى يوم ١٣ من شهر مارس عام ١٩٤٠ ، هى نفس اغراض مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة عند انشائه والملاحظ ان المكتب الاول مثل المكتب الثانى كان تابعا لاحدى الهيئات الاجتماعية الاهلية هى « جمعية الخدمة الاجتماعية للطفولة المعرضة للتدهور الخلقى » .

وكنت اعمل فى خلال الفترة من شهر يناير عام ١٩٤٤ حتى آخر عام ١٩٤٨ بلا توان . كانت السيدة الزا عضوا فى الهيئة التنفيذية التى تشرف على المكتب ، كما كانت عضوا « مؤسسا » للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ومن ثم فقد كانت ترى احيانا وهى بهاتين الصفتين فضلا

عن انها كانت اول مديرة للمكتب ان تتحكم فى بعض  
نصرفاتى . وكنت حريصا على ان تكون هذه التصرفات  
حرة طليقة مادمتم قد أصبحت المسئول عن ادارة المكتب .  
وكانت تحدث بينى وبين السيدة الزا بعض ما كنت  
اتوقعه من خلافات . ولكن الظروف أصبحت غير  
الظروف . لقد تفرغت لادارة بيتها فلم يكن لديها الوقت  
لتلبى ما كانت تطلبه هى من مقابلات ثنائية معى . وموظفو  
المكتب أصبحوا غير الموظفين القدامى . بقى « واصف  
يوسف » « أقدم اخصائى بالمكتب » ولكن اضيف اليه  
« عبد العزيز فتح الباب » الذى الح على الالحاح الشديد  
لكى ينتدب من وزارة الصحة التى كان يعمل بها ليكون  
معى بالمكتب كما كان معى فى المؤسسة من قبل . وكان  
هذا الشاب يعيش وحده مع أخيه « حميدو » ضعيف  
العقل . وكان موضع تكريم أمى وحبها التى كانت تعتبره  
أخا بل شقيقا لى ، وكان قد تعود زيارة منزلى زيادة فى  
الالحاح لكى ينتدب أو يعار الى المكتب . وقد اعير  
عبد العزيز فتح الباب فعلا الى المكتب وصار زميلا لواصل  
يوسف . وضم اليهما « توفيق عمار » الذى مالبت ان  
تركنا ليعمل فى ميدان تخصصه ويترك مهنة الخدمة  
الاجتماعية لن يسعد بها . وكان توفيق عمار أخا شقيقا  
للاستاذ الدكتور عباس عمار أستاذ الجامعة الذى صار  
وزيرا للشئون الاجتماعية فيما بعد . وضم « افنيس  
عطا الله » اخصائية اجتماعية حديثة ايضا ، ثم « خيرية  
ياور » ذات الخبرة فى ميدان الخدمة الاجتماعية والتى  
لم تتح لها الفرصة لتستكمل دراستها . وحتى أعضاء  
الهيئة التنفيذية للمكتب قد تغير أعضاؤها كذلك لانتقال  
الأعضاء القدامى الى مواقع عمل أخرى او لموامل  
أخرى . وأصبح الأعضاء الدكتور محمد صلاح الدين



والاستاذ الدكتور محمد عوض محمد والمستشار محمد  
فتحى والسيدة الزا ثابت وقاضى محكمة الاحداث  
بالقاهرة ثم مدير المكتب . وكانت لكل هذه التغييرات  
آثار على العلاقات التى بينى وبين زملائى وعلى العلاقات  
التى بينى وبين أعضاء الهيئة التنفيذية وعلى العلاقات  
التى بينى وبين السيدة الزا . اننى كنت حريصا الحرص  
كله على أن يكون أعضاء المكتب من الزميلات والزملاء  
أسرة واحدة . فقد كانوا إخوات وأخوة لى فعلا وحقا .  
وكان الهم الأكبر الذى يشغل بالى هو أن تؤدى واجباتنا  
كل فى موقعه . حاولت أن نعمل جميعا عملا جيدا فى  
ظل الحب والاحترام اللذين كانا يسودان علاقاتنا . وعلى  
الرغم من الأعباء العديدة والظروف غير المواتية وبخاصة  
عندما كان يتغير قاضى المحكمة أو وكيل النيابة ، أى عندما  
يستبدل بمن عرفنا وعرفناه وفهمنا وفهمناه واحترمنا  
واحترمناه ، آخر لضرورة النقل لا يعرف عن وظيفة  
المكتب ولم يسمع عن مهنة الخدمة الاجتماعية وعلاقتها  
بالمحكمة شيئا . كنا نبدا من جديد : نقيم على شرف  
القاضى الجديد أو وكيل النيابة الجديد أو كليهما « حفل  
شاي » للتعارف . وكنا حريصين على ذكر اسم أحدهما  
متبوعا بلقب « بيه » . فقد أخذنا من الماضى درسا قاسيا  
عندما كنت أو كان احدا نذكر « الاستاذ فلان » مجردا  
من لقب « بيه » ! كان تأثير ذلك على العمل الذى بيننا  
وبهينا ، والأحداث وذووهم كانوا هم الضحايا . فإذا قال  
تقرير المكتب « يمينا » حكم القاضى « شمالا » والعكس  
بالعكس . وكانت أمهات الأولاد عند الاختلاف ، وبعضهن  
كن لا يحرصن على الأخلاق القويمة ، أسلحة فى يد القاضى  
أحيانا أو فى يد وكيل النيابة أحيانا أخرى ضدنا . وقد  
يحدث العكس عند الصفاء فنجد القاضى يشكو لى من

ان وكيل النيابة الشاب يحرص على ان تمكث في مكتبه « ام فلان ( احد الاحداث ) الوسيقات » فترة طويلة تثير الشبهات . وكنت لا ارد ولا اصد . وكان زميلائي وزملائي يحرصون معي على القيام بعملنا وعلى ان تكون صابرين « فالصبر مفتاح الفرج » ، و « اصبر على الجار السوء لا يرحل ياتيجي له داهية » . وقد تعلمت درسا لا انساه . فقد كنت حريصا جدا على توقيع رجال القضاء واحترامهم وامامي الدكتور محمد صلاح الدين والمستشار محمد فتحي وغيرهما قدوة صالحة ، ولكن ما كان يحدث بين المكتب وبين المحكمة اكد لي ان الناس ومنهم رجال القضاء بشر يخطئون كما يصيبون .

ومهما يكن من الامر فانه على الرقم من الاعباء العديدة والظروف غير المواتية ، كما ذكرت آنفا ، فقد كان شعار الاخصائيين الذين كانوا يعملون بالمكتب في ذلك الحين : الابتسام امام المشاكل ، والتفاؤل بالمستقبل على الدوام . كنا نعمل من اجل ان نعيش ، ولكننا كنا كذلك نعيش من اجل ان نعمل . كانت مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة حديثة في بلادنا لاتزال . وكنا نحاول ما استطعنا من جهد ان نؤكد الحاجة الماسة الى ادوارها الاجتماعية في كل ميدان وفي كل لحظة . ولم يقف في سبيل تحقيق ذلك في ميدان المراقبة الاجتماعية بالمحاكم او غيره من الميادين اى شيء . ذلك لاننا آمننا صادقا بان المجتمع المضرى في ذلك الحين كان في ميسر الحاجة الى هذه المهنة الانسانية والى ادوارها الاجتماعية العديدة .

وارجو ان يلاحظ القارئ ان مآثره عن تحولات خدات بيتي وبين السيدة الزا لم يمنع أبدا التقارب الانساني الذي حدث بيني وبينها . لقد كانت تحولات



كما قلت من قبل متوقعة . وكنت في ضوء خبراتي السابقة اعتبر حدوثها أمرا عاديا . ولكن الذي حدث فعلا هو التفاهم الذي كان منذ أيام مؤسسة الزفاف الملكي بل منذ أيام المحاضرات في مدرسة الخدمة الاجتماعية في القاهرة ، والذي استمر بعد ذلك حتى كتابة هذه السطور . ان السيدة الزا بزواجها حرمت من العمل الاجتماعي في أي ميدان الا أن تكون متطوعة . لقد رفض زوجها أن تعمل في ميادين الخدمة الاجتماعية ، وهي الاختصاصية الاجتماعية المحترفة ، بأجر . وانتهزت الفرصة لكي تتعلم اللغة العربية حديثا وقراءة وكتابة . وكنت أحد مدرسيها . وكنا نتقابل في المكتب ساعات محددة في الاسبوع . وكان مكان المقابلة يعقد أحيانا بمنزلها تحت سمع زوجها وبصره . واذا كنت أقوم بتدريس اللغة العربية للسيدة الزا فقد كانت هي أيضا تساعدني في اتقان اللغة الانجليزية . وكانت فوق ذلك تساعدني ببعض الكتب لكي أقرأها ويتسع في ضوء هذه القراءة أفق تفكيري . كنت أقرأ كتب علوم الاقتصاد والتاريخ والفلسفة وكانت كلها باللغة الانجليزية التي لا ادعي اني كنت اتقنها في ذلك الحين ، ومن ثم كان يساعدني الاستاذ راؤل مكاريوس على فهم ما أقرأ ، وهو أحد اقرباء زوجها ، في الكثير من الاحيان . كما كان يساعدني زوجها في بعض الاحيان . كانت العلوم التي أقرأها ذات موضوعات لم اسمع عنها من قبل . وكانت تشغل تفكيري وانا أقرأها وبعد أن أقرأها . وكنت أحس بأن العلاقات الاجتماعية والسياسية تبدو امام عيني واضحة وضوحا لم اكن اعلمه قبل قراءة هذه الكتب . ولم اكن في هذه الفترة استسيغ الاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية قالت السيدة الزا على نفسها أن ليس لي هذا الاستماع

والاستمرار فيه حتى سعدت به ومازلت حتى الآن .  
كانت تدفع لى مايوازى ثمن التذكرة لى أحضر حفلات  
فى قاعة « ابوارت » حيث بعض الفرق الموسيقية  
العالمية تقيمها ويحضرها من الناس يملئون القاعة  
ويزيدون . وتذكرت الأستاذ يعقوب فام الذى كان يطلب  
من معلم الموسيقى ابراهيم افندى قنديل ان يحضر مثل  
هذه الحفلات « على حساب المؤسسة » لى ترداد ثقافته  
الموسيقية مما يعود على أولاد مؤسسة الزفاف المسمى  
بالفائدة . كانت السيدة الزا تفعل معى ومع زملائى  
الاخصائيين الاجتماعيين بالمكتب من حيث الاهتمام  
بالاستماع الى الموسيقى العالمية ما كان يفعله أستاذى  
يعقوب فام مع معلم الموسيقى . ولم يكن زملائى يهتمون  
بالاستماع الى الموسيقى العالمية بتشجيع السيدة الزا  
فقط بل كانت تشجعهم أيضا على القراءة فى العلوم  
التي كنت أقرؤها . وكنا جميعا والسيدة الزا معنا  
تذهب الى المتاحف محاولة منها أن نستوعب بعض  
ماتعكسه اللوحات المعروضة فنتلذوقها ومن ثم يرتقى  
مستوانا فى حب الجمال والاستمتاع بتذوقه . كانت  
لا تعمل عملا مهنيا قالت السيدة الزا أن تصنع بعض  
الرجال من أبناء الشعب المصرى فى شخص بنسات  
وأبناء المكتب وبخاصة الذين كانوا يمتنون مهنة الخدمة  
الاجتماعية . وعلى الرغم من مشاغل السيدة الزا فى  
بيتها فى ذلك الحين فانها كانت تحرص على وجود الوقت  
لتقوم بكل هذه النشاطات . وانى أذكر جيدا أنها  
كانت حريصة على زيارة بيوتنا جميعا . وقد زارت هذه  
البيوت فى المناسبات « فى العيد أو فى شهر رمضان  
مثلا » وفى غير المناسبات . ولم يمرض واحد منا أو  
أحد اقاربه الا وكانت يد السيدة الزا تمتد بالمساعدة



العاقلة الضرورية . وكانت لا تتورع فى نقل المريض أو المريضة فى عربتها « وكانت عتيقة ولكنها تعمل » الى المستشفى . أو تعيد المريض أو المريضة من المستشفى الى البيت ، وقد يكون موقع هذا البيت فى حارة « درب المقشبات » بقسم الدرب الأحمر مثلاً ! وهى الحارة التى كانت تسكن فيها أسرة عبد العزيز فتح الباب عندما كانت والدته « ريفمة » فى ذلك الحين .

وكانت كل هذه الخدمات التى كانت تقوم السيدة الزا بها لى أو لزميلاتي وزملاتي تقابل بالامتنان . فنحن كأشخاص مستضعفين نتعامل ، فى ضوء قيمنا مع الدين بجمالونا ، بالجميل . ومن ثم ازدادت الرابطة الانسانية التى كانت تربطنا بالسيدة الزا . وكان أعجائبي بها وبما تقوم به أعجاباً يفوق الوصف . فهى عند أعضاء أسرته ملاك للرحمة وللحب وللخير . وهى عند الملاذ الذى أجا اليه اذا ما المت بى مصيبة من المصائب . ولن انسى أبداً رقتها معى عندما مرضت أمى ، وجاء معها الدكتور عبد العزيز عسكر والدكتور حليم مبرى . جاء ليرى ما اصاب أمى دون أن يتوقع أحدهما اجرا منى . كانت السيدة الزا ومازالت تفعل الخير بأنماطه دائماً وكانت ومازالت تخدم الانسانية لذاتها .

وعندما فكرت السيدة الزا فى انشاء جمعية اجتماعية لى تشغل فيها وقت فراغها الذى بدأ فى عام ١٩٤٧ وكانه يطول ، اقترحت عليها ان تجمع أولاد المؤسسة الذين تخرجوا فيها ويعيشون فى أحد أحياء القاهرة . وكانت فى ضوء خبرتها فى المؤسسة وفى المكتب تعلم عن هؤلاء الأولاد الكثير على أن نجعل من العدد الذى نجده من الأولاد فى الحى الذى نختاره نواة لنادى اجتماعى لى . وقد لاقى هذا الاقتراح قبولاً عند السيدة

انوا . وكان قد ايدته الزميل واصف يوسف . وبمساعدة  
تجارب قمنا بها وجدنا أن حي بولاق هو الحي المناسب ،  
فهو حي شعبي لا توجد فيه خدمات اجتماعية الا القليل  
فضلا عن أن عددا يزيد على العشرين من أبناء مؤسسة  
الزفاف الملكي كانوا من الحي كما كانوا وما زالوا في  
ذلك الحين على علاقة متينة بى وبعض الاخصائيين  
الاجتماعيين الذين كانوا يعملون بالمكتب . وفي غضون  
شهر يونيو عام ١٩٤٧ تأسست « جمعية الخدمات  
الاجتماعية بحي بولاق » التي كانت السيدة الزا أول  
رئيسة لها واصبحت مديرة لها حتى كتابة هذه السطور .  
وقد أكد تأسيس هذه الجمعية العلاقات الانسانية  
الكريمة بينى وبين السيدة الزا . واصبحت هذه العلاقات  
في ضوء تجارب الحياة ، الحلوة والمريرة على السواء ،  
علاقات انسانية كريمة لا انفصام لها .

وفي خلال عام ١٩٤٨ « أوائل شهر فبراير » اتحت  
لى الفرصة لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم  
محاكمة الاحداث وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية ،  
وسافرت فعلا الى المملكة المتحدة ، وانتهت دراستى في  
شهر سبتمبر من نفس العام . كانت هذه الفرصة ،  
فرصة السفر الى الخارج فى نظرى فى ذلك الحين  
معجزة لم اكن اتوقعها وأن تمنيتها . ولم اكن مستعدا  
لنفقاتها من حيث بعض الامور اهمها شراء ملابس وحقيبة  
وما يلزم لهذه الرحلة الى بلاد غير البلاد والحياة مع اناس  
غير الناس الذين أعيش معهم . وجاء اجتماع الهيئة  
التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحاكمة الاحداث .  
وكان الرئيس الدكتور محمد صلاح الدين ، وكسكرتير  
لهذه الهيئة كنت أجلس بجواره ، وقد حضر من الاعضاء  
الإستاذ الدكتور محمد عوض محمد والدكتور عبد العزيز



عسكر والسيدة الزا ثابت وقاضى محكمة الاحداث الذى كان فى هذه الفترة الاستاذ حمدى حافظ . ولما عرض موضوع طلب قرض لى حوالى خمسين جنيها مصرى من الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، انبرى الدكتور محمد عوض معترضا على اساس انه لا داعى لهذا القرض فالمجلس البريطانى « الداعى » سيتكفل بكل المصاريف . فعندما ذكرت اننى فى حاجة الى هذا المبلغ لكى استعد لشراء بعض الملابس التى ارى أنها ضرورية ، ذكر الدكتور عوض انه لا داعى لذلك فهو لديه « معطف » قديم ومستعد ان يعطيه لى ، وان الحاجة الى هذا المعطف هو كل ما هو ضرورى من الملابس . ولا بد ان وجهى قد احمر خجلا عندما سمعت ما قاله هذا الدكتور ، ولكن الدكتور محمد صلاح الدين الذى كان يجلس بجوارى ضغط بيده على ساقي القريب منه وكأنه كان يقبل « تجلد ولا تقل شيئا » ثم اردف سيادته مقترحا تأجيل هذا الموضوع الى جلسة قادمة . وتأجل الموضوع وعرضه الدكتور محمد صلاح الدين على مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية الذى وافق على منحى القرض على ان ادفعه على اقساط شهرية ، ولكن السيدة زاهية مرزوق « عضو مجلس الادارة وتقوم مقام امين الصندوق الذى كان مسافرا خارج القطر » ذكرت ان ميزانية الجمعية لا تسمح باعطاء قروض لاحد . ثم جاء دور الدكتور محمد صلاح الدين الذى كتب مذكرة يطلب اعطاء القرض على ان يكون هو نفسه ضامنا لى . فتقهقرت السيدة زاهية ودفع المبلغ واشترت الملابس الضرورية وبعض ما يلزم للرحلة ، ولم يكن من حسن حظى معطف الدكتور محمد عوض محمد القديم من نصيبى . وهنا اقف وقفة لكى اقرر حقيقة ذكرها لى الدكتور عوض

عن تعاسة الحال التي كان يعيش في ظلها وهو صغير  
ثم وهو شاب حتى حصل على درجته العلمية . وانا اذ  
اذكر هذه الحقيقة كما ذكرت لي اعجب أشد العجب  
من تصرفه نحوي ولم اكن اعيش حياة الفنى والرفاهية .  
لماذا فعل هذا الرجل ما فعل ؟ وعندما سألت هذا السؤال  
اجاب الاستاذ الدكتور عبد العزيز عسكر الطبيب النفسى  
« ان الدكتور عوض وامثاله معذورون ، فان اول ما يستقبل  
في الصباح يستقبل وجهه . فانظر الى وجهه . انظر الى  
وجهه مليا تجدا لاجابة يا عويس » . واذا كان الامر كذلك  
فماذا عن موقف السيدة زاهية ؟ اننى حتى الآن لم اجد  
تفسيرا .

والملاحظ كما يرى القارئ ان السفر الى الخارج  
لكى استكمل تعليمى العالى كان رغبة قديمة . كان رغبة  
ابى ورقبة امى ورقبتى . وقد فالتى السفر الى  
الخارج قبل هذه المرة ثلاث مرات . الاولى وكنت  
وزميلاتى وزميلاتى مازلنا طلابا بمدرسة الخدمة الاجتماعية  
بالقاهرة فعندما جاءت المنحة الدراسية للسفر الى  
الولايات المتحدة الامريكية للمدرسة اختير لها شخص لم  
يكن طالبا بالمدرسة . اختير لهذه المنحة عبد الحميد زكى  
وكانت الحرب العالمية الثانية على الابواب فاقتنصها  
وسافر في الوقت المناسب . وعاد الى مصر بعد ان وضعت  
الحرب اوزارها وتحت احد ابطيه درجة الدكتوراه  
وتحت الابط الثانى زوجة امريكية . ثم اصبح عميدا  
للمدرسة عندما آثرت برتا فهمى ان تشارك زوجها فى  
اصاله التجارية ، وتركت العمادة من اجل التجارة .  
فعندها فر ضوء قيمها الاجتماعية للامريكية ان النجاح  
كل النجاح هو النجاح المادى . تركت السيدة برتا عمادة  
المدرسة بعد عودة عبد الحميد زكى ثورا . اما المرة الثانية

فقد كانت الدفعة الاولى قد تخرج اعضاؤها . وعندما جاءت المنحة الدراسية الثانية للمدرسة للسفر الى الولايات المتحدة الاميركية اختارت ادارة المدرسة الزميل بدرأوى محمد فهمى الذى كان منتدبا من وزارة الاوقاف العمومية فى ذلك الحين ليعمل مساعدا للسيدة العميدة برتا فهمى . فكانت الادارة تعرفه وكان هو بالضرورة يعرف اعضاؤها . كان بدرأوى أحد تخرجى المدرسة وكانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها فكانت الفرصة للسفر مواتية . فسافر للدراسة وعاد الى مصرنا العزيزة بعد خمس سنوات حاملا درجة الدكتوراه ، واصطدم بما حدث فى نظام المدرسة ولم يجد له مكانا بها وسمى الى الانتقال الى وزارة الشؤون الاجتماعية التى كانت قد انشئت فى شهر اغسطس عام ١٩٢٩ ينتظر الوقت المناسب لى يعود ادراجه الى المدرسة لىكون عميدا لها . وبعد انتهاء الحرب اعلنت وزارة المعارف العمومية عن بعثتين دراسيتين للتخصص فى مهنة الخدمة الاجتماعية وعلومها . وكان املى فى واحدة منها كبيرا ، كانت الثانى على الدفعة الاولى وكانت خبراتى كبيرة فى مجالين من مجالات طرق مهنة الخدمة الاجتماعية وهما « مجال تطبيق طريقة خدمة الجماعة » . « مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد » . وكانت تجاربى فى « ميدان الجريمة وجناح الاحداث » التجارب الاولى لاول اخصائى اجتماعى مصرى محترف . وكذلك كانت تجاربى « فى مجال تطبيق البحث العلمى الاجتماعى فى هذا الميدان » من التجارب الرائدة . وتوقعت كما توقع غيرى ، المنافسون وغير المنافسين ، ان تكون من نصيبى احدى هاتين البعثتين . وكان استاذى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى يكاد ان يؤكد لى تحقيق هذه الامة . فقد



كان يعمل بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة اخصائيا نفسيا عندما كنت أعمل بالمؤسسة وكانت العلاقة بين المؤسسة وبين المكتب علاقة مهنية يوليها وجود العديد من الأحداث الذين يشرف المكتب عليهم ومن ثم يقوم بدراستهم نفسيا الدكتور القوصي . وكان الدكتور يهتم تتبع حالة كل حدث قام بدراسته من الذين أرسلوا الى المؤسسة . وعلى الرغم من استقلال المؤسسة عن المكتب اداريا واستقلال المكتب عن المؤسسة اداريا فان حرص الدكتور القوصي على تتبع الحالات التي قام بدراسة أعضائها من الأحداث الذين أرسلوا الى المؤسسة كان حرصا شديدا . وكنت في ضوء اقتناعي بما كان يقوم به اقوم بتيسير مهمة الدكتور القوصي وكنت أقابله في « معهد التربية » : محل عمله ، او في منزله ، لهذا الغرض مرة او اكثر في كل اسبوع . انني كنت اؤمن بالعلم . وانا اذ اساعد الدكتور القوصي اسهم في تحقيق اجراء التجارب العلمية في محيط السلوك البشري غير السوي . وكنت افعل ما افعل من طوعية ولكن من وراء ظهر الاستاذ يعقوب فام المشرف على المؤسسة في ذلك الحين . كنت اعلم مدى ما تفعله « الغيرة المهنية » بين العلماء . وكان استاذي يعقوب فام عالما بما في ذلك من شك ، وكان استاذي الدكتور القوصي عالما بما في ذلك شك ايضا ، ولكن حدسي من حيث هذه الغيرة لم يجيء عبثا . كان الواحد منهما يمتاز بما حقق من امجاد . وكان الدكتور القوصي لانه كان يحمل درجة الدكتوراه حديثا ولانه كان مازال في المرحلة الاولى في العمل الميداني اكثر طموحا وما حققه كان اقل . ومع ذلك فانه في ضوء خبرتي كان اتصال الدكتور القوصي بأحد اخصائي المؤسسة يشير عند

الاستاذ يعقوب الفرع . فقد كان يرى رحمه الله ان المسالة مسألة مبدأ . فاذا كان الدكتور القوصى يريد شيئا فليدخل البيوت من ابوابها .

ومع ذلك فقد رشح لكل من البعثتين الزميل محمد محمد شلبى « وكان من الدفعة الاولى » والزميل محمود فهمى ( وكان من الدفعة الثانية ) . واذا كنتى اصبت بفصحة عندما علمت بهذا الترشيح ولم ابرأ منها الا عندما رشحنى المجلس البريطانى فى شهر فبراير عام ١٩٤٨ لاسافر الى المملكة المتحدة لدراسة نظم محاكمة الاحداث وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية . ووجدت نفسى بعد حوالى عشرة ايام اخوض البحر فى احدى السفن الانجليزية . ابهرت من ميناء بورسعيد الى ميناء « ليفربول » ، ومنها الى مدينة « لندن » . وعشت هذه الايام مع ضابطين طيارين مصريين واحد المهندسين واحدى الانسات من موظفى وزارة الشؤون الاجتماعية فى ذلك الحين . كنا خمسة اشخاص نجتمع على مائدة الافطار ومائدة الغداء ثم مائدة العشاء . لقد راى المسئولون عن التنظيم فى السفينة ان نفرد لنا نحن المصريين الخمسة مائدة واحدة نتقابل سويا عليها . ولعل هذا كما راوا ان يكون افضل فالعادات تكون بينهما بالضرورة متقاربة ، واللغة التى نتحدث بها واحدة ، وربما كانت افكارنا وموضوعات احاديثنا غير متباينة . ومن العجيب ان كل هذه التوقعات لم تصب كبسلة الحقيقة . فقد كان كما يقال : كل له غرض يسمى ليدركه . بانث ظاهرة « الفردية » واضحة ونحن مازلنا على المركب فى عرض البحر . ولم اكن اعجب كثيرا فقد علمتنى الحياة باننا بشر . وان الناس فيها يعيشون مذاهب . ولكن الذى فاجانى اننى وجدت ماكنت اتوقع

في سرعة مذهلة . فلم تحظ الأتسة التي شاركتني  
الرحلة باهتمام أحد الاهتمام الذي تنوقه أنثى مصرية  
من شبان مصريين . فعلى الرغم من ذكائها ورشاقة قدها  
واتقانها الفائق لتحسين وجهها « بالكيماج » ، فإن الشبان  
الأربعة لم يهتموا بها الاهتمام الذي تنوقه أنثى مصرية  
من شبان مصريين . ومع ذلك كانت تجتمع معهم ثلاث  
مرات على الأقل يوميا وربما أكثر من ذلك . وكانت  
تحدث مثل ما يتحدثون في مواضع لا يعرفون عنها  
شيئا . وكانت تحدثني أكثر مما تحدث الآخرين .  
فالشاركة في العمل يسرت الاستمرار في الحديث .  
وبدا لي أن هذه الأتسة لا هم لها إلا أن تتزوج . وكان  
كل الشبان الذين معها متزوجين قالت لي مرة أن سنها  
قد بلغت السابعة والعشرين وأنها أن لم تتزوج قبل سن  
الثلاثين ستنتحر . وقد فرغت جدا لما قالت ولكني لم  
أعلق على ما قالت بشيء .

كنت لأول مرة أركب سفينة كبيرة لها أدوار متعددة .  
وفيهما أناس من كل الجنسيات ، وقد أسعفتني لغتي في  
الحديث مع كل من يتحدث معي . فقد كنت طالبا بالمعهد  
البريطاني لتعلم اللغة الانجليزية منذ اللحظة التي تركت  
فيها المؤسسة أي منذ شهر يناير عام ١٩٤٤ . وقد  
امتحنت قبل السفر في امتحان « الدبلوم العام العالي  
في التربية » الذي تعقده جامعة لندن في كل عام « يمتحن  
في هذا الدبلوم على مرتين » ، وقد امتحنت في علوم  
المرحلة الأولى في أواخر عام ١٩٤٧ « وهانذا أنظر  
النتيجة » . وكانت الحرب قد انتهت ولكن رائحتها  
ما زالت تزكم الأنوف . وكانت الحرب في فلسطين على  
قدم وساق . وكنا نسمع عن الحكومات العربية وما يفرق  
بينها . كما كنا نسمع عن موقف الانجليز من القضية



الذى كانت تؤازره دول الغرب الاخرى . ولاول مرة كنا نسمع كلمة « لاجئين » وعندما كنا نقرأها فى الجرائد الانجليزية لم تكن نعلم معناها ، فكلمة

كانت كلمة جديدة على قاموسنا فى ذلك الحين . والواقع عندما اقول « كنا » فانا اقصد « كنت » فانا منذ دخولى ميدان الخدمة الاجتماعية اصبحت اهتماماتى كلها منصبة على الاصلاح الاجتماعى . وكنت ارى ان هذا قدرى . فالحاجة فى ضوء خبرات طفولتى وشبابى ومهنتى الى تغيير المجتمع المصرى فى ذلك الحين الى الافضل كانت ماسة . كنت ارد ان السياسة لا يمكن ان تكون خطبا ومظاهرات او تكسير الترام والفوانيس فقط . ان السياسة لابد ان تكون معرفة الواقع الحى ، معرفة ما هو كائن ، موضوعيا ، لكى نغيره الى مايجب ان يكون او الى مايمكن ان يكون . اعتبرت ان عمل الاجتماعى فى ذلك الحين قدرى . واننى فى حقيقة الامر اعمل بالسياسة . فالسياسة يجب ان تكون كما كنت اقول فى ذلك الوقت محو الامية والقضاء على الفقر ومكافحة الامراض بكل انواعها جسمية كانت او نفسية او عقلية . كنت بعيدا عن السياسة بالمعنى الذى كنت افقهه قبل ان اقتحم العمل الاجتماعى ولكنى لم اكن اسخر من الذين يعملون بصدق فى السياسة . كنت كلما تذكرت الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد ومن قبلهما عرابى وعبد الله النديم كان تذكرى هذا يشجعنى وكنت كلما اتذكر هؤلاء الزعماء وغيرهم اتذكر ابنى وهو يجلس مع اصدقائه الوطنيين عندما كانوا يتحدثون حديث السياسة ويذكرون مدى التضحيات التى بذلها الزعماء عن طواعية فى سبيل مصرنا الخالدة . وفى ميناء ليفربول وقفت السفينة ونودى على اسمين

كان اسمى بينهما ، أما الاسم الثانى فقد كان اسم الأنسة التى كانت ترافقنا . وطلب منا ان ننزل الى المدينة حيث توجد حفلة اجتماعية مقامة بقصد جمع التبرعات للعجز والمعجزة فى المدينة . ولما كنا « الأنسة المرافقة وأنا معها » مهتمين بالعمل الاجتماعى فقد دعينا لنحضر هذه الحفلة ثم نبيت فى المدينة ومنها نذهب الى مدينة لندن فى صبيحة اليوم التالى .

وهاندا فى مدينة لندن . كان ذلك فى منتصف شهر فبراير عام ١٩٤٨ . وهاندا أبلغ سن الخامسة والثلاثين من عمرى . فترة طويلة مرت حتى تحقق الحلم . مدينة واسعة مزدحمة . الناس فيها غير الناس الذين أعرفهم . وبدأ لى بل تحقق أن العلاقات الاجتماعية مختلفة عما كنت أعرف وأمارس . كنا فى السفينة ولأول مرة فى حياتى تأكل على المائدة بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذى كنت أمارسه فى بيتى فى القاهرة . كانت أمامى ملاعق وشوك وسكاكين مختلفة الأحجام والأغراض . فهذه ملعقة « الشوربا » وتلك ملعقة « الحلو » وهذه « شوكة لا تستعمل إلا اذا كان الطعام سمكا » وهذه سكين يمكن أن تستعمل لقطع اللحوم ، وهناك سكين لا تستعمل إلا اذا كنت تأكل فاكهة معينة . ولكن هناك نوعا ثالثا لا يستعمل إلا اذا كان الشخص منا يأكل سمكا أيضا ، فأكلة السمك لها شوكة خاصة كما أن لها سكين خاصة كذلك . لقد كنت أعلم بعض هذه الأشياء منذ أن كنت تلميذا بالمدرسة الابتدائية . وعندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية . ولكن هذا الزمن كان قد ولى ، وأصبحت أكل كما كانت أمى وزوجتى تأكلان ، وكما كان أعضاء أسرتى الآخرون وحتى أصدقائى يأكلون . وعندما ذهبنا « الأنسة المرافقة وأنا معها » الى الفندق ، وجسديا

أوصافاً أخرى مختلفة . وكان أهم ما لفت الانتظار الطقس البارد والثلج الذي بدأ ينهر فتحن في شهر فبراير . ولم أكن قد رأيت الثلج من قبل عياناً بيانا إلا في أفلام السينما ، وهانذا أواجهه وجها لوجه . ونحن لم نختر الفندق الذي وصلنا إليه ، بل اختاره لنا ، مسبقاً كما تأكد لنا بعد ذلك ، مندوب المجلس البريطاني الذي استقبلنا على محطة لندن . فكان وجود هذا المندوب رحمة أكرمتنا الله بها ولبسنا مر على نفوسنا التي كان يملؤها مزيج من القلق والحيرة من المجهول فبدد كل ذلك بسحر لقائه غير المتوقع . وعرفت غرقتي في الفندق كما عرفت الأنسة المرافقة غرقتها ، وكان الوقت موعداً مناسباً لتناول طعام الغداء ، فجلسنا على مائدة واحدة . وحرصت على أن اصحب الأنسة المرافقة على المائدة في مواعيد الوجبات الثلاث . وظن البعض أننا زوج وزوجة . فقد كنت ترى إحدى الانجليزيات تقتحم جلستنا على المائدة فتتحدث مع الأنسة المرافقة حديثاً عابراً وفي خلال هذا الحديث تحاول أن تشبع فضولها بالسؤال عما إذا كنا زوجين ، ولم يكن يهمها في قليل أو في كثير مضمون الإجابة عن هذا السؤال الفضولي . كنا شابين وكان من المحتمل أن تكون هذه الأنسة زوجتي وأن أكون أنا زوجها لولا أننا لم تكن كذلك . وكنا نجلس في إحدى حجرات الفندق لقراءة الجرائد أو للتحدث أو التعليق على ما كنا نرى من ظواهر وعلاقات اجتماعية وأنماط السلوك . ولم تكن في الفندق الوحيديين . كان معنا العديد من الناس . كان بعضهم من أهل البلاد وكان بعضهم أجانب مثلنا . وكانت المملكة المتحدة قد خرجت من الحرب مشحنة بالجراح . وكنا نرى آثار ذلك في الطعام وفي الشراب



ولمى الملابس ولمى الشوارع بحيث البيوت المهذمة - وكان انقطاع التيار الكهربائي يحدث أكثر من مرة فى اليوم . ولكن الناس كانوا يعلمون سلفا الوقت الذى سينقطع فيه التيار ، وبدأت احس بقيمة الانسان فى هذا المجتمع تجسدت امامى صورة هدية من المواطنة . قانا اذكر « نحميس » الموظف فى المعهد البريطانى بالقاهرة الذى لما ان علم بسفرى الى لندن حتى ارسل على منسوان منزلى « بطانية » من الصوف اعطيتها لاخته التى تعيش وتعمل فى لندن . والملاحظ ان هذا النحميس على الرغم من انه يهودى ، وهذا فى احد ذاته فى ضوء قيمى فى ذلك الحين وحتى الان لا غبار عليه ، كان موظفا متعسفا يتلذذ فعلا وواقعا بعذاب الآخرين والاشتراك فى تعذيبهم سواء كانوا طلبة او موظفين يعملون تحت امرته . كان موضع ثقة المسئولين عن المعهد من الانجليز المسيحيين او اليهود فان علم ذلك عند ربى . وانا اذكر ايضا « مس ديفونشير » احدى الذين اسهموا فى انشاء الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وكانت تعيش فى مصر ، انها عندما علمت بسفرى الى لندن طلبت منى ان آخذ معى « بلوفر » من الصوف لكى اعطيه لاحدى السيدات اللاتى يعشن فى لندن ، وارسلت معه خطابا موجهها الى فيه عنوان المرسل اليها ومرفق به ورقة بخمسين قرشا مصريا كمصاريف يريد اذا اردت ان ارسله بالبريد . ولعل من اهم مظاهر المواطنة ماقام به مندوب « المجلس البريطانى » من اجراءات تتعلق بالاجانب الوافدين الى المملكة المتحدة ، وكان اهمها فى ذلك الحين الدفتر الذى عن طريق « كوبونات » يصرف الشخص منا نصيبه الاسبوعى من الوان الاطعمة مثل .

اللحم والجبن والسكر والبيض والفاكهة « كان لا يباع الموز إلا لمن هم في سن الثامنة عشرة فأقل » وكل أنواع الحلوى وبخاصة « الشيكولاته » والملابس « كان لا يمكن شراء منديل إلا إذا دفع المشتري ثمنه مع عدد معين من الكوبونات » .. الخ . ولا يمكن ان انسى ابدا عندما احسست ذات مرة بالجوع ورايت ان اشترى قطعة من الشيكولاتة لأسكت بها صراخ معدنى . وذهبت الى المحل الذى يبيع الحلويات ومنها الشيكولاتة فوجدت « طابورا » وقفت فى آخره وجاء الذى بعدى فوقف من ورائى حتى وجدتني وجها لوجه امام البائع فطلبت قطعة معينة من الشيكولاتة وسألت عن الثمن فذكره وقال وبالإضافة الى النقود تعطينى وذكر عبارة سمعتها « رشن كوبنز » — Russian Coins

وترجمتها عندى « نقود روسية » . فقلت والطابور من ورائى يطول « اننى هنا فى لندن ولست فى موسكو فكيف احصل على نقود روسية ؟ » وفطن الرجل الى ما أنا فيه من حرج لولا ان اخرج الشخص الذى كان من ورائى دفتره الخاص بشراء الحلوى واعطى البائع ما طلب من كوبونات . ان البائع لم يطلب منى نقودا روسية ، فهو لم يذكر العبارة التى اعتقدت اننى سمعتها ، انه ذكر عبارة — Ration Points والذى تعضل

الشخص الذى كان يقف خلفى فى الطابور وتطوع باعطائها للبائع حتى احصل على بفتى . ولولا ذلك ماكنت احصل عليها . فالكمل فى هذا المجال سواء والا فالقانون يقف للمخالف بالمرصاد . وانا لا اعنى هنا ان مواطنى المملكة المتحدة ملائكة . فقد رايت من بعضهم ما يؤكد صورا عديدة من التعصب العنصرى والتعصب الثقافى . ولكنهم كانوا يفعلون مايفعلون بأساليب غير مفضوحة ،

فيكفى ان عينى سوداوان ولم تكونا زرقاوين لاعامل معاملة  
غير منصفة . وسائق « التاكسى » اذا طلبت منه الذهاب  
الى السفارة المصرية مثلا يعاملنى معاملة فظة ويضرب  
اصرارا على طلب « البقشيش » الذى يوافق عليه . اما  
اذا كان ذهابى الى المجلس البريطانى فالمعاملة تبدو معاملة  
كريمة واذا اعطيته « بقشيشا » يأخذ ما اعطيته دون  
ان ينبس ببنت شفة . كنا نحن المصريين نعلم ذلك . وكنا  
نحن المصريين نتحمل ذلك من أجل ان نحصل على ما نريد  
انظر الى بائعة الفاكهة وانا اشترى منها فى ذلك الحين  
« والحرب مازالت راثحتها تزكم الانوف » وادفع ثمن  
ما اشترى تنسى « لانها تجهل » ان النقود التى ادفعها  
هى نقود امتصها الانجليز المستعمرون من دماء الشعب  
المصرى الذى يكاد ليحرق من ارض مصر مزرعة للقطن  
الذى تغزله وتنسجه مصانع « لانكشير » . انظر الى  
هذه البائعة وهى تزجر فى وجهى قائلة « انتم الاجانب  
تأتون الينا وتأكلون اقواتنا » . انها لا ترفض البيع لى  
ولكنها بقولها لى ذلك تجد حلقى مرا . انظر ايضا وانا  
الحريص على ان اكون فى الوقت الذى حدده لى أحد  
المسؤولين فى المجلس البريطانى لمقابلته ، فذهبت مبكرا  
حوالى الساعة . وعندما مررت فى الشارع وجدت  
سينما لا تعرض الا الاخبار . فقلت ادخل هذه السينما  
لارى الاخبار حتى يحين موعدى . وكان من ضمن  
الاخبار « الامير عبد الله » امير الاردن فى ذلك الحين  
وهو يصلى فى المسجد الحرام . وعندما كبر للصلاة  
« وكان هو الامام » سمعت همهمات انسانية تملأ القاعة  
المزدحمة ، ولما ركع صارت الهمهمات ضحكات ، وانقلبت  
الضحكات صيحات ساخرة عندما سجد . وانتهت الصلاة  
وانتهى العرض . وخرجت ساخطا متعجبا مفكرا . كان



ماحدث وانا فى قاعة السينما مفاجأة لى لم اكن اتوقعها من شعب متحضر . اننى كثيرا ماذهبت الى الكنيسة فى القاهرة ، وكنت اجلس جادا واشاهد ما اشاهد وانا فى رهبة . كنت ، ومازلت ، لا افرق بين دخول مسجد من المساجد او كنيسة من الكنائس . انها اماكن لها سمات خاصة وتعيش فى ظل مناخ ثقافى يدعو الى التأمل والتفكير الجاد . اما مارأيت فى قاعة « سينما ستوديو واحد » اى القاعة التى عشت فيها اول تجربة لى عندما كان الامير عبد الله يصلى فى المسجد الحرام فقد كان امسرا غير متوقع . وقد دعانى هذا الامر الى التفكير كثيرا . ولم اصل الا الى اننى ذكرت انه اذا كانت النيات حسنة فالثقافة التى يعيش فى ظلها المواطنون فى المملكة المتحدة متباينة . هم يقدسون امورا قد لا تقدسها ، ونحن نقدر امورا قد لا يقدسونها . ولكننى فى ضوء خبراتى الماضية وحتى ذلك الحين وبعد ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور اجدنى اقرر ان النيات لا تكون حسنة على الدوام وان المصالح ، مصالح الناس ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، اى ان كل او معظم مايصدر عنا من انماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك . — Hull —

وكنت جالسا بعد الغداء مع الانسة المرافقة عندما جاء مندوب المجلس البريطانى الذى ابلغنا بان البرنامج قد اعد . فكل الدارسين سيذهبون الى ميناء « هل » غدا ، وكنا فى الاسبوع الرابع من شهر فبراير . وبعد قضاء اربعة اسابيع سيوزع الاعضاء الى مواقع عمل كل فيما يخصه . وعرفت لأول مرة اننا لسنا وحدنا بل سيكون معنا دارسون آخرون . ولما كان تخصصى وهو « دراسة نظم محاكمة الاحداث

وأساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية » ، فان هذا يعنى ان اتصالى بالآنسة المرافقة لن يدوم . وقد كان ذلك لى املا ، كنت ادعو الله وانا ساجد ان يتحقق . فقد تركت أمى وزوجتى واحمد وسمير وتيسير « التى شرفتنا فى يوم ٢٣ من شهر ابريل عام ١٩٤١ » ومسعد « الذى شرفنا فى يوم ١١ من شهر ابريل عام ١٩٤٣ » . وهم الاعزاء الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم وكسانوا يعيشون معى . كانوا قطعة منى وكنت قطعة منهم . لا ارى سيدة عجوز الا وذكرت أمى ، ولا ارى شابة فى الثلاثين او اكثر بقليل الا وذكرت زوجتى . واطفالى احمد الذى أصبح الآن فى سن الخامسة عشرة وآمال التى أصبح سنها احدى عشرة سنة وسمير الذى بلغ من العمر تسع سنوات ، وتيسير التى أصبحت فى سن السابعة من عمرها ومسعد الذى لم يعد الخامسة من عمره . انهم اجزاء من حياتى التى عشتها ولولا ان حرمنى جدى من اكمال التعليم وانا فى السنة الرابعة الثانوية فى مدرسة الخديوية الثانوية محذرا ، ولولا امل أبى الذى كنت فى صدق ابغى ان احققه ، ولولا شغفى بالعلم الذى كان يزداد يوما بعد يوم — ما تركت هؤلاء الاعزاء ، الذين كنت اعيش ، مازلت ، معهم ، وكانوا يعيشون معى . كنت فى القرية ولكن مشاعرى نحو هؤلاء الاعزاء كانت تجعلنى لا احس مرارتها . وكان لى من تدينى الدفين وجاء يحمينى من النزوات ومن التفكير فيها . ركبنا القطار الى ميناء « هل » وكان المناخ عاصفا . والثلج من السماء ينزل غزيرا غزيرا . ويبدو أن الدارسين كانوا يركبون نفس القطار . ولكنى لم اكن اعرف احدا منهم سوى الآنسة التى كانت ترافقنى . وما ان وصلنا الى الميناء حتى وجدنا مديدا من الاشخاص سييدات

ورجال واقفين ينتظرون . واذا بهم بعد أن علموا من نحن « أقصد الدارسين جميعا » يرحبون بالجميع . كان البرد قاسيا وادخلنا في مبنى فيه قاعة في أحد أركانها مدفأة فاذا بنا تلف حولها وكأننا « كناكيت » تلف حول « دجاجة » تلمس الدفء من جسدها . كنا عشرين شخصا من بلاد متعددة . كان بعضنا من فرنسا ومن بلجيكا ومن ايطاليا ، وكان البعض الآخر من ألمانيا الغربية ومن الدانيمارك ومن اليونان فضلا عن زميلتي وأنا . وجلسنا على موائد كان يجلس عليها الذين استقبلونا . كان ممن يجلسون نساء ورجال أو نساء فقط . وطلب منا أن يجلس كل واحد منا على إحدى الموائد . وكان عدد الموائد عشرين . فجلست على واحدة منها ، وجلس كل دارس على مائدة أيضا . وعرفنا أن الجالسات والجالسين على الموائد كانوا كلهم من أهل الميناء ، وكانوا على وقرة من الرزق لكني يستضيفونا . وكان نصيبي أن اذهب مع السيدة التي كنت اجلس معها على المائدة التي لم اختر الجلوس عليها ولكنني جلست لمجرد وجود كرسي خال أمامها . ذهبت مع السيدة ضيفا على اسرتها كما ذهب زميلاتي وزملاتي ضيوفا على أسر من استضافوهم . وكانت فرصة مزدوجة لكل من الضيوف والمضيفين . كنا نحمل ثقافات متعددة . وكانت الفرصة مواتية لكي نتبادل عناصر ثقافة كل واحد منا . وعرفنا نحن الدارسين البرنامج الدراسي الذي سنتبعه ونحن في ميناء هل . كان يتضمن دراسة نظم الخدمة الاجتماعية في هذا الميناء . وكان برنامجا حافلا على الرغم من أنه كانت تتخلله فترات تناول الطعام الجماعي وبعض الحفلات التي كانت تقام على شرفنا . وأثنى اذكر أنه بعد مرور اسبوع ونحن في الميناء اذا بالزميل جمال نصوحي



والزميل احمد كمال ينضممان اليها . وقد وجدنا في  
التو بأسرتين استضافتهما واستكملا معنا البرنامج  
الذي استغرق اربعة اسابيع . وجدت في خلالها  
حياة الطبقة الانجليزية ذات المستوى المادى الرفيع كيف  
تعيش . وكنت حريصا وانا اعيش في الاسرة التي قدر  
لى ان اعيش مع اعضائها على ان الالحظ ما يبدو لى من  
علاقات اسرية بين الزوج والزوجة وبين الام والابنة  
« وحيدة الاسرة » وبين الاب والابنة ، وبين الجميع  
والخدم والحشم الذين يحيطون بهم . كانت اسرة فيها  
النعم المادى واضحا جدا ، ولكنها كانت بيئة لم اطق  
ان اعيش فيها الا لى الالحظ وادرس واتعلم . كنا  
نتحدث احيانا فى العلوم الاجتماعية التى كنت ألم بها ،  
وكان صاحب البيت « الزوج » مهتما بالسياسة وبالعلاقة  
مصر بانجلترا وما يجب ان تكون ، وكانت صاحبة البيت  
« الزوجة » ، وكانت تبدو فى الخمسين من عمرها ،  
تهتم اهتماما بالغا بزينتها وبموعد طبيب الاسنان  
وبالذهاب الى « الحمام التركى » الذى يوجد فى ميناء  
« هل » . اما ابنة الاسرة الوحيدة فقد كانت شابة فى  
العشرين من عمرها وربما اكثر من ذلك ، وكانت قد  
تخرجت فى مدرستها رفيعة المستوى ، المدرسة التى  
يذهب اليها من كانوا من طبقتها ، *Public School* —  
وقد بدا لى انها متوقعة ان تتاهل فى القريب العاجل ،  
وان خطيبها فى رحلة عمل وينتظر ان يعود قريبا . ولما  
عرفت هذه الاسرة اننى *Egyptian* — ظنوا اننى  
*Gypsy* — وشتان بين مضمون كل اسم . فاعضاء  
الاسرة على الرغم من الثراء فى المال وفى « الثقافة »  
لم يستطيعوا ان يفرقوا بين معنى الاسم الاول وهو

« مصرى » وبين معنى الاسم الثانى وهو « فجرى » .  
أى شخص يستطيع أن يقرأ « الطالع » مثلا . ولما كنت  
أعرف قليلا فى « قراءة الكف » تركت أعضاء الأسرة  
وبخاصة الزوجة والأبنة والزوج يثقون فى هذه المعرفة  
على الرغم من تأكيدى لهم جميعا ثقتى فى عبارة « كذب  
المنجّمون ولو صدقوا » . وجاءنى الجيران وبخاصة النساء  
من كل مكان لأقرأ لهن « الكف » . وأصبحت سمعتى  
فى هذا المضمار فى محيط الأسرة التى أعيش معها  
وجيرانها سمعة عالية لم اتخلص منها إلا عندما أتم  
الدارسون وأنا منهم « برنامج دراسة نظم الخدمة  
الاجتماعية فى ميناء هل » .

ومن ميناء هل ذهبنا الى لندن وعشت فى نفس  
الفندق الذى كنت أعيش فيه قبل أن أتركه للذهاب الى  
ميناء هل . لم أعد الى الفندق وحدى ولكنى كنت فى  
صحبة الزميلة المرافقة والزميلين جمال نصوحى وأحمد  
كمال . وبتنا ليلتنا كل فى حجرتة ، وفى الصباح وجدنا  
الزميل صالح الشيكشى جالسا فى احدى غرف  
الاستراحة فى الفندق . وكانت فرصة رائعة أن نعيش  
فى بلد اجنبى وكأننا كنا نعيش فى بلدنا . ومالبثنا أن  
تفرق الجمع . ذهب كل واحد منا الى الموقع الذى  
سيتدرب فيه . ولما كان اهتمامى هو دراسة نظام المراقبة  
الاجتماعية بالمحاكم فقد اخترت لى أن أذهب الى « وولتش »  
حيث يقع مكتب للمراقبة الاجتماعية بالمحاكم فيها .  
ونصحنى المجلس البريطانى أن انتقل الى احدى الاسر  
النى تقع بالقرب من هذا المكتب . وذهبت فعلا الى  
أسرة « مستر بريموكوم » ، حيث وجدت زوجته وابنه  
خطيبة ابنه وبعض الدارسات والدارسين ممن يتحدثون  
اللغة الفرنسية اما لانهم فرنسيون او جاءوا من بلاد

بتحدث أهلها اللغة الفرنسية . وقد جاءوا الى اسرة  
مستر بريموكوم لكي يتدربوا على التحدث بالفرنسية  
الانجليزية . اى ان هذه الاسرة كانت ، وربما مازالت ،  
مدرسة لتعليم الحديث باللغة الانجليزية عن طريق  
الممارسة ، وبخاصة وان ربة الاسرة « مسز بريموكوم »  
كانت فرنسية الاصل . ومهما يكن من الامر فان هذه  
الوظيفة لم تكن لتهمنى فى شيء . فقد جئت الى الاسرة  
لكى ابيت واتناول وجبات الطعام لقربها من المكتب الذى  
وقع الاختيار عليه لاتدرب فيه على نظام المراقبة الاجتماعية  
بالمحاكم . وقد وجدت بمرور الزمن ان عددا من النزلاء  
كانوا فى الاسرة من اجل نفس الغرض اى لمجرد المبيت  
وتناول وجبات الطعام فحسب . وبقيت فى موقعى ادرس  
واتدرب . ادرس الحياة واتدرب فى مكتب المراقبة  
الاجتماعية بالمحاكم . وكانت خبرتى تسمح لى بالمقارنة  
الموضوعية بين ما كنت اعمل فى مكتب القاهرة  
وما اراه فى مكتب وولتشن . ومرت الايام سراعا وابلغت  
بموعد الانتهاء من التدريب فى هذا الموقع على ان اكون فى  
ميناء « كارديف » « ويلز » فى الاسبوع الاول من شهر  
مايو عام ١٩٤٨ . لاتدرب فى مكتب المراقبة الاجتماعية  
بمحاكم كارديف لفترة شهرين ونصف تقريبا اكون بعدها  
فى لندن فى منتصف شهر يوليو حيث انضم دارسا مع  
بعض المراقبات الاجتماعيات والمراقبين الاجتماعيين  
الذين يعملون او سيعملون فى مكاتب المراقبة الاجتماعية  
فى انجلترا او ويلز . وكما كنت الشخص الوحيد  
المدرّب فى مكتب وولتشن أصبحت فى كارديف الشخص  
الوحيد أيضا . واذا كانت وولتشن احدى ضواحي لندن  
حيث يقع بالقرب منها خط « جرينتش » المشهور فان  
كارديف عاصمة مقاطعة ويلز . وهى فى حقيقة الامر ميناء



كبير نشاطاته التجارية يعرفها القاصي والداني .  
 نشئت في « ريشموند هارس » وهم بيت تدبره صحبته  
 « مسر برينر » لتساءل زوجينا انني يعمل في أحد  
 المصانع في بلد قريب لمواجبة الجباه والصرف على تربية  
 ابنتهما الوحيد الذي يدرس في إحدى الكليات . عشت  
 في هذا البيت لفترة شهرين ونصف شهر تقريبا .  
 جئت في الأسبوع الأول من مايو وكنت وحدي وتركته  
 إلى القطار في منتصف شهر يونيو وكان معي مسر  
 برينر وزوجها وابنتها مودلين . وعلى الرغم من انني  
 كنت مسند غرقا في دراستي الاجتماعية فقد كانت الامور  
 السياسية تجتذبني . فانا اقرأ الجريدة فأقرأ ضمن  
 ما اقرء . وكان يحدث في فلسطين قبل شهر مايو عام  
 ١٩٤٨ وما حدث في اثناء هذا الشهر . وكنت احاول  
 ان اتخيل ما سيحدث بعد ذلك في فلسطين التي أصبحت  
 « اسرائيل » . ومع ذلك فان التفكير السياسي عندي  
 لم يكن ذا بال لانه لم يكن عميقا . وكنت ارى في ذلك  
 الحين ان مهنة الخدمة الاجتماعية في محيط الاحداث  
 الجانحين هي قدرى . ولكن رايتني اذ اترك القراءة في  
 السياسة اعود فأقرأها . وبدأت اطالع صحف « التيمز »  
 و « الديلي اكسبرس » و « الديلي ميل » فضلا عن  
 « الديلي وركر » . وكنت أجد الاعلانات عن الكتب في  
 الجريدة الأخيرة وأمنى نفسي شرائها في يوم من الأيام .  
 وكنت أجد الاعلانات عن المحاضرات وموضوعاتها التي  
 كانت تجتذبني واثرت فيما بيني وبين نفسي انني عند  
 عودتي إلى لندن سأحضرها . انني كنت أحضر الصلاة  
 في الكنائس واسمع المواظ فيها وفي الاذاعة ، وانا  
 المسلم الذي ما زلت أؤمن بأن الدين هو المعاملة ، فما  
 على لو ذهبت إلى محاضرة من المحاضرات او كسل

المحاضرات التي تنشر عنها وتعالى عن موضوعاتها  
ومواعيدها صحيفة الديلي وركر ؟ اننى اريد ان اتهم .  
الم يكن هتافى مع آخرين وانا في التهمة امام مكتب  
وزير المعارف العمومية في التفتة الاول من الثلاثينات ،  
بأعلى صوت ، « نريد ان نتعلم » ؟ وهاءى ذا العلم يرحب  
بى افلا ارحب به ايضا ؟ الم اسمع حديث الرسول صلى  
الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو في الصين » ؟ ان  
الدراسات السياسية مازالت بعيدة على الرشى من اشواقى  
اليها . ولكن عام ١٩٤٨ ، شهر مايو . وانا في الغربية ،  
عام التقسيم وملبعة « دير يسن » وقيام دولة اسرائيل  
قد زاد من هذه الاشواق الى الدرجة التي جعلتنى اشهر  
بالذنب لتقاعسى عن محاولة فهم مايدور حولى فى دائرتى  
الضيقة وفى بلدى وفى العالم اجمع ، ان هذا العام قد  
فعل فى نفسى الكثير والعظيم ولعله ان يفعل الاكثر والاعظم .  
وسرعان ما تذكرت ماكان يحدث من نقاش بين تلاميذ  
اسرة البريموكوم . كان من بينهم وطنيان من فيتنام ،  
وكانا يتحدثان كثيرا عن « هوشى منه » : تعاليمه واهدافه  
نحو تحرير وطنه من المستعمر الفرنسى « القسربى »  
والاساليب التي يتبعها فى سبيل تحقيق هذا المارب .  
كانا بذكران لى ، وقد علما اننى مصرى وان مصر مازالت  
تحت نير الاستعمار الانجليزى ، فى السرى لافى العلانية  
كل ذلك ، وكانا يضيفان نبذات عن تاريخ حياة « هوشى  
منه » . وكان كل ماسمعه منهما جديدا على : اجتذب  
انتباه افكارى . وعلمت ان ضروب المعرفة الوان شتى .  
وان القضايا الانسانية متعددة . وان النظر الى كل  
قضية قد يحتمل اكثر من رأى ومن اتجاه ومن هدف .  
وعلى الرغم من اهتمامى الشديد بكل الامور المتعلقة  
بتدريسي وانا فى كارديف ، فانى تركت جانبا للتفكير

فى الامور الاخرى . وعزوت عزوفى عن عدم الاهتمام الكافى بالامور السياسية وانا الذى نشأت فى حضن افكار مصطفى كامل ومحمد فريد ومن قبلهما عبد الله النديم الى عدم الوعى الكافى عندى . اننى لم افرق فى ذلك الحين بين مفهوم « المصلح الاجتماعى » ومفهوم « المصلح السياسى » ومفهوم « الفكر » . وكنت افرق بين المصلح الاجتماعى والمصلح السياسى مع العلم بان اهداف كل واحد منهما تكون أو لا بد ان تكون واحدة . كنت افرق بين الدورين . ولم اكن اعلم شيئا عن مفهوم الفكر ودوره . وقد حدثت فى ذلك الحين ، وكأنت سنى قد زادت على الخامسة والثلاثين ، ان مفهوم الفكر غير مفهوم المصلح سواء كان هذا المصلح اجتماعيا أو سياسيا . وان دور الفكر لا يمكن ان يكون سوى ان يرشد المصلح ، انه لا يصلح ولكن يرشد المصلحين وينشر الوعى بين القادرين على استيعاب هذا الوعى . وتساءلت فى صدق وفى روية « ما هو قدرى » ؟ ولم أستطع الاجابة عن هذا السؤال فى ذلك الحين . ولكنى اكدت لنفسى اننى ما زلت ، على الرغم من اننى كنت قد تصورت اننى بدأت فعلا ، فى البداية . وامامى ماوسعنى الزمن مصدران من المعرفة الانسانية المنتظمة منها وغير المنتظمة وهما الدراسات الاكاديمية ودراسات المجتمعات الانسانية : دوائر المعارف الحية التى احيا بين أعضائها من الناس سواء أكانوا افرادا ام كانوا جماعات . وتذكرت فى حسرة اننى حتى الان لا اعرف الا القليل القليل عن تاريخ مصرنا الخالدة منذ عصر ما قبل التاريخ وحتى الآن اننى لا اعرف عن المجتمع المصرى المعاصر شيئا هاما ، ولا اعرف عن ثقافته ومصادرها سواء أكانت فرعونية ام فارسية ام يونانية ام رومانية ام مسيحية ام عربية



اسلامية ام ملوكية ام تركية ام عربية الا الشكرات .  
فاذا كنت اريد ان ابدأ فمن هنا يجب ان ابدأ .

وفي منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ عدت الى لندن  
لاكون ضمن جماعة من الدارسات والدارسين البريطانيين  
لتلقى دراسات اكاديمية عن موضوع التخصص الا وهو  
نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم . وانا لا اذكر امورا  
كثيرة عن ميناء كارديف . ومن الامور التي اذكرها انني  
كنت احذر من الذهاب الى حي بعينه بعد الساعة  
السادسة مساء . وكنت لا اذهب الى هذا الحي بعد  
السادسة مساء ، ولكني كنت ، حبا في الاستطلاع ،  
اذهب الى هذا الحي نهارا جهارا . وكنت سائرا ذات  
يوم متجهما نحو البحر فاذا بشباب يتحدث من  
ورائي بصوت عال قائلا باللغة العربية : « والله العظيم  
الجدع ده مصرى » ، وقد لفتت سمعي كلماته فالتفت  
اليه فاذا به يضحك جولا مسرورا . كان مصريا من ميناء  
« بورسعيد » قدفته امواج المقادير الى ميناء كارديف  
حيث اقام وتزوج وانجب ، ولكنه مازال في صميم كيانه  
مصريا . وكانت لحظة انسانية اذكرها على الدوام .  
ياذكر ايضا اقامتى مع أسرة بوينر . فقد كانت اقامة  
طيبة . اعتبرت واحدا منهم . وفي فترات العطلات  
الرسمية عدا عطلات الاسبوع كنت ارافق اعضاء الاسرة  
في رحلاتهم القصيرة التي يختلسونها من الزمن ترويحاً  
عن النفس او اداء لواجب من الواجبات . ومن هذه  
الواجبات زيارة ام مستر بوينر التي كانت تعيش بسبب  
كبر سنها في « دار ضيافة » للمسنين والمسنات .  
وذهبت مع اعضاء الاسرة لزيارة الام ظانا انها تعيش في  
بيت عادى . ولما وجدتها مع غيرها تعيش في دار ضيافة  
اهتز جهاز قيمي . انها تعيش حياة سعيدة مافي ذلك

من شك ، حياة مشتركة في مكان جميل نظيف هادئ  
يشع المشاعر الانسانية التي تصدر عن قلوب صافية  
قلوب الممرضات والمشرفات والاطباء وغير هؤلاء من  
العاملين . وكانت السيدة العجوز في غرفتها عندما وصلنا  
الى الدار ، واستقبلنا ابنها وزوجته وحبيدها ثم انا .  
وما ان علمت باننى مصرى تهلت اسارير وجهها الذى  
تماؤه الفضون وقالت « مصر » انها ذكرت فى « الكتاب  
المقدس » . وكانت معلومة جديدة على لم اكن اعرفها من  
قبل اليوم . وجلسنا فترة من الوقت ، وعندما آن وقت  
الرحيل رحلنا ، واذا بى اذكر امى وانا اسأل نفسى ماذا  
يكون الامر اذا ما فعلت لامى ما فعله مستر بوينر لامه ؟  
وردت على ذلك توا وكأننى اتحدث « مستحيل ..  
مستحيل » .

كان الدارسون من النوعين ، وكان معظمهم من  
البريطانيين ، ولم اكن الاجنبى الوحيد بينهم بل كانت  
معنا آنسة من الملايو . كانوا يعيشون ويتعلمون  
ويتدربون فى مكان مخصص لذلك فيما عداى والمواطنة  
الوافدة من الملايو . ان الدارسات والدارسين البريطانيين  
سيعملون معا فى نفس الميدان كل فى موقعه . وارىد  
بحياتهم المشتركة ان يكون التعارف بينهم على اسس  
وطيدة . فالعمل فى ميدان الاحداث الجانحين وبخاصة  
فى مجال تطبيق نظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم يحتاج  
الى التعاون بين العاملين فى هذا الميدان ، حتى ولو  
كانت مواقع العمل متباعدة . فالذى يعمل فى لندن قد  
يحتاج لمن يعمل فى كارديف والعكس صحيح . ان الاحداث  
هم ابناء الوطن ورعايتهم انى وجدوا مسألة لايشك فيها  
احد من الدارسات والدارسين .  
واذا كانت الحياة فى ميناء هل بالنسبة لمن حضروا

البرنامج الدراسى لنظم الخدمة الاجتماعية فى هذا المبنى  
وأنا منهم حياة محددة ، فان الحياة فى وولتش وفى  
كارديف ثم فى لندن كانت بالنسبة لظروفى أكثر حرية .  
كنت ذهب وأروح فى غير أوقات العمل الرسمية كيفما  
أشاء . وعندما كنت فى لندن فى المرة الأخيرة أى فى  
خلال الفترة من منتصف شهر يوليو عام ١٩٤٨ حتى  
نهاية شهر أغسطس عام ١٩٤٨ ، كانت نشاطاتى  
الحرية وكأنما بلا حدود ففضلا عن ذهابى الى المحاكم  
بدرجاتها ومستوياتها « محاكم الاحداث ومحكمة أولديلى  
المشهورة مثلا » والى مؤسسات الاحداث ودور الضيافة  
التي بودع فيها الشبان وغيرها ، ذهبت أيضا الى  
البرلمان البريطانى وحضرت إحدى الجلسات ، وذهبت  
الى المتحف البريطانى ورأيت المكان المخصص للآثار  
المصرية وتفقدتها فى حسرة وكأننى غريب عنها . وذهبت  
الى مكتبة لندن ورأيت المكان الذى كان يجلس فيه « كارل  
ماركس » يقرأ ليكتب ويكتب ليقرا دون انقطاع . ولم  
أترك يوم أحد الا وذهبت الى « هايد بارك » . واتيحت  
لى الفرصة لاشتري الكتب التى أرغب فى شرائها .  
وحضرت المحاضرات التى كانت جريدة الديلى وركر  
تعلن عنها ، وزرت كنائس لندن وسمعت المواظ . وكان  
ينبوع المعرفة متدفقا فشربت وشربت ولكنى لم أرتو .  
ومهما يكن من الامر فان دراستى فى المملكة المتحدة فى  
خلال الفترة فبراير - سبتمبر ١٩٤٨ للدراسة نظم  
محاكمة الاحداث واساليب علاجهم دراسة نظرية وعملية  
كانت أول دراسة علمية وعملية لى فى الخارج . وكانت  
اتاحة الفرصة لهذه الدراسة فى ضوء ظروفى الثقافية  
الاجتماعية السابقة عليها أمرا كنت آمل ان يتحقق ولكنى  
لم اكن اتوقع تحقيقه فعلا ! ومن اجله تركت الاعزاء

من اهلى وزملائي . وكانت آثار هذه الفرصة في نظرتي  
نحو الحياة آثارا عميقة للغاية . وظهرت عن طريقها  
امامي بجللاء ووضوح مصصادر العلم وتقاليده تتلألا  
وتشع بنورها وهداياها . وبدأ حرصى واعيا . كل ذلك  
يقصد الفهم الموضوعي لما ارصد من ظواهر المجتمعات  
الانسانية التى اعيش فيها ، وبخاصة المجتمع المصرى ،  
او بعض المواقف الاجتماعية التى بدأت ان اراها او  
بعض العلاقات الاجتماعية الجديدة او القديمة التى لم  
اكن اجدها امامى على الدوام .

وفى ضوء خبراتى الجديدة التى حصلت عليها فى  
خلال دراستى لنظام المراقبة الاجتماعية بالمحاكم فى  
المملكة المتحدة فى خلال عام ١٩٤٨ ، تبين لى بعض  
الفروق فى النظامين المتبعين فى مصر وفى المملكة  
المتحدة . وعلى الرغم من العبء الكبير الذى حمله مكتب  
الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى خلال  
انفترية التى مرت بعد انشائه ، وعلى الرغم من العقبات  
التي صادفت اعماله فى خلال هذه المدة ، فقد لفت  
نشاطه انظار الكثيرين المهتمين بشئون الاحداث الجانحين  
ويعتبر عام ١٩٤٩ . فى ضوء خبرات المكتب القديمة  
المتجددة ، عاما طيبا بالنسبة للاحداث المصريين الذين  
تدفعهم الظروف الى ارتكاب جريمة من الجرائم او  
اذا وجد احدهم فى حالة من حالات التشرذم فى صورة  
المتعددة وذلك بصفة عامة ، ثم على مكتب الخدمة  
الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة بصفة خاصة . وذلك  
لان وزارة العدل كانت قد شكلت لجنة فى يوم ١٥ من  
شهر مايو عام ١٩٤٨ . لدعم مكاتب الخدمة الاجتماعية  
لمحاكم الاحداث فى مصر من السادة الاستاذ محمد  
حسين المشماوى والدكتور محمد عوض محمد والاستاذ



محمد فهم وقاضى محكمة الاحداث بالقاهرة فى ذلك  
الحين ، وقد اشتركت فى اعمال هذه اللجنة بعد عودتى  
من المملكة المتحدة بوصفى مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية  
لمحكمة الاحداث بالقاهرة . وقد اهتمت اللجنة ببحث  
حالة كل من مكتبى القاهرة والاسكندرية . وانتهت من  
دراستها ورفعت تقريرها الى وزير العدل وطلبت اعتماد  
مبلغ ٨٠٠٠ جنيه مصرى سنويا لمكتب القاهرة وتمت  
الموافقة على هذا المبلغ على ان يصرف للمكتب مبلغ ٤٥٠٠  
جنيه مصرى سنويا له ويصرف مبلغ ٣٥٠٠ جنيه مصرى  
لانشاء دار للملاحظة تلحق بالمكتب .

واذا كنت قد بدأت العمل فى مكتب الخدمة الاجتماعية  
لمحكمة الاحداث بالقاهرة فى اول شهر يناير عام ١٩٤٤  
فانه عندما عقدت العزم على ان استكمل دراسائى  
العليا فى الخارج لكى احصل على درجة الدكتوراه فى  
علم الاجتماع تخصص علم الاجرام فى اوائل شهر فبراير  
عام ١٩٥١ ، رآى المسئولون على المكتب فى ذلك الحين  
ان اتركه . اننى لم اقدم استقالة لاننى لم اكن ارغب  
فى ترك المكتب الذى صار جزءا من كيانى وصرت جزءا  
من كيانه . وارجو ان يلاحظ القارئ اننى عندما عقدت  
العزم على ان استكمل دراسائى العليا لم اكن متسرعاً .  
لقد كان هذا الموضوع شغلى الشاغل منذ ان عدت من  
المملكة المتحدة فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . اى بعد ان  
رايت مارايت من ضروب المعرفة وعناصرها فى مدينة  
لندن وفى غيرها . عدت الى القاهرة وانا اكثر ثقة فى  
نفسى وكانت ثقتى فى العودة كبيرة لا تتزعزع . وكنت  
قد ارتبطت معنويا بمواثيق مع أبى ان لا اخيب ظنه فى  
وان احقق حلمه لكى استكمل دراسائى العليا . وكانت  
امى تشاركنى معنويا فى هذا الارتباط . ولكن ! فى شهر

يناير عام ١٩٥٠ ، في يوم ١٩ من شهر يناير ، اى بعد  
عشرين عاما من وفاة ابي ، ماتت اُمى . واصبحت متيذا  
بمواثيق ابي ومواثيق اُمى حتى لا اخيب ظنهما ولكى  
احقق حلمهما . انها لم تمت فجأة . ولكنها مرضت  
واحضرت لها الاطباء وماتت بعد ايام من اعلان مرضها  
الذى يبدو انها كانت تدعيه عنى حتى لا تزعجنى . وقد  
حضرت لحفلة وفاتها ولكنى كنت فى غرفتى فلم ارها  
وهى تموت . ولكن ابنتى تيسير التى كان عمرها فى  
ذلك الحين لا يعدو التاسعة كتبت فى مذكراتها ما سمعت  
ومارات . قالت تيسير :

عندما احاول ان اتذكر ذكرياتى مع هذه السيدة  
الحبيبة اجدنى عاجزة عن ان اوفىها حقها من الوصف  
لانها تمثل الحنان كله والحب كله .. والدفء كله ،  
لقد عشت معها طفولتى المبكرة .. بعض منها اتذكره  
واحسه ولا انساه ، والبعض الآخر احسه فقط ، ولكنه  
ترك اثرا فى نفسى لا ينسى .. وهى انها احن واحسن  
انسانية خلقت على الارض ..

ومن هذه الذكريات :

— احب واحسن منظر رؤيتى لستى « جدتى » فى  
الصباح الباكر عندما استيقظ فاجدها تفطر « لقمة وحبّة  
درة » لتفريق زيقها قبل شرب قهوة الصباح . كانت هذه  
من اهم ما تتميز به .. وكنت اجلس بجانبها واعيش معها  
لحظات بهجة وحب وحنان .

— فى يوم التقط بابا لنا صورة انا وهى ومسعد . انا  
فى حضنها .. ايديها ايديها الحنون تلفها حولى وانا  
امسك يدى .. ومسعد يجلس على حجرها .

— كنت انام معها على سرير واحد انا ومسعد ، انا  
فى ظهرها ورجلى ويدى تلتفت حولها .. ومسعد فى

حضنها .. وكانت تقول: اننى « ألبد » فى ظهريها ..  
 - كانت هذه السيدة تعيش معنا وتساعد والدتها فى  
 كل شئ فى المنزل من عجينة وغسيل - وطبخ .. وكان  
 « تقررص » العيش ونطلب منها « سمر ومسعد وأنا »  
 ان تعمل لكل واحد منا « حنون » لترضيها جميعا ..  
 - كانت ستي طيبة واميرة وكريمة تعيش معنا وكانت  
 لا تعيش .. كانت مثل الملائكة .. مثل النسيم ..  
 والطريف كانت دائما تخرج لتزور اخواتها بالمنشية « حتى  
 الخليفة » وبيت عويس .. كانت روحها هناك .. وكانت  
 تأخذنا معها فى بعض الاحيان .. وخصوصا فى بعض  
 المناسبات السعيدة مثل فرح أحد أبناء اخواتها .. ولكنها  
 كانت فى كثير من الاحيان تهرب منا فلانراها وهى خارجة  
 متسللة بملاءتها السوداء .. وعندما نشاهدها وهى قادمة  
 من بعيد قلبنا يدق .. ونعرفها على الفور .. وكانت  
 تحضر عند الغروب .. وكنت وأخى سمر وأخى مسعد  
 نقابلها بهتاف : ستي جت .. ستي جت .. ستي جت ..  
 وكانت تحضر معها الفاكهة مثل التفاح والمسرور وكذا  
 الحلويات .. وكان وجودها معنا يضيف على الحياة متعة  
 حلوة وطعم جميل وبهجة طيبة افتقدناها برحيلها عنا ..  
 - منظر لم ولن أنساه مهما حيت الا وهو عندما مرضت  
 هذه السيدة العظيمة الحبيبة .. وكنت لا اعى شيئا مما  
 سيقرب عليه مرضها هذا .. وكنت العب وفمسرحانة  
 بالضيوف الكثيرة وهن سيدات يلبسن الملابس السوداء  
 ومعظمهن أخوات ستي .. وقد كانت ستي على فراش  
 الموت ودخل أبى عليها وكانوا اخواتها يعملون له الف  
 حساب .. وقد سألتها عن صحتها فتحاملت على نفسها  
 وقالت أنها بخير .. ثم اسلمت الروح ..  
 وما اذكره الان اننى بعد عودتى من رحلتى الدراسية

فى المملكة المتحدة الى القاهرة ، كان استقبالى من  
الزميلات والزملاء حسنا . . وكان هذا متوقعا . اما ما كان  
غير متوقع فقد كان حرص السيدة زاهية مرزوق  
والدكتور محمد عوض محمد على مقابلتى . قابلتنى  
الاولى فى مكتبها فى وزارة الشؤون الاجتماعية وكانت كما  
يقول المصريون « سمن على عسل » ، ودهشت لذلك  
كثيرا وحاولت تفسيره فلم استطع فى ذلك الحين ولا بعد  
ذلك الحين . ان هذه السيدة لان اسمها « زاهية » كان  
الآخرون يتداولون اسمها فيما بينهم لا يقصد التفاخر  
به او اصفاء المديح لصاحبه ولكن على العكس من ذلك  
تماما الى الدرجة انهم كانوا يستبدلون باسم زاهية  
اسم « داهية » اما الدكتور عوض فقد كان موضع  
الاحترام فقد كان عالما مرموقا مافى ذلك من شك .  
كان صاحب مدرسة تفخر مصرنا الخالدة بأبنائها  
حتى الآن وعندما ذهبت اليه لمقابلته حدد موعد هذه  
المقابلة فى منزله . وذهبت الى الموعد وانا فرح للغاية  
كما اذكر الان . وكانت هذه الزيارة فاتحة زيارات عديدة  
جاءت بعدها . كان لطيفا ينم حديثه على الثقافة العميقة  
الواسعة الارضاء . ولكنى فى احدى الزيارات ريت منه  
ماشوه الصورة الرائعة التى حفرت فى دماغى عنه . لقد  
روى لى بعضا من تاريخ طفولته وشبابه وبعضا من  
الكفاح فى سبيل التحصيل العلمى . ثم ماجرى له فى  
لندن عندما ذهب اليها ليدرس دراساته العليا . عندما  
وضع امتعته فى احد البيوت التى توافق على ايوائه  
الاجانب بأجر تم الاتفاق عليه ، وعندما ذهب مستترجعا  
البال ليرى معالم المدينة ، ولما عاد عند الغروب فوجد  
امتعته على درجات سلم البيت الذى استأجر احدى  
قرفه بعد موافقة صاحبه . واتضح له ان جيران صاحبة



البيت عيروها لانها وافقت على تأجير احدى غرف بيتها  
لا لاجنبى ولكن لاجنبى اسمر اللون . وكان يحكى لى  
القصص التى تدل على المعاناة التى واجهها فى حياته  
الاولى وعلى قوة الارادة التى يسرت له مواجهتها . ولكنى  
فى احدى الزيارات رايت منه ماشوه الصورة الرائعة  
التي حفرت فى دماغى عنه . كنت معه وحدنا . ودق  
« جرس » الباب فقام ليفتحه فاذا بى اسمع صسوته  
وهو يزمر صائحا « انا مش هنا » ! وعرفت ان الزائرين  
من بلده جاءوا على غير موعد فرفض الا ان يكون  
اعتذاره لهم بأسلوب الحديث الذى مازال صدى كلماته  
يرن فى اذنى الى قلبى وعقلى حتى الآن . ومع ذلك  
فقد ظل احترامى لعقله واتساع آفاق علمه باقيا . وامل  
ما فعله امامى ، كما قلت لنفسي مبررا ، نزوة من نزوات  
العلماء . او لعله ان يكون درسا لمن جاء على غير موعد  
ولغيرهم من المعارف ودرسا لى فى نفس الوقت . وكان  
الدكتور عوض فى اواخر عام ١٩٥٠ رئيس الهيئة  
التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث  
بالقاهرة اى انه كان رئيسى المباشر . وذلك لان الدكتور  
محمد صلاح الدين كان قد أصبح فى ذلك الحين وزيرا  
للخارجية فى وزارة الوفد ، ولم يكن وقته ليتسرع  
فيحضر جلسات الهيئة التنفيذية . فذهبت الى الدكتور  
عوض وانا احمل معى طلب اجازة من المكتب بدون  
مرتب لكى اسافر الى الخارج والى لندن بالذات لاستكمال  
دراساتى العالية واحصل على درجة الدكتوراه . وتوقعت  
منه الترحيب والتشجيع . ولكنه لم يقل لى شيئا يدل  
على ذلك . وكان كل ما قاله ان الطلب سيعرض على  
الهيئة التنفيذية للبت فيه . . وجاء موعد اجتماع  
الهيئة وتحدث الدكتور عوض تليفونيا معى للحضور

قبل الاجتماع بساعة واخبرني بأن مكان الاجتماع سيكون « معهد الدراسات الافريقية » الذي كان له مديرا في ذلك الوقت ، وذهبت في الموعد الذي حددته الدكتور عوض . فبدأ حديثه هادئا عذبا . بدأ يذكر اهتمامه الشخصي بي لاننى شاب كفاء ، وان مساهمة الدراسات العليا في موقع عملي غير ضرورية ، وان السفر كل عام لمدة محددة الى الخارج هو كل مايمكن أن يوافق عليه . وماكدت ان ارد على ماقال ، اذا بي اراه يزجر قائلا وهو يسخر « انت عاوز تأخذ دكتوراه علشان تبقى زبي ؟ » فاسرعت بالاجابة قائلا : « نعم فانت مثلى الاعلى الم تذكر في احدى مقالاتك ان شر الامور الوسط ؟ » وكان هذا المقال قد نشر فعلا في جريدة الاهرام منذ فترة غير قصيرة . فرد والسخرية تظاهر على ملامح وجهه وحركات جسمه « اننى ما قصدت بهذا المقال الا مجرد المداعبة » . وصار الدكتور عوض يعد ذلك امامى شخصا آخر . بدأ شخصا تشع عيناه الفيظ والكمد ، وازداد وجهه القبيح قبحا . وتذكرت في التو ما ذكره الدكتور عبد العزيز عسكر عن اول شيء يراه الدكتور عوض بعد ان يستيقظ من النوم . ولكنى أضفت الى ذلك مايمكنه هذا الرجل اقصد الدكتور عوض من الحقد الدفين نحو المجتمع الذي عاشه وهو طفل ثم وهو صبي ثم وهو شاب . انه الحقد الذي لم يبرا منه عندما كان لا يأكل الا وجبة واحدة في اليوم وهو الشخص الذكى في حين يرفل غيره في الحياة الناعمة بالوانها رقد كانوا من الاغبياء . لقد تبلور في قلب هذا الرجل الحقد منذ الصغر وبقي دينا حتى كبر . واذا كان الحقد حقدا نحو المجتمع قانا عضو من أعضائه . كنت على عكسه تماما . كانت طفولتى سعيدة وكان

صباى طيبا ويملا صدرى الحب ويفيض وبقى دفيننا  
وسيبقى أن شاء الله .

وأود هنا أن أذكر وأنا أحنى رأسى شاكرا لما فعلته  
السيدة الزا ثابت من أجلى لكى يتحقق لى مرادى فى  
الدراسة والتعليم . أنها لم تترك جهدا نحو تحقيق  
هذا المراد الا وقامت به مشكورة . واننى أؤكد هنا  
أنه لولا جهودها الجبارة المستمرة لما استطعت أن أسافر  
فى فبراير عام ١٩٥١ الى لندن . والجهود التى بذلتها  
السيدة الزا كانت جهودا تهدف الى تحقيق كل ما هو  
معنوى وكل ما هو مادي يحقق آمالى . ويكفينى منها  
إنها كانت تثق فى وفيما يمكن لو أتاحت لى الفرص أن  
قوم به . كانت صلتى بالسيدة الزا متصلة ، فهى  
رئيسة جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق ، وأنا فى  
ذلك الحين كنت أمين الصندوق . وكانت مقابلاتى معها  
تزيد الروابط التى بيننا وتؤكدها . ولا غرو فقد كانت  
استاذتى واستمرت استاذة لى وأنا اعتبر حتى تلك  
اللحظة أننى غرس يديها ويشترك معها فى ذلك الامام  
الشيخ محمود خطاب والاستاذ يعقوب فام . كان هؤلاء  
الثلاثة مع أبى وامى قد أضفوا على من العلم والمعرفة  
والخبرة والاهتمام الانسانى الكريم ما جعلنى ما كنته فى  
ذلك الحين وربما ما سأكونه فى المستقبل القريب  
والبعيد . أجمعوا الثلاثة على إعادة تنشئتى كل فيما  
يختص به . . وفى الفترة الأخيرة كان للسيدة الزا  
النصيب الكبير .

وأجهت مشكلة ترك أسرتى الصغيرة : زوجتى وأحمد  
وآمال وسمير وتيسير ومسعد دون أن تكون أمى معهم .  
وكيف أترك أحمد وآمال وقد أصبحا فى فترة المراهقة  
وفى مسيس الحاجة الى وجودى بينهم ؟ وحتى الصفار

فقد كانوا كذلك في مسيس الحاجة الى وجودى بينهم .  
اننى شخص اعمل في ميدان الاحداث الجانحين ، فانا اذن  
اولى الناس بادراك الاثار المترتبة على انفصال الاب عن  
اعضاء الاسرة وبخاصة اذا كانوا مازالوا في حاجة الى  
الرعاية والحماية . كانت فكرة السفر الى الخارج  
لاستكمال دراستى العليا متسلطة على كل شىء . انها  
امل تبنيته ثقافيا عن ابنى ومن امى التى آذرت ابنى  
ومررت مدى ماعصف بى الدهر عندما قرر جدى لآبى  
حرمانى من اكمال تعليمى واستئصالى عنوة من مدرسة  
الخدوية الثانوية وانا فى السنة الرابعة الثانوية . لقد  
اصبح هذا الامل آمال فرد . ولم يدر فى خلدى ابدا  
ان تصبح آمال هذا الفرد « الذى هو انا » آلاما لجماعة  
« اسرتى الصغيرة » . لم يدر فى خلدى ابدا ان احقق  
آمالى ورغباتى على حساب جماعة لا ذنب لهم سوى انى  
ابوهم . كانت اهدافى ارفع من ذلك واعلا مقاما . كانت  
اهدافى ان اؤهل نفسى لكون اهلا لاعمل عملا  
صالحا لابناء وطنى . وفى ضوء تكوين شخصيتى لم  
اكن الطفل المدلل وان كنت الطفل المحبوب ولم يكن لى  
شباب اتمتع به ، وكنت جادا احاول ان اعمل صالحا .  
وقد كان هذا عزائى . وبررت كل تصرفاتى على هذا  
الاساس ، وافترضت اننى دعيت الى « الجنسية »  
لاجارب من اجل عرض وطنى وشرفه لسنوات ، كما  
يفعل ابناء البلاد الاخرى . وقلت اننى لم اظلم احدا  
لأننى انا نفسى كنت قد ظلمت ومازلت مظلوما . وان  
المحك الرئيسى هو ان انجح فى مهمتى وان احصل على  
درجة الدكتوراه تتويجا لجهودى الثقافية ودراساتى  
الاكاديمية وغير الاكاديمية . وإلى ان وصلت الى هذه  
النتائج استراح ضميرى وعزمت العزم الاكيد لى اختار



الاغتراب فى خارج بلدى بدلا من ان يكون فى داخلها .  
 وما اصعب الاغتراب وانت بين بنى اهلك ووطنك . كان  
 عزمى اكيدا مافى ذلك من شك . والدليل على ذلك اننى  
 فى يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ركبت القطار  
 الى بورسعيد لالحق بالسفينة التى وصلت الى لندن  
 بعد تسعة ايام فقط . تاركا وراءى اعضاء اسرتى الصغيرة  
 زوجتى واحمد وآمال وسمر وتيسير ومسعد ، ولم اكن  
 ابغى لهم ابدا الا ما املت من الخير . اننى لم افرض  
 ساطانا على احد منهم او عليهم جميعا . ولكن سلطان  
 تحقيق آمالى فى الدراسات العليا التى كنت فى ضوء  
 تاريخى المدرسى والتحصيلى استحقه عن جدارة ، هذا  
 السلطان هو الذى فرض علينا جميعا . كانت الاهداف  
 سامية وتحتاج الى بدل التضحيات وكنت اول الباذلين  
 بدلت من وقتى الشاب ومن صحتى ومن راحتى الكثير  
 عانيت الاغتراب المادى والمعنوى ولم اجسار  
 بالشكوى لمخلوق . كنت مع الله ومن اجل الله اعمل  
 وابذل . ولكن كان حرمانى من اعضاء اسرتى الصغيرة  
 العظيمة : زوجتى واحمد وآمال وسمر وتيسير ومسعد  
 حرمانا عظيما . ولم اكن ادري فى ذلك الوقت اننى فى  
 حقيقة الامر كنت نائرا فى دور التكوين ! لقد ثرت دون  
 ان ادري على حياتى الماضية ثورة عارمة . وكانت هذه  
 الثورة تعنى ثورة على الاوضاع الثقافية الاجتماعية  
 والاقتصادية جميعا . كانت ثورة شخص واحد ضد  
 طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها  
 وأساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا . وكنت  
 فى حقيقة الامر ، دون ان ادري ، وحدى ، احارب فى  
 جهات عديدة . كانت اسلحتى ايمانى بالله وبالوطن  
 العزيز وحب امى ودعواتها .

## السفر الى الخارج مرة اخرى استثنافا لطلب العلم

وفي يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩٥١ ، اليوم الذي يوافق عيد ميلادي الثامن والثلاثين ، كنت على السفينة في عرض البحر الابيض المتوسط ، في طريقى الى لندن . واذكر اننى عندما خطت قدماى ارض السفينة في اول لحظة حاولت ان انسى ماكان وان اتذكر ما سيكون . جاءت الريح برائحة السفينة التى ايقظت فى كيسانى الحقائق التى واجهتها فى الماضى عندما سافرت لأول مرة . القلق والاغتراب والدوار الذى يأتى به البحر . ثم استيقظت ذاكرتى على ازدحام مدينة لندن ومناخها القارس « وبخاصة ونحن الآن فى شهر فبراير » ، وعلى الدراسة والكتب وتحضير الطعام . وعشت لحظات متذكرا صحتى ومرضى ، والمرح الحلو مع الزميلات والزملاء والمناقشات الشابة التى كانت تدور بيننا ، فضلا عن الاحساس بالضيق . وجاء من اعماق اعماق نفسى شعورى العميق بالشك فى الامل الذى اصبو الى تحقيقه . وكان شكا مريرا حقا . وسرعان مانبذت هذا الشك وغيره من الشكوك التى كانت تمكن ان تحوم حول شخص مثلى . ونظرت الى المستقبل المشرق ، مستقبل العب من العلوم والمعرفة الذى ينتظرنى فى لندن .

لم يكن معى احد على السفينة من المصريين سوى سيدة . كانت ضخمة الجثة فارعة الطول ، فلازمتنى منذ ان ركبنا « اللش » فى طريقنا الى السفينة . كانت

ترافقها سيدة قد بدا عليها أنها تعمل لديها . وارتقيت  
 السلم الى ارض السفينة بعد ان ارتقته قبلى وتركنا  
 السيدة المرافقة تعود ادراجها الى ميناء بورسعيد ارض  
 الوطن . بدت امامى السيدة المسافرة انها فرحة لان  
 فى لندن ينتظرها ابنها الذى يدرس الدروس العسكرية .  
 وهى فرحة أيضا لانها كامرأة ستجد من الانجليزيات من  
 هن فى طولها فلا تشعر بالاسى الذى تشعر به وهى  
 تعيش بين النساء المصريات . وقد علمت ونحسن على  
 السفينة الكثير عن حياة هذه السيدة . كان اسمها  
 « مدام طبوزاده » ، وكانت تحمل معها ديوان الشاعر  
 « محمود سامى البارودى » فهى عضو من أعضاء  
 أسرته . وكانت تعلم ماخفى من احوال السراى : الملك  
 فاروق والملكة زوجته وغير ذلك . وكانت تعلن بعض  
 ما هو خاف ، وتكتم البعض الآخر . . وكان كل ماتعلنه  
 مفروفا للناس وأنا منهم . وكنا نتناول وجبات الطعام  
 معا . وكانت تأكل بنهم وشراهة كنت اتقزز منهما ،  
 فانا على السفينة او على غير السفينة أكل اكل الاشخاص  
 العاديين الذين يرون ان الطعام باق ومن ثم فيكون الاكل  
 منه بتؤده أولى وافضل ، فهو أى الطعام لن يطير .  
 وعلى السفينة لم اكن أستطيع ان أكل الا كما تأكل  
 العصافير . وقد لاحظت مدام طبوزاده ذلك فنصحتنى  
 ان اهتم بعلاج كبدى عندما اذهب الى لندن . لانه كان  
 فى رأيا وبما كان ذلك صحيحا ان « سد النفس » عن  
 الطعام مرجعه الى خلل فى الكبد ، والله اعلم ، وعلم  
 الطب وعلماءه بعد الله يعلمون كذلك .

كنا نتحدث عن سامى البارودى . فى الواقع كانت  
 هى التى تتحدث عن هذا الشاعر الشاثر . وكنت أشرح  
 بخيالى أبحث منقبا عن تاريخ الثورة العرابية . وكان

كبريائي يعلو الى الافاق كلما تذكرت عرابي راكبا على  
حصانه وهو في ساحة عابدين . وكان كبريائي ينخفض  
كلما تذكرت ما كان يحدث بين الثوار المنفيين وهم في  
جزيرة « سيلان » . وكانت تتحدث وصورة الشهيد  
الطل « محمد عبيد » تداعبنى فيزهسو قلبي تارة  
ويتحسر كمدا تارة اخرى . اما عبد الله النديم فقد كان  
من سمعي وبصري . كنت أعيش معه حياته منذ طفولته  
وكيف نشأ وكيف أصبح خطيبا للثورة . كنت اذكر  
ما كان يكتبه في مجلاته التي كان ابي يحتفظ بها ويحرم  
عليها . فانا اذكر اننى على الرغم من طفولتى . فقد  
استطعت ان افك رموز ما بين سطور ما كان يكتب هذا  
الرجل العظيم . كانت فرصة ان اصحب سيدة مثل  
هدام طبو زاده . وكانت هى فى واد وكنت انا فى واد  
آخر ومع ذلك فقد جمعتنا السفينة ، كما جمعتنا المائدة  
التي كانت لا تترك صحننا به طعام الا وقدفت مافيه فى  
معدتها . وكانت عندما تتحدث عن سامى البارودى او  
عن شهره اشعر بالسرور الجاد فعلا ، اما عندما  
تتحدث عن الخيل وركوب الخيل فتجد الشقة بينى  
وبينها قد بعدت اميالا واميالا . انها فى بعض الاحيان  
كانت قريبة منى وانا فى محيط افكارى عنها بعيد .  
كانت اذا انفرجت اساريرها اذا ابدت رأيا يتضمن  
الدعاية البريئة تبعد الشقة على الرغم مما يبعده من  
سعادتها فتقول مثلا « انتو يامصريين شكلكم زى  
النسائيس ولكن دمكم خفيف » . تقول ذلك وهى  
تقصدنى فانا المصرى ، اما هى فقد كانت تعترف ضمنا  
وصراحة بانها غير مصرية . وقد كانت هى كذلك فعلا .  
وكنت اسمع عبارتها التي كررتها مرارا ، حتى افترقنا  
فى لندن الى غير رجعة ، فتملا القصة حلقى ويزداد



اشترازي ونفوري منها . كانت من اعضاء عائلة « محمد علي » وهذا يكفي . وعندما سمعت الى الحديث عن مقابلاتنا في لندن لم احرص ابدا على اخذ عنوان محل اقامتها . واعتذرت عن اعطائها عنوان محل اقامتي لانني لم اكن اعرف هذا العنوان حتى تلك اللحظة . كنت اواجه المجهول . وكل الناس يواجهون المجهول في كل الاوقات ولكنني كنت احس بالمعبء ثقيلًا على الرغم من تفاؤلي الذي عاش معي في الماضي ومازال يعيش في ذلك الحين ولا يزال يعيش حتى كتابة هذه السطور . انني كنت اخشى المجهول ولكنني لم اكن اعزل من سلاح اليقين في الله والثقة بالنفس ورفعة الهدف .

ولما كنت اعرف لندن فائني تركت حقائبي في المكان المخصص لذلك في محطة السكة الحديد ، وذهبت ومعى حقيبة يد صغيرة وتوجهت الى حي « هولاندبارك » الذي اعرفه جيدا . فهو الحي الذي يقع فيه الفندق الذي نزلت فيه لأول مرة عندما حضرت الى لندن في عام ١٩٤٨ ، اي منذ ثلاث سنوات . وكنت في بعض الاحيان ، وكانت قليلة جدا لان حرية حركتي في لندن في الفترة الاولى عند حضوري اليها لأول مرة كانت محدودة . كنت اذهب الى « نادي لندن للموسيقى » اما مجرد الجلوس وكان متيسرا او للحضور لسماع الموسيقى نظير نقود قليلة . فذهبت الى النادي قبل ان اذهب الى الفندق وكانت تدير هذا النادي سيدة انجليزية هي « مسز آرمسترانج » وكنا ندعوها « مسز ايه » فقط ، وهي سيدة كانت قد بلغت سن الستين ولكن حيويتها وعشقها للموسيقى والموسيقين ينمان على النشاطات العديدة التي كانت تؤديها بالاستعانة ببعض العاملين والعاملات . وعلمت وكان ذلك لأول مرة ان النادي به

حجرات للنوم يمكن أن يستأجرها من يرغب في ذلك .  
فأثرت أن استأجر غرفة نوم في النادي الذي يوفر أيضا  
لنزلائه وجبات الغداء والعشاء . ونمت ليلتي وفي  
الصباح ذهبت لأحضر حقائبي التي أودعتها في غرفتي .  
بعد أن أحضرتها في تاكسي . وفجأة واجهت الحياة  
الجديدة ، واجباتي فيها ومسئولياتي . وكان السؤال  
الذي واجهني كيف أبدا ؟ فانا لم أحجز لي مكانا في  
كلية أو في معهد دراسي وهاهو ذا شهر فبراير عام  
١٩٥١ قد انتهى أو كاد . وجلست أفكر . وطورا في  
ذهني أن أبدا بفعل ماكنت أرغب في أن أفعله عند  
حضورى الى لندن في عام ١٩٤٨ . وذلك بأن اشترى  
« راديو » لاطل على « البانوراما » الثقافية الاجتماعية  
للمجتمع الانجليزي بعامة ومجتمع لندن بخاصة ،  
واشترى « اسطوانات » موسيقى كلاسيكية ، حتى تعود  
اذني عليها لكي ارتفع بدوقي الموسيقى ، وآلة لكي أديرها .  
كلما عن لي ذلك ، وأخيرا اشترى خريطة لمدينة لندن  
لأعرف أين أنا وأين الذهب وكيف الذهب . وبدأت توا  
بشراء هذه الأشياء الهامة أو التي كانت هامة عندي في  
ذلك الحين . ثم جلست أفكر . هأنذا شخص قد ترك  
بلده وأعيش في بلد آخر . أملك شبابي ووقتي وبعض  
المال ، والمهمة التي أنا بصددتها مهمة نبيلة وتحقيقها  
لا يحتاج الى أكثر مما أملك في الوقت الحاضر . اننى  
متفرغ لها أملك وقتي من الصباح المبكر حتى المساء  
المتأخر لا يشغلنى عنها شاغل آخر إلا ماكان ضروريا  
لكي أعيش . فلأتدبر امرى واشغل نفسى في سبيل  
تحقيق ما أرجوه وما أصبو اليه . هأنذا أملك الشباب  
والوقت والمال الذى أرجو من الله أن يبارك فيه حتى اتم  
ما أنا على وشك أن أبدا به . فالمال كما يقولون

« عصب الحياة » او هكذا تعلمت . وبدون المال فى  
بلد اجنبى يعنى الدمار النفسى وبخاصة لشخص مثلى .  
ومع ذلك فقد كنت على الرغم من كل شيء متفائلا .  
ويبدو ان تفاؤلى هذا كان ساذجا . فلم ار امامى فى ذلك  
الحين سوى الجانب الطيب من الحياة . لم ار سوى  
كل ما هو وردى . كان امامى ان اسلك طرقا عديدة  
منها ان استكمل دراستى لاحصل على « الدبلوم العام  
العالى فى التربية » « جامعة لندن » ، واسير فى  
الطريق حتى احصل على درجة الدكتوراه من هذه  
الجامعة . ومنها ان اطلب العلم للعلم وان اخسدم  
الانسانية لذاتها واحاول ان اكون دائرة معارف صغيرة  
تمشى على الارض تحيا لتحيا وتستنير لتسير . ومنها  
ان ادرس مهنة الصحافة لاضمن عندما اعسود الى  
الوطن ان اجد سبيلا لتحقيق اهدافى نحو الوطن كما اجد  
موردا للرزق تعيش عن طريقه اسرثى الصغيرة حياة  
كريمة . ومنها ان افعل كل ذلك . فاكون مثيلا طه  
حسين وسلامة موسى « او مصطفى صادق الرافعى  
او عباس العقاد » والصحفى الكبير امين الرافعى جميعا .  
وكان اهم ما يجب ان افعله هو ان ابدا . كان امامى  
ان التحق بمعهد من المعاهد مثل « كلية البوليتكنيك »  
لادرس دراسة منتظمة وانا فى طريقى الى درجة  
الدكتوراه ، وفعلت ذلك توا . وكان امامى ايضا ان  
استعين بالدروس الخصوصية وبخاصة بالادرس علوما  
لم اعرفها من قبل او اعرف عنها القليل مشغل علم  
الاقتصاد وعلم المنطق . وفعلت ذلك ايضا . وكان من  
حظى ان يدرس لى علم المنطق الاستاذ « تروى نيومان »  
احد اساتذة كلية « البوليتكنيك » . اما الدكتور « جون  
لويس » فقد قام مشكورا بتدريس « علم الاقتصاد » .

كنت اذهب الى الاستاذ الاول في منزله وكان الدكتور  
لويس يحضر الى في منزلي . ومع كل هذه الدراسات  
العلمية رايت ان التحق بأحد معاهد الصحافة بالمراسلة  
« مدرسة لندن للصحافة » . وقد تم لي ذلك كذلك .  
وكنت اعمل ليل نهار نهما لا يشبع من العلم والعب  
من مناهله حيثما تكون هذه المناهل ، وكنت لا اخرج من  
منزلي الا لكي اذهب الى منهل البوليتكنيك او الى منزل  
تري نيومان او الى شراء كتاب من مكتبة « فويلز » ومكتبة  
« كوليت » بحي « شيرنج كروس » او من احدي  
المكتبات التي تباع الكتب القديمة النادرة . وكان من  
حظي السعيد ان قابلت احد المواطنين الانجليز الذي  
جمعني واياه بعض المصريين في القاهرة في اثناء الحرب  
العالمية الثانية عندما كان مجندا في الجيش الانجليزي .  
قابلته في « مر الاتفاق » المشهور بلندن صدفة . وذكرني  
بنفسه لاني لم اره وان كان هو قد راى وترك لي  
عنوان منزله في حي « برم روز » بلندن . وذهبت في  
الموعد المحدد فوجدت اسرة كانت تعيش كلها في القاهرة  
في يوم من الايام او في فترة من الفترات . وكان  
الحديث يجري باللغة العربية تارة وباللغة الانجليزية  
في معظم الاحيان . ومن هنا عرفت انواع الكتب التي  
كان يرى اعضاء هذه الاسرة من واجبي ان اشترىها  
وعرفت منهم ايضا المكتبات التي اجد هذه الكتب  
معروضة للبيع فيها . كانت كتب « ولفرد بلنت » و« ج .  
ه . ويلز » و « روزشتين » و « كارل ماركس »  
و « انجلز » و « جون لويس » وغيرها وغيرها اول  
ما حرصت على اقتنائها . وقد اكد ضرورة اقتناء هذه  
الكتب وغيرها جون لويس وبخاصة عندما اقترح علي ان  
التحق « بكلية مورلي » حيث كان احد اساتذتها



لأدرس « الفلسفة الحديثة » و « العلم الحديث » :  
نشأته ومنهجه » . وأنا اعتبر الدكتور لويس أحسن  
إساتذتي الذين أثروا في تفكيري تأثيرا كبيرا . لقد ترك  
هذا الرجل بصمات تفكيره على أسلوب تفكيري الذي  
نظر إلى الدنيا حولي عن طريقه حتى هذه اللحظة .  
كان رجلا عالما ذا بصيرة نقادة . وكان يتبنى التفكير  
الماركسي وأن لم يكن شيوعيا . كانت زوجته شيوعية  
ولها نشاطات عديدة في الحزب الشيوعي الانجليزي .  
ولكن جون لويس كان يكتفى كما بدا لي ، وما زال يبدو ،  
بأن يفكر ويصنع المفكرين . وكنت أرى سعادته عندما  
كان يحضر إلى لأعطائي درس الاقتصاد . كان يتعاطى  
القهوة « التركي » التي أجيد صنعها بنهم . . وكان بعد  
الانتهاء من الدرس يمكث ليتحدث معي حديثا حرا . كان  
يؤكد لي أن الفلسفة الغربية مدينة بدين لا يمكن أن يفدر  
للفلاسفة المسلمين وخاصة « ابن سينا وابن رشد » .  
كان يذكر لي تاريخ ابن سينا وكأنه دارس مسلم متقاني  
كان يعرف عنه أنه ولد في مدينة « بخارى » حيث كان  
بها ٣٦٥ مسجدا . وكان يعرف تاريخ مولده في عام  
٩٨٠ ميلادية . وكان يذكر لي وكأنني كنت أعرف لأول  
مرة أن ابن سينا اشتغل بالطب فكان من أعلام فنه في  
العالم أجمع . وأنه قد عرض فلسفة « أرسطوطاليس »  
عرضا خاصا قويا . قال أن المادة أزلية وأنّها لم تخلق  
وأن كائنا تكتسب صورتها بفضل العقول التي هي  
انبثاقات من الله . وذكر لي أن « البرت الكبير العالم  
الأسكولائي في العصور الوسطى » كان تلميذا لابن  
سينا وأنه راح يؤكد أن فكرة خلق المادة لا يمكن البرهنة  
عليها فلسفيا . . وكان استاذي جون لويس يتحدث  
عن « ابن رشد » في نشوة . كان يعرف أنه ولد في عام

١١٢٦ ميلادية فى مدينة قرطبة وان جده كان قاضيا لها . وقد علق وشرح ابن رشد ارسطوطاليس . وقد طور مذهبه الفلسفى بطريقته الواضحة الابداعية الخاصة . ان ابن رشد لم يكتف بأزلية المادة ، بل راح يؤكد انه فى مقدور الجنين ان يتطور بفضل قوته الكامنة الذاتية . وان ابن رشد قد دافع بقوة عن ابن سينا فى وجه المفكرين الدينيين المحافظين الذين كانوا ينتقدونه . وكما أعلن البرت الكبير ان فكرة الخلق يجب ان تقبل لاسباب دينية وان كان لايمكن البرهنة عليها فلسفيا ، كذلك نرى ابن رشد ، الذى كان يحيا فى عالم تسوده العقيدة الدينية الى حد بعيد ، نراه لا يستطيع ان يقول أكثر من ان الدين من شأن جمهور غير المتعلمين ، بينما المعرفة الاستدلالية من شأن الاقلية المتعلمة . وهكذا نجح فى التمييز بين نوعين من « الحقيقة » : حقيقة الوحي وحقيقة العقل . ويعلق على ذلك الدكتور لويس فيقول : ونحن فى وقتنا هذا لا يسعنا ان نقبل الموقف . ورغم ذلك فعلى ان نعترف ان ابن رشد نجح فى القرن الثانى عشر فى تحرير العلم من سلطان الدين ، وفى اقامة دعائم عالم خاص به . . . عالم كان من الممكن ان تقبل حقائق العلم فيه رغم كونها خاطئة من الناحية اللاهوتية . وكنت أسمع مايقوله الدكتور جون لويس فى بيتى ، وما كان يقوله فى المحاضرة فى كلية مورلى ، وانا مبهور حقا ، فكر جديد . عالم فكرى لم اكن اعرف عنه شيئا . بل على العكس من ذلك كان يحرم علينا ان نطرق بابه ، وقد ذكرت من قبل عند التحدث عن « الجمعية الشرعية » وماكانت ترى وهى تؤهل وعاظها وتقدمهم الى المجتمع دعاة لها ان يكون مركز الواحد منهم « فوق مركز

الطبيب الحاذق الذي يعطي من الادوية لكل مريض ما يناسبه بمقادير خاصة لا ينقص ولا يزيد عليها شيئاً . وأن الجمعية اذ تبيح له ان يقدو ويروح في ان يتدىء بفرس العقائد في نفوس من يباشر تعليمهم . مراعيًا مذهب أهل السنة والجماعة ، بعيداً عن المشاغبات الكلامية والبراهين المنطقية لصعوبتها على افكار العامة من الناس . ثم . . . » . وهانذا يواجهني الدكتور جون لويس بهذه الافكار الجديدة وغيرها وبخاصة ماتعلق بافكار الفلاسفة من « افلاطون » و « ارسطوطسليس » و « الافلاطونية المحدثة » و « الثورة الكوبرنيكية » و « ديكارت » و « لايبنتز » و « سبينوزا » و « هيوم » و « بركلي » و « لوك » ثم « كنت » و « هيغل » . . أين كنت من عوالم افكار هؤلاء واين كانوا من عالمي الفكري الضئيل . ان استاذي جون لويس قد دق على الباب وهانذا افتحه لارى الافاق الواسعة واتحرر من القيود التي كانت تكبلني . وكنت كلما قرأت هؤلاء لكى افهم وافهم هؤلاء لكى اقرا اكثر اذكر الفرع الذي اصابني عندما قرأت كتاب « ه . ج . ويلز » عن « تاريخ موجز العالم » « طبعة ١٩٥١ » ، وبخاصة مذكره عن النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على صفحة رقم ١٧٧ من هذا الكتاب . كان الموضوع عن « محمد والاسلام » . وكان مذكره عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على تلك الصفحة وما بعدها قد هز كياني هذا . كان مفاجأة لى . ولكن كم في الدنيا من مفاجآت ؟ كنت في مدينة لندن ولم يكن قد مر على وجودى بها أيام عديدة . وقرأت ما كتبه ويلز فتذكرت ما حدث لى في سينما « ستديو واحد » عندما كنت

أشاهد الأخبار وكان الأمير عبد الله يصلي في المسجد الحرام وموقف المشاهدين الآخرين من ركوعه وسجوده وتساءلت عن الصراع الفكري السائد بين الناس ؟ من يشير هذا الصراع ؟ ولمصلحة من هذا الصراع ؟ وكنت أعلم في ذلك الحين أن الصراع الفكري لا يكون إلا في محيط العلوم الانسانية . أما في محيط العلوم المادية فالناس في كل بقاع الأرض ، على اختلاف ايدولوجياتهم ومذاهبهم وعقائدهم ، على وفاق . ان العالم «البوذي» يعني رأسه للتجربة العلمية الناجحة التي قام بها «العالم المسيحي» أو «العالم المسلم» أو «العالم اليهودي» ، وان العالم «في القاهرة» يعني رأسه للتجربة العلمية الناجحة التي قام بها العالم «في لندن» أو العالم «في موسكو» أو العالم «في نيويورك» . الخ . ان الاتفاق هنا في منطقة العلوم المادية سائد ، فلماذا يكون الصراع اذن في منطقة العلوم الانسانية ؟ سؤال انبثق من تعاليم أستاذي الدكتور جون لويس عندما استقيت منه أفكاره الفلسفية والعلمية في اثناء تدريسه لي في منزلي أحيانا وفي كلية مورلي أحيانا أخرى . والسؤال عندي مازال مستمرا حتى ذلك الحين . وكان سؤالا حاسما في حياتي الفكرية التي كنت نتاجها في ضوء تربية أبي وامى وتعاليم الامام الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب قام وأخيرا أستاذي الدكتور جون لويس .

كنت أحاول ان أعيش دنياي في لندن بكل لحظاتها ولكني أنا بشر ، فقد كنت اتذكر اسرتي الصغيرة في بعض الاحيان . ان أعضائها الآن كلهم في المدارس ، ورعايتهم المدرسية مسألة بالغة الأهمية . ان الموارد المادية التي تركتها تكفي الحياة الكريمة لهم . وهامهم



قد استقلوا واصبح للأسرة بيت خاص كنت قد اضطرت الى استئجار شقة فيه في شهر يونيو عام ١٩٤٠ ، عندما عدت الى مؤسسة الزفاف الملكي للمرأة الثانية . كانت الحياة في « بيت عويس » ، الذي ولدت فيه وعاشت أمي فيه منذ ان دخلته زوجة لابي ، لاتطاق وكان ان وجدنا البيت الذي يليق بالاسرة وكان قريبا من مبنى المؤسسة . وقد بدأ لي عندما اتخذت هذه الخطوة الشجاعة ان امي كانت غير راغبة فيها ولكنها اضطرت الى ان تخطوها معي ومع باقي اعضاء الاسرة على ان تترك حرة فتذهب الى حيث شاءت لتزور من تحب ان تزور من الاقارب والجيران والمعارف التي عاشت اكثر من نصف عمرها معهم وبالقرب منهم . كنت اتذكر اعضاء اسرتي الصغيرة فأكتب لهم ويكتبون لي . كنت اكتب لكل فرد خطابا خاصا ينضمّن كلمات التشجيع وفوق كل ذلك كلمات الحب والاحترام لكل واحد منهم . وكانوا يكتبون لي ما يحدث لهم من علاقات في البيت او في المدرسة او حتى في الحارة . واخبار المكتب الذي تركته بعد ان تم الاتفاق مع علي ماهر باشا رئيس جمعية الدراسات الاجتماعية في ذلك الحين عندما قابلته مع السيدة الزا في موعد حدده لها لاستقبالها واستقبالي ، على ان امنح اجازة بدون مرتب لمدة سنة قابلة للتجديد . وقد وافق علي ماهر على ذلك وبارك آمالي ورجا لي التوفيق - لم اعرف عن اخبار المكتب شيئا . كان لا يكتب لي احد ولم اكتب انا ايضا لاحد . وقد فوجئت ولم تكن المفاجأة غير سارة بأن عبد العزيز فتح الباب عين بتوصية الدكتور محمد عوض ليكون مديرا للمكتب من بعدي . كان واصف يوسف اقدم الباحثين بالمكتب في

بعثة الى الولايات المتحدة ليدرس هناك . وقد منحته هذه البعثة السفارة الاميركية . وذهب واصف منذ عام ١٩٥٠ الى الولايات المتحدة تاركا أسرته التي كان هو عائلها الاكبر بعد وفاة ابيه ولم يعد حتى كتابة هذه السطور . لا يعرف احد عنه شيئا . ولم يرغب هو في ان يعرف احد عنه شيئا . وعين عبد العزيز فتح الباب مديرا للمكتب في مكاني الذي لم اتركه . لقد اراد الدكتور محمد عوض ان يرينى قوته وسسوطته والنفوذ الذي كان يستطيع ان يستخدمه كرئيس للهيئة التنفيذية لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة . انه كان وكأنه يقول لى وانا بعيد عنه بعد القاهرة عن لندن بل ربما ابعد من ذلك اذا كانت المفارقة بين ما يشغل تفكرى وما يشغل تفكيره - ان المكتب يعويس او بدون عويس يسير فى سبيل تحقيق اهدافه . ولكن الزمن خطا هذا الرجل . فالمكتب بمرور الزمن وبتنوع الاهداف قد انهار او كاد . وفى الخدمة الاجتماعية وفى غيرها من مواقع العمل لا يمكن ان نتوقع النجاح الا باختيار العاملين الصالحين والمخلصين الذين خلقوا للعمل الذى يعملون فيه . احبوه فاحببهم واعطوه فاعطاهم . انها الحقيقة الناصعة تؤكد ان عبد العزيز لم يكن مرعوسا سويا فكيف يكون رئيسا سويا ؟ كان لا يرى فى ضوء ظروف طفولته وصباه وشبابه وانا اعذره ، الا مصلحته . لا يمكن لشخص مثل هذا ان يواجه رئيسا مهما كان مركزه الا بما يرضى هذا الرئيس ولو كان ذلك على حساب مصلحة العمل واثقانه وتحقيق هدفه . ان مايقنع هذا الرجل ، وامثاله كثير ، انه لا يمكن ان يقف فى سبيل رغبة رئيس ولو كانت تهدم المبادئ والاسس التى تحقق رفعة العمل ولا يكون

العمل . فعلا إلا بوا خشية ، كما كان يقول لى ، أن يامر  
بنقله خارج القاهرة . وماذا بعد ذلك يفعل وظروف  
أخيه « حميدو » مازالت هى الظروف ، وفوجئت  
مرة أخرى عندما اخبرت بأن عبد العزيز فتح الباب  
الذى عين مدير للمكتب بدلا منى قد وافق له بتوصية  
الدكتور محمد عوض على السفر فى بعثة الى الولايات  
المتحدة « جامعة بوستن » ليحصل على درجة  
الماجستير . . وسافر فعلا وكنت لا ازال فى لندن .  
عدت الى القاهرة من لندن فى يوم ٢٦ من شهر يونيو  
عام ١٩٥٢ « فى اللحظات التى خرج فيها للنش الذى  
كان يحمل الملك فاروق بعد عزله من ميناء الاسكندرية » .  
وعرفت كيف سسافر عندما قابلته بعد عودته  
قال لى عبد العزيز فتح الباب أن الدكتور محمد عوض  
لم يوافق على سفره الا بعد ان حاول أن ينحنى له  
احتراما وتقديرا . اننى اكتب ما كتبت من قبل وقلبي  
يعتصره الحزن والالم . فقد كان يوم عمل معى طالبا  
يتدرب تحت اشرافى فى مؤسسة الزفاف الملكى شخص  
بطال الاسى من عينيه ، وكان على الرغم من النكات التى  
كان يطلقها من حين الى حين أمام الآخرين لكى يضحكوا  
ويضحك معهم فان ضحكهم لم يكن يخرج من قلبه وان  
كان ضحك الآخرين كان يخرج من قلوبهم . كان الاسى  
وعلاماته التى كنت اراها واعرفها واعرف مصادرها  
هما طعامه وشرابه . وقد تعلم من الحياة ان لا يسألى  
اذا ما اسىء اليه وبخاصة اذا كان الذى يسىء اليه  
شخصا مرموقا . فليسىء اليه من شاء أن يسىء . فهو  
من أجل ذلك فى حمايته وفى ظل سطوته ونفوذه .  
والامثلة على كل ذلك كثيرة وعديدة . ولاداعى لذكرها .  
وبكفى الشخص منا ان يراه مخمورا ليعرف حقيقة ما فى  
نفسه ، ترى فى هذه الحالة دخيلة نفسه التى ينبجس

دائما وهو يقظان في اخفائها تبدو واضحة جليلة .  
ويكفى أن يرى الشخص منا ما يحاول أن يصل اليه  
وينجح دائما عندما يكون مرض أخيه العقلي موضع  
الحديث . انه على الرغم من المعاناة التي كان ، ولا يزال  
يعانيها من تصرفات أخيه أو من بعضها ، فانك تراه  
يسامو عليها لكي يحصل من ذي النفوذ على ما يريد .  
ويكفى أن يعلم الشخص منا أسماء ذوي النفوذ الذين  
كان يعمل عبد العزيز فتح الباب لهم حسابا ، ولا أقول  
بكن لهم احتراما ، انهم على مر السنين قد تقلص  
نفوذهم ، ومن ثم فهو غير محتاج اليهم . وتراه بعد  
أن كان يسير وهو يلهث من ورائهم يحاول الآن أن يسير  
بعد أن استغنى عنهم ، امامهم وهو يتبختر . ولأنهم  
أغبياء ، ولأنه ذكي ، فانهم لا يفقهون . بل على العكس  
تري الواحد منهم يشكو لان عبد العزيز لا يأتي للسلام  
والتحية كما كان يفعل . وهل يبيع عبد العزيز  
فتح الباب ذكاه في « سوق الكانتو » ليفعل ذلك  
الآن ؟

وكان من فضل الله على وأنا في ظروف المتباينة في  
لندن أن يصلني خطاب من السيدة الزا يقول انني قد  
عينت في وزارة الشؤون الاجتماعية منذ اول ابريل عام  
١٩٥١ في مراقبة الاحداث بالوزارة « مصلحة الخدمات »  
بنفس مرتبي الذي كنت احصل عليه من المكتب .  
ومنحت مدة سنتين اجازة بدون مرتب قابلة للتجديد  
للدراسة في الخارج . وكان الفضل في هذا التعيين  
للسيدة الزا والدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية  
في ذلك الحين وتوصية الدكتور احمد حسين وزير  
الشؤون الاجتماعية المختص واستراح قلبي من ناحية  
الوظيفة واستقر تفكيري من هذه الناحية . ولم يكن



شغلنى كثيرا اننى تركت زوجتى وأولادها وأكبرهم  
أحمد قد أصبح فى سن الثامنة عشرة من عمره أو كاد  
وأصغرهم مسعد الذى أصبح فى سن الثامنة « أو أقل  
من ذلك » من عمره ، وذلك لان المنزل الجديد الذى  
أصبحت تسكنه أسرته منذ شهر يونيو عام ١٩٤٠ كان  
قريبا ليس فقط من المؤسسة التى كنت أعمل فيها بل  
كان قريبا أيضا من منزل أسرة زوجتى التوجيهية ، أى  
أسرة أبيها وأمها وأخوتها وأخواتها . وكانت أسرته  
الصغيرة بسبب ذلك تزور وتزار . وكان عطف جد  
أولادى لأهم وحبهم عليهم مضرب الأمثال . كان رجلا  
فاضلا ومثالا للتقوى والورع . أما جدة أبناى لأهم  
فقد كانت سيدة حازمة فى معظم تصرفاتها ، وكانت  
كما يقال « صوتها من دماغها » ، ومع ذلك فقد  
كانت كريمة لا تبخل على قريب أو على غريب بشيء من  
مأكل أو مشرب أو ملبس أو غير ذلك من نقود إذا كان  
فى حاجة إليها . ويبدو أنها كانت تستمد سلطانها  
على الناس بالسخاء عليهم . ومن ثم كانوا دائما من  
حولها وتحت مشيئتها إذا كان فى وسعها أن تسخرو  
وتعطى . وعندما لم تستطع لأسباب عديدة أن تقدم  
للناس ما يرغبون فيه ويتوقعونه منها ، أنقضوا من  
حولها . وفى ضوء الظروف التى كنت أواجهها فى  
ذلك الحين ، لم أكن أخشى على أعضاء أسرته الصغيرة ،  
وأسرة أهم التوجيهية فى ضوء أحوالها الثقافية  
الاجتماعية والاقتصادية كانت تسمح بمد العون إذا  
طلب العون سواء كان هذا العون معنويا « وكان هذا  
ماهتم به جدا » أو كان ماديا .

وإذا كنت أرجع وأنا فى مدينة لندن الى واقعى  
والى واقع من الود بهم ويلودون بى فى مدينة القاهرة

أفنى بعض الأحيان ، فأننى كنت أعيش الحياة اللندنية  
أو أحاول أن أعيشها بكل ما فيها فى معظم الأحيان .  
أن العمر يسرع بى والوقت الذى بين يدي يمر مر  
السحاب والنقود التى أملكها لا يمكن أن تبقى من غير  
أن تصرف . أنها تصرف فى الضرورى كل ما هو  
ضرورى ما فى ذلك من شك ، ولكنها لن تبقى بمرور  
الأيام . فأننا أدفع الإيجار الأسبوعى منتظما ، وأنا  
أشتري ما يلزمنى من ملابس أواجه بها تقلبات المناخ  
المتغير فى الشتاء وفى الصيف على السواء ، وفى الربيع  
والخريف كذلك . وأنا أواجه نفقات الطعام « ثلاث  
وجبات على الأقل يوميا » فضلا عن كل ذلك بل وقبل  
كل ذلك فأننى أواجه مصاريف الدراسات المنتظمة  
وغير المنتظمة : مصاريف الكلية والمدرسين الخصوصيين  
وأثمان الكتب وما أدراك ما الكتب . ولا يمكن أن أنسى  
وسأذكر دائما كيف حصلت على كتاب « ويلفرد بلنت »  
« التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى المصرى »  
« طبعة ١٩٠٧ » . كنت أرغب فى شراء كتاب  
« تيودور روزشتين » « خراب مصر » ، فنصحتنى أحد  
أعضاء أسرة برم روز لكى أحصل عليه بالذهاب الى  
محل يبيع الكتب القديمة وهو يقع فى أطراف مدينة  
لندن . وذهبت الى المحل عن طريق مترو النفق .  
ووجدت المحل المنشود وسألت عن كتاب خراب مصر  
فلم أجده ، ووجدت كتاب بلنت ، وكنت قد سمعت  
عنه من قبل وقيل لى أنه ترجم الى اللغة العربية  
سرا ، وعندما حاولت شراء نسخة من الترجمة العربية  
وأنا فى القاهرة لم أتمكن . وأحسست بخفقان قلبى  
عندما رأيت كتاب بلنت . قلبت فيه وصافحتنى صورة  
« الإمام محمد عبده » ، فحقق قلبى أكثر وأكثر . أن

جزءاً من تاريخ مصر أصبح بين أصابعي الكليلة اقلب فيه ماشاءت قوتها ان تفعل ، وان عيني وهما تريان صورة الامام محمد عبده - وكان يصلى وينظر الى من يأخذ صورته - بدتاً وكأنهما لا تصدقان . كانت عيناى تنظران الى صورة الامام ثم تعودان وتقلبان مع أصابعي الكليلة صفحات الكتاب وسرعان ما كانتا ترتدان الى الصورة مرة ومرة ومرات . وسألت عن ثمن الكتاب ، بعد ان صممت على شرائه وانا جدلان ، فقسال البائع وهو جامد الاسارير « ثلاثة جينيز » اى ثلاثة جنيهات انجليزية وثلاثة شلنات . وكنت أعلم ان مافى جيسى هو هذا المبلغ بالتمام والكمال ، وحمدت الله على ذلك . ونسيت اننى لابد ان اعود الى بيتى واننى اذا فعلت ذلك ، ولا بد لى ان افعل ، سأضطر الى ان اعسود سائرا على الاقدام . وحمليت الكتاب تحت ابطى وقفلت راجعا الى البيت ولم أشعر بشيء غير اننى أحمل كتاب « انتاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » تحت ابطى . وعلى الرغم من ان دخول هذا الكتاب فى مصر كان مشكوكا فيه مادام الملك فاروق ونظامه الملكى جاثمين على صدر مصرنا الخالدة ، فاننى كنت سعيدا ، وقد غدرنى الشعور بالسعادة فلم آبه لشيء قد يحدث للكتاب او يحدث لى عند هودتى الى القاهرة . انه معى الآن وفى حوزتى وهذا يكفى ، ولا بدأ فى قراءته من الليلة . وليت هذه القراءة ان تطول وتطول حتى اعرف ما لم اكن اعرف ، ولعل ما اعرفه ان يفيدنى ، يفيد نظرتى نحو الحياة ويشرى افكارى ويشمى تفكيرى . واعترف بأننى كنت سأقرأ كتابا ألفه رجل بريطانى وانه على الرغم من انه كان صديقا لعرابى وانه كان « ايرلندى » ، فهو بشر قد يخطئ فنغفر له ، ولكنه

قد يتحيز وتكون الطامة الكبرى . ومع ذلك فأننى  
بادرت الى تخصيص وقت لقراءة هذا الكتاب . وكنت  
أقرأ عن أمور وعن أشياء لم أعرف عنها شيئاً من قبل .  
وقرات أيضاً عن أشخاص مصريين وطنيين مخلصين  
وعن أشخاص مصريين غير مخلصين . وقرات أيضاً عن  
أشخاص أجنب . وبكى قلبى قبل أن تبكى عينى على  
« الشهيد محمد عبيد » الذى استشهد فى موقعة  
« تل الكبير » . وكان « عرابى » محل إعجابى وهو يقف  
أمام قلعة الاستبداد فى ميدان عابدين ليعلى كلمة الحق  
كلمة مصر والمصريين . وإن ملا الحزن قلبى لما حدث  
له ورفاقه وهم فى المنفى فى جزيرة سيلان . وقلت فى  
نفسى انهم بشر لهم إخطاؤهم ولهم مآثرهم . واعترف  
بلنت بمآثر « عبد الله النديم » وأنصف « حسن موسى  
العقاد » فيما يتعلق باتصاله بمذبحة الاسكندرية التى  
دبرها أعداء عرابى فى خلال شهر يونيو عام ١٨٨٢ ،  
وأثبت فى ملاحق الكتاب شهادة « مستر جون  
نيت » التى تؤكد عدم علاقة حسن موسى العقاد بهذه  
الحادثة اللاإنسانية . وقد ذكر بلنت عن « سلاطان  
باشا » الكثير وبخاصة ما يتعلق بشخصيته وعلاقته  
بعرابى وبمستر « جلادستون » رئيس وزراء بريطانيا  
فى ذلك الحين وبالخدوى « توفيق » . تحدث بلنت  
عن غيرة سلطان من عرابى ثم خيانتة له وتركه للحزب  
الوطنى الذى كان يضم أعضاء الحركة الوطنية على  
اختلاف مشاربهم ومصالحهم ، وكيف أصبح سلطان  
ليس خادماً للخدوى توفيق فحسب بل كان قبل ذلك  
وبعده عبداً للإنجليز . وذكر بلنت مبلغ ال عشرة آلاف  
جنيه هدية توفيق له بعد هزيمة « تل الكبير » والوسام  
« من طبقة فارس » الذى منحه الإنجليز له فى نفس

المناسبة . ومهما قيل عن اسف سلطان لما فعله ، كما  
 ذكر بئنت في كتابه ، فان هذا الرجل قد لطح شرفه  
 بانوحل واثبت للملا في عهده وعلى مدى التاريخ انه  
 خائن لوطنه ولرفقائه ولنفسه . وكل ماذكر عنه بعد  
 ذلك تبريرا لوقفه المشين يدحضه ان بنته المشهورة  
 « هدى شعراوي » لم تجرؤ في حياتها ان تنسب  
 نفسها على غير عادة المصريين الى اسمه . لم تذكر  
 شيئا علنا عن ان سلطان - قبل وفاتها في يوم ١٢ من  
 شهر اغسطس عام ١٩٤٧ - كان اباه . واذا كان هذا  
 الاب الخائن قد مات في يوم ١٤ من شهر اغسطس عام  
 ١٨٨٤ فانها هي واعوانها والمقربين اليها من اصحاب  
 المصالح قد اخفوا هذه الحقيقة المرة ٦٣ عاما . فظهر  
 اسمها « هدى شعراوي » ولم يظهر كما تفعل كل  
 مصرية « هدى سلطان » . انه الشغور بالذنب الذي  
 لا يخفى على لبيب ، الذي برر لهذه السيدة ان تشبه  
 دون ما مبرر قانوني او ثقافي بالمرأة الاجنبية فتنسب  
 الى اسم زوجها بدلا من اسم ابيها او اسم اسرتها -  
 التوجيهية او عائلتها لابيها التي سمعت كما تقول ، في  
 مذكراتها التي نشرت في شهر سبتمبر عام ١٩٨١ ،  
 من بعض اقاربها نقلا عن آبائهم وأجدادهم انها من  
 اصل عربي . اي ان سلطان ابا هدى شعراوي « او  
 على وجه اليقين هدى سلطان » كان من اصل عربي .  
 « وقد استوطن اجداده ارض الحجاز وهاجر نفر منهم  
 الى مصر قبل عهد محمد علي باشا واتخذوها موطنها  
 لهم ، وتزوجوا مصرية » . والاسرة العربية كما يعلم  
 الجميع اسرة ابوية ينتسب ابناءؤها ، ذكورا كانوا او  
 اناثا ، الى الاب . وتحدث هذه الظاهرة الاجتماعية  
 في المجتمع المصري ولا يشذ عن ذلك الا من يروق لهم



هذا الشذوذ .

وكنت اقرا كتاب بلنت كل ليلة قبل ان انام . وكلما قرات جزءا منه كنت ارجو ان تضاف اليه اجزاء حتى لا تنتهي قراءته . وعشت فترة القراءة مدهوولا لما كان يحدث في بلادى فى الفترة التاريخية التى كتب عنها . لم اكن اتصور ان ما حدث حدث فعلا . وكثيرا ما كنت اشك فيما كنت اقرا واستوعب ، ولكن الوثائق التى ضمها الكتاب كانت تبعد شكى . ولعل كتاب بلنت ان لفت انتباهى الى ان دراسة علم التاريخ امر ضرورى . فكل شىء له تاريخ كما يقولون . وبالإضافة الى التاريخ اكدت لى دراسة علم الاقتصاد الذى كان استاذى الدكتور جون لويس يواظب على اعطائى الدرس عن هذا العلم تلو الدرس شارحا لى ما كنت لا اعلمه او كـ... امامى يبدو غامضا ، انها دراسة ضرورية ايضا . فعلم التاريخ بكل ضروبه يشرح الماضى ويفسر احداثه . وعلم الاقتصاد يشرح الحاضر ويفسر احداثه . ودروس الفلسفة فضلا عن نشأة العلم ومنهجه التى كنت اتعاطاها فى كلية مورلى ، وما كنت استوعب من علوم فى كلية البوليتكنيك ومعهد الصحافة « بالمراسلة » ، كلها ، وغيرها من العلوم التى تضمها الكتب التى كنت اقرؤها قد اكدت لى ان محيطات المعرفة المنتظمة وبحارها عميقة عميقة وانها ايضا تكمل بعضها البعض سواء كانت علوما انسانية او علوما مادية . وكنت أنظر الى « دائرة المعارف البريطانية » وهى على « الرف » فاذا انا مررت بها احنى راسى اجلالا واحتراما . وكنت اسمع او اتخيل اننى اسمع ما يدور بين المؤلفين الذين دونت آراؤهم فى صفحاتها ، كنت اسمع او اتخيل اننى اسمع همهمات تدور بينهم ثم تعلو فتصبح همسات

ثم تصبح هذه الهمسات ما يشبه الترحيبات بالتأييد أو ما يشبه المشادات بالمعارضة ، كان بعض المؤلفين يؤيدون بعضهم بعضا بل وكان يعترف الواحد منهم بفضل من سبقه ، وكان بعض المؤلفين يعارضون بعضهم بعضا بل ويكاد يتهم الواحد منهم الآخر باقتباس آرائه دون الإشارة إليه . وقد يصل الاتهام الى حد ارتكاب جريمة سرقة هذه الآراء عن عمد . ومهما يكن فأننى كنت أرى أشعة نور المعرفة تلمح خلايا مخى فأرائى أحنى رأسى اجلالا واحتراما للجميع . وأنا أرجو من القارئ ان يتصور ما حدث لى عندما قرأت عن استاذ « اسحق نيوتن » عندما كتب الى ادارة الجامعة ، وكان نيوتن فى السادسة والعشرين من عمره ، يطلب منها ان يجلس تلميذه على الكرسي الذى كان الاستاذ يجلس عليه اعترافا بما حققه نيوتن من نتائج بحوثه التى اجراها وهو فى هذه السن المبكرة وكانت لها بصمات على تقدم العلم واتساع آفاقه مما دعا استاذ نيوتن ان يفيد منها . واذا كانت دائرة المعارف البريطانية قد خلدت اسحق نيوتن فانها قد خلدت ايضا استاذ « اسحق بارو » . وائنى اذ أرجو القارئ تصور ما حدث لى فأننى أرجوه ايضا ان يقارن بين مافعله استاذ اسحق نيوتن ومافعله معى استاذى دكتور محمد عوض محمد . شستان بين الثرى والثريا ، ان السر الذى يكمن فى ثنايا رفعة مجتمع من المجتمعات قد وضع جليا بالمثل الذى ذكرت . ان السر فى عظمة مجتمع كالمجتمع الانجليزى ، مهما كانت الامور التى نراها او يراها غيرنا عيوباً ، هو موقف الاستاذ من تلميذه الذى ان دل قائما يدل على احترام العلم واعطاء ، بنفس راضية مطمئنة ، كل ذى حق حقه . والفضل كان لاستاذى جون لويس فى اهتمامه

الشديد لكى اقرأ بعض الموضوعات التى تتعلق بالعلوم  
التي يدرسها لى وغيرها فى دائرة المعارف البريطانية  
فضلا عن الكتب المتخصصة الاخرى . كان هذا الاستاذ  
لا يالوا جهدا ، وقد عرف شغفى بالعلم ، ان يسر لى  
سبيله بكل ما فى وسعه . ارسل اليه « هوارد فاست »  
الاديب الامريكى المعروف نسخة من روايته عن  
« اسبارتاكوس او ثورة العبيد » هدية ليقرأها ، فاذا  
به بعد ان قراها راي ان يهديها الى ، اقرؤها واتيح  
الفرصة لغيرى لكى يقرأها . وقد قرأت رواية هوارد  
فاست الامريكى عن « ثورة اسبارتاكوس ورفاقه » التى  
بدأت قصتها فى عام ٧١ قبل الميلاد ، عندما اعلن للناس  
فى اوائل شهر مارس من هذا العام نبأ يقول ان الطريق  
من المدينة الخالدة « روما » الى مدينة « كابوا » قد  
أعيد فتحه ، اى عندما بدأ « كايوس كراسوس » رحلته ،  
وكان بصحبته اخته « هيلينا » وصديقتها « كلوديا  
ماريوس » لكى يقضى ثلاثتهم اسبوعا مع بعض الاقارب  
فى كابوا . وكانت الفتاتان تركبان على محفتين مكشوفتين  
يحمل كل واحدة منهما اربعة من العبيد يستطيع الواحد  
منهم ان يجرى فى هدوء وهو يحمل المحفة على كتفه  
عشرة اميال دون انقطاع ! وكان كايوس يركب جوادا  
عريبا اصيلا ذا لون ابيض جميل منحه أبوه اياه فى عيد  
ميلاده . وتروى القصة ان كايوس ورفيقتيه كانوا  
يعلمون قبل ان يبدءوا رحلتهم بأنه قد تناثرت على جانبي  
الطريق الى كابوا رموز العقوبة وآثار الانتقام . وقرأت  
وقرأت وعندما قال الدليل لكايوس ورفيقتيه وهم  
واقفون امام احد الرموز :

لا يجب ان يدور بخلدكم ان هذا امر غير انساني او  
شئ فظيع . انها روما تعطى وانها روما تأخذ ، وان

الجزء من جنس العمل ، وهذا المصلوب وأخذ مسن  
كثيرين سيأتون بعد . من هنا الى كابوا هل تدرون كم  
عددهم ؟ » .

سرت في جسمى الرعدة كما سرت في اجسام العبيد  
حملة المحفتين عندما ذكر العدد . لقد بدأ القلق على  
حاملى المحفتين وتصلبت اجسامهم ، تماما كما حدث لى .  
ولكن لم يلاحظهم احد ، ولم يلاحظنى وانا اقرا العدد  
ايضا احد . كان عددهم ستة آلاف واربعمئة واثنين  
وسبعين مصلوبا .

ولم يكن المصلوب الذى وقفوا امامه « اسبارتاكوس »  
نفسه وذلك لان اسبارتاكوس قد قطع اربا اربا الى درجة  
انه لم يعثر احد قط على شعرة واحدة من شعره او قطعة  
واحدة من جلده . ان حالة اسبارتاكوس تختلف عن  
حالة هذا المصلوب الذى جىء به الى هنا . لقد اعمل  
فى هذا بعض التمزيق . وأشار الدليل بعصاه الى ندبة  
طويلة فى جانب الجسد الميت المعلق فوق راسه .  
كانت الندبات غير كثيرة وكانت توجد كلها فى جانبي  
الجسم او فى الجزء الامامى منه ، ولا توجد ندبة واحدة  
فى ظهره . وقد استمر المصلوب اربعة ايام وهو يموت ،  
وربما زاد عدد الايام لولا انهم قطعوا احد اوردته ،  
واستمر دمه يسيل حتى استنزف عن آخره . وقد أكد  
الدليل ان المصلوب كان مشاكسا متحديا ذا كبرياء . وقد  
ذكر أنه عندما اتى به اول يوم الى حيث هو الآن ، ثم  
بعد ان علق على الصليب ، كان يلعن كل من اتى من ابناء  
روما المهدين ! ليشاهده ، كانت لهجة مخيفة ولفته  
مبتدلة تؤذى اسماع اية سيدة كريمة ! وقد استمر  
يطلق شتائم على الرغم من اننى كنت اقول له احيانا :  
« ان الكارثة التى انت فيها هى مصدر رزقى . واذا

كانت طريقة موتك ليست أحسن طريقة يموت بها  
إنسان ، فإن كسب عيشي هذه ليست أحسن طريقة  
يكسب بها إنسان بها عيشه ! وسيتقلص ربحي حتما إذا لم  
يكف لسنانك البذء عن القذف والسباب . . ان أصله  
وضيع فالعبد عبد ! واننى مع ذلك لا أضمر له أى  
سوء . . «

وكما توقعت تماما كانت نبوءة هوارد فاست على لسان  
المصلوب صحيحة حقا . انه لم يأبه لحديث الدليل اليه  
فى قليل أو كثير بل استمر يطلق شتائمته حتى اذا اتى  
مساء اليوم الرابع والاخير لم يسمع له صوت وساده  
الهدوء واصبح جسمه متصلبا ثم قال وكان قوله آخر  
ما قال :

« سأعود اليكم . وعندما أعود سأكون ملاينا » .  
ان هذا المصلوب كما تقول الراوية لم يكن اسبارتاكوس  
ولكنه كان احد معاونيه ، كان رجلا شديدا البأس وكان  
من المحبين المقربين الى اسبارتاكوس ولكنه لم يكن فى  
شدة بأسه . كان اسبارتاكوس رجلا قوى الشكيمة  
حقا . ولم يعرف احد طريقا اليه بعد هلاكه . فقد مات  
ميتة متوحشة واصبح من الناحية المادية اثرا بعد  
عين . وبقي مع ذلك اثرا معنويا خالدا يقتفى اثره وتترنم  
بأمجده سطور التاريخ . وقد تركت رواية فاست اثرها  
فى نفسى مافى ذلك من شك . اكدت لى ان الامل فى  
الخلاص موجود فى محيط الدين يحتاجون الى الخلاص  
انهم وحدهم يستطيعون ان يحطموا الاغلال او ان يضربوا  
المثل الخالد اذا مافشلوا ان يأتى من بعدهم لكى يسعوا  
من اجل الخلاص وحدهم دون انتظار « مخلص » يأتى  
لانتقاذهم . ان الانسان مهما كانت ظروفه يستطيع أن  
يقاوم الطغيان سواء كان هذا الانسان فردا أو ينتمى



الى جماعة ، ولكن الانتماء قوة تيسر مواجهة القهر ، كانت رواية اسبارثاكوس تتضمن العنف وتترقش سطورها بالحب ، الحب الشخصي والحب الانساني وما اعظم كل منهما . ان الحب الصادق يستطيع ان يواجه وحده العنف والقهر لانه لا يدع للحقد سبيلا يسلكها بين المحبين . كانوا عبيدا فثاروا في ضوء ظروف ثقافية اجتماعية واقتصادية وسياسية غير مواتية . ثاروا ففشلوا واعطوا ، بعد ان دفعوا الثمن ثاليا وهم مصلوبون ، درسا لا يقوم لمن اتى بعدهم . اعطاني دكتور جون لويس كل فرصة يراها تصلح لي . لقد ذهبت مرة الى السينما لثري فيلم « فيفا زباتا » . ورأيت معه الفيلم وكان موضوعه ثورة على الاستبداد والظلم ايضا . نجح زباتا عندما كان ثارا فوجد كلمة شعبه الضعيف الفقير امام جبروت الظلم . وتوحدت الكلمة . ولكن منتج الفيلم لغرض في نفسه او في نفس من كانوا وراءه ابى الا ان يشوه دور المثقفين في اذكاء الثورة وشد ازرها . ففشل زباتا وقتل اشنع قتلة ، قتل غيلة . ولكنه ترك من ورائه ذكرى لم تخدم اوارها حتى لتتصر شعبة ..

وانني اذكر عندما ذهبت الى تري نيومان في منزله لاول مرة لاتعاطى درس « علم المنطق » ، وجدت امامي في « الصالة » التي يجلس فيها صورة « لينين » . وراح ينظر الى قسيمات وجهي ليري رد الفعل . ولكني حاولت ان اكون طبيعيا . لم يحدثني عن لينين وبالطبع لم احده انا الآخر . وانتهى الدرس في سلام ، وسعدت بما عرفت كما سعدت بالجلوس الى الاستاذ بعد الدرس لكي نتحدث . علمت منه انه يعطي دروسا في كلية البوليتكنيك ، وهو في الوقت نفسه اديب يؤلف

القصص والروايات والتمثيلات الاذاعية . وقد نبهني وهو فخور بأن له تمثيلية ستذاع في البرنامج الاذاعي المعروف « بمسرح ليلة السبت » . واستمعت اليها وكنت مفتبطا للغاية لان لغتها كانت سهلة ميسرة ففهمتها وهيات نفسي لمناقشته فيها عندما اذهب اليه في موعد الدرس المقبل . كان هذا الرجل ماركسيا ولكن زوجته التي رايتها عندما دعيت للغداء عندهما في احد ايام عطلة الاسبوع كانت « كاثوليكية مخلصة » . ولم يكن في الاسرة ابناء . وقد علمت ان الزوجة تعمل لتساعد في نفقات المعيشة ولكي تتيح الوقت الكافي لكي يكتب زوجها مؤلفاته التي لم تكن حتى ذلك الحين رائجة . واذا كان ترى نيومان ماركسيا واذا كانت زوجته كاثوليكية مخلصة فان امه كانت شيوعية ولها نشاط مرموق في الحزب الشيوعي الانجليزي . وعند ترى نيومان وانا في ضيافته وضيافة زوجته كنت اقبل اصدقاء له من الذكور ومن الاناث . كانوا جميعا شبابا من البريطانيين في مثل سني ، كما كانوا من فئة المثقفين الذين على شاكلة ترى نيومان الذي كان يكبرهم سنا . كان منهم اليهود وغير اليهود . وكان الحديث يتناول « القبلة الذرية » التي كانت في نظر الجميع وبخاصة ترى نيومان ، الانسان المرفف الحس جدا ، كايوسا يهدد البشرية . وكان الحديث يتناول مستقبل « افريقيا السوداء » وموقف البلاد التي تستعمرها ، ومنها بريطانيا طبعاً ، بعد استقلالها . كان هذا الموقف ايضاً يسبب لهؤلاء الاشخاص اضطراباً وكانوا يعتبرون مأسوف يحدث كايوسا يهدد المستوى الاقتصادي للبلاد التي تنعت افريقيا بافريقيا السوداء ، ومنها بريطانيا طبعاً . كانت الاحاديث شتى وموضوعاتها عديدة تناولت

الفن التشكيلي في روسيا وكان موضع أزدراء الجميع .  
وكان دورى أن أستمع ولم أعلق على شيء إلا إذا طلب  
منى ذلك . وكنت اعتبر هذه الجلسات ثمينة للغاية .  
كانت أقرب الى أن تكون حلقات دراسية منها الى مجرد  
جلسات عادية . كانت اللغة الانجليزية المتداولة لفسة  
فصحى لا يرهقنى فهمها . لم تكن بالطبع كلغة «الكوكنى»  
بائعى الفاكهة على عربات اليد الذين يقفون فى بعض  
أركان مدينة لندن . ومن ثم فقد كنت أنتظر هذه  
الحلقات الدراسية التى كانت تعقد من حين الى حين .  
ويكون الواحد منا فيها وكأنه ذائب فى أعضائها ولا يشعر  
بالفروق العقائدية أو السياسية أو الاجتماعية . ولاحظت  
أننى إذا كنت حريصا على حضور هذه الجلسات فإن  
ترى نيومان وزوجته كانا أيضا حريصين على وجودى .  
فأنا اجنبى وأنا مصرى ولى دور آخر فأنا تلميذ  
لترى نيومان . كل ذلك جعل المضيفين حريصين على  
أن يكون حضورى هذه الاجتماعات مطلوبا . وقد عرفت  
الكثير من هؤلاء وغيرهم وكانوا يتغيرون . وحاولت أن  
يعرفوا عنى الكثير أيضا وبخاصة عن مصرنا الخالدة التى  
كانت فى ذلك الحين تحت نير الحكومة الانجليزية وشعبها  
وإذا كان الدكتور جون لويس اتاخ لى الفرصة للذهاب  
معه الى دور السينما لنرى أفلام مثل « فيفا زاباتا »  
و « راشامون » ( الفيلم اليابانى ) و « الصندوف  
السحري » عن اختراع آلة الكاميرا السينمائية ،  
فإن ترى نيومان كان يشجعنى على الذهاب الى دور  
السينما أيضا . كان لا يذهب هو . وكنت وزوجته بناء  
على طلبه نذهب الى الأفلام التى كان يختارها لنا وكانت  
كلها أفلاما روسية . وآننى أذكر أننى رايت فىلما قصيرة  
من علاج المكفوفين الذين يمكن بعد إجراء عملية معينة ،

ألا كانت حالة مرتفعهم تسمع ، أن يروا الدنيا بما فيها  
من أناس ومن الطبيعة ومن ألوان .. الخ ، كان يسمى  
هذا الفيلم « أنت تستطيع أن ترى » . كان فيلما عظيما  
جدا سعدت برؤيته وازداد ايماني بالعلم والتسلسل  
آفاق تفاؤلي بالحياة . واذكر أيضا أنني رايت فيلما  
من حياة « لينين » . كان فيلما طويلا مقسما الى جزئين  
فرأيتنا كل جزء المرة بعد الأخرى . كان فيلما تسجيليا  
يبين كيف نشأ لينين وكيف تعلم ومتى بدأ النضال  
وملابسات هذه البداية ، والمعارك التي خاضها سواء  
كانت معارك فكرية أو سياسية ، وبدأت للمشاهدين آراءه  
في الثورة وكيف تنظم ومراحلها وانتهاز الفرص المواتية  
لإنجاحها في الفيلم واضحة .. وانتهى الفيلم بموت لينين  
واستمرار المسيرة من بعده على يد « ستالين » وكنت  
أرى هذه الأفلام وكأنني قرأت كتبها . لم أكن أعلق  
على موضوعاتها الا قليلا . وكانت زوجة ترى نيومان  
مثلي ترى وتستوعب ولا تعلق الا قليلا . على عكس  
ترى نيومان الذي كان حريصا عندما أقبله بعد مشاهدة  
الفيلم أي فيلم أن يناقشني فيه وأن ينتظر رأيي وأن  
يبدى رأيه . واتصالي لأول مرة بالاستاذ ترى نيومان  
كان في الفصل . فلما رأني عرف توا أنني أجنبي ورأى  
في ملامح وجهي ملامح وجه « الدكتور فراتكو »  
رئيس أسبانيا في ذلك الوقت فظن أنني من أسبانيا .  
فلما ذكرت له أنني مصري تهلل وجهه وابتسم ابتسامة  
عريضة . وفي الحصة التالية بادرني عندما رأني ذاكرة  
أن زوجته وهو يسعدان أن أزورهما في بيتهما في  
إجازة نهاية الأسبوع . وقد رحبت بذلك . وبدأت  
مسيرة التعرف على آل ترى نيومان حتى تركت مدينة  
لندن في شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وعندما عندت إليها في

شهر أغسطس عام ١٩٦٩ حاولت الاتصال بهما وبمن  
 جاءوا به من أبناء إذا كان ذلك قد حدث فعلا ، حاولت  
 بكل إخلاص ، ولكنى لم أوفق . وبقيت الذكرى .  
 وكنت أذهب إلى البوليتيكنيك بانتظام على الرغم من  
 المناخ المتغير ، أى سواء كانت السماء تمطر ثلجا أو  
 كانت تمطر رذاذا ، وسواء كانت الرياح تهب قارسة  
 قاسية وتلسع جسمى « كل جزء فيه » وكأنها « الكرابيج »  
 أو كانت هادئة كالنسيم العليل ! كنت أحضر دروس  
 العلوم المخصصة لاجتياز الدبلوم العام العالى فى التربية  
 التى بدأت الاستعداد لها فى المعهد البريطانى وأنا فى  
 القاهرة . وتتضمن هذه العلوم التاريخ والتاريخ  
 الاقتصادى الانجليزى والدستور البريطانى وعلم  
 الاقتصاد . وقد التحقت بهذه الكلية بعد مقابلة الاستاذ  
 الدكتور « هيرمان مانهايم » وكان واحدا من هيئة  
 التدريس فى جامعة لندن . كنت أعرف هذا الرجل  
 فقد كان يحاضرنا فى « علم الاجرام » فى عام ١٩٤٨  
 عندما كنت واحدا من الدارسات والدارسين الذين كانوا  
 يقومون للعمل كمراقبات اجتماعيات أو كمراقبين  
 اجتماعيين بالمحاكم . كان معظم هؤلاء الدارسين من  
 البريطانيين . وفى الوقت الذى كانت لغة الدكتور  
 مانهايم وهو يلقى محاضراته واضحة لى كل الوضوح ،  
 كان الدارسون البريطانيون يشكون من عدم وضوح  
 لغته التى يحاضرنا بها . كان اجنبيا من ألمانيا . وكان  
 يهوديا أثر ترك بلاده الى انجلترا كما فعل غيره من يهود  
 الألمان . واحتضنته بريطانيا واتاحت له فرصة العمل  
 فى تخصصه الذى اشتهر به وهو فى ألمانيا . كنت أعرف  
 الدكتور مانهايم « هيرمان مانهايم » وأنا اكتب الاسم  
 كاملا حتى لا يختلط بالدكتور « كارل مانهايم » الذى



يعرف في محيط طلاب علم الاجتماع المصريين بمؤلفه عن « علم الاجتماع المعرفي » . ومن ثم فقد كتبت اليه لاستنصحه في أمرى . وكان الرجل كريما فحدد لى موعدا قابلته فيه فى مكتبه فى جامعة لندن . وذكرت له ظروفى وأهدافى . وعرف عن مؤهلاتى وخبراتى فى ميدان علم الاجرام من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٥١ اى حتى قبل مجيئى الى لندن لاستكمل دراساتى العالية . وكان قراره بالنسبة للالتحاق بجامعة لندن مخيبا لآمالى . لم يعترف بدبلوم الخدمة الاجتماعية الذى حصلت عليه فى عام ١٩٤٠ . ولم يعترف أيضا بخبراتى الواقعية فى ميدان الاحداث الجانحين فى خلال فترة من الزمن لا تقل كثيرا من اثنى عشرة سنة . وكانت نصيحته ان أحصل على بكالوريوس من جامعة لندن أولا لكى احضر بعد ذلك لدرجة الدكتوراه مباشرة أو لدرجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه . لم يكن الدكتور مانهايم عطوفا نحوى أبدا ، ولم يبد أية رغبة فى كتابة تقرير عنى لادارة الجامعة شارحا فيه حالتى لعل وعسى . ولكنه والحق يقال اختار لى أن التحق بكلية البوليتكنيك حرصا على وقتى وتيسيرا لتحقيق آمالى التى بدت له وكأنها آمال شخص طموح يعيش فى عالم من الاوهام . وقبل ان أبرح المكان قال لى الدكتور مانهايم ان أحد تلاميذه كان مصريا واسمه « حسن الساماتى » ، وسألنى اذا كنت أعرفه . وقلت له اننى أعرفه ولم اذكر التفاصيل . لم اذكر له عندما اخترت فى بعثة الى لندن لدراسة اللغة الانجليزية ان المففور له الدكتور عبد المنعم رياض نصحه بدراسة مشكلة الاحداث الجانحين فهى أولى أن تكون موضوع اهتماماته . ولم اذكر له انه قبل ان يسافر فى بعثته زار مؤسسة الزفاف الملكى ولم تكن الحرب العالمية

الثانية قد أعلنت ، وكيف قوبل بالترحاب فهو مرسل بتوصية الدكتور رياض أول اثنين الدين كانوا يعرفون الكثير عن مشكلة الاحداث الجانحين المصريين ، وكانت له آراء رائدة فى تشريعات الاحداث منشورة . ولم اذكر للدكتور مانهام ان المسادة التى جمعها حسن الساعاتى فى رسالة الدكتوراه التى اجازها كان معظمها من « ملفات » حالات الاحداث الجانحين التى قام مكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ببحثها . . لم اذكر له كيف حدث هذا ؟ عندما جاءنى الزميل « حامد شاكر » وانا مدير للمكتب يطلب منى اتاحة الفرصة لطالب درجة الدكتوراه من جامعة لندن ليطلع على ملفات حالات المكتب ، وقد لبيت فى الحال هذا الطلب وخصصت غرفة خاصة من غرف المكتب لتكون تحت تصرف حسن الساعاتى هو ومن يرغب . وكان يعطى حالات الاحداث كل سنة على حدة منذ انشاء المكتب ، وما كان عليه الا ان ينقل بيانات كل حالة فى كشوف « تفرغ » أعدها لهذا الغرض . واستمر اسابيع يفعل ذلك حتى اتم ما اراد . وبان لقارئ الرسالة أن الحالات المنقولة بياناتها لم تكن نتاج بحوث باحثى المكتب وكان منهم الاساتذة محمود فهمى واحمد مرزوق وواصف يوسف وعبد العزيز فتح الباب وفتحية عبد الجواد وغير هؤلاء مثل الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى والدكتور الطبيب حليم مبرى . لم يذكر الطالب الذى أشرف عليه هيرمان مانهام اسما واحدا من هؤلاء الذين بحثوا الحالات التى أفاد من بياناتها فى رسالته . وما ذكره فى الرسالة كانت عبارة شكر للمكتب لا تعبر عن الواقع الذى كان . لم اذكر كل ذلك ولا غيره للدكتور هيرمان مانهام وخرجت من عنده وانا كاسف البال

يساورني القلق واكاد ان لا اجد بصيصا من نور يسدد  
مابدا امامي من ظلمات . ولكني لم ابال وسرعان ما سرت  
في كياني اشعة التفاؤل . وتأكدت بأن الحق ابلج وان  
ما فعله حسن الساعاتي او يفعله او سيفعله غيره مآله  
زبالة التاريخ . ولسوف يسأل التاريخ عن صحيفه  
الاستبيان التي في ضوئها كما زعم حسن الساعاتي  
جمع مادة دراسة الدكتوراه . انني لم اجدها في الرسالة  
ولم اجدها في كتاب من كتبه التي نشرها عن موضوع  
الاحداث الجانحين . ولكل طريقه . هذا طريق سلكه  
شخص اصبح يلقب بدكتور ، وقد اخترت طريقا  
آخر ، هو طريق ضيق نعم ، ولكن من سلكه كان آمنا  
واثقا يدعو الى كل ماهو طيب ويحاول مخلصا التغيير  
الى ماهو افضل واقي وواعظ . ولن يجدي الدكتور  
حسن الساعاتي ان يكتب في كتاب حديث وقع في يدي  
وانا اكتب هذه السطور اي بعد سبع وثلاثين سنة ، ان  
يقول معترفا بما فعله في عام ١٩٤٥ « . . حضرت الى  
القاهرة في اجازة دراسية من جامعة لندن لاجراء العمل  
الميداني لبحثي في موضوع جناح الاحداث في مصر .  
وقمت بنفسى باجراء العمليات الاحصائية والتصنيف  
بالعد اليدوي . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انني  
نقلت بنفسى وبمساعدة السيدة حرمى ملخصات كمية  
مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين » المهتمين  
بالخروج على قانون العقوبات او قانون الاحداث المشردين  
التي وردت الى كل من مكتبي نيابة الاحداث في كل من  
القاهرة والاسكندرية » . انه ذكر نقل ما يزعم انها  
ملخصات كمية مقتضبة لجميع حالات الاحداث الجانحين  
التي لم يبحثها هو نفسه ولم يذكر اسما واحدا من  
باحثيها . والملاحظ ان الحالات وردت الى كل من مكتبي

الخدمة الاجتماعية لحكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية والملاحظ أيضا ان ملف الحالة كان يتضمن معلومات كمية وكيفية : منها مثلا نتيجة اختبار ذكاء الحدث ودراسة نفسية عنه فضلا عن التتبع الذى كان يقوم به باحث الحالة ويتضمن هذا التتبع زيارات المسكتب والمحكمة والاسرة ومحل العمل والمدرسة وكل ما يتعلق بسلوك الحدث ومشاكله والاسهام فى حلها ومدى تقدم الحالة من هدمه والانتهاء من التتبع وعوامل هذا الانتهاء فقد يكون منها سفر الاسرة او هروب الحدث خارج القاهرة او وفاته .. الخ ان البيانات التى افاد منها الدكتور الساعاتى فى رسالته لم تكن ملخصات كمية مقتضبة ، فانا اذكر اننى اطلعت على كتاب قام الدكتور حسن الساعاتى بتأليفه فى عام ١٩٥١ « عندما كنت فى رحلتى العلمية الثانية فى مدينة لندن » ، وهو الكتاب الذى اعطاه عنوانا هو « فى علم الاجتماع الجنائى » . كان الدكتور الساعاتى فى ذلك الحين مدرسا بمعهد العلوم الاجتماعية - كلية الاداب - جامعة فاروق الاول « جامعة الاسكندرية » . وعندما اطلعت على هذا الكتاب وجدته ملخصا لرسالة الدكتوراه التى اجازها الدكتور هيرمان مانهام ، اى الرسالة التى قدمها الى جامعة لندن ومنح بعد اتمامها درجة الدكتوراه . ولاضير فى ذلك فالعمل عمله ومن حقه ان يضمه او يضم ملخصا له فى كتاب . وشاءت الظروف ان يتقابل الدكتور الساعاتى معى فى « المعهد القومى للبحوث الجنائية » فى عام ١٩٥٦ ، كان يعمل فى هذا المعهد بعض الوقت ، وكنت اعمل فيه كل الوقت . وبدأ المعهد العمل فى بعض البحوث فى ميدان الجريمة او ذات الصلة بهذا الميدان اختيرت خصيصا من الظواهر الالامعة اجتماعيا وتكونت

من أجل إجراء البحوث العلمية الاجتماعية والنفسية والطبية والأنثروبولوجية عنها هيئات بحوث مشسكلة من أعضاء المعهد ومن خارجه تحقيقا للشعار الذي تبناه المعهد في ذلك الحين « لا احتكار في العلم » . وكانت موضوعات هذه البحوث : « البغاء في القاهرة - مسح اجتماعي ودراسة اكلينيكية » و « تعاطي الحشيش » و « جريمة القتل » و « جرائم السرقة عند الاحداث » دراسة احصائية تحليلية » و « النار : دراسة انثروبولوجية » . وكنت قد عدت لتوى من الولايات المتحدة حاصلا على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة . وكانت في جمعتي افكار وافكار . منها مثلا ضرورة الاهتمام بدراسة الاحداث المعرضين للجناح ، وبدراسة حجم ظاهرة جناح الاحداث وحجم ظاهرة التعرض لجناح الاحداث ، والاهتمام الضروري بدراسة صور الجريمة والجناح كل صورة على حدة « كانت كل الدراسات والكتب التي تعالج موضوع الجريمة او الجناح تتحدث عن عوامل الجريمة وعوامل الجناح والملاحظ ان عوامل صورة كصورة جريمة القتل العمد غير عوامل صورة كصورة جريمة هتك العرض او الاغتصاب او جمع الاعقاب مثلا » . والاهتمام الضروري ليس فقط بالجاني وظروفه الثقافية الاجتماعية والاقتصادية .. الخ بل ايضا بالمجنى عليه وصصلته بالجاني .. الخ . وكنت ادهو الى ضرورة دراسة الجرائم غير المنظورة التي تبدو واضحة في جرائم مثل تعاطي المخدرات والتهمريب والرشوة والجرائم الجنسية . وفي ضوء تأثير مصالح استاذي الاستاذ يعقوب قام كان من اهداني ان ندعم عمل الفريق في كل بحوث ودراسات المركز . وكنت عندما انتهيت من



كتابة تقرير بحث « جرائم السرقة عند الاحداث »  
دراسة احصائية تحليلية « قد دعوت ادارة المركز  
الى مناقشة التقرير وذلك بان يجتمع باحثو المركز  
والاهتمون بالموضوع لمناقشة هذا التقرير كتقليد يتبع  
عند انتهاء كل بحث وبخاصة ونحن في مستهل حياتنا  
كباحثين اجتماعيين علميين مصريين في ميدان الجريمة  
والجناح ، اى ان مهنة البحث العلمى الاجتماعى في مصر  
مازالت في المهد ، ولعل المناقشات واكتشاف العيوب  
ونواحي القصور في بحوثنا اولا باول ان ييسر تلافى  
هذه العيوب وهذا القصور بمرور الوقت . واخذت ادارة  
المركز بهذا الراى ووزع تقرير البحث المشار اليه  
في شهر ديسمبر عام ١٩٦١ ، وحددت جلستان لمناقشته  
في اوائل شهر يناير عام ١٩٦٢ . مع ملاحظة ان هذا  
التقرير كان قد تم طبعه في يناير عام ١٩٦٠ .

\*\*\*

### صورة من جواب الدعوة لمناقشة التقرير هيئة بحث السرقة عند الاحداث

السيد الاستاذ الدكتور

مدير عام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية  
بغزة التحية ، اشرف بتقديم تقرير بحث السرقة عند  
الاحداث « المرحلة الاولى » في صورته النهائية .

وانى ابادر باقتدام باسمى وباسم زملائي اعضاء الهيئة

الفنية بالمعهد بالشكر العميق الى سيادتكم على ما تفضلتم به علينا من عطف وتشجيع طوال فترة دراسة هذه المرحلة من البحث . مما كان له اكبر الاثر في السير قدما نحو تحقيق الهدف ، على الرغم من العقبات والصعوبات التي صادفتنا .

وانتهز هذه الفرصة فأتقدم الى سيادتكم باقتراح عقد ندوة علمية للهيئة الفنية بالمركز ، يتحدث فيها ممثلون عن البحوث التي انتهت عن التجارب والصعوبات التي مرت بهم في خلال فترة البحث ، ومن ثم تتاح الفرصة للجميع لتبادل الآراء والخبرات في صراحة تامة ، وبهذا نختم مرحلة ونبدأ اخرى جديدة ونحن اعمق فهما واكثر نضجا ، ومن ثم اكثر ثقة في انفسنا بالمستقبل . . ومع جزيل الشكر .

ارجو ان تفضلوا سيادتكم بقبول فائق احتراماتي .

**المشرف بالنيابة عن البحث**  
**سيد عويس**

وكان اجتماع لجنة كتابة التقرير النهائي عن «بحث السرقة عند الاحداث » الجزء الاول » يضم هذا الاجتماع الزميلة آمال عثمان والزميلة ناهد صالح والزميلة هدى مجاهد والزميل على حسن فهمي والزميل يوسف صبرى . وقد تم هذا الاجتماع في خلال عام ١٩٥٩ اي قبل الانتهاء من من كتابة هذا التقرير في يوم ٢٤ من شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ .



وقد اضطررت الى الاشراف على البحث في شهر يونيو  
عام ١٩٥٨ عندما حالت ظروف استاذي الدكتور عبدالعزیز  
القوصي « المشرف الاول في خلال الفترة من شهر مارس  
عام ١٩٥٧ حتى شهر يونيو عام ١٩٥٨ » دون امكانه  
الاستمرار في الاشراف على هذا البحث . وكنت سعيدا  
جدا بهذه المناسبة العلمية ، وحضرها الكثيرون وكان من  
بين الحاضرين الدكتور حسن الساعاتي ومات المناقشة  
على مايرام . وقد افاد الجميع وانا منهم بكل ما قيل .  
وكان بين ما قيل ما قاله الدكتور الساعاتي « عما اذا كان  
المشرف « الذي هو انا » قد اطلع على كتابه « في علم  
الاجتماع الجنائي » ولاحظ ما ذكره من جرائم السرقة عند  
الاحداث في كتابه المشار اليه » وذكرت في جلسة المناقشة  
اني اطلعت على ما كتب في هذا الكتاب ، وان ما كتب فيه  
الكثير من الغموض وسارد عليه في دراسة انشرها في  
« المجلة الجنائية القومية » مجلة المركز القومي للبحوث  
الاجتماعية والجنائية « اصبح المعهد القومي للبحوث  
الجنائية في ضوء القانون رقم ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ المركز  
القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » . ورجوته امام  
الحاضرين أن يرد عليها ، ولنبدأ المناقشات العلمية في  
ميدان الجريمة والجناح في مصر بأسلوب موضوعي ،  
تكون فيه قدوة ومثلا يحتذى . فالهدف الاول هو مصرنا  
الخالدة . ونحن نعمل من أجل رفعتها وتطهير مجتمعتها من  
الادران والمشاكل ومنها ظاهرة الجريمة وظاهرة الجناح .  
وكانت الجلسة قد انتهت مدتها ، وكانت هي الجلسة

الثانية . وخرجت من المكان وقد عزمت على الاستعداد  
لكتابة الدراسة التي وعدت بأن اكتبها ، وعلى الرغم من  
الاتصالات التي كانت بينى وبين الدكتور حسن الساعاتى  
السابقة فأننى لم اكن لادعى اننى سبرت غور نفسه  
فى ذلك الحين . اصبحت منذ لحظة اهتمامه بالاحداث  
الجائحين عندى زميلا بل صديقا . وكل ما فعله فى الماضى  
قبل مناقشة بحث « جرائم السرقة عند الاحداث » يدل  
على ذلك . قبل ان يسافر فى بعثته فى عام ١٩٣٩  
وبعد ان عاد الى القاهرة واشترك مع زوجته الفاضلة  
فى اعداد معهد الخدمة الاجتماعية للفتيات بعد عام  
١٩٤٦ . كان ميدان عملنا واحدا ، واذا كان هو الاسبق  
فى التحصيل الاكاديمى العالى فكنت انا الاسبق فى العمل  
الاجتماعى فى ميدان الاحداث الجائحين سواء كان ذلك  
فى مؤسسة الزفاف الملكى او فى معسكر كوم امبو او  
فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة  
او فى ادارة الاحداث فى وزارة الشؤون الاجتماعية  
« شهر ابريل عام ١٩٥١ - شهر اغسطس عام ١٩٥٣ -  
كان تعيينى فى هذه الادارة عندما كنت فى لندن واستلمت  
العمل فى شهر اغسطس عام ١٩٥٢ » . كنت اود بكل  
الحب ان نناقش قضايا الميدان علانية اما فى اجتماعات  
اسبوعية او نصف شهرية او حتى شهرية ، او ان ننشر  
هذه القضايا فى المجلة الجنائية القومية . كل ذلك من  
اجل تحقيق اهداف عدة منها ان نتبادل الخبرات ، ومنها  
ان نتفق على معانى المفاهيم وان نحاول الاتفاق على

صياغتها باللغة العربية ، ومنها ان نضع التقاليد للمناقشة الحرة والعمل الجماعى ، فالعلم لا كبير عنده . وكلنا فى ميسر الحساجة الى ان نتعلم الكثير وان نعلم الكثير .

وعكفت على كتابة الدراسة ، وكانت لادارة المركز وجهة نظر فى نشرها ، وكان للدكتور الساعاتى آراء فى نشرها . وانى ارجو من القارىء ان يتفضل بقراءة الدراسة وقراءة ملاحظات الدكتور الساعاتى وبخاصة الفقرات التى حوط حولها بالحبر وطلب عدم نشرها . وانظر ايها القارىء الكريم الى هذا الرجل الذى لم يهتم بالمضمون الذى كان من واجبه ان يدافع عن نفسه من اجله ، فتراه يهتم بهجاء كلمة مثل كلمة « نشؤوا » . وقد حاولت ان اقنع ادارة المركز والدكتور الساعاتى بأن ينشر رده مع الدراسة التى كتبتها جنبا الى جنب فى المجلة . طلبت هذا مرارا ولكن الطلب لم يستمع اليه احد . ان الضرورة كانت تحتم اجابة هذا الطلب الجاد . فقد كنا فى ذلك الوقت مسئولين عن وضع اسس لمهنة جديدة هى مهنة البحث العلمى الاجتماعى فى المجتمع المصرى . ان بعض ماكتبته فى دراستى يشير الى الكثير من الغموض والشبهات ولا اقول من الاتهامات . ولانى كنت أعلم كما سبق او اوضحت عن احد مصادر المعلومات الهامة التى جمعها الدكتور الساعاتى فى بحثه فقد كنت قادرا على ابراز جوانب كثيرة من هذا الغموض فضلا عن بعض الاخطاء ووجهات النظر المختلفة . ولن اخوض فى الدراسة وماذكر فيها وموقف ادارة المركز منها ، ولكنى اقف لحظة امام احد المفاهيم التى كثيرا ماوردده الدكتور الساعاتى فى محاضراته وفى مناقشاته على أساس انه من ابتكاره ومن صنع



يديه « أقصد بهذا المفهوم مفهوم منطقة تفريخ الجريمة »  
كان الدكتور هاريمان مانهايم عندما كان يلقي محاضراته  
على الدارسات والدارسين الذين كانوا يدرّبون للعمل  
كمراقبات اجتماعيات أو كمراقبين اجتماعيين بالمحاكم .  
وقد كان من حظي ، كما يعلم القارئ ، أن أكسون  
أحدهم ، وقد لاحظت أن الدكتور مانهايم كان كثيراً  
ما يشير إلى مراجع تتضمن بحوثاً ودراسات قام بإجرائها  
علماء أمريكيون . وفي خلال دراستي في الولايات  
المتحدة « جامعة بوستن » لاستكمال دراستي العليا ،  
وكان ذلك في خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر أغسطس  
عام ١٩٥٣ حتى يوم ٢٦ من شهر مايو عام ١٩٥٦ .  
اطلعت على مقال « ادوارد ج بوسنيك » *osniak Edward G.*  
وهو ؟ — Does the slum breed crime

وكان منشوراً في مجلة — Federal Probtion  
أبريل - يونيو عام ١٩٤١ . ومعنى عنوان المقال واضمح  
فهو يقول هل البيئة المتخلفة تفرخ الجريمة ؟ لقد نشر  
هذا المقال في عام ١٩٤١ وأجيزت رسالة الدكتوراه  
وموضوعها : جناح الأحداث في مصر التي قدمها الدكتور  
الساعاتي لجامعة لندن في عام ١٩٤٥ . والملاحظ أن  
القول بأن بيئة مائفرخ الجريمة تبسيط زائد على الحد  
لتفسير السلوك الإجرامي ولا يمكن الأخذ به .

**دراسة لكتاب « في علم الاجتماع الجنائي »  
للدكتور حسن الساعاتي  
بقلم : د . سيد عويس**

**خلاصة البحث :**

كتب المؤلف خلاصة البحث في صفتين « ١٣٦ » ،  
« ١٣٧ » وأبرز ماتضمنته مايلي :

١ - يرى المؤلف ان المجموعتين اللتين اجري عليهما  
البحث غير صغيرتين وان وسائل البحث كانت تجريبية  
وكان الوقت الذي استغرقه قصيرا جدا .

ويعترف المؤلف بأنه لا يزال هناك نطاق مجهول في  
ميدان هذه المشكلة يحتاج الى امطة اللثام .  
ومع ذلك فالمؤلف يقول ان النتائج التي وصل اليها  
مشجعة الى حد كبير .

٢ - يرى المؤلف ان المجموعة الجامعة ادنى شأنًا  
واسوأ حالا من المجموعة الضابطة ، وذلك فيما يختص  
بالعوامل البيئية والذاتية التي يقول انه بحثهما وحل  
نتائجها .

وأبرز العوامل البيئية - فيما يقول - تلك التي تتعلق  
بمهن الاحداث ، وحالة اسرهم الاجتماعية والاقتصادية .  
اما اقوى العوامل الذاتية وابعدها اثرا فتلك التي  
تتصل بحالتهم العقلية والاخلاقية . .

ويعتبر المؤلف العوامل السابقة عوامل أساسية  
للاجرام .

٣ - ومن رأى المؤلف ان هناك عوامل اخرى سماها  
عوامل فرعية . وهذه العوامل الاخرى هي معاملة

الوالدين للحدث وحالته الصحية وعاداته . الخ .

٤ - ويعود المؤلف ويقول ان هذا التمييز بين العوامل بعضها وبعض ليس فيه تعنت أو اجبار ولكنها محاولة الى توجيه النظر الى العوامل الاساسية ، وان الحق الذى لا مرية فيه ان هذه العوامل كلها على جانب كبير من الاهمية وان الارقام التى ذكرها تبرهن بشكل عام على ان العوامل البيئية الذاتية ذات آثار خطيرة فى اجرام الاحداث وتشردهم .

٥ - ويعود المؤلف مرة أخرى فيقول ان هذه العوامل نفسها قد ذكرت فيما يتعلق بالاحداث العاديين ، ولكنه وجد ان آثارها معتدلة فى كثير من الحالات ، ولذلك « لا نستطيع ان نجزم بان احد تلك العوامل دون غيره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحداث وتشردهم ، الذى يعتبر ظاهرة اجتماعية معتلة . تنجم عن مؤثرات متعددة عادة ، ومختلفة اختلافا بينا ، بعضها يعقب بعض وتتجه كلها الى نهاية واحدة » « ص ١٣٦ » .

٦ - ويعود المؤلف الى هذا الموضوع مرة أخرى فيقول ان فى رأيه ان الاجرام والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل شتى بشكل خاص وترتيب معين .

واختفاء عامل واحد او ظهور عامل جديد لم يكن فى الحسبان كفىل بتغير الظروف فتتغير النتيجة النهائية تبعاً لذلك .

٧ - ولا يشك المؤلف فى ان خلاص الاحداث غير الخارجين على القانون انما يعزو - كما يقول - الى حقيقة بالغة الاثر ، وهى انهم :

- لم يعلموا الاجرام ولم يشجعوا على التشرد .

- لم يكونوا مهملين كل الاهمال .

- كانوا فى رعاية آبائهم او ذويهم ، وفى بحالة وفاة

هؤلاء أو أهملهم أو عدم استقطاعتهم القيام بواجبهم لاى  
امر من الامور ، تفيض الله لهم من يشرف عليهم ويعنى  
بشئونهم من العبران الرحماء أو الاصدقاء الصالحاء أو  
« اسطوات » المهن الكرماء .

— ويرى المؤلف من حسن الحظ أن الاطفال المصريين  
لا يعتبرون اهتمام الناس « الغرباء » تطفلا أو تدخلا فى  
شئونهم ، لانهم يربون منذ نعومة اظفارهم على احترام  
الكبار وتبجيلهم والاستماع الى نصائحهم وارشادهم .

٨ — وقد لاحظ المؤلف أن كثيرا من الجامحين الذين  
نزحوا من الريف أو البلاد الصغيرة الى القاهرة « يلاحظ  
أن عدد هؤلاء هو ١٨٤ حدثا أى بنسبة ٢٣٪ ، وهى  
نفس نسبة عدد الاحداث من المجموعة الضابطة » انظر  
جدول رقم ٣٢ صفحة ١٠٥ « قد وقعوا لسوء الحظ ،  
فى أيدي نساء فاسدات ورجال غلاظ الاكباد ، فاستغلوهم  
فى تحقيق مآربهم الدنيئة ، وعلموهم السرقة والنشل ،  
وشجعوهم على الفساد .

٩ — وفى ضوء هذا يرى المؤلف أن سلوك الصغار  
يتوقف الى حد كبير جدا على سلوك الكبار ومعاملتهم  
ويعلن دون أدنى تردد أن اجرام الاحداث وتشردهم فى  
مصر مشكلة الكبار الى حد كبير وبعيد .  
ويلاحظ ما يأتى :

١ — أن مفاهيم العوامل البيئية والعوامل الذاتية  
استخدمها المؤلف ولم يوضح معناها ، ولو أنه قصرها على  
مابحثه وحل نتائج « انظر صفحات ١٠٨ —  
١٣٥ » .

٢ — أن تحفظ المؤلف عند كلامه عن ورود ذكر  
العوامل نفسها فيما يتعلق بالاحداث العاديين بقوله  
« غير أن آثارها كانت معتدلة فى كثير من الحالات »  
قد أوصله الى عدم الجزم بأن أحد تلك العوامل دون

قهره هو الدافع الاساسى المباشر فى اجرام الاحسنات  
وتشردهم وقد انتهى به الامر الى ان فى رايه ان الاجرام  
والتشرد يرجعان الى ظروف معينة تتداخل فيها عوامل  
شتى بشكل خاص وترتيب معين . . الخ « صصفحتنا  
١٣٦ - ١٣٧ » .

وهذا راي لم تحققه نتائج بحثه . وان كان قد  
عرف قبل اجراء بحثه . اننا كنا ننتظر من هذا البحث  
الوصول الى تلك « الظروف المعينة » التى تتداخل  
فيها عوامل شتى . . الخ فى ضوء الواقع الحى  
لمجتمعنا .

واننى اذ اختتم هذا المقال ، اكرر ماسبق ان قلته فى  
صدره ، بأن كتاب الدكتور الساعاتى من الكتب القليلة  
التي تناولت ظاهرة الجريمة فى ميدان الاحداث تناولا  
جادا ، والتي حرصت على دراستها دراسة موضوعية .  
وماشجعتنى على كتابة هذا المقال الا ماذكره مؤلفه ،  
فى تواضع وشجاعة ، عند تحدثه عن اهداف نشره ،  
اذ يقول « وكذلك نرمى الى حفز الباحثين الى توجيه  
جهودهم للبحث فى هذا الميدان . عساهم يعثرون على  
مالم تكن قد استطعنا العثور عليه فى هذا البحث » .

واود ان اؤكد مخلصا اننى لم اهدف من جميع ماذكرت  
الا الخير من اجل مصرنا الخالدة . ان الظروف الثقافية  
الاجتماعية المصرية فى ذلك الحين وفى كل حين فى حاجة  
ماسة الى القدوة الحسنة . ولعل العلماء المصريين ان  
يكونوا اولى بشرف هذه القدوة . اننى قد اكون مخطئا .  
ومع ذلك فالراى والراى الآخر يجب ان يسودا . اننى  
فى ضوء ظروفى الخاصة وقد قمت بما قمت به فى  
المجتمع المصرى القديم قدم الدهر المستمر استمرار  
الحياة لا يمكن ان ادعى الكمال ، ولكنى اؤمن بالعلم ولن



يسود العلم الا بالامانة العلمية . واود ان اذكر القارىء  
أنى لن أعيش أكثر مما شئت ، ومن ثم لا مطمع شخصى  
بندى الا ان اقول مايجب على ان اقوله . ولا يمكن  
شخص مثلى ان يهدف من ذلك كما ذكرت الا كل ما هو  
خير من اجل مصرنا الخالدة . فالاستاذ المفكر لا بد وان  
يكون ، ومعدرة للتكرار ، قدوة حسنة ليس فقط  
لريديه بل لمن يأتون من بعده كذلك . وانا اذكر فى احدى  
جلسات « المؤتمر الدولى للأحصاء والحسابات العلمية  
والبحوث الاجتماعية - ٨ ابريل عام ١٩٧٦ » ، وكان  
مقررها الدكتور الساعاتى وكنت احد البناحين الذين  
قدموا دراسة عن « نظرة الشاب المصرية المعاصرة  
نحو نفسها : تجربة منهجية » . وفى أثناء مناقشة  
دراسى دعا الدكتور الساعاتى الى ضرورة التعليق  
على البحوث والدراسات التى يجريها الباحثون المصريون  
ومنها بحوثه ودراساته وأشار الى امام الحاضرين  
وكانوا كثيرين قائلا مايعنى اننى لم افعل ذلك وهاتبنى  
عتابا رقيقا وأكد دعوته لى لان افعل . ولم أستجب  
لهذه الدعوة فى ذلك الحين ولم اذكر الاسباب الداعية  
الى احجامى عن التعليق او نقد بحوثه ودراساته امام  
الجمع الحاشد من الحاضرين . كانت الاسباب معروفة  
لديه ولدى . ولم يذكر احدنا شيئا عنها . ولعله كان  
أن نسى ما حدث عندما جال مشتركا مع ادارة المركز  
القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية دون نشر دراسى  
عن كتابه « فى علم الاجتماع الجنائى » . ولعله كان  
متذكرا فانا لا استطيع أن اجزم . ومهما يكن من الامر  
فانا اذ اكتب ما كتبت لا أرى الدكتور الساعاتى أمامى ،  
ولكن أرى المستقبل . ولنا فيما حدث لسمعة « سيريل  
برت » العلمية ، مؤلف كتاب « الحدث الجانح » المشهور

والذي كان يعتبره البعض انجيلا ! درس وأي درس ،  
فالحقيقة العلمية وان حاول البعض اخفاءها ستظهر حتما  
في يوم من الايام . والثمن الذي يدفعه امثال سيريل برت  
في محيط العلم والعلماء ثمن باهظ يستحقونه . لقد  
ضلل هذا الرجل العلماء والاساتذة والطلبة وظن ان  
لقب « سير » او لقب « بروفيسور » كان ليهما اولهما  
له وجاء ، ولكن جاء الوقت وكشف ستره « اللهم  
احفظنا » . والملاحظ ان الحقيقة العلمية لاتخبو ولا تتغير  
بمعنى أنها في ضوء العوامل التي تكشفها للباحث تبقى  
مادامت هذه العوامل قائمة . اننا اذا قلنا ان الماء يغلي  
في درجة مائة مئوية تحت الضغط العادي ، فان الماء  
سيغلي في كل مكان مادامت هذه العوامل قائمة « درجة  
مائة مئوية + الضغط العادي » ، ولكن الماء قد يغلي  
اذا ارتفع الانسان على قمة جبل في درجة اقل من مائة  
مئوية وذلك لان الضغط اصبح غير عادي . هذا كلام  
معروف للقاريء كل المعرفة والمعرفة كلها . والملاحظ  
ايضا ان « كوبرنيكس » قد وصل الى بعض الحقائق  
العلمية ولكن « جاليليو » وصل الى حقائق علمية اخرى ،  
وعندما تيسر « لنيوتن » ان يصل في ضوء تجاربه الى  
حقائق علمية اخرى ساعد في تقديم عالم احدث للانسان .  
ان كوبرنيكس لم يكن مخطئا ولا جاليليو ولا نيوتن بعد  
ان جاء من بعده « انشتين » بحقائق علمية اخرى ، ان  
العلماء اناس يرون العالم وكأن الواحد منهم يتسلق جبلا  
فكلما ارتفع الواحد منهم كان اتساع ما يراه من افق .  
فاذا ارتفع عالم في قاعة كوبرنيكس المسافة التي ارتفع  
اليها كوبرنيكس يرى ما رآه الأخير مهما كانت عقيدة  
هذا العالم أو مذهبه . واذا ارتفع عالم في قمة جاليليو  
المسافة التي ارتفع اليها جاليليو يرى ما رآه جاليليو ..

وهكذا . والحقيقة العلمية يقصد بها هنا « القانون  
العلمي » . واننى اثبت ذلك لان هناك مفاهيم اخرى  
باللغة الاجنبية قد تترجم الى « حقيقة » مثل مفهوم  
Reality — او مفهوم Fact — ولو أننا  
نجد ان البعض يرى ان المفهوم الاول يترجم الى « واقعة »  
وليس الى « حقيقة » . ومهما يكن من الامر فان الحقيقة  
العلمية او الحقائق العلمية التى كشفت خداع سيريل برت  
كثرت قوانين علمية اثبتها العلماء المتخصصون الذى جاءوا  
من بعده . ولم يهم ان برت كان حائزا على لقب « سير »  
او كان الوحيد فى الجامعة الذى يعرف اذا سأل سائل عن  
« البروفسور » . اى ان من كان يذكر لقب « البروفسور »  
كان يعنى سيريل برت عندما كان على قيد الحياة . كل  
هذا عرض لا يهم فالحق ابلغ ، والتاريخ لا يرحم الا  
العاملين الجادين . اذا كانوا ، عن حسن نية ، من  
المخطئين ، فكل ابن آدم خطاء . وهذه حقيقة كما يقرها  
العلم يقرها نبي الاسلام سيدنا محمد عليه الصلاة  
والسلام .

وهانذا فى محيط بحار المعرفة ومحيطاتها احاول ان  
اسبغ حتى اصل الى بر الامان . سواء كانت هذه  
البحار والمحيطات فى الكلية او فى الكتب او فى المتاحف  
او فى جلسات الاصدقاء المثقفين الخاصة منها او العامة .  
واقصد بالاخيرة المحاضرات العامة التى كانت موضوعاتها  
ومواعيد القاها تنشر فى الجرائد وبخاصة جريدة الديلى  
ووركز . وقد كان يجذبني حقا موضوع « العلم : تاريخه  
ومنهجه » . الذى كنت احرص على حضور محاضراته  
فى كلية مورلى . كان كتاب « الرياضيات للملايين »  
او كتاب « العلم للمواطن » ( لهوجين ) ملاذا لى الجأ  
اليهما اذا ما عن لى ان استزيد من معرفتى . كانا كلاهما

«عالمنا بين يدينا» معلوماتنا أجود الأوعية الباقية في الأقسام على  
 من ضمن ما فيها . وكانت أروع من تقدمنا في الأقسام ووجدنا في  
 في فخر التاريخ وتقدم الإنسان في العصر . وأدب  
 وما دوس . وكانت أروع من «عالمنا» «عالمنا» «عالمنا»  
 المعروف وبخاصة كتابه «ماهي الحياة ؟» وكتابته الآخر  
 «كل شيء له تاريخ» وقد أثرا في تأثرا كبيرا . وسرى  
 القارئ في هذه الدراسة كيف ثابت عبارة «كل شيء له  
 تاريخ» نفكري رأينا على عقب وبخاصة عندما درست  
 كتاب «العصر الذهبي» «العالم» «عالمنا» وعندما درست  
 كتاب «فجر الحضارة» (للعالم يستند) . ولم أكن  
 لأعرف عن هذه الكتب وغيرها إلا عندما اقترحتها لي  
 الدكتور جون لويس لكي أقتنيها . وأنا شخص لم يمتدني  
 شيء في هذه الدنيا ، وحتى كتابة هذه السطور : إلا أن  
 أقتني كتابا جيدا . كانت دروس كلية مورلي نافذة على  
 آفاق المعرفة الإنسانية الواسعة . منها عرفت الفرق  
 الجوهري بين «عالم الأزهر العصري» وبين «عالم الكرة  
 العصري» . ومنها عرفت كما ذكرت أننا كيف تقدم  
 الإنسان منذ الماضي السحيق وحتى الوقت المعاصر عندما  
 حاول ، ونجح ، أن يكشف القوانين التي تسيطر على  
 الظواهر الطبيعية وعلى الظواهر الإنسانية ليستطوع هو  
 عليها . عرفت مثلا أن المجلة «وهي تريد الآن في معظم  
 أو كل عناصر التكنولوجيا البدائية منها» «مجلة العربية  
 التارو مثلا» والعصرية «مجلة الطائرة مثلا» والبوصلة  
 والبارود والطباعة ، كلها ، قد أسهمت في تقدم البشرية  
 أسهاما رائعا . ولن أتحدث عما وصل إليه الإنسان في  
 الوقت الحاضر ، وقت كتابة هذه السطور ، الذي قد  
 بدأ ، في رأي المتواضع ، «بعض الإلكترونيات» .  
 وقد كان علم الحياة يشدني إلى معلوماته العلمية

شدا . كان يجلبني لكي أعرف أسرار الحياة وبخاصة  
 المادة التي يفكر الإنسان بها . لقد ذهبت معاً ولديها  
 عندما رأيت أدوار حياة الجنين وهو في بطن أمه منذ  
 لحظة تلقيح البويضة حتى الوشيع عندما ذريت المتحفاً  
 الطبيعى فى لندن . وكان ذهولى وسعائى لا تفسد  
 عندما عرفت ، وأنا المصرى ، أن القطن الأبيض اللون ،  
 يمكن أن يزرع وينبت ملونا حسب رغبة المنتج فتسـد  
 يكون قطناً أبيض أو أحمر أو أسفر . . . الخ أن التطبيق  
 البيولوجى العلمى يسير قدماً نحو خدمة الإنسان ومواجهة  
 حاجاته الضرورية لكي تتأكد إنسانيته وترقى وتعالى .  
 وما أسعدنى عندما كنت أعرف معزومة جديدة عن طريق  
 علم الحياة ، وما أكثر ما كنت أعرف أن معرفتى من أن  
 « القردة الانثى » تحيض مثلها مثل « الانسانة الانثى »  
 كادت أن تطيح بكيانى فرحاً وانتصاراً . كان انتصاراً  
 على الجهل الذى يبدده عندى نور ما أعلم . واكتشاف  
 « الخلية الحية » وما كان له من آثار ، كان يمثل لى  
 قفزة الى الامام نحو تحقيق الكثير من الآمال المعرفية  
 عن الحياة . والظاهرة الفلكية وما علمته عنها اجتلبتني  
 ولا تزال . ان قدرة الانسان على معالجتها باستخدام  
 المنهج العلمى قد بهرتنى ولا تزال . وكنت أقول لنفسي  
 سرا وجهراً كلما علمت شيئاً جديداً عن الظاهرة الفلكية  
 كنت أقول اين « علم الفلك » من « علم التنجيم » أفسد  
 « التنجيم فقط » الذى يملأ المنح الثقافى الاجتماعى  
 فى المجتمع المصرى ولا يزال . وترجع بى ذاكرتى الى  
 الوراء شيئاً فاذكر « ام على نبهة » وقراءتها الطالم  
 عن طريق « فنجان القهوة » تارة وعن طريق « الكوتشينة »  
 او « الودع » تارة اخرى . رجعت الى الماضى عندما  
 كنت تلميذاً فى المدرسة الابتدائية اسارع اليها بعد أداء



الامتحان لتقرأ لى الفئجان او « تفتح » لى الكوشينة .  
لم اكن وحدى يفعل ذلك بل كان كل الحاضرين  
وكانت اغليبتهم من نساء البيت : امى وزوجة عمى شقيق  
ابى وزوجة عم ابى وقيرهن . ورواج ام على نبيهة  
أقصد رواج الطلب على ام على نبيهة يكون عادة اما فى  
امتحانات ابنساء الاسرة « العائلة » او فى الملمات .  
كانت ام على نبيهة زوجة لحانوتى ، وكانت محبوبة وغير  
منفرة على الرغم من ذلك لعوامل عدة كان من أهمها  
انها كانت تدعى انها قادرة على قراءة الطالع . واكرر  
قولى وانا هنا فى لندن اسمع وارى ، وارى واسمع  
اين ما اسمع وما ارى الان وماكنت اسمع وارى وانا فى  
حضرة ام على نبيهة ومن حولها اقرب الناس الى نفسى  
يتسابقون اليها ويبتهلون ويرجون بل ويتقربون . ما بعد  
المسيرة الثقافية التى يجب ان يقفها اعضاء المجتمع  
المصرى لكى يلاحقوا المسيرة الانسانية فى تقدمها وفى  
تطهير مجتمعاتها من ادران الترهات والافكار البالية  
والاساطير . لقد نجح الافريق فى الماضى فى تطهير  
معارفهم من الاساطير فتقدمت حضارتهم وتقدم الغرب  
الذى اخذ عنهم حضارتهم . وحاول ابن رشد كما ذكرت  
ان يتقدم بأحد الحلول ، وعلى الرغم من شجاعته  
الادبية فانه قد اضطر الى ان يدعو الى الثنائية . فكانت  
« حقيقة الوحى » وكانت « حقيقة العقل » . والملاحظ  
ان الغرب لم يخل من وجود الثنائية ، فهى فيه لا تزال  
قابعة . فقد يرى البعض ان العالم مقسم الى  
مجالين : الطبيعى وفوق الطبيعى . ويرى البعض ايضا  
ان الفكر والمادة شيئان مختلفان كل الاختلاف ، اى انهم  
لا يعترفون بالمادة المفكرة على الرغم من انهم يعترفون  
بالمادة المتذوقة والمادة التى تشم والمادة التى تسمع

والمادة التي تلمس . ويرى البعض كذلك ثنائية النفس والجسد . فالنفس عندهم لها وجود منفصل عن وجود الجسد ، ومن ثم فهي منزهة عن كافة الاحوال والتقلبات التي تلم بالجسد كالمرض والالام والفقر ، فكل هذه الاحوال والتقلبات ليست بشيء ذي أهمية بل انه يعنى تنمية الجانب الروحي فى الانسان . وكنت أتذكر وانا اقرا عن هذا الموضوع استاذى يعقوب فام وهو يحدثنا ناعيا على الذين يرون ان الخلق شيء نفسى داخلى او هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل ، واما الفعل نفسه فهو السلوك .

واستمرت الظاهرة الفلكية تجتذبني وتلح على لى اعرف اسرارها . او لى أعرف بعض ماعرف عن اسرارها فمنذ « كوبرنيكس » عرف العالم المتحضر ان الارض « كوكب » يدور حول « الشمس » أسوة بالسكواكب الاخرى ، بدلا من النظرة القديمة القائلة بان الارض هي مركز الكون وانها محاطة بتسع هالات دائرية من البلور تحمل كل منها الشمس والقمر والكواكب والنجوم . وكانت النظرة الحديثة فى حقيقة الامر ثورة فى نظرة الانسان للكون ، وكانت بمثابة العامل الرئيسى الى جانب عناصر اخرى فى تغيير النظرة الى العالم التى سادت طوال العصور الوسطى « وكانت تؤيدها الكنيسة » تغيرا كاملا . وقد درست فى خلال الفترة الزمنية التى كنت اعيش فيها فى لندن ان الشمس على الرقم من ذلك ليست الا نجما من نوع عادى . وان الارض فى ضوء الكون ومافيه من عوالم ان هي كما كان يقول لنا جون لويس الا مجرد حفنة من التراب ان لم تكن ذرة من ذرات التراب « المعروفة » بالنسبة للكون ومافيه من عوالم . ونظرا لقرب الشمس الشديد منا ، الامر الذى

يمكن للعلماء من دراستها بشيء من التفصيل ، فأننا  
 نعرف من هذا النوع من النجوم « اى النجم العادى »  
 اكثر مما نعرف من اى نوع آخر . وتوجد الشمس على  
 بعد ثلاثة وتسعين مليون ميل من الارض ، ويحتاج  
 ضوءها ثمانى دقائق حتى يصل الينا . والشمس بهذا  
 قريبة جداً اذا ما قارناها بما يليها فى القرب ، وهو  
 النجم الذى يستغرق ضوءه ٢٥ ر سنة ضوئية حتى  
 يصل الينا « السنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها  
 الضوء فى خلال سنة واحدة بسرعيته البالغة ١٨٦٣٠٠  
 ميل فى الساعة » . والسنة الضوئية تعادل على وجه  
 التقريب . . . . . ٨٦٠ ميل ، وهى تستخدم  
 فى قياس المسافات بين النجوم ، وفى رحاب السكون  
 يوجد حوالى (٢٠)١٠ نجم . ولكى يكتب هذا الرقم  
 يوضع عشرون صفراً الى يمين العدد واحد . ومدار  
 الارض حول الشمس ليس دائرياً الامر الذى لا يبقى معه  
 الشمس على نفس المسافة دائماً . واحسن متوسط لهذه  
 المسافة هو ٩٢٩٨٧٤١٦ ميلاً ، وتكفى المسافة ٩٣ مليون  
 ميل للأغراض العامة . ويقدر قطر الشمس بحوالى  
 ٨٦٥ ر ٣٧ ميلاً ، أى أكثر من ثلاث مرات مثل المسافة بين  
 الارض والقمر . أى ان حجم الشمس يمكن ان يتسع  
 للملايين من الكواكب كل منها بحجم الارض . وتبلغ كتلة  
 الشمس ٢٢ x ١٠ (٢٧) طن . ولكتابة ذلك يوضع ٢٦  
 صفراً الى يمين العدد ٢٢ . وبمقارنة ذلك بالارض نجد  
 ان كتلة الشمس تزيد على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣ ر ٤٣٤  
 مرة . وارجو ان يتصور القارئ ما حدث لى عندنا  
 عرفت هذه المعلومات الفلكية . وخاصة ما يتعلق منها  
 بالارض التى يعيش الانسان عليها . وكانت له هذه  
 المعلومات آثار فى تثبيت عظيمة لخالق السكون عندى .

وكانت لهذه المعلومات آثار أخرى . كنت أسأله إذا  
مانجح الإنسان وغزا الفضاء « كانت فكرة غزو الفضاء  
موجودة في المناخ الثقافي الاجتماعي الغربي في ذلك  
الحين » ، ونجح في الوصول الى القمر ماذا سيكون  
صورة الارض وهو واقف على القمر ؟ وماذا ستكون  
احوال المجتمع القمري اذا وجدت فيه الحياة ومن  
يشبهون الانسان على وجه الارض ؟ هل سيكونون من  
بنى آدم كما نكون نحن ؟ . وكيف يكون صيام شهر  
رمضان اذا استطاع المسلمون من الناس ان يعيشوا في  
القمر ؟ والصلاة والحج كيف تؤدي هاتان الفريضتان ؟  
وماذا عن مكة المكرمة والكعبة الشريفة والبيت الحرام  
وبيت المقدس والمسجد الاقصى وبئر زمزم وجبل عرفات  
وفار حراء فضلا عن المدينة المنورة و و و ؟ وما الارض  
زما القمر وما المجموعة الشمسية كلها ، وما الشمس  
التي تزيد كتلتها على كتلة الارض بمقدار ٣٣٣ر٤٣٤  
مرة ، كما انها تحتوى على ٩٩ر٩٪ من كل المادة الموجودة  
في المجموعة الشمسية ؟ ان هي الانجم من نوع هادى .  
ونحن نرى في اية ليلة صافية اذا خرجنا الى الخلاء  
ووجهنا بصرنا الى النجوم ما يوحى اليها بأنها لا بد ان تبلغ  
الملايين عددا . ونحن اذا نرى ما نرى في ضوء موقعنا  
من سطح الارض نرى بالعين المجردة مالا يزيد في اى  
وقت عن ستة آلاف نجم . ولما كنا لا نرى سوى نصف  
الكرة السماوية فقط ، فمن ثم فإننا لا نشاهد في الواقع  
اكثر من نصف هذا العدد . والحقيقة تؤكد مع ذلك أنه  
توجد فعلا ملايين النجوم . وان هنالك الملايين بل  
والبلالين من النجوم التي لا نراها اما لانها بعيدة جدا  
او لكونها خافتة لدرجة تصعب رؤيتها حتى لو كانت  
قريبة بما فيه الكفاية . وقد عرف القارىء ان اقرب

نجم يبعد عنا بما يزيد قليلا على اربع سنين ضوئية  
« ٢٥ ر » . وكثرت تساؤلاتي وتعددت وشغفت حبا في  
الاستطلاع لاعرف هل وصل كتاب الله الكريم « القرآن  
الكريم » الى عوالم الكون التي توجد فيها الحياة ويعيش  
فيها اناس مثلنا ؟ فالله جل وعلا هو « رب العالمين »  
وهو الخالق القادر وهو نور السموات والارض . وكنت  
اقول لنفسي ما قيمة الارض وهي ماهي ، مجرد حفنة  
او ذرة من التراب بالنسبة للكون وما فيه من عوالم ؟  
لماذا اختصها الله جل وعلا بالانبياء والرسل وبالاديان  
السماوية ؟ وقفز الى خاطري « اخناتون » الملك المصري  
القديم ، اول الموحدين ، الذي قام بالدعوى الى الاصلاح  
الديني قبل « مارتن لوتر » بتسعة وعشرين قرنا من  
الزمان . وكانت دعوته الى ان الله واحد لا شريك  
له ، ووجدت نفسي في ذلك الحين انني في حاجة الى  
الاطلاع على تاريخ هذا الملك الفرعوني اطلعا اكثر  
دقة حتى اكون على بينة من امري . ونفي حقيقة الامر  
وجدت نفسي انني غرقت في لجة الحيرة الفكرية .  
وعزمت عندما اعود الى القاهرة ان اسارع الى اصحاب  
الفضيلة رجال الدين المسلمين منهم وغير المسلمين  
وبخاصة اصحاب السيادة رجال الدين المسيحي الذين  
يعتنقون المذهب الاورثوذكسي ، فهم عندي يمثلون الفكر  
المسيحي المصري منذ ان كرس القسيس مرقس  
« انيانوس » اول اسقف مصري في عام ٦٤ ميلادية .  
وحتى هذا العزم لم يحررني من الحيرة التي وجدتتها  
تشغل تفكيري ، وتأخذ من وقتي الثمن الكثير . وحتى  
دروس الفلسفة لم تساعدني على التحرر ولكنها وسعت  
آفاق تفكيري . فقد كان الدكتور جون لويس يحاضرنا



عن فيلسوف معين ويتحدث في المحاضرة وكأنه هو  
هذا الفيلسوف . كان يعرض أفكار الفيلسوف وما وصل  
إليه بكل إمانة وصدق وحماس . ثم يبدأ في تحطيم  
الفكرة تلو الفكرة في ضوء فكره هو . كان الدكتور  
لويس محاضرا فذا . وكان مخلصا مع نفسه ومع الناس  
واقربهم عنده تلاميذه . وكنت أعجب به وهو يتقمص  
شخصية الفيلسوف الذي يحاضر عنه ، وكنت أعجب  
به أيضا وهو يفند ما وصل إليه هذا الفيلسوف من آراء  
وأفكار . انظر إليه وهو يتحدث عن فلسفة « البراجماتيزم »  
أو « فلسفة الدرائع » فيما يتعلق بموضوع « الحقيقة  
الموضوعية » . وكنت أعرف عن هذه الفلسفة شيئا فيما  
قرأته في الكتاب الذي ألفه استاذى يعقوب فام عنها  
والذي نشرته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » في  
الثلاثينيات كما أذكر . ولعل الاستاذ يعقوب فام كان  
أول من عرف المصريين بهذه الفلسفة . انظر الى  
الدكتور جون لويس وهو يحاضرنا عن موضوع الحقيقة  
الموضوعية عند البراجماتيين فيقول بأسلوب ساخر أنها  
غير موجودة ولكن ما هو موجود هو الحقيقة التي يقصد  
بها كل ما ينجح عمليا . ويؤكد على أن كل ما يحقق ماتريد  
الوصول إليه فهو حقيقى . وكان يقول جون لويس أنه  
حقيقى لانه  
ثم يبدأ يعلق  
على الأمريكين وسياستهم وثقافتهم وأساليب حياتهم  
ونظرتهم نحو النجاح بل ونحو الحياة بعامة ، ذلك لان  
فلسفة « البراجماتيزم » هي نتاج ظروف المجتمع  
الأمريكى . فهي منهم وأصبحت لهم . وكان الداعى لها  
بهذه الصيغة الفيلسوف « وليم جيمس » .  
وأرجو أن يلاحظ القارئ أن قراءتى وخبراتى

الثقافية عندما كنت أعيش في لندن في تلك الفترة « في  
خلال عام ١٩٥١ وما بعدها » لم تتخمني ، بل على العكس  
اهتفت من حولي كل ما كان مظلما او بعض ما كان مظلما .  
لم اكن احس الا بأن قنوات هذه الخبرات الاكاديمية  
وغير الاكاديمية ، المنتظمة وغير المنتظمة ، لها جسور  
تتصل بعضها ببعض . فقناة التاريخ متصلة بقناة الفلسفة  
وقناة الاقتصاد متصلة بقناة علم السياسة « الذي وجدت  
نفسى اقرا فيه وخاصة ما تعلق بتاريخ أوروبا الحديث  
وكان من الموضوعات المحببة الى نفسى وتاريخ إيرلندا  
السياسي » ، وغيرها من القنوات مثل قناة علم المنطق  
وقناة العلم : نشأته ومنهجه . كل هذه القنوات وغيرها  
وحتى الأحاديث مع الأصدقاء المثقفين التي كنت اعتبر  
اجتماعي معهم وكأننى احضر حلقات دراسية ،  
والمحاضرات العامة التي كنت أحرص على حضورها  
والمتاحف التي كنت أزورها بانتظام والأفلام « الجيدة »  
التي كنت اشاهدها اسبوعيا والمسرحيات والحفلات  
الموسيقية ، وغير ذلك . . كانت كلها ثريات تضيء الطريق  
إمام المادة التي تفكر في حياتي ولم تكن تتخمني . وآننى  
اعتمد ذكر لفظ « التفتة » لأننى واجهت موقفا وأنا في  
المنامة عندما كنت وبعض الأصدقاء نجتمع لتحدث  
وتبادل الكتب ، فإذا بزميل كان هو الأستاذ « خالد  
محمد خالد » قبل ان يشر كتابه « من هنا نبدأ »  
يقول فينا نحن الذين من حوله أنه أخذ يقرأ حتى اتخم  
من القراءة . ولم يمتق على كلامه احد . ذلك لان تجربة  
التخمة من القراءة لم يجربها واحد منا . وهنا في لندن  
وأنا منذ الصباح الباكر حتى المساء المتأخر أعيش في  
القراءة وأنهل من ينابيع أخرى غير القراءة ولم أحس

إذ بصفاء الذهن وإن كنت أمارس القلق أحياناً ولم أحس  
 أيضاً إلا بوضوح الرؤية وإن كنت أعاني من الحيرة  
 أحياناً أخرى . أن العلم وهو أحد مصادر المعرفة لا يمكن  
 أن يكون مصدر التهمة « العقلية » . وإذا كان العلم  
 مصدراً للمعرفة فالمعروف أن الدين والفن والفلسفة  
 مصادر أخرى . ولعل خبراتي التي كنت أتبعها وأنا في  
 لندن في هذه الحقبة من الزمان جاءت في معظمها عن  
 طريق استخدام المنهج العلمي ، ولعل صفاء ذهني  
 ووضوح الرؤية إمامي يرجعان ، على الرغم من القلق  
 الذي كنت أمارسه والحيرة التي كنت أعاني منها ، إلى  
 هذا المنهج الذي وجدت في ذلك الحين وحتى قبل ذلك  
 الحين أن لا سبيل لتقدم الإنسان والجماعات والمجتمعات  
 إلا باستخدامه . فعن طريق هذا الاستخدام يستطيع  
 الإنسان أن يفهم ماحوله ومن حوله فهما موضوعياً .  
 وفي ضوء هذا الفهم يستطيع الإنسان أن يغير ماحوله  
 ومن حوله إلى ما يمكن أن يكون أو إلى ما يجب أن يكون .  
 والمشكلة التي تريد حلاً كانت في نظري تفسير عبارتي  
 « ما يمكن أن يكون » و « ما يجب أن يكون » . وقد بدت  
 لي في ذلك الحين أنها مشكلة المشاكل ، وإن كنت أعتقد ،  
 ولا أزال أن المشكلة الحقيقية هي أننا إذا كنا لا نعترف  
 المشكلة . فإذا ما عرفنا المشكلة تيسر التفكير في حلها .  
 وبمناسبة ما ذكرت من مشاهدة « الحفلات الموسيقية »  
 فأنني أسجل ما حدث لي عندما جاءت « فرقة برلين  
 الموسيقية القومية » إلى لندن لأول مرة بعد انتهاء الحرب  
 العالمية الثانية بأوزارها . أتني كنت في حيرتي بعد أن  
 تناولت طعام العشاء في نادي لندن للموسيقى الذي  
 وإن كنت قد تركته إلى بيت مجاور هو بيت « مسر

تربس « حرصا على الهدوء والسكينة والتفرغ للدراسة  
التي جئت من أجلها ، فأننى حرصت على تناول وجبات  
الطعام فيه ، وبخاصة وجبتى الفداء والعشاء . كنت  
فى غرفتى كما ذكرت بعد تناول وجبة العشاء فى  
النادى فإذا بأحدهم يحضر الى قائلا أن فسقة برلين  
ستبدأ حفلاتها بعد غد فقم معنا وأحمل « بطانية او  
اكتر » لائنا سنقف فى الطابور لحجز تذاكر حضور  
احدى حفلات الفرقة » وكانت ستمكث فى لندن ثلاثة  
ايام فقط . » وسنكون جميعا أمام شباك حجر  
التذاكر منذ الآن وسنكون فى « الطابور » فى الشارع  
حتى يفتح الشباك فى الصباح ومن ثم نستطيع أن نحجز  
تذاكرنا والا فان الفرصة لحجز التذاكر ستضيع حتما  
ان لم نفعل ذلك . . وكان اقتراح هذا الشخص غريبا  
غاية فى الغرابة . واثبت لى أن حرص الناس فى لندن  
على سماع الموسيقى ، المانية كانت او غير ذلك ، كان  
حرصا شديدا . وجازفت وذهبت مع « الشلة » ووجدنا  
الطابور قد ابتدا فعلا وبدأ طوله يمتد بسرعة ، وجلسنا  
على البطاطين ، افترشنا الارض ، وكان غطاء الواحد  
منا بطانية اخرى او معطف والسماء . نام من نام من  
المنتظرين واستيقظ من استيقظ ، وكنت تسمع  
الاحاديث همسا . وكان من المتوقع أن يكون برد الليل  
شديدا فى لندن على الرغم من حلول فصل الربيع . ومع  
ذلك فقد صمد الحاضرون . وكان من حسن الطالع أن  
السماء لم تمطر . ومرت الوقت ، الليل بطوله ، واستمتع  
الناس الحاضرون بالمغامرة ، وفتح الشباك فى الوقت  
المحدد وحجزنا تذاكرنا كما حجز الآخرون المحظوظون .  
وبقى العديد من الناس بدون تذاكر لانهم لم يستطيعوا

ان يحجزوا فقد امتد الطابور الاول وتفرعت منه طوابير  
اخرى وزاد عدد المنتظرين على عدد التذاكر المعروضة  
للسبع . كانت مغامرة جازفت بالقيام بها كتجسرية  
انسابية واعتبرتها درسا لاينسى . وقد تأكد لى ان  
الموسيقى كلفة لاتفرق بين جنس وجنس او بين نوع  
ونوع ويفهمها الجميع ومن ثم فهي تجمع قلوب بنى  
البشر كما تسعدهم . كنا نستمع ونحن فى « الصالة »  
وغيرنا معنا او فى « البلكون » او فى « اللوج » وكأننا  
فى صلاة . كانت « الصالة » فى وجدان كل واحد  
فيها معبدا . وكان الحاضرون وان اختلفوا طبقيا او  
قثويا او جنسا او نوعا يشعرون نفس المشاعر مشاعر  
الغبطة والارتفاع نحو الاعلى . وانا فى الواقع لم اغامر  
ولم اجازف ولكنى واجهت واقعا نبيلًا وعشت تجربة  
لم تكن تتاح لى فى القاهرة ابدا . وانا لا اقول اننى قد  
تعلمت شيئا ولكن اؤكد اننى « قد مارست تجسرية  
تربوية » . اننى لم اسمع موعظة من المواعظ او درسا  
من الدروس او رأيا من الآراء ، ولكنى وجدت نفسى وقد  
غرس فى شخصيتى اتجاه معين نحو قيمة معينة هي قيمة  
الفن فى شخص الموسيقى التى سمعتها او شاركت فى  
الاستماع لها من « فرقة برلين الموسيقية القومية » فى  
فصل الربيع عام ١٩٥١ فى مدينة لندن .

مرت شهور فبراير ومارس وابريل ومايو ، اربعة  
شهور من عام ١٩٥١ ، ولم استرح كما كان يجب على  
ان افعل . كنت فى عمل متواصل ، عمل فكرى متواصل  
وكان اصدقائى قليلين منهم شاب هندى واخوان شقيقان  
صينيان من اتباع « الصين الوطنية » صين « شيانج  
كاى شيك » ، وشاب ولد فى القاهرة وابوه مازال فيها  
يعمل فى مهنة الطب . والجميع يدرسون . وكنا نجتمع



لأننا كنا جيران . كان الشاب الذي ولد في مصر يعيش في بيت « مسز ايه » وكان الثلاثة الآخرون وأنا نعيش في بيت « مسز تريس » والبيتان متجاوران . وإذا اجتمعنا كان الحديث حديثا عاديا . فقد كنا لا نفكر في نفس الامور والاشياء . أى انه كان لا يجمعنا فكر معين بل كانت افكارنا متباعدة . وحتى الشاب الذي ولد في مصر ويتحدث اللغة العربية بطلاقة « الخواجة » لم يكن يدعى بأنه مصرى . كان يعيش في لندن تحت كنف « ام روحية » يهودية لانه هو نفسه يهودى . وقد زرت هذه السيدة بدعوة منه عندما ابلغنى أنها تريد ان ترائى . كانت سيدة عجوز وتسكن في بيت كأنه القصر المنيف . ولم اذهب اليها الا مرة واحدة . عرفتني وعرفتني ويبدو انها اطمأنت على ابنها الروحى وهو في صحبتي . فقد كان ، على الرغم من انه يعيش مع مسز ايه « اليهودية » والتي لا يخلو بيتها من يهودى ، يحس بالغربة ويحاول ما استطاع ان يكون مع اصدقائى الآخرين . وقد مرضت ، ويبدو ان مرضى كان مرجعه الى الارهاق الشديد الذى كنت امارسه دون ملل او شكوى . مرضت ولم اتم ليلتي . وكان بجوارى من السكان أسرتان ، كل أسرة تعيش في غرفة . وعلى الرغم من اثني وصراخى من الآلام التى عذبتني لم يأبه بحالتى احد . وحتى مسز تريس لم تسمع شيئا . وبقيت على حالتى مريضا وحيندا حتى جاء الصباح ، وقد جاء متأخرا جدا ! فذكرت للسيدة التى تحمل طعام الافطار الى حجرتي ما الم بى واثني في مسيس الحاجة الى طبيب . وجاءت مسز تريس لترى ماذا حدث لى ، وبدا لى انها اطمأنت بعض الشيء وابلغتني بأن الطبيب « الممارس » سيحضر . وحضر الطبيب وطمأنتني ووصف

الدواء الضروري وتركتى وذهب دون أن يحصل على أجر منى . وهنا كانت شهامة الشاب الذى ولد فى مصر وعاش فيها حتى سن الخامسة والعشرين . جاء الى وأحضر الدواء ومعه الجرائد وبعض المجلات . ولأنه كان يعانى الاغتراب ويحس كبشر بمن هم على شاكلته ، كان معى كريما . لقد دفعت له ثمن ما أحضر بالطبع . ولكنه كان ، كائى مصرى ، يهتم بالسؤال عنى حتى شفيت . وتذكرت جيرائى كما تذكرت أصدقائى ولكنهم كانوا وكان الحياة قد بلغتهم . وتذكرت أيضا ترى نيومان عندما سألتنى عن أحوالى ، فكان أول ما قلت اننى لا اسمع تحية « صباح الخير » من احد من الجيران فى البيت الذى أعيش فيه . وإذا سمعت فأنما اسمع الرد على هذه التحية التى تصدر عنى دائما . وضحك الاستاذ نيومان كما اذكر وقال اتنا نحن الانجليز لا نختلط بالقرباء سرعة وانه يجب ان يكسر لوح الثلج أولا ، وكسر لوح الثلج هذا من واجبك انت . وقد تأكدت من هذا السلوك عندما صممت على ان لا أبدا تحية الصباح او تحية المساء لاحد من الجيران فلم اسمع من احد ردا . وقلت فى نفسى انه على ان اكسر لوح الثلج كما قال مستر نيومان . — I have to break the ice

ويبدو أن مرضى كان مرجعه الى « المראה » ، كان التهابا فيها كما يبدو ، وقد تطور هذا المرض فى هذا العضو من جسمى بمرور الزمن حتى اضطررت الى اجراء عملية جراحية لاستئصالها فى مستقبل الايام . وإذا كنت فى ذلك الحين قد عازمت على ان ادفع رسوم الامتحان الذى كان سيعقد فى شهر يونيو عام ١٩٥١ ، فأننى وجدت أن الوقت للاستعداد لهذا الامتحان كان قصيرا ، وقد زاد الطين بله الإرهاق الذى ألم بى ، والمرض الذى

عانيت منه ، فعزمت على تأجيل الدخول في الامتحان  
« شهر يونيو عام ١٩٥١ » حتى اكون صالحا فعلا لكي  
لا اصادف خيبة الامل . ولكنني عزمت في الوقت نفسه  
على ان اتعلم الجديد من كل مصدر علمي او ثقافي او  
كان من تجارب الحياة وخبراتها . افعل ذلك في تودة  
على ان انتهز فرصة فترة الصيف فاذهب الى مكان  
بعيد عن لندن . واختير لي ان اذهب الى « باريس »  
ومنها الى قرية « بوجيف » في « مقاطعة سافوي  
العليا » .

وحزمت امتعتي وكنا في شهر يوليو عام ١٩٥١ وحجزت  
مقعدا في الطائرة الداهية الى « باريس » . وانا لم ار  
باريس من قبل . اى اننى على وشك مواجهة تجارب  
انسانية جديدة . ان حاجز اللغة قد يعيقني فانا لا اتقن  
الحديث باللغة الفرنسية . ولكن علمت بان اللغة الانجليزية  
قد اصبحت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لغة عالمية ،  
واننى ساكون عند الفرنسيين شابا امريكيا ملونا اكثر  
منى شابا مصريا الا اذا راوا « الباسبورت » الذى احملة  
والذى يؤكد مصريتى التى يبدو اننى اعتر أنا بها - في  
ضوء خبراتى في محيط ابناء الغرب - وحدى . وقد  
حدثت التجربة الاولى في باريس . في محطة السكة  
الجديد ، حيث خصص شخص يتقن اللغة الانجليزية  
ليسر امور الذين يعرفونها ولا يعرفون التحدث باللغة  
الفرنسية وظن الناس من حولي اننى امريكى زنجى يميل  
لونه الى السمرة ، فاخذونى الى الرجل المذكور الذى  
طلب منى « الباسبورت » فراه مصريا وبانت علامات  
الاشمئزاز على وجهه وحدى الناس ما استقر في ذهنه  
فتركونى وحدى معه . وقبل ان يجيب مطلبى طلب اجره  
الذى دفعته دون ما مساومة صاغرا . ومكثت في مدينة

باريس اياما ذقت فيها طعم الحياة لأول مرة بعد ان تركت  
مدينة لندن . رايت ان شهيتي للاكل قد زادت فالاكل  
الفرنسي غير الاكل الانجليزى . ولم تشم انفى رائحة  
« الكرنب » التى تجدها تقريبا فى كل بيت من بيوت  
لندن . وكانت الحياة فى باريس حياة مشرقة ، الجو  
الطبيعى كان مشرقا ، والجو الاجتماعى كان ايضا  
مشرقاً . كان من حظى ان ذهبت لزيارة متحف «الوفر»  
وبرزت امامى حضارة فرنسا الفنية فى هذا المتحف  
واضحة شامخة . لم اكن ، وربما حتى كتابة هذه  
السطور ، استطيع ان اتذوق الكثير مما رايت من لوحات  
خالدة . ولكننى احسست بان تيارا من الجمال كان  
يسرى فى كيانى . واحسست ايضا ان وجدائى كان  
وكانه فى عرس . كنت وانا ازور متحف الوفر وكاننى  
اسبغ فى انوار تتلألا فيها جواهر النفوس البشرية التى  
ابدعت ما اراه امامى بكل حواسى . كنت لا ارى بعينى  
فقط ، بل كنت ارى باذنى كذلك ، بل كنت ارى بكل  
حواسى وما فوق الحواس . وعلى الرغم من التعب الذى  
سرى فى جسمى من المشى فى الطرقات ومن الوقوف امام  
اللوحات فلم احس به الا عندما عدت الى حيث اقام .  
واصبحت كما اتذكر تجربتى فى الوفر اقصد ابداع  
الانسان وارى ان قامته - على الرغم من الشرور التى  
تقع بسببه من اجل اطماعه التى لا تنتهى - فى ارتفاع  
ان نتاج الانسان الفنى عظيم عظيم ، وان نتاج الانسان  
العلمى عظيم عظيم ، على الرغم من كل شيء . ان  
الخطوات نحو التقدم والرفعة والرقى لا تنقطع . وكنت  
اقول ولا ازال ان الحياة تؤكد دائما انه كما ان « لا شيء  
ياتى من لا شيء » فانه « لا شيء مطلق » . الخير موجود  
والشر موجود وهما فى صراع دائم ، والتفاضل موجود

وليدهب المتشائم منا الى اى متحف أو يمر امام اية جامعة أو كلية أو مكتبة أو اثر من الاثار أو ليرى ابتسامة طفل أو يسمع عصفورا يغرد فسيذهب تشاؤمه حتما بددا ويتأكد من انسانيته . وعلى ذكر العصفور فأننى اصارح القارىء ان كتاب « توفيق الحكيم » « عصفور من الشرق » الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ، لم يكن مسن حظى ان اقراه فى الوقت المناسب . وانا اقول الان لو اننى كنت قرأت هذا الكتاب فى الوقت المناسب لكنت الدراسات العليا الفرنسية من نصيبى حتما . لم يكن من حظى ان اقرا هذا الكتاب فى الوقت المناسب . قرائه بعد ذلك بعد ان عدت الى القاهرة فى المسرة الثانية وترك بصماته الجذابة اللذيذة الجادة فى كيانى حتى الان . واذا كان حظى العاثر لم يسر لى قراءة « عصفور من الشرق » فقد قرأت رواية « نجيب محفوظ » « زقاق المدق » بعد ان عدت من لندن فى المرة الاولى اى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ . وجذتها على رصيف من اربعة باعة الكتب واشتريتها بقروش قليلة على ما اذكر . ولم يكن نجيب محفوظ معروفا . ولعل هذه الرواية قد أسهمت فى ذكر اسمه بين الشباب القارىء فى القاهرة فى ذلك الحين ، وبخاصة فانها تبعت روايته « خان الخليلى » التى كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٦ فى حين ان رواية زقاق المدق كانت قد نشرت فى عام ١٩٤٧ . وقد استهوئنى الرواية الاخيرة لعوامل عديدة ، منها اننى تذكرت طفولتى وأيام شبابى عندما كنت أعيش فى حى الخليفة . ومنها اننى تذكرت الكفاح المرير الذى خضته وأيام المعاناة التى عشتها « ولا ازال » كما تذكرت لحظات الانتصار . ومنها اننى تذكرت اقاربى وهم أناس بسطاء منهم كان البقال وبائع الخردوات والشبابشى والحلاق



والفطالري والمنجد ، ومنهم كان الفسران وخسادم  
المسجد والعامل اليدوى ، ومنهم من كان يعمل فى  
التدريس فى مدارس المرحلة الاولى . وكنت عندما  
اقلب صفحات رواية زقاق المدق قارئاً أتذكر اننى  
فى كنف هؤلاء عشت طفولتى وشبابى . وانه اذا كانت  
لى طفولتى فاننى لم احس مرحلة الشباب . كانت  
مرحلة معاناة ، مات فى خلالها أبى ووجدت نفسى وحدى  
أواجه الحياة وتواجهنى الحياة . وعلى الرغم من اننى  
نرت على حياتى الماضيه ثورة عارمة ، فاننى مازلت فى  
ثورة عارمة مع حياتى الحالية . مازلت أحارب ومازلت  
اعانى ومازلت اكافح الطبقة التى وضعنى المجتمع فيها  
فى الوقت الحاضر ، أو فى الحقيقة الطبقة التى اخترتها  
ووضعت انا نفسى فيها فى الوقت الحاضر . تذكرت  
كل ذلك وفيره وأنا أقرأ رواية زقاق المدق . وكان  
إبطال الرواية همهم إبطال الحياة التى عشتها فى حى  
السيدة عائشة وفى حى البقلى مع اختلاف الاسماء  
وبعض الظروف والاحوال . وأحسست أن الرواية  
تحتضنى فاحتضنتها . وتأكد لى مرة ثانية وثالثية  
ورابعة . . الخ ، أن المصالح ، مصالح الناس كمصالح  
برونها ، تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا  
نحو الآخرين . ونحن بشر ، أى أن كل أو معظم ما يصدر  
عنا من أنماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك . وأن عقل  
الناس اعذرهم للناس . وأن خير ما نفعل أن نؤكد  
إنسانية الانسان ، فالانسان هو أعظم من فى الحياة اذا  
كانت ظروف حياته مواتية والا فانه سيكون مصدر  
الشرور والآثام اذا كانت ظروف حياته غير مواتية . أى  
أن الانسان لا يمكن أن يكون وحشياً على الدوام .  
ولم يكن متحف اللوفر قبلتى الوحيدة وأنا فى مدينة

باريس قى شهر يوليو عام ١٩٥١ ، ولكنى ذهبت الى  
برج « ايفل » وتسلقته بالمصعد لا بقدمى ويدي . ونظرت  
الى باريس من عل ، ولا اقول استغفر الله وهى تحت  
اقدامى ! كان منظرا مهيبا ملأت عينى ووجدانى بالوانه  
واحجامه /ومعالمه . كانت باريس نظيفة ولطيفة وجميلة .  
وكان الناس يعيشون كأس حياتهم حتى الثمالة . وذهبت  
الى « الحى اللاتينى » واحسست باننى « سمكة » تعيش  
فى الماء . تسبح من هنا ومن هناك . وكنت مثلها  
اسبغ لا بحسى ولكن بفكرى وخيالى . لقد كانت حياتى  
فى باريس قد نظفت من بعض الادران التى عقلت بحياتى  
وانا فى لندن . وكنت معدورا فان لندن على الرغم من  
وجودى بها فترة تزيد على ستة شهور كانت غريبة  
على . وقد احببتها بمرور الوقت وظللت احبها حتى  
الان . وكانت لندن وظلت غريبة لمدينة « بوستن » ،  
عندما سافرت اليها بعد ذلك فى اغسطس عام ١٩٥٣ .  
فترة طويلة حتى اصبحت كلتا المدينتين عزيزتين على  
ولا تزالان . ومرت الايام القليلة وانا فى باريس فاذا بى  
فى قرية « بوجيف » فى « مقاطعة سافوى العليا » . كانت  
قرية صغيرة اعظم مانيها مايحيط بها من معسالم  
الطبيعة الرائعة . كانت قرية جبلية وتحيطها الجبال  
العالية الفخمة ومنها جبال الالب المشهورة التى كانت  
متوجة بالثلج الذى كان يعكس اشعة الشمس ويملا  
الافق ألوانا عديدة من كل لون تتخلله عينا بشعر  
حساس . كان المناخ معقولا نقيا . والناس مثل اهل  
القرى فى العالم ، كما يبدو ، بسطاء ، لهم آمالهم كما  
لهم آلامهم ولكنهم كانوا اقرب الى الفطرة . ومع ذلك  
فقد رأيت مااسترعى انتباهى واكد لى الفرق الشاسع  
بين ثقافة مجتمع وبين ثقافة مجتمع آخر . رأيت وكنت

اسير في احد شوارع القرية عربية يجرها حصسان ،  
ويجلس فوق العربية سائقها وبجواره صبية صغيرة ربما  
كانت في الثالثة من عمرها او ربما كانت في الرابعة من  
عمرها . وكانت تضع على عينيها « نظارة طبية » وحاولت  
ان اتخيل الخطوات الجادة التي سبقت وضع هذه النظارة  
على عيني هذه الطفلة القروية من اهالي بوجيف في مقاطعة  
سافوي العليا في شهر يوليو عام ١٩٥١ . كيف حدث  
كل هذا ؟ وتذكرت توا ابني احمد عندما حصل على  
« شهادة الابتدائية » واردت ان الحفه بالجسامعة  
الاميريكية بالقاهرة ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة من  
عمره ، وعندما اجتاز امتحان الكشف الطبي بالجامعة  
طلب منه صيانة لبصره ضرورة استخدام « نظارة  
طبية » . مرت اثنتا عشرة سنة او يزيد ولم يلاحظ احد  
هذه الضرورة لا الاب « الذي هو انا » ولا الام ولا الجده  
ولا المدرسة الاولى ولا المدرسة الابتدائية ولا احد ، حتى  
اذا ما فكرت في الحاقه بالجامعة الاميريكية لكي يستكمل  
تعليمه فيها عرفنا الحقيقة . وهنا في قرية من قسري  
فرنسا النائية اكتشف المسئولون ان طفلة في سن الثالثة  
او ربما في سن الرابعة من عمرها في حاجة الى نظارة  
طبية حتى تصون بصرها . وقلت لنفسي هنا الفرق  
الحقيقي بين ثقافة مجتمع وثقافة مجتمع آخر . لهفه  
نفسى على اطفال مصرنا الخالدة وبخاصة الذين يعيشون  
في قراها والذباب لا يبرح وجوههم منذ ان يستيقظوا في  
الصباح الى ان يناموا في المساء وربما في أثناء النوم .  
ان الذباب كما كنت ارى يغطى قسما من الوجوه التي  
توجد فيها العيون والاذان والافواه . اننى تركت  
من ورائى تركة ثقيلة وجئت الى هنا في بريطانيا وفي  
فرنسا لعلى ان ارجع الى مصرنا الخالدة لأعمل مع غيرى

عملا صالحا . وثقافة مجتمع مصر الحالي لا يمكن أن تكون ثقافة أصيلة . فهي عارضة مافى ذلك من شك . وبكفى أن نذكر ما حدث فى أثناء الاستعمار التركى وما حدث بعده . عادت مصرنا الخالدة اصل كل حضارة الى الظلام الدامس . وعاش اهلها . وكانهم يتفرجون ، عاشوا فى بلادهم حياة الاغتراب . وظلوا فى هذا الظلام حتى اذا ما بدا وكان قبسا من النور قد اطل على العقول عن طريق ابنائها المخلصين من امشال رفاعة الطهطاوى وتلاميذه المخلصين ، فاذا بهذا القبس قد خبا ، واصبحت مصر مكبله بالاستعمار الانجليزى الذى مازال فى ذلك الحين قائما . ان مصر عام ١٩١٩ حاولت أن تقتل كابوس الاستعمار الانجليزى ولكن النجاح لعوامل عديدة لم يكن حليف المخلصين من ابنائها . وهانحن فى عام ١٩٥١ والحكومة المصرية القائمة تسمى جهدها لتحطيم معاهدة ١٩٣٦ . التى وان لم يكن توقيعها شرا مطلقا ، فقد أصبحت فى ضوء ظروف العصر شرا وبيلا . ومنذ اوائل عام ١٩٥٠ سعى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد الى بدء المفاوضات للتخلص من قيود الاستعمار الانجليزى الباقية ، فمعاهدة ١٩٣٦ لم تعد تشكل الاساس للعلاقات المصرية البريطانية . وكنا نقرأ فى الصحف عن جهود الدكتور صلاح الدين ، المصريون وانا ، قبل ان أبرح لندن الى بوجيف ، وكنا نعلم الكثير من المراءوغات الانجليزية التى كانت تكتنف هذه المفاوضات ، وبخاصة عندما سافر الدكتور صلاح الدين الى لندن واجرى مباحثات مع وزير خارجية بريطانية « بيفين » فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٥٠ . ثم موقف « هربرت موريسون » الذى تولى منصب وزير خارجية بريطانيا وطلبه فى شهر مارس عام

١٩٥١ مهلة للالمام بتفصيلات الموقف بين مصرنا الغالبة وبريطانيا . وفي بوجيف قبل ان ابرحها الى باريس ثم الى لندن في يوم ٣٠ يوليو عام ١٩٥١ ، قرأت وكنت وحدي وانا افكر في بعد الشقة بين ثقافة المجتمع المصري وثقافة المجتمع الفرنسي عندما رايت الفتاة الريفية وهي تستخدم « نظارة طبية » صيانة لبصرها ، قرأت خطاب موريسون في مجلس العموم البريطاني الذي حدد فيه سياسة بريطانيا الخارجية وهاجم موقف الوفد المصري في المفاوضات التي كانت تجري مع السفير البريطاني في القاهرة ، وقال موريسون مايعني ان وفد مصر يغمض الطرف عن « حقائق اليوم » . وتأكدت فيما بيني وبين نفسي ان الضرورة تحتم على المصريين وانا منهم ان يتحركوا ويفعلوا شيئا من اجل مصر ضد الاستعمار المعوق للتقدم المنشود . ولم افكر في موضوع هذا التحرك او هذا الفعل او نوع كل منهما . وبدأت في المستقبل القريب في اوائل شهر اكتوبر عام ١٩٥١ الخطوة الاولى بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب الحكومة المصرية . وتبعت هذه الخطوة خطوات اخرى جاءت تترى الواحدة بعد الاخرى فيما بعد . وكنت على الرغم من اهدافي العلمية ، كمصري ، مضطرا لان اتابع ما يحدث من حادثات سياسية في مصر ، وفي بريطانيا ، وفي العالم وبخاصة في الولايات المتحدة الاميركية . لم اكن استطيع ان اتفادى هذه المتابعة فانا على الرغم من بعدى المكانى عن المجتمع المصري مازلت احمل ثقافته على ظهري . صحيح اننى نتاج مصادر ثقافات عديدة او اصبحت ، في ضوء تاريخ مصر القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة ، نتاج المصادر الثقافية الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية والمسيحية والعربية الاسلامية وما جاء



بعدها من مصادر سواء اكانت تركية او مملوكية او  
قريبة . اى اننى كمصرى احمل معظم هذه الثقافات  
لانها ثقافات كانت فى الغالب قديمة ذات اصالة اثبتتها  
الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المصرية ؛  
او ثقافات لقبلتها الثقافات الاقدم منها ، وهى ايضا  
ثقافات مستمرة حتى الوقت الراهن . صحيح اننى  
اتحدث اللغة العربية ولكننى اتحدث فى عبارتها المئات  
بل الالاف من الالفاظ الفرعونية والقبطية . واساليب  
الحياة التى يعيشها المصريون وبخاصة ماتعلق منها  
بالميلاد وبالموت وبالأفراح « الزواج مثلا » وبالاتراح  
« الحزن واساليب التعبير عنه مثلا » ، وماتعلق بالكثير  
مما ياكلون ومما يشربون والاعياد التى يحيونها ويمارسون  
فيها انواعا معينة من النشاطات وغير ذلك - اساليب  
حياة ، كلها ، كلها ، مصرية ، اى انها نتاج الثقافات  
العديدة التى عاشها المصريون اجيالا بعد اجيال . . اى  
ان الثنائية التى يتشدد بها البعض عندما يقال « الاصالة  
والمعاصرة » ثنائية غير ذات موضوع ، فالمعزى مصرى  
لانه قديم متجدد وهو ايضا جديد وجذوره الثقافية  
لا تزال موزعة فى القدم .

ومع ذلك فانه اذا كانت الحياة اقوى من الموت ،  
وهذا صحيح ، فان دراساتي العليا فى لندن اقوى  
وابقى . فانا اعد نفسى للمستقبل الذى ارجو ان  
يكون لبلادى مشرقا . ورايتنى فى اوائل شهر اغسطس  
عام ١٩٥١ فى غرفتى فى بيت مسز تريس حيث اسكن  
اهيئ لنفسي السبيل لكنى استأنف دراساتي وخبراتي  
العلمية والثقافية ، التى عندما كنت فى اجازة بوجيف  
لم اتركها كلية ، ولكنى كنت احساول ان اجمع بين  
المتعنين المتعة التى تتصل بالاجازة اتصالا وثيقا ، والمتعة

الفكرية التي كنت أسعد بامتصاص رحيقها العذب رويداً رويداً ما استطعت الى ذلك سبيلاً . كان معي كتاب « علم الاجتماع الاسلامي » ، وهو من جزئين . ومؤلفه هو « روبن ليفي » « طبعتا ١٩٣١ و ١٩٣٣ » ، وكنت اجلس الى هذا الكتاب الضخم الفخم ، واقرا امورا ام اكن قراتها من قبل او كنت قد قراتها مسن زاوية فكر متباينة ، كان الكتاب يتضمن موضوعات شتى . وقد بدأ بما يشبه المقدمة التاريخية عن الفتوحات ونزول القرآن الكريم وكيف نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وانتشار الاسلام في عام ٧٥٠ وفي عام ١٠٥٠ ثم ماصار عليه حتى عام ١٩٢٩ . واوحت قراءتي لهذا الكتاب موضوعين لفتا نظري وجعلاني استعمل تفكيري استعمالا عميقا . وقف تفكيري عند خطاب الله جل وعلا النبي صلى الله عليه وسلم في الآية الكريمة « اقرا باسم ربك الذي خلق » « ٩٦ ك العلق : ١ » ان وجود هذه الآية ربما يدل على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان « نقرا » فعلا والا لما خوطب بنفس نص الآية المشار اليها اذا كان لم يكن يعرف القراءة . وكان الموضوع الثاني الذي لفت نظري يتعلق بترتيب سور القرآن الكريم وآياته ، ان القرآن الكريم لم يكتب وترتب آياته كما نزلت آية آية حتى يمكن للقارئ معرفة اسباب النزول وتناسقه وفقا لتسلسلها الزمني . صحيح انني اعرف عن كتب سجلت اسباب نزول العديد من آيات القرآن الكريم . ولكن الم يكن من التيسير على الفهم والادراك ان تكتب الآيات في المصحف كما نزلت اي حسب ترتيب نزولها ؟ وذكرتنى هذه الملاحظة التي يمكن تجاوزها بما لاحظته « طه حسين » في كتابه « الفتنة الكبرى » وهو يتحدث عن « سيدنا عثمان رضي الله عنه » عنهما

طلب من القراء ان يكتبوا ما حفظوه من آيات قرآنية  
 حتى لا يضيع القرآن الكريم من الصدور وبخاصة عندما  
 رأى ان الكثير من الحفاظ كانوا يستشهدون في المعارض  
 الاسلامية . فجاءه عدد من المصاحف المكتوبة اختار منها  
 واحدا وأمر بحرق الباقي . وتمنى طه حسين ، بحق ،  
 لو ان سيدنا عثمان رضى الله عنه ما فعل ذلك ، أى  
 ما احرق المصاحف التى احرقها ، لانه لو كان قد ترك  
 جميع المصاحف كما كانت لكانت الفرصة قد اتاحت  
 للعلماء والباحثين ليدرسوا وينقبوا ويفيدوا اكثر واعظم ،  
 ولكن وجهة نظر سيدنا عثمان فى رأى الكثير كانت اصح ،  
 فقد تفادى رضى الله عنه عن طريق احراق المصاحف التى  
 امر باحراقها الفتنة التى ربما كانت قد تقوم بين  
 المسلمين . لقد وجد المصحف بقصد توحيد كلمة المسلمين  
 حتى يكونوا فيما يتعلق بالمصحف الكريم على قلب رجل  
 واحد . ومهما يكن من الامر فان الموضوع الاخير قد  
 شغل تفكرى ولا يزال . ولعل الخبرة فيما اختاره الله  
 جل وعلا . ان عطفى اصبح بعد مرور شهور لم تبلغ  
 السنة يروح من هنا ويגיע من هناك . وكان هذا كما  
 قلت سابقا يقلقنى . ولكنه كان ايضا يمتعنى . فالثقة  
 فى النفس كانت تشد أزرى حتى لو أن الجساعات  
 الفكرية والثقافية قد اعتورها التغيير . فانا كمسلم  
 كنت أرى فى ذلك الحين كما يرى « عباس محمود العقاد »  
 فى كتابه « التفكير فريضة اسلامية » ، ان « رسالة  
 الدين ليست ضد رسالة المذاهب الفكرية . ان الدين  
 يطلق للمذاهب الفكرية مجالها فى المسائل المتجددة ،  
 والمذاهب الفكرية ينبغى أن ترعى للدين حرمة فى المسائل  
 الباقية . ان المذاهب تذهب والدين باق . قال الاسلام  
 هذه الكلمة السواء . لانه لم يقرر أصلا من أصوله يحجر

على العقل تفكيره « . وبمرور الزمن وأيت أنه ، كما ذكرت من قبل ، ان من اهم مصادر المعرفة الانسانية الفن والدين والفلسفة والعلم ، ومن حق الانسان ان يرى ان « الدين السماوي » مصدر معرفة يحتاج الى الايمان الروحاني ، والمصادر الاخرى على الرغم من اتصالها بعضها ببعض واتصالها بالدين كمصدر من مصادر المعرفة الانسانية يستطيع ان يمارسها الانسان دون الحاجة الى نفس الايمان الروحاني الذي بدونه لا يسكون الدين السماوي ديناً سماوياً .

وقد اثارت قراءتي لكتاب روبن ليفي بعض الشجون وبخاصة عندما تناول موضوع « الرق » ونظرة الدين الاسلامي نحوه وعندما تناول مكانة المرأة في الاسلام . ان الدين الاسلامي كما أعرف وكما يعرف الجميع دين المساواة ودين الاخوة في « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ( ٤٩ م الحجرات ١٣ ) . ومع ذلك نجد نظام الرق كان سائدا في عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقبل عهده وبعد عهده . ان العديد من آيات القرآن الكريم تؤكد وجود هذا النظام واباحته . قلت لنفسي ولم أكن سعيدا أبدا . صحيح ان تعاليم الدين الاسلام كانت تهدف دائما الى الحد من هذا النظام اللاانساني . ولكن هذه التعاليم لم تلغه أو تحرمه تكريما للانسان فعلا وواقعا . « ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر » « ١٧ ل الاسراء : ٧٠ » . لم أتم ليالي عديدة لانني كنت حائرا حقا . وقد زادت حيرتي عندما علمت انه قد تم استصدار القوانين التي تحرم تجارة الرقيق في بريطانيا منذ عام ١٨٠٧ ، في حين أن هذه التجارة كانت رائجة في المجتمع المصري حتى قبل الاحتلال الانجليزي لمصر . انني وانا طفل كنت الاحظ سساكني

حارة من جوارى حى الخليفة هى « حارة الاكراد » ،  
وكان يسكنها اعضاء أسرة كان الناس يسمونهم «المماليك»!  
ورأيت بعض اعضاء هذه الاسرة فقد تزوج أحد اعضائها  
واحدة من اخوات امى غير الشقيقات « خالتي زكية » .  
كنت أزور خالتي زكية مع امى وكنت اشعر على الرغم  
من صغر سنى بأن المناخ الثقافى الاجتماعى فى هذه  
الاسرة لايمكن أن يكون مصريا . كان اعضاء هذه الاسرة  
سيدتين وامهما وشقيقهما الذى تزوج خالتي وكان  
يعيش معهم بالطبع الابناء وكانوا كلهم ذكورا . وحارة  
الاکراد مازالت موجودة فى مكانها وهى قريبة من ضريح  
« السيدة سكيئة » التى يقول عنها بعض المؤمنين أنها  
« سكيئة بنت الحسين » .

والملاحظ أن الرقيق قد ألغى من مصر بمعاهدة مصرية  
انجليزية أبرمت فى سنة ١٨٧٧ - وتطبيقا لها صدر  
أمر عال من الخديوى ينص على فترة انتقال مدتها اثنتا  
عشرة سنة يسمح خلالها للأسر التى تملك جوارى أو  
عبدا أن تتاجر فيه مع غيرها . وكان يرى البعض من  
المصريين الموسرين أو أتباعهم أن شراء الجوارى عمل  
عظيم « ذلك أن الموسر مثلا يبتاع جارية أو مملوكا أو  
عبدا فينقله من حالته التعيسة الى حالة سعيدة ،  
ويحسن تربيته ويقوم بكمال تهذيبه ويكسوه ويشبعه ،  
وبالجملة ينقله من وهدة الشقاء الى أوج الراحة  
والرخاء » .

وإذا كنت قد ذكرت خبرتى عن « حارة الاكراد »  
فإن « هدى شعراوى » فى مذكراتها التى نشرتها لها  
دار الهلال وذكر فى المقدمة التى كتبتها « السيدة أمينة  
السعيد » على أنها مذكرات « زائدة المسراة العربية  
الحديثة » . وذكرت السيدة أمينة فيما ذكرت ان مواطن



العظيمة في هدى شعراوي انها كانت في شخصيتها تجمع  
المتناقضات فقد ولدت في فراش من ذهب ، ولكنها  
تنكرت للترف والدعة !! - تحدثت السيدة هدى في  
هذه المذكرات عن أمها القوقازية وعن جدتها التي كانت  
ناصحة البياض وزرقاء العينين والتي لم تكن تستطيع  
التفاهم معها الا بالإشارة لجهل كل واحدة منهما بلغة  
الأخرى . وتحدثت ثانيا عن الأغاني الشركسية التي  
كانت جدتها تدلها بها والتي مازالت حتى وقت كتابة  
مذكراتها تحفظ الكثير منها . وتحدثت ثالثا عن «عنب»  
العبد الحبشي « الساقى » الذي كان يخدم والدها وعن  
« لالا سعيدة » التي اشترى والدها صغيرا وعنى  
بتربيته وتعليمه ، وكان يحب والدها الى درجة العبادة ،  
ولما كبر وجه حبه الى أعضاء الأسرة . وتحدثت رابعا  
عن فتاتين لم تذكر عنهما الا انهما كانتا في سنها وكانت  
احدهما تركية والأخرى مصرية .

واننى اذ اكتب ما اذكره او اعلمه عن تجارة الرقيق  
اؤكد سعادتي بالفائتها كما اؤكد شقائي بأن الدين بدأوا  
بالفائتها كانوا من غير المسلمين .

أما موضوع مكانة المرأة فقد أعزتها تعاليم الاسلام  
كأم وكابنة وكأخت ولكنى في ضوء خبراتى وأنا في لندن  
لاحظت ان المرأة كزوجة ارفع مكانة . فالزوجات لسن  
عوانا عند الأزواج . وتوقفت حائرا كثيرا كثيرا عندما  
تذكرت الحديث الحسن الصحيح الذى رواه الترمذى عن  
ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم  
ومضمونه : « لو كنت آمرا احدا ان يسجد لاحد لامرت  
المرأة ان تسجد لزوجها » . وعدت الى رشدى عندما  
تذكرت ايضا ان المقصود من هذا الحديث ان السجود  
لا يكون الا لله جل وعلا .

وفى لندن رايت الايام تجرى وتجري معها من بين  
يدى النقود التى اقتنيها . وهانذا على ابواب دفع رسوم  
الامتحان الذى سيعقد فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . وعقدت  
النية على ان افعل ، واذا ماتم الامتحان بسلام اعود الى  
ارض الوطن لاجد فى الحصول على مورد يكفل لى ان  
اصرف على اسرتى الصغيرة وعلى نفسى . ولعلنى ان  
اوفق فى الحصول على بعثة دراسية وهانذا قد اصبحت  
موظفا فى الحكومة ، وسييسر حصولى على البعثة  
الدراسية نجاحى فى الامتحان . كنت شخصا متفائلا  
الى الدرجة التى لا يصح ان اتجاوزها . وواجهت موعد  
الامتحان وكنت مستعدا . . وقد ساعدتنى اجازة بوجيف  
على الصمود والاصرار على الاستدكار . وكنت قد  
انجمت دراستى فى الصحافة . وكانت كما ذكرت سابقا  
دراسة أكاديمية ، والعمل الصحفى مثل العمل فى  
الميدان الاجتماعى يحتاج الى الممارسة الواقعية ، ولكنى  
لم امارس الصحافة عمليا ولا واقعا . كانت الدروس  
عن تاريخ الصحافة وكيف نشأت ، وكانت تهتم بالخبر  
وكيف يكتب فضلا عن ، وهذا هو الاهم ، كيف تصرف  
مصادره . وكانت الدروس فى الصحافة ، وكلها  
بالمراسلة ، تهتم ايضا بكتابة « العمود » وبصياغة  
« الروبرتاج » وحتى بصياغة « الاعلان » . وكان  
بالضرورة فى ضوء المتوقع ان يكون نصيبى التبحر  
والحصول على « الدبلوم » بعد زيارة الى احدى الصحف  
الانجليزية لمدة يوم واحد وكانت ترافقنى آنسة سويدية  
تهوى الصحافة . وانا اذكر الآن ان الصحيفة التى  
قُرئت كانت صحيفة « الديلى ميل » وهى احدى  
الصحف التى كانت ، ولا تزال فيما اعلم ، تناصر

« حزب المحافظين » . وحملت الدبلوم تحت ابطى وانا اعلم قيمته الحقيقية . ولم افرح بالحصول عليه ولم احزن كذلك . وهو عندي في اوراقى حتى الان وعندما اراه ابتسم ساخرا . فالعمل الصحفى لا يحتاج الى دبلوم ولكن مؤهلاته امور اخرى لا اجد احدها عندي والا كان عملى الصحفى قد بدا منذ وقت مبكر جدا . اننى الان فى ذلك الحين منقطع للاستعداد للامتحان ، او اكاد ان اكون منقطعا لذلك . كل الوقت الذى لا اشغله فى الراحة او فى تناول الطعام للاستذكار . وحتى مقابلاتى قد قل عددها ، وذهابى الى دور السينما كاد ان يكون نادرا ، ومثل ذلك الحرص على الذهاب الى الاستماع الى المحاضرات العامة التى كانت جريدة « الديلى وركر » تنشر مواعيدها واماكن القاها . وكنت وحيدا وكانت وحدتى مؤلمة حقا ، ولكن انسى بالكتب ومؤلفيها كان يبذل الالم ويفرس فى نفسى الحاجة الى النظر الى المستقبل المشرق . ولقد تعودت على ان اهتدى بخطة اسير عليها . وكانت خطة قاسية . وانا لا انصح احدا ان يقتدى بها . فالانسان اى انسان له طاقة محدودة . وهو كائن لا بد له من ان يجد ولا بد له ايضا من ان يلهو . ولكن الظروف التى كانت تواجهنى فى ذلك الحين كانت تحتم على ان اكون جادا دائما ولا الهو . فالوقت يمر مر السحاب والنقود تقل من جيبى رويدا رويدا ، واسرتى الصغيرة تعيش بعيدة عنى وهى قريبة منى ، وقريبة منى وهى بعيدة عنى . وانا شخص على ضعفى اتحدى ستن واتحدى امضاء جماعتى المرجعية واتحدى حاجز اللغة فى المجتمع الذى اعيش فيه وعند الامتحان الذى يجب ان اجتازه . واذا عادت الايام الى الوراء ما كنت افعل ما كنت افعله فى ذلك الحين . وكنت ولا ازال

إذا استنصحتني أحد تلاميذي الذين على وشك السفر في بعثة دراسية أحذره من أن يفعل ماكنت أفعل . فالحياة عزيزة . وسلامة الصحة أحسن من المال . وهي أعظم هدف يجب أن يحققه الإنسان . وكنت أنا لا أبالي إلا بأن أحضر الامتحان وأن اجتازه بنجاح . وكانت خبراتي التي تتعلق بصحتي سطحية . فانا لم أذكر أنني مرضت في حياتي مرضا جسيما . ومن ثم كانت سطحية الخبرات الصحية وبالا على في مستقبل الأيام .

وأنا أذكر الآن عندما جاءت ليلة اليوم الأول في الامتحان . أي الليلة التي سيبدأ الامتحان في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي لها . وكان يوم الاثنين . تناولت عشاء ، وجلست فترة من الوقت ، ثم تناولت الكتب والمذكرات الخاصة بالعلم الذي سيكون الامتحان فيه بعد ساعات وكان علم الاقتصاد . وقررت أن أنظر في المذكرات نظرة عابرة ، ويبدو أن الوقت مر بي دون أن أدري . وعندما نظرت إلى الساعة كانت الساعة الواحدة صباحا . فرأيت أن ألبس ملابس الخروج « القميص والبنطلون والحذاء وماتعلق بكل ذلك » ماعدا « الجاكطة » . ورأيت أن اضطلع قليلا وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا . فاضطجعت وما لبثت أن سمعت « آن الشغالة » تفتح باب حجرتي لتقوم بعملية تنظيفها وترتيبها كما تفعل يوميا فيما عدا أيام الأحاد . كانت آن تحضر في الساعة العاشرة صباحا وعندما نظرت إلى ساعتى وجدتها تشير إلى الساعة العاشرة صباحا . وموعد الامتحان كان في الساعة العاشرة صباحا . وأنا هنا مازلت في البيت . ولم أر نفسي إلا وقد لبست الجاكطة بعد أن قفزت من سريري ، ثم قفزت درجات السلم لاخرج مسرعا ، ووجدتني في الشارع أشير إلى

« تاكسى » ليذهب بى حيث مكان الامتحان . كنت حيث  
يجب ان اكون بعد عشرين دقيقة اى فى الساعة العاشرة  
والثلث من صباح يوم الامتحان الاول . ودخلت الى  
القاعة ، ولما كنت قد دخلت القاعة قبل الساعة العاشرة  
والنصف لم يقف فى سبيل دخولى احد من المشرفين  
على الامتحان . جلست على الكرسى المعد لى ووجدت  
ورقة اسئلة الامتحان ومعها ورقة الاجابة . ولم اكن قد  
تناولت وجبة الافطار ولا « فنجان القهوة » الذى كنت  
مفرما بتعاطيه فى الصباح ، ولم ادخن « سيجارة »  
او اكثر ليعتدل « مزاجى » كما كنت افعل عادة بعد  
كل وجبة طعام اتناولها . كنت هكذا . وسرحت بلدهنى  
الى الفترة الزمنية التى مرت على وانا نائم من الساعة  
الثانية صباحا حتى الساعة العاشرة صباحا والتى مرت  
وكأننى ما فعلت سوى اننى اغمضت عينى ثم فتحتهما .  
مجرد ذلك . هذا ما كنت اشعر به . اغمضت عينى ثم  
فتحتهما فترة كلفتنى ثماني ساعات وحرمتنى من تناول  
وجبة الافطار وما يستلزم ذلك . وتكفى لهفتى التى هزت  
كيانى وكان سببها خشية حرمانى من الامتحان لتأخرى  
عن أدائه فى وقته المحدد . كانت لهفة واية لهفة . وكان  
كل ما حدث لى تجربة وبالها من تجربة . وعادت لى  
رباطة جاشى بعد فترة من الزمن لا ادرى مسداها ،  
وأحسست اننى رجعت الى بعض نفسى . وبدأت اجيب  
عن الاسئلة . وكان على ان اجيب عن اربعة اسئلة  
اخترها من ستة اسئلة مسجلة فى ورقة الامتحان . لم  
تكن الاسئلة صعبة ، ولكن المتحن الانجليزى اذا قال  
اربعة اسئلة فالاجابة يجب ان تكون عن اربعة اسئلة .  
ولا تكون عن ثلاثة او خمسة اسئلة مثلا . ان طلب  
المتحن طلب يجب ان يقدسه الطالب المتحن فلا يزيد



عليه ولا ينقص منه . ولكن الوقت الباقي لم يسعفني  
الا للإجابة عن ثلاثة أسئلة فقط وليست عن أربعة أسئلة  
كما طلب الممتحن . كنت اعرف ذلك . ولكن ما حيلتى ؟  
وكنت أمنى نفسى بأن اجاباتي كانت الى حد كبيرة اجابات  
سليمة . وعشت فى حلمى غدير اللذيد حتى انتهى  
الامتحان من كل العلوم . وكانت العلوم أربعة وكان لكل  
علم ورقتان للأسئلة ورقة فى الصباح من الساعة العاشرة  
حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، والورقة الثانية من  
الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الساعة السادسة مساء .  
كل يوم كانت المواعيد هكذا . أربعة أيام يوما بعد  
آخر . وكان الممتحن الانجليزى لابد ان يرضى عن الإجابة  
ورضاؤه يعنى ان يستوعب الطالب كل المقرر ويتمثله  
كما كان يقول احدهم وكان المعلومات عن هذا المقرر  
قد أصبحت جزءا من دم الطالب الممتحن تجرى فى شرايينه  
مثلا مثل اصناف الطعام الذى نأكله فى وجباتنا .  
وكان الذهاب يوميا صباح مساء يضايقنى حقا ، وكنت  
أعتبر هذا النظام نظاما لا انسانيا . ولكن ما حيلتى ؟  
انتهى الامتحان وحمدت الله وبدأت استعد للعودة الى  
القاهرة . والكتب عندي كانت كثيرة كانت أضخم وأثقل  
من ملابسى طبعاً . وكان الامر يحتاج الى حجز تذكرة  
على احدى السفن حتى أطمئن على أمتعتى وبخاصة  
كتبى التى كان بعضها لا يمكن ان يجتاز جمر الميناء  
فهى فى نظر النظام المصرى القائم فى ذلك الحين كتب  
محرمة .

وكان من حظى أننى كنت أستطيع ان احجز تذكرة  
على سفينة الى « بور سعيد » او الى « الاسكندرية » :  
ذلك لان تجربتى فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ عندما  
أردت العودة ، حرمت من الحجز على سفن ، واضطرت

الى ركوب اول طائرة فى حياتى ، وكانت طائره بلجيكية ، اضطرارا . فقد كانت الحكومة الانجليزية فى ذلك الحين ، اى فى عام ١٩٤٨ ، تواجه ثورة الملايو . كانت هذه الثورة ، وهى ثورة تحرير ، فى تلك الاونة ، على أشدها . ومن ثم جندت الحكومة الانجليزية لمواجهةها جميع البواخر والطائرات الانجليزية ، المدنية منها والحربية ، لتحمل الجنود والضباط وكل انواع المدخائر المدمرة . وكان هدفها ، اى هدف الحكومة الانجليزية الذى لا هدف بعده ولا قبله ، هو تأديب ثوار الملايو ! وكانت الصحف الانجليزية تطلق على هؤلاء الثوار لقب « الرعاع » مثل ما فعلت ذلك صحف الولايات المتحدة لثوار كوريا الشمالية ، وكما فعلت بالضرورة صحف فرنسا لثوار الهند الصينية وثور الجزائر . وكانت البواخر والطائرات تحمل الجنود والضباط والعتاد من موانئ المملكة المتحدة ومن مطاراتها عبر البحار والاجواء الى الملايو . اى من شمال غربى القارة الاوروبية الى جنوب شرقى قارة آسيا . واعتبرت الحكومة الانجليزية ارسال ابنائها للقتال واجبا وطنيا ساميا . اليس هو كما كانت تقول صحيفة « الديلى اكسبريس » وسيلة الى توطيد الاستعمار الانجليزى المنهار فى الملايو ؟ وليكن ارسال !بناء الانجليز هادفا الى الحرب وسفك الدماء فمن يهتم ؟ ولتكن هذه الدماء دماء ابناء الانجليز او دماء ثوار الملايو فمن يهتم مرة ثانية ؟ ولم يكتف الانجليز المستعمرون بارسال جنودهم وعتادهم وذخائرهم لقمع حركة ثوار الملايو ، ولكنهم فعلوا اشياء اخرى . فعلوا اشياء لا يفعلها الا تجار الحروب ومجرموها . فعلوا كما فعل « خورشيد باشا » الوالى التركى فى مصر وفى يوغسلافيا من قبل ، وكما فعل الاميريكيون ضد الهنود

البحر لإبادتهم وتحذيد منحل اقامتهم . فانا اذكر من الاشياء التى فعلها الانجليز فى الحرب ضد ثوار الملايو الاحرار فى خلال عام ١٩٤٨ انهم استأجروا عديدا من رجال قبائل قاطعى الرءوس الادمية المجاورين للمنطقة ، الذين كانوا يعيشون ، ولا يزالون ، حياة بدائية ، ويكثرون فى ولاية « اسام » . وهم يمارسون قطع الرءوس الادمية عن عقيدة ، وخصوصا رءوس القرباء عنهم . استأجرهم الانجليز المستعمرون نظير دفع ثمن بخس دراهم معدودات ، لكل رأس من رءوس زعماء الملايو الثائرين ، خصوصا الذين كانوا يتخذون منهم من الجبال مقاما ووجاء .. او من الغابات سكنا وحماية . وكان هؤلاء البدائيون القتل يعملون فى الزعماء الأبرار قتلا وتقتيلا ، مؤمنين بأن روح الانسان أى انسان تسكن دائما فى الرأس الادمى . وهى أى الروح عبارة عن شيء يشبه الدمية الصغيرة ، وهذه الدمية مملوءة بمادة تشبه البخار . فاذا قطع الرأس الادمى انتشرت بالضرورة المادة البخارية فى الجو وامتصها الزرع فى الحقل وزادت الخصوبة فى الارض وفى الزرع الذى قد يأكل ثمراته الانسان أو الحيوان . ومن ثم تصل الخصوبة بدورها الى الانسان اذا اكل القمح والى الحيوان اذا اكل العشب .

واضطرت الى ركوب الطائرة لأول مرة فى حياتى لى اعود الى القاهرة حيث توجد اسرتى الصغيرة ويوجد موقع عملى . وكان موعد السفر يوم اربعاء كما اذكر ، وكان على ان اكون فى المطار فى الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم . واذكر اننى لم استطع النوم بسبب القلق الذى انتابنى . وتذكرت امى وزوجى وابنائى .. وكان هلمى شديدا كلما تذكرت موقف امى اذا حدث لى

حادث اقصد اذا حدث للطائرة حادث وانا امتطيها . ولم  
 اتم الا بعد ان تواعدت مع نفسي واتخذت قرارا هو :  
 اننى فى اثناء تسلقى درج سلم الطائرة سوف اقرا  
 سورة « قل هو الله احد » ( ١١٢ ك الاخلاص : ١-٤ )  
 ثلاث مرات . اطمأنت نفسي بعد هذا القرار ونمت وذهبت  
 فى الموعد المحدد وركبت الطائرة وقرأت سورة « قل  
 هو الله احد » ثلاث مرات وانا اتسلق درج سلم  
 الطائرة . لقد فعلت فى عام ١٩٤٨ ذلك ولم اكن ادرى  
 ماذا كنت سافعل فى شهر يوليو عام ١٩٥٢ اذ واجهت  
 نفس الموقف . ان ذهابى الى لندن فى عام ١٩٤٨ كان  
 لفترة سبعة شهور تقريبا . اما فى المرة الثانية فقد  
 كانت مدة اقامتى فى لندن ثمانية عشر شهرا تقريبا .  
 فترة اطول . ولكن العبرة هنا ليست فى طول المدة او  
 قصرها انما العبرة فيما حدث لى من تغير فكرى .  
 ائنى ارى وانا اكتب هذه السطور ان الفترة من الاسبوع  
 الاول من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى اواخر الاسبوع  
 الرابع من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، اى بالتحديد حتى يوم  
 ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ يوم مبارحتى مدينة لندن  
 الى ميناء دوفر ومنه الى ميناء كاليه فى فرنسا الى مدينة  
 باريس ثم الى ميناء مرسيليا عن طريق القطار الذى  
 نمت فيه ليلتى لآخذ السفينة التى تبحر ميناء مرسيليا  
 فى ظهر يوم ١٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ومنسه الى  
 ميناء نابلى الذى وصلنا اليه فى يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢  
 ومن نابلى الى ميناء الاسكندرية « ارض الوطن العزيز »  
 الذى هل علينا وراينا معاله وكان الجميع مصريون وغير  
 مصريين - فى لهفة الى النزول على البر بعد ان مكثت  
 سفينتنا ساعات راسية بعسدة عن الشاطئ من غير  
 ان يعلم احد من الركاب شيئا عما يحدث او حدث

بالتفصيل - ان هذه الفترة قد صنعت بي من التغيير  
ما جعلنى شخصا آخر . انها الاساس الذي اقيم عليه  
كيانى الفكرى بعد ذلك . كانت فترة عصبية فى حياتى  
وكانت فترة مرهقة لاعصابى وبعض اعضاء جسدى ،  
ولكنها كانت ايضا فترة ثمينة بذرت بذور الثقافة العالمية  
التي اينعت كل ما أصبح خصبا فى اتجاهاتى نحو  
الحياة الانسانية . انها اكدت لى صغر قامتى كما اكدت  
امكانية ارتفاعها . كانت فترة لا تعدو الثمانية عشر شهرا  
ولكنها فى عمرى الزمنى كانت اطول واعمق واجدى من  
كل الفترات . لانها فى ضوء ما اكتسبت فى خلالها من  
خبرات كانت المرجع الاول لكل خبرة بعدها . اننى  
كما ذكرت من قبل لم انفصم عن اصولى ولكنى تجددت .  
فمازلت مصريا اشعر بشعور المصريين تماما ولكنى كنت  
اعرف لماذا افعل ذلك وماذا يجب على المصريين فى ضوء  
ظروف العصر ان يكونوا .

وقبل ان احجز تذكرة على السفينة التي تصل الى  
بورسعيد وجدت ان ما ادفعه سيكون اكثر اذا ما اخذت  
السفينة التي تصل الاسكندرية . كان الفرق عشرة  
جنيهات استرلينية . وكان هذا المبلغ فى ضوء ظروفى  
المالية مبلغا كبيرا . وكانت الكتب التي اقتنيتها ، وهي  
كتب ثمينة جدا ، همى الاكبر . . . وبعث « الراديو »  
الذى كان يحمل ويعمل بتيار الكهرباء او بالحساس  
البطارية اى كان يعمل حيث يحمل . وبعث الآلة التي  
تدير الاسطوانات . وكان ثمن البيع ثمنا بخسا حقا .  
واخذت كتبى وحقائى فى صباح يوم ١٨ من شهر يوليو  
عام ١٩٥٢ الى ميناء الدوفر وركبت « اللنش » لكي  
اعبر بحر المانش الى ميناء كاليه . ومن كاليه اخذت  
القطار الى باريس وذهبت الى محطة السكة الحديد



لأشحن ثلاث حقائب ملأى بالكتب إلى ميناء مرسيليا حتى تصل في الصباح لكن استلمها قبل أن تبرح السفينة الراسية في ميناء مرسيليا بعد ساعات طوال . وانتظرت قطار باريس - مرسيليا لأخذه إناث فيه ليلتي وأكون في الصباح في مرسيليا حتى تتم الاجراءات وأركب السفينة الداهية إلى الاسكندرية عن طريق ميناء نابلي بسلام . ومن ثم أذهب إلى بيتي وأترك ورائي البيوت التي دخلتها أو عشت فيها في لندن وفي ضاحية وولتش وفي مدينة كارديف وفي ميناء هل وفي مدينة باريس وفي قرية بوجيف . وتكون مسر بوميكوم ومسز بوينر ومسز كروس ومسز آرمسترونج ومسز تريس ومدام جانيت وغيرهن أشخاصا إذا ذكرتهن الذكر مايعشن من أجله ، ليس كل مايعشن من أجله بالطبع ، وأذكر ملامح كل واحدة منهن عندما كانت تتقاضى الأجرة مني أو عندما كان يعن لها أن تطلب زيادة فيما ادفع لائني أحمل تيار الكهرباء ما لا طاقة له به بسبب السهر في الاستدكار أو بسبب استعمال جهاز الراديو . وسأذكر عتاب مسز تريس عندما أرسلت « بطاقة » التهئة بعيد « الكريسماس » بعد مواعده كما كنا زملائي وأنا نفعل ذلك في أعيادنا في القاهرة . كنت وزملائي نبتسادل بطاقات التهئة بأعيادنا بعد أن تنتهى الاعياد وليس قلها . وكان عتاب مسز تريس درسا لى ، وبدأت من بعده أرسل بطاقات التهئة قبل الاعياد وان تلقيت الكثير منها بعدها .

وفي طريقى من لندن حتى غادرت السفينة ميناء مرسيليا حدث لى نفس ما يحدث عادة لأجنبى شرقى . كانت منقصات لاداعى لحدوثها ، وكنت أكظم غيظى أمام من يحدثها وأنا ساخر . ان المسئول على استلام

الباسبورتات على اللش الذي سيعبر بحمر الماش ،  
وكان فرنسا ، عندما رأى ان الباسبورت الذي اعطيته  
له بناء على طلبه مصرى ، وكسان امامه عامود من  
الباسبورتات طويل لانه كان يضع كل باسبورت يأخذه  
ممن كان واقفا في « الطاير » قبلى فوق الباسبورت  
الذى استلمه من قبل وهكذا . اما الباسبورت الذى  
ناولته له فقد كان مصرىا فوضعه في آخر ماجمع من  
باسبورتات . عرف انه باسبورت مصرى ، وان الجزائر  
في ذلك الحين في ثورة ضد الاستعمار الفرنسى وان  
المصريين قاطبة يؤيدون الثوار الجزائريين . . ففعل  
المسئول الفرنسى ما فعل انتقاما كما بدا لى . وعندما  
فعل ما فعل هزرت كتفى ساخرا . وفي محطة باريس  
ظن البعض لانى كنت اتحدث باللغة الانجليزية اننى  
امريكى زنجى ، ولما عرفوا اننى مصرى تغيرت سلامى  
الوجه وساءت المعاملة الى الدرجة التى كنت على وشك  
ان لا ألحق بالقطار الداهب الى مرسيليا . وذهبت الى  
مرسيليا بعد ليلة طويلة طويلة قضيتها في القطار . كان  
نومى متقطعا . ولكنى لم أبال لان عيني كانت على  
حقائبى . فكنت انام لاصحو وكنت اصحو لانام حتى  
وصلنا الى مرسيليا . واسأل على حقائب الكتب فقبل  
لى انها لم تحضر وستحضر غدا . ونصحت بأن اذهب  
الى « شركة كوك » لتتولى هى مسئولية الاستلام ثم  
الشحن حسب العنوان في القاهرة . وذهبت الى الشركة  
واستلم المسئول الاوراق الدالة على ما لى من حقائب  
وطلب مفتاح كل حقيبة حتى يسهل خروجها من الجمارك  
وطلب ايضا مايوازي خمسة عشر جنيها مصرىا ، وكان  
كل مافى جيبى عشرة جنيها فقط رأيت ان اعطيه منها  
ثمانية لابقى الجنيهين فربما احتاج اليهما وأنا في طريقى

الى القاهرة ومنها الى بيتى . كانت فترة حرجة  
وسخطت على نفسى ، فقد دفعت من النقود والمعانات  
حتى الان ما كان يوازى النقود والمعاناة التى كنت سادفها  
لو اننى ركبت احدى السفن الداهية الى بور سعيد .  
وسادف كما ذكر لى مسئول شركة كوك نقودا اخرى  
عند استلام حقايب الكتب من مدينة الاسكندرية . وزاد  
سخطى اننى دفعت ايضا من كرامتى امام اشخاص  
بسبب الجهل بالحياة الانسانية كان أسلوب معاملتهم لى  
مشوبا بالتعصب البغيض . اننى اعذر هؤلاء ولكنى  
لا اعذر نفسى ، فقد تعلمت الدرس من قبل وصحيح  
ان اساليب التعصب اساليب متغيرة ، لان الناس  
متباينون ، ومن حقهم ان يتباينوا . فكان على ان اعلم  
ذلك ، ومن ثم فانى ارى انهم من اجل ذلك يعذرون  
ولكنى لا اعذر نفسى . وتذكرت متحف اللوفر وعظمتته  
وخلود من خلقوا روعته وجماله ورايت راسى ينحنى  
اجلالا ، وسرعان مانسيت كل ما هو قبيح . الوجه القبيح  
الفرنسى او اى وجه قبيح غريب .

ومرت ايام اربعة فاذا بنا فى « ميناء نابلى » ، كان  
اليوم يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وجاء ركاب  
جدد بعد ان ترك السفينة بعض الركاب الذين امتطوها  
فى مرسيليا وكان من بين الركاب الجدد مصريون  
يتحدثون باللغة العربية بصوت عال عن قيام ثورة فى  
مصر . ومنهم من كان يذكر انه سمع ذلك فى الاذاعة قبل  
ان يركب السفينة ، ومنهم من كان يتطوع بذكر  
العكس . وتأكدنا جميعا بقيام الثورة من راديو السفينة  
وكانت الاذاعة تبث باللغة الفرنسية احيانا وباللغة  
الانجليزية احيانا اخرى . واتخذت مكانا بالقرب من بعض  
المصريين لى اسمع مايقولون وسرعان ماذبت فيهم .

لقد كانوا أناسا شتى . فيهم من الشباب ومن الكهول ومن النوعين . وكان بعضهم على علاقة ما ببعض ، وكان الأكثر غرباء ولكن الحادثة الكبرى قد جمعتهم . وسمعت ضمن ما سمعت ولم أكن أعلم عن الانتخابات التي جرت في نادي ضباط الجيش وعن « اللواء محمد نجيب » والتحدى الذي قام به الضباط ضد الملك فاروق وحاشيته ، وأشياء عديدة أخرى . وعضضت على البنان لأننى بعث الراديو الذى كنت أملكه قبل أن أبارح مدينة لندن يوم واحد ، وقلت لبت ذلك ما حدث ، وكنت ومعى الآخرون الآن سسمع ما يحدث الآن فى بلادنا بكل اللغات ومنها اللغة العربية فعنها تأخذ الاذاعات الأجنبية . ولكن « كلمة ياريت » كما تقول الأغنية « ماتمر بيت » وتذكرت الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد ومجهوداته فى سبيل تعديل معاهدة ١٩٣٦ منذ عام ١٩٥٠ حتى تكون مصرنا الخالدة مستقلة استقلالاً حقيقياً ، فكان قد تفاوض مع « بيفن » وزير خارجية بريطانيا فى مدينة لندن فى يوم ٤ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٠ ، واستمر يفاوض بعد أن حصل محل بيفن « موريسون » ، وتذكرت موقف الأخير المراوغ ومحاولة مراجعته . والحادثات التى مرت بمصر أخذت تتداعى فى ذهنى . الغاء المعاهدة حريق القاهرة ، اقالة وزارة الوفد ، وانفجارات العنف فى مدينتى بور سعيد والسويس ، وأمر الحكومة « الوفدية » العمال المصريين الذين يعملون فى المعسكرات البريطانية بترك العمل وطلبها الى المقاولين الذين يتعاملون مع الجيش البريطانى الذى يحتل منطقة القتال فسخ العقود .. وغير ذلك من مسن الحادثات التى تدل على ما وصلت اليه البلاد من ظروف تدعو الى القيام بالثورة وأهمها حرب فلسطين والأسلحة

الفاسدة التي خاض بها جنود وضباط الجيش المصري هذه الحرب . وقامت الثورة في يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وهانذا مع غري من المصريين وغير المصريين في عرض البحر نخوض الامواج لكي نصل الى ارض الوطن . ولكن امورا اخرى تتعلق بالدكتور صلاح الدين كانت قد شغلت بالي . فقد كان الدكتور صلاح كمال يعلم القاريء رئيس الهيئة التنفيذية التي كانت تشرف على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحاكمة الاحداث بالقاهرة . وكان اتصالي به بحكم انني كنت مدير هذا المكتب اتصالا وثيقا . رايت فيه الانسان الكريم ذا الاخلاق العالية جدا الرفيعة جدا . وله عندي من الذكريات ما يسعدني حقا ويدلل على اريحيته وفضله وكرمه . ويذكر القاريء موقفه من الدكتور عوض عندما وقف الاخير في سبيل اعطائي قرضا اشترى به ملابس استعدادا للسفر الى لندن لأول مرة في فبراير عام ١٩٤٨ ، ويذكر القاريء موقفا من زاهية مرزوق عندما وقفت بوصفها امين صندوق مؤقت للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية في سبيل منحي هذا القرض بحجة عدم وجود بند في الميزانية يسمح بالصرف . وانا اذكر ايضا موقفا لا يمكن ان يقوم به الا رجل مثل الدكتور صلاح الدين . كان ذلك في عام ١٩٤٩ وقد عقد اول مؤتمر للخدمة الاجتماعية العربية في مبنى اليونسكو بمدينة بيروت . كان يسمى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » . وكان على الدكتور صلاح ان يقدم ورقة عمل عن الاحداث الجانحين وقد اعددت هذه الورقة بالاشتراك مع السيد المستشار محمد فتحي والاستاذ فتح الله المرصفي تحت اشراف الدكتور صلاح . وذهبت اليه في بيته وقرأت عليه الورقة كلمة كلمة وقام بالتعديلات التي رآها وقامت



إدارة المكتب بنسخها وارسالها اليه التي أرسلها بدوره  
 الى إدارة المؤتمر الذي كان مقرره الدكتور عباس عمار .  
 وجاءت اللحظة التي يقرأ الدكتور صلاح ورقته فبدأها  
 بالشكر الجزيل لكل من أسهم في إعدادها وذكر  
 الاسماء واحدا واحدا المستشار محمد فتحي والاستاذ  
 فتح الله المرصفي والاستاذ سيد عويس . وكنت الوحيدة  
 الذي كان حاضرا لاننى كنت قد دعيت الى الحضور  
 مع احد الزملاء ممثلين للجمعية المصرية للدراسات  
 الاجتماعية . وعندما انتهى الدكتور صلاح اصطحبته  
 كما عودنى لى ناكل « بسبوسة » فى محل مشهور فى  
 مدينة بيروت . وذهبت معه فى سيارة معدة خصيصا  
 لتنقلاته وكان يسوقها سائق لبنانى . ودخلنا المحل  
 المشهور وأمر بثلاثة صحون بسبوسة أكلناها السائق  
 وهو وأنا جميعا . وانتهزت الفرصة ونحن فى محل  
 الحلويات وتحدثت عن الورقة التي ألقاها فى المؤتمر  
 ورد فعل الحاضرين وبخاصة عندما ذكر أسماء الدين  
 أسهموا فى إعدادها فقال : « يا أخى انا مالى بالخدمة  
 الاجتماعية انا راجل مهتم بالسياسة » . فقال ذلك  
 مجاملة بالطبع فهو يعلم قطعا الاتصال الوثيق بين  
 السياسة والمسائل الاجتماعية . ولا يمكن الا أن أذكر  
 عندما ذكر اسمى والتفات الحاضرين نحو المقعد الذى  
 اجلس اليه واحمرار وجهى والعرق الذى تصبب من  
 جبهتى . ونظرات الناس ويا لها من نظرات . وذكرياتى  
 مع الدكتور صلاح التي لا صلة لها بالعمل فى مكتب  
 الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث كثيرة واختتم بها  
 عندما اتبعت لى الفرصة لاكون عضوا من أعضاء فوج  
 الرواد فى مصيف الاسكندرية فى صيف عام ١٩٤٦ .  
 كان معسكر الرواد معدا لبعض الرواد وأعضاء أسرهم

من زوجات وابناء ، كما كان معدا للعديد من طلبية الجامعة ، وقد دعيت مع آخرين لاشتراك في هذا المسكر وكانت سنى قد بلغت ٣٤ عاما ! وكانت المرة الاولى في حياتى التى اذهب فيها الى مصيف . وكانت فترة الاقامة للفوج الذى اشتركت فيه اسبوعين . وكانت متعنى الذهنية توازى ان لم تفوق متعنى الجسدية . كان يضم المسكر من الاساتذة فضلا عن الدكتور عباس عمار الدكتور سليمان حزين والاستاذ فؤاد جلال والاستاذ حنا رزق . وكان يحضر الدكتور محمد صلاح الدين فى الامسيات ليحيى او يشترك فى حفلات السمر ولا غرو اذا كنت تراه وهو فى حياته العادية شخصا تشع من نفسه وفى سلوكه آثار التذوق الفنى وعشقه للجسمال والاناقة ، وينعكس ذلك فى ملبسه وفى حديثه وفى آرائه وفى اتجاهاته وقبل ذلك وليس بعده فى حبه الاصيل لمصرنا الخالدة . وفى المسكر كان من حظى بل من حظ اعضائه جميعا ان يحاضرنا بعض المفكرين المصريين مرة او مرتين فى الاسبوع ، محاضرة عامة ، وكان الاستاذ « احمد امين » الذى عرفته من كتبه ومن مقالاته فى « مجلة الثقافة » أحد المحاضرين . وانشى اذكسر ان موضوع محاضرتة كان عن « تعقيل العمل الاجتماعى » وكان يدور حول روح العصر « عام ١٩٤٦ » وما تتطلبه هذه الروح من الافادة من تطبيق المنهج العلمى فى مواجهة المشاكل الاجتماعية التى كان ، ولا يزال ، يشوئ بها المجتمع المصرى . ومن ثم فالعمل الاجتماعى لابد ان يكون على أسس موضوعية تتضمن سياسة اجتماعية التى تتضمن بدورها الاهداف والوسائل التى تحققها حتى نعرف الاولويات ونستطيع التخطيط من اجل مواجهةها . كانت فرصة لى لان استمع لمؤلف كتب فجر

الاسلام وظهر الاسلام وزعماء الإصلاح في العصر الحديث وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، والذي كما تقول سيرته انه ولد في « حارة الميادية » وعاش صباه وبعض شبابه فيها . وهي احدى الحوارى المتفرعة من شارع البقلي بقسم الخليفة ، نفس القسم الذي ولدت وعشت صباى وشبابى فيه .

وراجت الذكريات تروح وتجيء . وفجأة تذكرت الاستاذ « دانيال برسوم » الذي كان رئيسا لقلم التوريدات بمصلحة الحدود ، تذكرته الان وانا على السفينة الداهية الى ميناء الاسكندرية وتذكرته قبل ذلك عندما قرأت خبر نفيه في جريدة الاهرام وانا في مدينة لندن . كان وقع الخبر اليما على نفسى . لان طموحات هذا الرجل لم تكن لها حدود ، واين هو الان واين هذه الطموحات ؟ واخذ المستقبل يداهب خيالى مستقبل مصرنا الخالدة قبل مستقبلى . ماذا سيحدث يا ترى ؟ اننى مع نجاح الثورة واستقرارها من اجل المستقبل المشرق . وهانذا استمع الى الاذاعة واسمع ويسمع معى من على السفينة من المصريين اسماء الدين ايدوا الثورة وكان اعضاء هيئة التدريس في جامعة الاسكندرية على راسهم . ومع اننى سمعت خفقان قلبى من اجلهم ولكنه سرعان ما تجلد . كنت اؤم بمصرنا الخالدة ايمانا راسخا . وتأكدت فى ضوء بعض ماقرأت عنها فى كتب التاريخ انه على الرغم من الاستعمار المستمر منذ عام ٥٢٥ ق . م وحتى الان « عام ١٩٥٢ » فان المجتمع المصرى استمر وبقي . مازالت مصرنا الخالدة على خريطة الدنيا . كانت بحق مقبرة الغزاة . وبقي شعبها الاصيل يؤدي ادوارا تتفق مع ظروف كل عصر وكل موقف اجتماعى فى حياته اليومية . فقد يقف موقف المتفرج احيانا ، وقد يناقق احيانا

أخرى وقد يستنخر من نفسه أو من حكامه ومن في حكمهم  
أحيانا ثالثة ، وتراه صابرا الواثنا من الصبر التي تنسوء  
بحملها الجبال ، وفي موقف آخر تجده يستفرق في  
التدين وجاء وعزاء ، وربما كان الدعاء على الظالم  
تنفاسا عن صدور ابنائه ، وتجد في حقبة أخرى هذا  
الشعب متمردا يعصى ما يؤمر به ويرتكب ما تراه قوانين  
المستعمر أو الظالم جرائم ، وفي التاريخ نجد الثورات  
المصرية في نطاقها الضيق أحيانا وفي نطاقها الواسع  
الذي يشمل المجتمع أحيانا أخرى ، كما نجد حروب  
التحرر وحروب الغزو والانتصار . وكنت وأنا على مقربة  
من ميناء الاسكندرية أسأل نفسي وأسائنها ماذا ينتظر  
شعبنا المصري من مصر ؟ هل ما حدث مجرد حركة  
جيش للحصول على ترقيات ؟ هل ما حدث مجرد انقلاب  
كالذي قام به حسنى الزعيم من قبل ؟ هل ما حدث هو  
فعلا امتداد لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد أو لثورة  
١٩١٩ أو تصحيح للثورة العربية ؟ هل وراء ما حدث  
قوة أجنبية ؟ كان الناس من حولي يقولون « أنها ثورة »  
وكان الدليل عندهم أن فاروق أمر بالخروج ليسذهب  
بلا رجعة الى المنفى الذي يختاره . لقد تأكدت من هذا  
الامر فقد أحسست كما أحس ركاب السفينة بوقوفها ،  
وكنا نرى معالم الاسكندرية على بعد وعندما جاءنا في  
أحد القوارب رجال الجمارك أبلغونا أننا سنقف حتى  
الساعة السادسة مساء موعد خروج فاروق في يخته  
« المحروسة » الى المجهول . وحدث هذا فعلا ورائنا  
اليخت يسير بجوارنا وفاروق واقف في أحد أركانه  
وكانه ينظر الى لا شيء . ومن الغريب أنني وجسدت  
شخصا في الخمسين من عمره وربما أكثر من ذلك وهو  
يرفع يده تحية عندما مر اليخت بجوار السفينة . كان

مصريا مافى ذلك من شك . وانا أسائل نفسي منذ لحظة  
رؤيتى يده مرفوعة وأصابعها الخمسة مضغوطة الى  
جبهته محييا لماذا فعل هذا الرجل مافعل . ان فاروق  
لم يره حتما لانه كان فى ضوء الظروف التى عاشها  
وعانها منذ يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ حتى يوم  
طرده من البلاد ، لم يكن ليرى الا المجهول . وقد بدا  
لى أن الرجل كان يعرف ذلك حتما فهو فى ضوء مايتحلى  
من ملابس وسمات انسانية يبدو مدركا لما فعل . وقد  
فعل مافعل ومن حوله يرونه . هل كان مصدر ما فعله  
هذا الرجل لونا من الولاء او هل كان توقعا لفشل  
القائمين على مآثروا عليه ، او هل كان تعبيرا للقول  
السائد « من فات قديمه تاه » ! لم ادر الاجابة عن  
هذه الاسئلة فى ذلك الحين ولا ادرى حتى كتابة هذه  
السطور .

ثم عدت الى نتائج رحلتى منذ شهر فبراير عام ١٩٥١  
حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، اى فى خلال فترة ثمانية  
عشر شهرا وانا فى المجتمع الغربى احاول ان امتص رحيق  
ثقافته المنتظمة « الاكاديمية » وغير المنتظمة « كل عناصر  
الثقافة الاخرى التى صادفتنى وصادفتها » . لقد كانت  
هناك نتائج مافى ذلك من شك . وقد ذكرت من قبل  
الكثير منها . ويكفينى اننى اتقنت اللغة الانجليزية قراءة  
وكتابة ، واننى اتصلت ببعض الاساتذة الانجليز ، واننى  
تلمذت على استاذى البروفسور جون لويس . واننى  
تذوقت الوانا من الفن « فن الموسيقى والفن التشكيلى  
مثلا » . واننى قد وجدت الفرصة مواتية لاهتم بعلم  
التاريخ وبعلم الاقتصاد ، وبخاصة مايتعلق بتاريخ بلادى  
بعمامة وتاريخها السياسى والاقتصادى والاجتماعى الحديث  
بخاصة . واننى قد صححت الكثير من معلوماتى وواجهت



القلق الفكرى فى ضوء تنشئتى الاجتماعية والمصادر الثقافية المكتوبة وغير المكتوبة التى زودت ثقافتى قبل ان ازمع السفر الى الغرب لا لاغترب فحسب بل لا تقرب ثقافيا أيضا . اى اضيف الى عناصر ثقافتى عناصر الثقافة الغربية او بعضها . اننى لم افعل الكثير مما كنت اروم وابتغى . فالفترة التى قضيتها كانت قصيرة جدا فى حياة المرء العادى ، او حتى غير العادى ، ولكنى اعترف باننى فعلت ما يشبه المستحيل لكى اغترف من مناهل الثقافة الغربية . لم اضيع وقتى هباء . ولكنى احسست بان قامتى لم ترتفع ارتفاع قامة الدكتور عوض او قامة الدكتور حزين . وقد قابلت الدكتور حزين ليس فقط فى معسكر الرواد فى صيف عام ١٩٤٦ فى الاسكندرية ، ولكنى قابلته محاضرا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ببيروت فى عام ١٩٤٩ فى موضوع « خطط الاصلاح الاجتماعى والاوضاع التاريخية والثقافية فى الشرق العربى » . وكسائت محاضرتى قيمة . خرجت من القاعة بعد انتهائهما شخصا آخر . وكان من اهم آثار هذه المحاضرة على تفكيرى ان اتجهت وانا فى لندن الى دراسة « علم الانثروبولوجيا » كهواية تماما كما هويت دراسة « علم الفلك » ومحاولة فهم الظاهرة الفلكية . لقد وجهتنى محاضرة الدكتور حزين نحو دراسة ثقافة بلادى . وكانت المعلومات التى علقت فى ذهنى منها كلها جديدة على . اننى لم اكن اعرف مثلا ان المجتمع المصرى كما اخذ من الثقافات الاخرى فقد اعطى ، وان ما اخذته مصرنا الخالدة لم يمس الاصيل الذى عندها فى قليل او كثير بل بقى الاخير مع غيره عبر الازمان جنبا الى جنب . ولكن محاضرة الدكتور حزين عرفتنى ذلك وغيره كثير ، ان

أهم مايسرت لى محاضرة الدكتور سليمان حزين التى ألقاها فى مؤتمر بيروت فى عام ١٩٤٩ فى مبنى اليونسكو، كان ولايزال ، خلق الاهتمام الرشيد بالمجتمع المصرى . لقد أكدت هذه المحاضرة ماوصلت اليه من تجسارب اجتماعية وبخاصة عندما اتبحت لى الفرصة وأنا طالب بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى خريف عام ١٩٣٨ لكى أدرس حالة أحد الاحداث المتهمين فى إحدى الجرائم ، وعندها ايقنت بعد اتمام دراسة هذه الحالة بان المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم او هو موسوعة اجتماعية لا اول لها ولا آخر .

وفجأة وأنا على هذه الحال استدعى الدكتوريات وتستدعيني الدكتوريات ، واحاسب نفسى وتحاسبنى نفسى ، وألذكر الايام التى كانت والايام التى ستكون - تذكرت فجأة كتبنى التى هى الآن تحت رعاية « شركة كوك » . انها كتب عديدة وثمينة . فيها كتب فلسفية ، وكتب تاريخية ، وكتب اجتماعية ، وكتب اقتصادية ، وكتب تهتم بالفنون وغيرها وغيرها . وفى حقائب هذه الكتب مذكراتى التى كتبتها وأنا الخصى ما اقرأ او التى كنت اكتبها فى اثناء المحاضرات . ومن الكتب ما قد يبدو دخوله الى البلاد فى ذلك الحين محرما مثل كتب ماركس وانجلز ولينين وستالين وجون لويس وكتاب ولفرد بلنت عن التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر، وبعض المجلات وقصاصات المقالات وغيرها . ولكنى كنت متفائلا . فقد عبات هذه الكتب وغيرها من « المنوعات » وأنا فى لندن قبل ان يطاح بالنظام المصرى فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . فلعلى الظروف ان تتغير وان يحدث ، كما حدث وان كسان متوقعا ، مالىس فى الحسبان . ان كتبنى التى أحضرتها

معي من لندن كانت ومازالت حياتي . اننى لا ادهى اننى  
قرايتها كلها . فبعضها وبخاصة الموسوعى منها كنت  
اراه وكأنه « موسوعة » فعلا اذهب اليه كلما احتجت  
الى معلومة جديدة لا اعرفها او للتأكد من صحة معلومة  
اعرفها . وساورتني الهموم فقد خشيت ان يكون  
حصولي عليها متعذرا . وزاد قلقي لاننى لم اكن اعرف  
شيئا مما يحدث في مصر في ذلك الحين . لم يكن احد  
يعرف شيئا . كان البعض يردد اسماء كسائنات  
مجهولة عندي . وكان البعض يدعى المعرفة بالتفاصيل  
وكان لا يستطيع احد ان يواجهه بكلمة او حتى بإشارة .  
كنا بعض المصريين وأنا نلوذ بالصمت . وكان الواحد منا  
كان يقول في سره « ياخير بفلوس بكره يبقى بلاش » .  
والحق ان هذا التفكير كان ساذجا حقا . فانا مثلا لم  
اكن اعرف ماكان جاريا في يوم ٢٦ من شهر يوليو عام  
١٩٥٢ وما قبله من ايام الا بعد فترة طويلة - وما عرفته  
وعرفه الناس لايمكن ان يكون بالضرورة هو ماكان فعلا  
جاريا في تلك الايام ومابعدها . انه التاريخ ، وحقائق  
التاريخ تحتاج للحصول عليها الى وقت . ان المؤرخين  
وهواة التاريخ لا يجمعون على عظمة « محمد على الكبير »  
وحسن نواياه نحو مصرنا الخالدة . وقد بدا محمد على  
الحكم وهو في سن ٣٦ عاما في عام ١٨٠٥ ومات في عام  
١٨٤٩ ، أى ان وفاته قد مر عليها اكثر من ١٣٠ عاما  
حتى كتابة هذه السطور . وكان مايزيد في قلبي ليس  
الكم او كيف لما حصلت عليه من معلومات فحسب بل  
كيف استخدمها ؟ هل ستتاح لى الفرصة لأفعل شيئا  
أحقق به بعض اهدافي ؟ هل ماحصلت عليه من معلومات  
يكفى ؟ هل حققت حلم ابى وامى لاكون امتدادا للزعيم  
مصطفى كامل بأسلوب يتفق مع العصر الذى أعيش فيه

او العصر الذى ساعيش فيه ؟ . وفجأة رايت ركساب  
السفينة يغادرونها الى البر عن طريق مراكب صغيرة اقرب  
الى « الفلوكات » . فسارعت اليهم اسير معهم حيث  
يسرون الى ارض الوطن العزيز وانا اواجه المجهول .  
والامل الوثاب يملأ قواذى وكنت اردد فى سرى عبارة  
خطرت فى بالى ، وكثيرا عند مواجهة المجهول فى خلال  
تلك الفترة من حياتى ماكان تخطر فى بالى ، الا وهى  
« فمن جسر اسر ومن هاب خاب » .

## العودة الى الوطن وتجربتي مع ثورة عام ١٩٥٢ فى خطواتها الاولى

وهانذا انزل من سلم السفينة الى اخر درج ، ثم وضعت قدمي فى المركب الصغير الذى سينقلنى مع من كانوا يصحبوننى من ركاب السفينة ، ووصلنا اليه آمنين . وهاقد مست قدمي ارض ميناء الاسكندرية . بما أن فعلت ذلك حتى أحسست بأن كياني كله قد مسته مشاعر متباينة ، هى مشاعر نبيلة نبل حب الوطن الذى هو من الايمان . واضيفت الى تلك المشاعر مشاعر المناخ الذى كان يهيمن على الاسكندرية وكنت اراها فى الناس: فى حركاتهم وفى كلماتهم وفى تعبيرات وجوههم ، وفى العيون . وما ادراك ما العيون . انها تشع الفرح كما تشع الامل والانطلاق . ان الصيحات فى كل مكان ، والاصوات على اختلاف درجات سلم موسيقاها تملأ كل مكان . وقد اختلطت الاصوات الادمية باصوات الاذاعة التى لا تكف عن البث بكل انواعه والوانه : بالكلام احيانا وبالموسيقى احيانا اخرى ، وبالاغاني والاناشيد احيانا ثالثة . لقد احسست بالجموع الفقيرة التى كانت تملأ الشوارع . وسرعان ما ذبت فيها ، واصبحت قطرة فى محيط من الادميين الذين لا يذكرون المرارة ولسكنهم كانوا يعيشون وكأنهم فى المستقبل المشرق . انهم كانوا ينظرون الى امام . فالمصرى ينسى « الاسية » ويرحب بالتسامح . ويؤى ان فى عبارة « صاقي يالبن » « حليب



ياقشطة « املا مرتقبا على الدوام ، وكأنه السحر ، صرت انظر مع الناظرين الى امام وانا متفائل . وطرححت الماضي جانبا لأرى ماهو كائن وحاولت ان اتوقع ما الذى سيكون . أصبحت ذرة وانا مع الملايين . وتأكد لى فى الحال ان شعب ميناء الاسكندرية هو شعب مصرنا الخالدة . وشعب مصرنا الخالدة ، ككل الشعوب ، يدفع الحياة دائما مهما يكن من شىء لتكون خيرا مما هى عليه . وما ان انتهيت الى هذه النتيجة حتى وجدتنى استعمل عقلى واكاد ان ادع العواطف جانبا . وتذكرت مثلنا الشعبى « عدو زمان مالوش امان » . وتوجست اشياء مخيفة قد تحدث فى المستقبل القريب او حتى فى المستقبل البعيد . ولكن ماكان يجلجل فى الاذاعة جرفنى الى الواقع الحى الذى كنت فيه . كانت الاذاعة قد مهدت لاذاعة « بيان تاريخى » من الساعة الخامسة مساء . سمعنا ذلك ونحن ما نزال على السفينة . وفى السادسة والنصف كما اذكر بعد ان وطئت اقدام ركاب السفينة ارض الوطن ، وكنت معهم ، الاذاعة تجلجل ببث « البيان التاريخى » على الملأ ، وسمعنا صوتا لم نتبينه فى اول الامر لا انا ولا من كنت فى اوساطهم فى « طوابير الاستماع » امام احد « الراديوهات » المنتشرة فى ميناء الاسكندرية .. يقول :

« بنى وطنى .. انما للعمل الذى قام به جيشكم الباسل فى سبيل قضيتكم قمت فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ الموافق ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ هـ بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وسلمته عريضة بوجهة الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

تحمل مطلبين على لسان الشعب .

الاول : ان يتنازل جلالتة عن العرش لسمو ولى عهده قبل ظهر اليوم .

« الثانى : ان يغادر جلالتة البلاد قبيل الساعة السادسة مساء . وقد تفضل جلالتة فوافق على المطلبين وتم التنفيذ فى المواعيد المحددة دون حدوث مايعكر الصدر . وان نجاحنا الى الآن فى قضية البلاد يعود الى تضافركم معنا بقلوبكم وتنفيذكم لتعليماتنا واخلادكم الى الهدوء والسكينة ، وانى اعلن ان الفرح قد يفيض عن صدوركم لهذا النبا غير اننى اتوسل اليكم ان تستمروا فى التزام الهدوء حتى نستطيع مواصلة السير بقضيتكم فى امان ولى كبير الامل فى انكم ستلجئون ندائى فى سبيل الوطن ، وفقنا الله لمسا فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام » .

وصاح الجمع العاشد الذى انخرط اعضاؤه فى طوابير الاستماع ، انه محمد نجيب .. انه محمد نجيب .. ولاول مرة كنت اسمعه محذرا ، وان سمعته بعد ذلك مرارا . كانت احداها فى الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم « يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ » ، حين اذاع بعد طرد فاروق بساعتين فقط قائلا : « ان ماينسب الى من عمل مجيد ان هو فى الحقيقة الا مجهود وتضحيات لرجال الجيش البواسل من جنود وضباط ، ولم يكن لى الا شرف قيادتهم » . واستطرد قائلا :

« وقد امر جلالة الملك فاروق عندما طلب الجيش اسناد منصب القيادة العامة الى بان ينعم على برتبة الفريق بدرجة وزير فلم اعلن رفضها حتى لا يسرقل ذلك قرضا اسمى وهو تنازل الملك عن العرش .. والان

وقد انتهت الامور فانى أعلن تنازلى عن هذه الرتبة  
قائما برتبة اللواء مراعاة لحالة الدولة المالية .  
وبرز اسم « محمد نجيب » وأصبح ملء السمع  
والافواه . وكان اثر كلمته الثانية على الناس عظيما .  
فصفقوا و صفقت معهم حتى ادمى التصفيق ايادينا .  
ولكنى والحق يقال راجعت نفسى بعد ذلك فقلت ان هذا  
الرجل العظيم يتحلى بصفات انسانية تميل الى  
« الرومانتيكية » ، وما فعله او ما اريد له ان يفعله  
لا يجب ان يجعل لهذه الصفات وزنا . فقد درست فى  
« علم الاجرام » ان من الصفات التى تصنع رجال الاعمال  
او رجال السياسة ليست فقط المخاطرة والاقدام بل  
ايضا الرغبة فى الكسب . والملاحظ ان هذه الصفات  
هى التى تكون المجرمين العتاه . لقد بدأ لى الرجل لاول  
وهلة عندما تنازل عن الرتبة ، اى عندما ابدى الرغبة  
فى عدم الكسب ، انه يعيش فى « يوتوبيا » قد خلقها  
المناخ الثقافى المصرى حتى تسود بعض القيم الاجتماعية  
التي جعلت حكم المصريين منذ عام ٥٢٥ ق . م حتى  
قيام الجيش المصرى بقيادة الرئيس محمد نجيب فى يوم  
٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، ميرا . تلك كانت  
هواجسى وانا مازلت انضج العناصر الثقافية الجديدة  
المتجددة التى استوعبتها واكاد ان اتمثلها . وقد أكد  
ظنى او حكمى هذا ان وضع شخص عرفنا ان اسمه  
« جمال عبد الناصر » مديرا لمكتب الرئيس محمد  
نجيب . ولم يكن يعرف سوى القليل من بنات وابناء  
مصر عن الازل شيئا قليلا او كثيرا . وقد اكون مخطئا  
خطا جسيما فلعل تنازل الرئيس محمد نجيب عن  
الرتبة المشار اليها كان يعنى ، اذا كانت الرغبة فى  
الكسب صفة اصيلة فى شخصيته ، حيلة سياسية

لكسب الجماهير وبخاصة والحركة الجديدة ما زالت تخطو أولى خطواتها . لم اكن في ذلك الوقت استطيع التقدير السليم وذلك لان الحقائق كلها او حتى بعضها لم تكن في حوزتي ، فانا كنت بعيدا عن الديار فترة طويلة من الوقت وكان اهم اهدافي اللعب من المصروفة اني وجدت في المحاضرات او في المتاحف او المسارح او في الندوات او في جلسات الاصدقاء او في الكتب وغيرها من المصادر . وكان اهم ما يشغلني ان اسهم في تكوين المواطن المصري الصالح ، اما بطريق مباشر كما كنت افعل وانا في مؤسسة الزفاف الملكي او في معسكر كوم امبو او في مكتب الخدمة الاجتماعية لمحاكمة الاحداث او في جمعيتنا الناشئة ! جمعية الخدمات الاجتماعية بحي بولاق . او بطريق غير مباشر فاتاهل لكي اكون المفكر الذي يكون دوره ترشيد المصلح الذي يعمل في سبيل تكوين المواطن المصري الصالح . ولاني كنت في مستهل رجولتي في ذلك الحين فاني كنت آمل ان اجمع بين الدورين . ان الثورة العربية على الرغم من فشلها فقد تركت لمصرنا الخالدة « كادرا » من القادة الوطنيين ادوا واجبهم بحق . كان منهم عبد الله النديم ومحمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول ، وجساء من بعدهم مصطفى كامل ومحمد فريد وسيد درويش وطلعت حرب واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وعبد العزيز فهمي وامين الخولي واحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش وامين الرافعي وغيرهم وغيرهم . وعندما ثارت جماهير مصرنا الخالدة في عام ١٩١٩ وجدوا القادة الوطنيين على اختلاف مشاربهم الذين قادوهم ضد المستعمر الفاشم . وكانوا على الرغم من الخلافات ، التي يتوقع عساة حدوثها ، على مستوى المسئولية . وعلى الرغم من

نتائج هذه الثورة التي لم تحقق احلام الامة فقد ضرب  
القادة الوطنيون المصريون الذين قادوا جماهيرها ومن  
اتى من بعد المثل العليا وبدلوا من التضحيات النفس  
والنفيس . والامر المهم الذى اذكره ويذكره غيرى كما  
يذكره التاريخ هو ان ثورة عام ١٩١٩ قد انجبت من  
بعد قادة وطنيين تسلموا الامانة . وكان منهم مصطفى  
النحاس واسماعيل القباني والمازنى وطه حسين ومصطفى  
صادق الرافعى والعقاد وسلامة موسى ومحمد صلاح الدين  
ويعقوب فام وتوفيق الحكيم وحسين فوزى وزكى مبارك  
ومحمد حسن الزيات ومحمد حسين هيكل وفكرى أباطة  
واحمد امين وانور المعداوى وغيرهم كثيرون مثل حسن  
الينا واحمد حسين ومن قادوا حركة يوليو عام ١٩٥٢  
الذين لم اعلم عنهم شيئا عندما عرفت عنها فى نابلى وانا  
فى طريقى الى ارض الوطن . واذا كنت قد ذكرت  
بعض أسماء القادة فهناك أسماء غيرهم لم اذكرهم لانى  
لا اعرفهم او لانى لا استطيع ان املا الصفحات تلو  
الصفحات بأسمائهم . ومن الذين اعرفهم ولم اذكرهم  
بنات وابناء حى الخليفة الذى ولدت فيه وعشت حتى  
بلغت سنى سبعة وعشرين عاما . فقد كانوا كثيرين وعلى  
الرغم من بساطتهم فى المعيشة وفى النظرة نحو الحياة  
ونحو الموت فانهم كانوا مصريين قلبا وقالبا . كان يبذل  
الواحد منهم ما يستطيع ان يبذل حبا فى مصر الخالدة  
وعشقا للوطن العزيز . فحب الوطن كان عندهم عقيدة  
صحيح كانوا كما كان القادة الوطنيون يرون انفسهم  
كما يتشدد البعض احيانا انهم مصر ولكنهم كسانوا  
يجدون انفسهم ، البسطاء من حيننا ، وغيرهم من القادة  
الوطنيين ، مثلهم العليا ، نتاج النظام السائد والظروف  
الثقافية الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسمود



المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . أنه من الخطأ والخطأ الجسيم ان يزعم احدهم ان مصر هي المصريون . ان هذا تبسيط للامور . كان هذا رأى فى يوم ٢٦ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ وانا فى ميناء الاسكندرية بعد ان تركت السفينة التى اقلتنى من ميناء « مارسيليا » وكنت فى القرية قرابة ثمانية عشر شهرا . ومازال هذا الرأى هو رأى حتى كتابة هذه السطور . كنت ، ولازلت أقول ان المجتمع الصالح يصنع المواطنين الصالحين كما ان المواطنين الصالحين يصنعون المجتمع الصالح . انها علاقة جدلية . ومن ثم فانا لا ازعم مع الزاعمين بأن مصر هي المصريون ثم اصمت ، او ان اقلد اى مصرى باللوم لانه ينقد وضعنا من الاوضاع السائدة فى المجتمع المصرى او يبرز مشكلة من المشاكل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية التى تعوق تنمية هذا المجتمع لكى يتقدم ويسهم فى تحقيق انسانية الانسان فيه او اذا فعل غيره ذلك وفى غيره من المجتمعات . كنت ارى ذلك ، ولا ازال فى تلك الفترة من حياتى . ذلك لاننى مارست اعادة تكوين شخصيات أبناء المؤسسة التى كنت اعمل فيها بنجاح عندما تغير النظام الذى كانوا يعيشون فى ظله . اننى اذا قلت لمصرى او قال احدهم ان « مصر هي انت يا صديقى » فانا ابرز وجود النظام العام السائد الذى يعيش فيه على علاقته . وهل هذه امانة علمية او حتى امانة فلسفية ؟ صحيح انا كمصرى ، كما قلت لنفسى فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى وجدته فى ميناء الاسكندرية فى يوم ٢٦ من شهر يوليو من عام ١٩٥٢ مساء وفى اثناء الليل ، مرآة لمصرنا الخالدة فى ضوء حياتى التى عشتها فى المجتمع المصرى سواء كانت حياة طيبة او حياة غير ذلك . او كانت حياة فيها ما هو طيب

أو فيها ما هو قير ذلك . اننى كمصرى نتاج مجتمعى  
اى الجماعات التى اتميت اليها منذ ان ولدت . لقد  
اثر فى هذه الجماعات ما فى ذلك من شك وانا ايضا  
اثر فى فيها فى ضوء قدراتى وامكانياتى . وقسدرات  
الشخص منا وامكانياته كما يعلم القارىء محدودة ومتباينة  
فبعضها ماييسر الفث وبعضها ماييسر الثمين . ولعل  
العودة الى عهد محمد على يفسر لنا الكثير مما ذكرت .  
فالملاحظ انه على الرغم من الامجاد التى حدثت فى ذلك  
العهد اى انه على الرغم من النهضة التى وضع اسسها  
ذلك الحاكم الذى دبر « مذبحه القلعة » التى قتل فيها  
مايربو على اربعمئة من بنى الانسان ، فى شخص  
المصانع « العنابر » والمطبعة الاميرية والقناطر الخيرية  
والجيش وغيرها لم يهتم الاهتمام الاصيل الكافى ،  
اى اهتمام المصرى الاصيل ، بتكوين القادة من المصريين  
على الرغم من البعثات التى ارسلها الى فرنسا والى غيرها  
من البلاد واشهرها بعثة « رفاعة رافع الطهطاوى » .  
وعلى الرغم من اثار هذه البعثات فى شخص بعض اعضائها  
بعد عودتهم الى مصرنا الخالدة ، فان هؤلاء الاعضاء ،  
وكانوا قلة ، وعلى رأسهم رفاعة رافع الطهطاوى قد عانوا  
الكثير الكثير . ونجح محمد على ومن جاءوا من بعده  
فى ان يشتروا معظم الاعضاء باثمان لا تغنى ولا تسمن  
من تقدير ، فقد كانت اقرب الى الرشوة منها الى المنحة  
الخالصة التى تيسر للمدفع له اذا كان مواطنا رشيدا  
ان يؤدى لبلده عملا صالحا .

وصممت على ان ابقى فى الاسكندرية ليلة قبل ان  
ابرحها الى القاهرة الحبيبة لانضم الى اسرتى الصغيرة :  
زوجتى واحمد وآمال وسهير وتيسير ومسعد .  
واستأجرت غرفة فى احد الفنادق لليلة واحدة اعيش

فيها فرحة الجماهير واسمع من قريب أحيانا ومن بعيد  
 أحيانا أخرى الهتافات والتعليقات التي تنم على الأمل  
 الرجو . وما كان أملي إلا أن أعمل عملا صالحا إذا لم  
 أتمكن من العودة إلى مصادر المعرفة في لندن أو في  
 غيرها من دول الغرب أو من دول الشرق وإن كان  
 الذهاب إلى الأخيرة في ذلك الحين متعلدا . ونجاة  
 تذكرت كتبي التي أودعتها أمانة لدى « شركة كوك »  
 لكي تشحنها على عنواني بالقاهرة . تذكرتها كتابا  
 كتابا .. تذكرت ليس فقط كتب « ماركس وإنجلز  
 ولينين وستالين » ولكنني تذكرت أيضا كتابي  
 « هوجين » وكتب « ج . ب . س هولدين » وبخاصة  
 ( كل شيء له تاريخ طبعة عام ١٩٥١ ) و « ماهي الحياة »  
 طبعة عام ١٩٤٩ « و « عدم مساواة الإنسان طبعة عام  
 ١٩٣٢ » ، وكتبا عديدة عن مصر القديمة وبخاصة كتاب  
 « تراث مصر طبعة عام ١٩٤٩ » ومحرره « جلانفيل »  
 وكتاب ( فجر الضمير طبعة عام ١٩٣٣ ) تأليف « برستد »  
 وكانت منها مجموعة كبيرة من كتب سلسلة « مكتبة  
 كل شخص » — Everymans. Library

وقد غدتني هذه السلسلة بالمعلومات القيمة التي قدمها  
 عباقرة الفكر أمثال « داروين » و « آدم سميث »  
 و « ريكاردو » و « روسو » و « ج . س ميل »  
 و « كنت » و « وليم جيمس » وغيرهم وغيرهم . ولم يكن  
 « بلنت » بكتابه « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا  
 لمصر » و « يومياتي : ١٨٨٨ - ١٩١٤ » طبعة عام ١٩٣٢ «  
 ولا « كرومر » بكتبه « مصر الحديثة : المجلد الأول  
 طبعة عام ١٩٠٨ » و « مصر الحديثة : المجلد الثاني  
 طبعة عام ١٩٠٨ » و « عباس الثاني طبعة عام ١٩١٥ » ،  
 لم يكونا مصدرَ التعرف على مصرنا الخالدة في العصر

الحديث ولكن كان كتاب « تحقيق غربال » « بدايات  
المسألة المصرية وظهور محمد على طبعة عام ١٩٢٨ »  
وكتاب « شارل عيسوى » « مصر : تحليل اجتماعى  
ياقتصادى طبعة عام ١٩٤٧ » . وكانت من كتبى التى  
تعالج الموضوعات الدينية فضلا عن مجلة « روبن ليفى »  
عن مؤلفه « علم الاجتماع الاسلامى » كتب اخرى  
عديدة ، تذكرت منها كتاب « تراث الاسلام طبعة عام  
١٩٤٩ » وكان محرره « توماس ارنولد » بالاشتراك مع  
« الفرد جيلايوم » وكتاب « المؤسسات الاسلامية طبعة  
عام ١٩٥٠ » تأليف « موريس جود فروى ديمومبينز » ،  
وكتاب « العقائد التى يعتنقها الناس طبعة عام ١٩٥١ »  
تأليف « شارلز فرانسيس بوتر » وغيرها وغيرها .  
وكان ضمن ما تذكرت من كتب كتابى « دراسات  
مستقبلية لثقافة تحتضر طبعة عام ١٩٤٩ » و « الوهم  
والحقيقة طبعة عام ١٩٥٠ » تأليف شهيد الحسب  
الاسبانية الاهلية « كريستوفر كودويل » ، وكتابى  
( الانسانية كفلسفة طبعة عام ١٩٥٢ ) و « وهم الخلود  
طبعة عام ١٩٥٢ » تأليف « كورليس لامونت » . ولم  
تكن كتبى تخلو من الروايات الخالدة مثل روايات  
« جيورجى » و « فاوست » و « تولستوى »  
و « ديكنز » و « هاريت بيتشر » ( مؤلف رواية كوخ العم  
توم ) فضلا عن حكايات « بوشكن » و « دوستوفسكى »  
وغيرهم وغيرهم . وفجأة تذكرت اننى ربما كنت الشخص  
الوحيد الذى لديه المجلد الرابع من كتاب « رأس المال »  
لماركس الذى يعتبر المجلد الرابع وعنوانه « نظريات  
فائض القيمة طبعة عام ١٩٥١ » . وكتاب عن « فرانسيس  
بيكون » وعنوانه « فرانسيس بيكون فيلسوف العلم  
الصناعى طبعة عام ١٩٥١ » ومؤلفه « بنامين فارنجتون »

ذكرته كذلك ، كما ذكرت مجلدي « ادولف د ب . تيلور  
 عن « الثقافة البدائية : دراسات في تطور علم الاساطير  
 والفلسفة والدين واللغة والفن والعادة طبعة عام ١٩٢٩  
 وكتاب « فريزر » الفصن الذهبي الطبعة الموجزة عام  
 ١٩٥٠ . وتذكرت كتباً أخرى كثيرة . وكانت لهفتي  
 على المذكرات التي كنت اكتبها في المحاضرات او كنت  
 اخص فيها ماكنت اقرا ، كانت هذه المذكرات مع هذه  
 الكتب التي كانت تملأ ثلاث حقائب كبيرة وكان يربو عددها  
 على الثلاثمائة كتاب ، وذلك عدا الكتب الدراسية التي  
 كان على « ان اقراها لاؤدى الامتحان في محتواها .  
 كنت في حجرتي المتواضعة في احدى غرف فندق  
 متواضع في ميناء الاسكندرية . كنت على السرير مستلقيا  
 احاول ان انام فلم استطع . ويبدو اننى ، كما اذكر  
 الآن اى عند كتابة هذه السطور ، اننى لم اتم الا بعد  
 ان سمعت آذان الفجر يلحى الناس الى الصلاة . فقامت  
 وتوضأت وصليت الفجر حاضرا ثم نمت متقطعا حتى  
 الصباح لاستعد للحاق بالقطار الذاهب الى مدينة  
 القاهرة . وعلى الرغم من ان حرارة الشوق الى رؤية  
 اعضاء اسرتى الصغيرة كانت تملأ كيانى ، فقد تذكرت  
 خروج الملك فاروق مطرودا وشعرت بالتفاؤل . وكنت  
 فى حقيقة الامر شامتا ، فقد كان شخصا متسلطا جاهلا  
 وكان قبل ذلك وربما بسببه فاسدا مفسدا . كانت  
 سيرته وسيرة اعضاء عائلته تزكم الانوف . ولم يكن  
 على الرغم من مركزه الرفيع النموذج الانسانى الصالح  
 ليكون قدوة صالحة . ورجوت الله وانا أصلى الفجر  
 « حاضرا » فى السجود ان يستبدل به من يؤمن بحقوق  
 الشعب المصرى الخالد ويعوضه عما عانى على مر السنين  
 منذ الماضى السحيق وحتى لحظة خروج فاروق مطرودا



وفي ضوء العلم أسرت الى تفكيرى خشية وددت لو أن  
المسؤولين عن « الحركة » أو « الثورة » الجدد لو أنهم  
اهتموا بها . أن مصرنا الخالدة في ضوء تاريخها القديم  
المستمر كانت تضع حكامها على تباينهم في مكانة رفيعة  
دائما . وكان الشعب المصري يقدس بعض حكامه .  
وكانت خشيتى تآلى من أن خلع الحاكم كرمز من رموز  
السلطة يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الأخرى .  
فالحاكم والرئيس والمدرس والاب ومن في حكم هؤلاء  
في المجتمع أى مجتمع ، وبخاصة المجتمع المصري ،  
هم رموز النظام الاجتماعى ولسان حاله . وهم في هذا  
الضوء يكونون جزءا من كل شخص يعيش في المجتمع ،  
أى أن سلوك أعضاء المجتمع وإداء أدوارهم الاجتماعية  
يكونان « عادة » في حدود النظام الاجتماعى الذى  
يعيشون في ظله . وخلع الحاكم يؤثر بالضرورة في  
شخصيات أعضاء المجتمع الذين يحكمهم ، أى يؤثر في  
أنماط سلوكهم . ومهما كان خلع فاروق مبررا وضروريا  
فإن هذا الخلع يؤثر بالضرورة على سلطة الرموز الأخرى  
في المجتمع ومنهم « الرئيس » و « المدرس » و « الاب »  
ومن في حكم هؤلاء عند أعضاء المجتمع الآخرين « العاديين »  
وبخاصة في محيط الأحداث والشباب . ومن ثم فإن  
الاهتمام بإعادة تكوين المواطنين أصبحت مسألة ضرورية  
وبإعادة التكوين هذه تعنى تكوين المواطن المصرى الصالح  
الذى يؤدي أدواره - الاجتماعية التى يتوقعها من نفسه  
المجتمع المصرى الجديد . وبدأت أحلم وأنا أستعد  
للرحيل من الفندق لالحق بالقطار الذاهب الى مدينة  
القاهرة . كنت مازلت أعيش حياياتى الفكرية التى  
استقيتها في بلاد الغربية . ورأيت كيف أن الإنسان وقد  
أصبح جبار العصر الحديث . وكيف أصبحت قوى

الطبيعة التي كانت شيئاً مجهولاً رهيباً لم تعتمد شيئاً  
مجهولاً ولا رهيباً . فالإنسان في ضوء العلم قد أصبح  
يسيطر على هذه القوى أو كاد . وهو الآن يصنع  
الأمطار وينزع الصحراء ويحول مجارى الأنهار ويحرم  
الجمال ويجعل من الهضاب الجرداء حقولاً وجنات . لقد  
سيطر الإنسان في ذلك الحين على الذرة وأصبح من  
الممكن أن يفاد من طاقة الذرة الهائلة في خدمة الإنسان .  
والإنسان ، أعظم من في الوجود ، أصبح هدفه الإصلاح  
الثوري في كل الميادين والمجالات وبخاصة في ميادين  
ومجالات العلم والطب والفن والحقوق السياسية التي  
يمكنه من اختيار شكل الحكومة التي يلزم لقوانينها . .  
الخ وقلت وأنا أركب القطار أن محك اللقاء هنا في مصرنا  
التي تطل على عهد جديد أن يعطى الإنسان من الحقوق  
ماستحقه إنسانيته . لقد كان على الدوام يعطى ويعطى  
منذ الأزمان السحيقة وكان لا يأخذ إلا أقل القليل .  
وقد آن الأوان ليأخذ بقدر ما يعطى . وتذكرت الأمية التي  
لا يزال الملايين من المصريين يعيشون في غياهبها .  
وتذكرت المشاكل الاجتماعية العديدة التي لخصها البعض  
في الثلاث غير المقدس : الفقر والجهل والمسرخص .  
وقلت فلانتظر . ثم هشت في الخيال وكأني استقبل  
أعضاء أسرتي الصغيرة ويستقبلني أعضاؤها ، لقد مرت  
الأيام والشهور وأنا بعيد عنهم ، كانت فترة لا تصدو  
الثمانية عشر شهراً ولكنها في عمري الزمني كانت أطول  
وأعمق وأجدي من كل الفترات . لأنها ، كما بان لي بعد ،  
كانت الفترة التي اكتسبت في خلالها من الخبرات التي  
كانت المرجع الأول لكل خبرات إنسانية جاءت بعدها .  
ومالبت أن وجدت نفسي بين أحضان الحب والحنان .

خب وحنان أعضاء أسرتي الصغيرة : زوجتي وأحمد  
وأمال وسهير وتيسير ومسعد . وإذا كانت أعضائهم  
متعددة وسعني وزيادة ، فإن حضني الرقيق وسعهم  
كذلك ، أصبحنا كأننا شخص واحد . أحسست بأنني  
اكتملت ، أي أن النقص الذي كنت أحس به قد كمل  
بعد أن عدت اليهم وعادوا الي . أن أحمد وهو الأكبر  
أصبح في الثامنة عشرة من عمره ، وأن مسعد وهو  
الأصغر أصبح في التاسعة من عمره . كانوا صفارا  
على الفراق . وكان أتعبد كبيراً كبيراً على « ماما »  
زوجتي . وبقدر ما كنت أفتقدهم أحسبت بأنهم كانوا  
يفتقدونني أيضاً . ما أعجب الحياة التي أخوضها منذ  
أن ولدت ! وما أكثر ما بررت لهذه الحياة ما كانت تفعله  
بي وبين كانوا ولا يزالون أعز الأعراء عندي ! كان اليوم  
يوم ٢٧ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ . وكانت آثار حوادث  
يوم ٢٣ من شهر يوليو حتى يوم ٢٦ من نفس الشهر ملء  
أفواه الناس . في خارج الأسرة يتحدث الناس عنها  
وأعضاء أسرتي يتحدثون ويشترون في الأغاني والانشيد  
التي تبثها الاذاعة باستمرار ويرددها الناس في الحال  
وبخاصة الشباب والصغار ، ذكورا وإناثا على السواء .  
ومنها كما ذكر :

« أيدك في أيدي ياعم ياعم تفدى الوطن

بالدم . ونبقى وحدة ويد واحدة

أيدك في أيدي ياعم ياعم ... » .

وبعد أيام قلائل وجدتني أذهب إلى وزارة الشؤون  
الاجتماعية لكي أقدم نفسي لأبدأ عملي فإذا بي أوجه إلى  
الذهاب إلى « مصلحة الخدمات » التي كان يرأسها في  
ذلك الحين الاستاذ « محمد حسن » الذي كنا نعترف  
اسمه ولا نعرف شخصه . ذلك أنه كان يؤلف عاما بعد

عام كتابا عن أسئلة امتحانات شهادتي « الكفاءة »  
و « البكالوريا » مع حل هذه الاسئلة . وكنا ونحن طلبة  
نبادر بشراء هذا الكتاب الذي كان يضم أسئلة  
الامتحانات التي عقدت من قبل واجابة كل سؤال ، وذلك  
لننتدى نحن الطلبة ونشبع حب الاستطلاع عندنا  
ولنطمئن او نحاول ان نفعل ذلك . وسرعان ما وجدتني  
في « ادارة الاحداث » في وظيفة « مفتش اجتماعي » .  
وتسلمت عملي الجديد في اول يوم من شهر اغسطس عام  
١٩٥٢ . ووجدت ادارة الاحداث يديرها مدرسون  
سابقون وكان يرأسها الاستاذ « عباس ابو شوشة » .  
ولم يكن لي مكان اجلس فيه . فكان الاستاذ ابو شوشة  
يدعوني لاجلس معه في مكتبه . كان رجلا على وشك  
الاحالة على المعاش ، وكان كريما . ولم يكن هو او غيره  
من الموظفين الآخرين يعرفون شيئا عن الاحداث الا اسم  
« الاحداث » . وقد عرف الجميع خبراتي في هذا  
الميدان فكنت موضع احترامهم المزيّف . وكنت اجلس  
كل يوم ولا اعمل شيئا ، كنت ضيفا على رئيس الادارة  
الذي كان يحلو له ان يتحدث عن ماضيه وخبراته وآماله  
وبعض آلامه . ولم يتحدث احد عن مايحدث من احداث  
سياسية . كان المسئولون عن ادارة الاحداث وغيرهم من  
الادارات الاخرى يتحدثون همسا عن « التطهير » .  
وكانت المصلحة لاهم لها الا ان تيسر للمحققين مهمتهم  
لكي يقرروا موظفيها الذين سيكون نصيبهم التطهير .  
وكنت اعيش في هذا المناخ وكأنني اعيش في « المريح » .  
لا اعرف شيئا . ولا يريد احد ان يعرفني شيئا . وبدأ  
لي اتنى في مسرح كوميدي تراجيدي . وبدأت اؤدي  
دور المتفرج لاسرى عن نفسي الملل الذي كاد ان يكتم  
انفاسي . وكان الوقت الذي اقضيه كل صباح في مواعيد

العمل الرسمية طويلا طويلا . ومع ذلك فكنت ارى  
الموظفين من حوائى وهم يؤدون ادوارهم فى مسرحية  
التطهير . وبدأ لى منذ اول لحظة ان هذه المسرحية  
سياسية من اولها الى آخرها . فالتطهير فى حقيقة  
الامر يمس الجميع . اى ان الجميع كان يجب ان تتطهر  
المصلحة بل وزارة الشؤون الاجتماعية بل الوزارات كلها  
منهم ، وبخاصة من كان منهم من المسئولين . ولكن  
رجال الحكومة الحالية ومن ورائهم رئيس واعضاء مجلس  
قيادة الثورة ، كما بدا لى فى ذلك الحين ، ارادوا ان  
« يتخلعوا » من اناس بعينهم سواء اكانوا فى الوزارات  
ام فى المؤسسات الاخرى ومنها الجامعات . وكنت فى  
المصلحة فى ادارة الاحداث اعيش دنيائى . كنت ابكى  
على ضياع وقتى . ولم اجد الوقت مناسباً للاحداث من  
اجازة بمرتبة او حتى من غير مرتبة لكى استئناف دراسائى  
العلما فى لندن . وكانت تسرى عنى احاديث الاستاذ  
عباس ابو شوشة . كانت احاديث فيها بعض الحكمة .  
وكنت ان اثق فى انه يحترمنى ولكن الظروف اثبتت لى  
انه كان يخشائى اكثر . كان فى الدرجة الثانية المالية  
وكنت فى الدرجة الخامسة المالية . كان فى سن التاسعة  
والخمسين وكنت فى سن التاسعة والثلاثين . ولكنه كان  
يجهل عمله وكنت اعلم هذا العمل . وكان الجميع فى  
شغل شاغل عن العمل . كل يضع يده على قلبه والاصابع  
تشير الى هذا او الى ذاك من كبار موظفى الوزارة مؤكدة  
ان اسما معين . كان اصحابها يرهبون من يرهبون  
ويظلمون من يظلمون ولا حسيب ، قد سجلت فى  
مجلات التطهير . ومن ثم فكنت وكان غيرى يجسد  
مكائهم قد اصبحت خاوية لا يدخلها احد ، بل لا يمر  
امامها احد ، خشية الاتهام . انه النفاق الذى يعيش



فى المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى منذ  
القديم ولا يزال . ولاتنى لم اكن ، منذ ان تركت « مصلحة  
انحدود » فى شهر مايو عام ١٩٣٩ ، موظفا حكوميا -  
فانى كنت مستريح البال لا آبه بشيء يتعلق بهذا التطهير  
ولكن كانت حواسى كلها متيقظة لما كان يحدث . ان  
ماكان يحدث فى هذا القطاع من اعضاء المجتمع المصرى  
يبرز الكثير مما كان خافيا . وكانت النتائج مسددة  
أسعدتنى معرفتها وتسجيلها فى ذاكرتى . ومع ذلك فانى  
كنت ابكى على ضياع وقتى . فالوقت غير مناسب  
لاحدث عن آمالى فى استئناف دراسائى العليا . وكنت  
اقول لنفسى عند اليأس « البركة فى ابنائى » . انهم  
امتداد لى فلاكرس حياى من اجل تحقيق مالم استطع  
ان احققه انا . ان احمد على وشك الالتحاق بالجامعة  
« ستبعمه ان شاء الله آمال ثم سيمر وتيسر ومسعد .  
والله وحده المستعان .

ومرت الايام ثم الاسابيع ومر شهر اغسطس وتلاه شهر  
سبتمبر ، وما ان جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ حتى  
قدمت طلبا للالتحاق بالمعهد البريطانى لى استئناف  
دراسائى العليا . وذلك لان نتيجة الامتحان عندما جاءت  
الى من لندن اكدت رسوبى فى الامتحان الذى جلست  
اليه فى شهر يونيو عام ١٩٥٢ . كان هذا الامتحان  
امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية » الذى كان  
نجاحى فيه يعتبر خطوة الى الامام نحو تحقيق الهدف  
الذى كنت ابغى تحقيقه . كان رسوبى فى « علم الاقتصاد »  
الذى اجبت فى الامتحان فيه عن ثلاثة اسئلة لا عن اربعة  
اسئلة كما اراد المتحن . كان لى عذرى فقد ذهبت الى  
قاعة الامتحان فى ذلك الوقت ، لاسباب كانت خارجة  
عن ارادتى ، متأخرا . وكان حزنى شديدا . حزنت

وحدى ولم أجد من يشاركنى مشاعري ومواقفي  
وأخفيت الأمر على الجميع . ولكنى لم أياس . فقد  
كانت ظروف العمل في مصلحة الخدمات في الفترة التي  
رجعت فيها الى مصر مواتية لكى استأنف الدراسة في  
المعهد البريطاني . وما ان جاء شهر اكتوبر عام ١٩٥٢  
حتى استأنفت الدراسة . وكانت الدراسة في المعهد  
مسائية فتيسر لى ان اعيش في المناخ الثقافى المحبب  
الى نفسى . وكان الله جل وعلا قد عوضنى عن ضياع  
وقتي سدى في الصباح . ولكن حدث ما لم يكن في  
الحسبان . ففي احد الايام وجدنا الاستاذ « فؤاد جلال »  
في الوزارة يمر على الموظفين في المكاتب . كان احد  
وزراء الوزارة التي كان يرأسها في ذلك الوقت « على  
ماهر » الذي أعفى منها في يوم ٧ من شهر سبتمبر عام  
١٩٥٢ ، وخلفه في الرئاسة الرئيس محمد نجيب .  
حضر الاستاذ فؤاد جلال في خلال شهر اكتوبر عام  
١٩٥٢ كما اذكر وانا اكتب هذه السطور . وكان عندما  
رأى شخصا كريما . لم يتجاهلنى كما يفعل غيره عادة  
او كما فعل غيره احيانا . وانا اعرف هذا الرجل فقد  
كان احد اعضاء هيئة التدريس في معهد التربية الذي  
كان يديره الاستاذ « اسماعيل القباني » . وقد كان  
زميلا لاستاذى الدكتور عبد العزيز القوصى . كنت اراه  
كلما كنت ازور الدكتور القوصى في المعهد . وكان يعيش  
مع أسرته معنا في معسكر الرواد الذي اقيم في عام  
١٩٤٩ بميناء الاسكندرية . وكنت تراه مرحا يغنى لابنائه  
ومعهم اغنية الاطفال المشهورة :

ذهب الليل طلع الفجر      والمصفر صوصو  
وقد اشترك في نشاطات المعسكر الثقافية والترويحية  
وكنت اعلم انه عضو في جماعة « الرواد » ولكنى لم اكن

اعلم ان له نشاطا سياسيا معيناً . كان لا يبدو عليه أى اهتمام بالسياسة . وفوجئنا ، من يعرفونه من زميلائى وزملائى وانا ، باختياره وزيرا فى وزارة على ماهر . كان وزيرا لوزارة الارشاد . ولعل اتصاله بوزارة الشؤون الاجتماعية عندما زار موظفيها فى خلال شهر اكتوبر عام ١٩٥٢ ان يرجع الى ان كان وزيرا لها او وزيرا بالنسبة فى ذلك الوقت لست ادرى . تحدث الى فترة مسن الوقت ، واستبشر بلقائى ، وقال ضمن ما قال انه يود ان يرانى . ولكنى لم اره بعد ذلك ابدا . وكان الغرض من زيارة الاستاذ فؤاد جلال . كما عرفت بعد ذلك ، انه جاء بقصد اختيار بعض الموظفين الذين يتوسم فيهم الشروط لى يعاونوا الحكام الجدد بخبراتهم . ولكن فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ ترك الاستاذ فؤاد جلال وزارة الارشاد وعين مكانه « صلاح سالم » وذلك عندما اعاد الرئيس محمد نجيب تشكيل وزارته عندما أعلن مجلس قيادة الثورة إلغاء النظام الملكى فى البلاد وقيام الجمهورية بدلا منه .

وفوجئت فى خلال شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ ان دعانى وكيل مصلحة الخدمات ، وامرنى بأن اذهب الى رئاسة مجلس الوزراء لاقابل « الصاغ مجدى حسنين » مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء . لم اكن ادرى لماذا وقم الاختيار على ، ولكنى أحسست ، وربما كنت مخطئاً ، بأن كبار موظفى المصلحة ارادوا ان يجعلوا منى كبشاً للفداء ، فقد كانت ملامحهم وهمساتهم وانماط سلوكهم تنم على الاعتقاد بأن ماحدث فى البلاد من أحداث جسام لن يستمر ، وان استمر فالى حين . ومن ثم رأوا ان يرسلونى الى موقع الخطر قائلاً غير معروف لديهم ولا اصدقاء لى بينهم وان يكون ولائى ابدا لهم . أحسست

وكان احدهم قال عنى عندما طلب من المصلحة ارسال  
احد الخبراء ليعاون بخبرته : ارسلاوا هذا الغريب منا  
وليكن مايكون . كانوا لايعيشون وقائع الحياة الحية  
فى مجتمعنا ، وكان افق نظراتهم نحو هذه الحياة ضيقا ،  
ولم آبه لما كانوا يظنون او يعتقدون . اقصد لما كانت نظرات  
اعينهم تقول لى وهم يشيعوننى الى قدرى . وكسان  
التغير الذى حدث فى موقعى لصالحى . فانا سأواجه  
تجربة حية جديدة لا على فحسب بل ايضا على المجتمع  
المصرى بأسره . ويكفى ان اكسر قيود الملل الذى احياه  
فى هذه المصلحة ، وان اترك الاجسام المحنطة او شبه  
المحنطة من حولى الى اشخاص تملأ قلوبهم الثورة على  
الاضاع البالية ويحاولون ان يغيروا ما استطاعوا من  
هذه الاوضاع . اشخاص تجرى فى شرايينهم الدماء  
الشابة ولعلى ان اعمل عملا صالحا . ولعلى ايضا ان  
افيد من هذه التجربة . فانا شخص فى ذلك الحين كنت  
اثق فى المستقبل ، وفى ضوء خبراتى المنتظمة وغير  
المنتظمة استطيع بلا غرور ان اكون على مستوى  
المسئولية . وسالت الله جل وعلا ، مخلصا ، التوفيق  
والسداد .

وذهبت الى رئاسة مجلس الوزراء . وسمع لى  
بالدخول فى الحال . وقابلت الصاغ مجدى الذى رحب  
بى ترحيبا كريما . وجدته شابا يعيش حياة شابة  
فى عقل وروية . بدا لى من عينيه انه ولد ثائر . وقلت  
لنفسى وربما سمع ماقلت « ربنا يخليك لمصر » . قلعل  
عينى وشت بما قلت ، او لعلنى قلت ماقلت بصوت  
مسموع . وتم الاتصال الروحى بيننا فى الحال . جمعنا  
حبنا لمصرنا الخالدة . واكد لى ان مكاتى سيكون معه  
على الدوام لاعمل من اجل توطيد دعائم الحكومة

الجديدة في نفوس جماهير الشعب المصري الكريم .  
وبرزت فكرة « معونة الشتاء » . فالشتاء على الابواب .  
وكنت في دراساتي في انجلترا علمت بأحد المشروعات  
الذي له مكان اجتماعي مرموق في المجتمع الانجليزي .  
كان هذا النظام يسمى بـ « حوائت التجارة الخيرية » .  
وكانت الهيئة المنظمة للمشروع تجمع شهريا البقايا التي  
ترى الاسرة اي اسرة الاستغناء عنها . وكان لدى هذه  
الهيئة كشف بأسماء عدد من الاسر التي قبل اولو الامر  
فيها الاشتراك في المشروع . فيوزع على هذه الاسر  
صناديق لكي توضع فيها كل البقايا التي تستغنى كل  
اسرة عنها ، سواء كانت هذه البقايا ملابس او اجهزة  
او قطعاً من الاثاث .. الخ وكان لكل اسرة صندوق  
واحد . وتقوم الهيئة باستلام الصناديق من الاسر  
المتبرعة مرة في كل شهر وتأخذها الى أحد مخازنها  
وبعد تفريغها من محتوياتها تعود بها فارغة الى الاسر مرة  
ثانية . وفي مخازن الهيئة يقوم بعض الاشخاص مسن  
ذوي العاهات ، كل حسب قدراته ، بعمليات فرز القبايا  
المجموعة واصلاح مايمكن اصلاحه حتى يكون صالحا  
للاستعمال توطئة لبيعه في حوائت خاصة في المدينة ،  
وكان العاملون في المخازن والمشرفون على البيع في  
الحوائت من ذوي العاهات . وكانت حصيلة المبيعات  
توزع على بنود المصروفات لكي تستمر الهيئة المشرفة  
على المشروع في اداء رسالتها . وكانت من أهم بنود  
هذه المصروفات اجور العاملين كل حسب قدراته  
ونتيجة نشاطاته . وكان اهم اهداف المشروع ان لا يترك  
ذوو العاهات دون ماسند وان يشغروا بحق انهم  
اشخاص منتجون على الرغم من ظروفهم الاجتماعية  
غير المواتية . اي ان يتأكد كل واحد منهم انه ليس حالة



على احد وانه يستطيع ان يعيش حياة الاشخاص  
العاديين . وكان كل ما كانت تفعله الهيئة المشرفة على  
المشروع القيام بالاشراف عليه وادارته بحيث يتيسر  
تحقيق المبدأ انقذت : ان اعظم ما يستطيع القادر التواضع  
ان يعمل لشخص في حاجة ما هو مساعدته لكي يساعد  
نفسه . كانت كل هذه الحقائق تدور في ذهني وأنا  
اتحدث مع الصاغ مجدى . ثم ذكرت له عن هذا المشروع  
وعن اهدافه مما اكده ان يكون اول مشروع تقوم به  
الحكومة الجديدة هو مشروع « معونة الشتاء » . وفي  
اثناء الحديث ضم اليها الاستاذ انور احمد الذي كان قد  
قام بتمثيل دور الزعيم مصطفى كامل في فيلمه المشهور ،  
ولم يقم من بعد ذلك بدور آخر . فكان اول وآخر  
دور يمثله . وتناقشنا نحن الثلاثة فيما يجب ان يكون  
عليه مشروع معونة الشتاء ، وانتهينا الى بعض القرارات  
اهمها كما اذكر دعوة المصريين القادرين الى التبرع بالملابس  
على تساينها كل حسب امكاناته . وبقي دور التنفيذ الذي  
ترك للصاغ مجدى ولى ومن تعاون معنا من السادة  
الضباط الموظفين المتخصصين . وكانت الخطوة الاولى  
في سبيل التنفيذ هي اختيار مكان لاستقبال التبرعات  
العينية . ووقع الاختيار على ارض المعارض بالجزيرة .  
وكان همى الاول هو لمن توزع هذه التبرعات ؟ فانا اولا  
وقبل كل شيء اخصائى اجتماعى اعلم في ميادين الخدمة  
الاجتماعية منذ شهر مايو عام ١٩٣٩ . وكنت في ضوء  
خبرائى المتعددة الجوانب اعلم بمن يستحق هذه  
التبرعات . ولم اكن اسبق الحوادث عندما فكرت في  
هذه القضية لاننى كنت على يقين بأن الشعب المصرى  
القادر سيلبى النداء . وعلى الرغم من اهمية ذلك فان  
هذه التلبية تمنى الى حد كبير استفتاء شعبيا اجتماعيا

للحكومة الجديدة والذين من ورائها من قادة ثوار . وكنت  
كمدري على يقين بان هذا الاستفتاء سيكون في صالح  
الحكومة الجديدة ، وذلك على الرغم من حوادث « كفر  
الدوار » التي حدثت في اواخر الاسبوع الثاني من شهر  
اوتسطس عام ١٩٥٢ . اي بعد مرور ثلاثة اسابيع على  
قيام « حركة الجيش » ، والتي انتهت في تلك الحوادث  
باعدام « مصطفى خميس » و « محمد البقري » . وانا  
اذكر القصة التي اصبحت بها بسبب هذا الحكم الجائر ،  
ولكن سرعة الحوادث التي كانت تتوالى في ذلك الحين  
التهت الناس عن مصر كل من خميس والبقري ، وبخاصة  
بعدما صدر قانون اصلاح الزراعي الذي كان محور  
اجاديت اعضاء المجتمع في تلك الفترة وما بعدها والذي  
اعفى على ماهر بسببه من رئاسة الوزارة في يوم ٧ من  
شهر سبتمبر عام ١٩٥٢ ، وخلفه في الرئاسة الرئيس  
محمد نجيب . واعلن القانون في يوم ٩ من شهر سبتمبر  
عام ١٩٥٢ اي بعد تولي محمد نجيب رئاسة الوزارة  
مباشرة . هذا فضلا عن توقع اعضاء المجتمع المصري  
اجراء الانتخابات في شهر فبراير عام ١٩٥٣ كما وعدت  
به الحكومة الجديدة على لسان الرئيس محمد نجيب .  
فقد بدا لي في ذلك الحين ان الراي العام كان في شوق  
شديد الى الحكم الديمقراطي السليم الذي لم يتمتع  
به الا نادرا . وكان الامل الكبير للشعب المصري هو الغاء  
النظام الملكي واعلان الجمهورية ، وكنت كعضو من اعضاء  
هذا الشعب اترقب ذلك وارجوه . وعلى الرغم من القصة  
التي اصبحت بها بسبب اعدام « مصطفى خميس » و « محمد  
البقري » فانتى وجدت نفسي اعمل مع الصاغ مجدي  
ساعات طوالا يوميا من اجل تنفيذ « مشروع معونة  
الشتاء » . كنت في صحة جسمية وعقلية ونفسية

تسمع بهذا العمل . واعتبرت وجودى بجوار الصاغ  
مجدى فرصة لارى واسمع عن قرب . وكم رأيت وكم  
سمعت ؟ الكثير الكثير والمختلف والمتباين . كنت ارى  
الضباط الكبار ورجال الفكر الكبار يأتون أفواجا وفرادى  
لكى يقدموا التحيات ويؤكدوا الولاء . وكان بعض هؤلاء  
الاخريين يكتبون ، وكنت استطيع ان اقرا بعض ما كانوا  
يكتبون . وكنت اعجب لما كان يقترح . فبعضهم كان يرى  
أن تحكم البلاد كما كان « هتلر » يحكم ألمانيا ، وبعضهم  
كان يرى أن صدور قانون الاصلاح الزراعى هو خطوة  
الى الشيوعية . وكان بعضهم يكتب عن مصير قضية  
« مصر والسودان » وما يجب أن يكون عليه هذا المصير .  
وكان يأتى بعض الناس لى يرووا ما وصلت اليه الحال  
من الفساد فى جهة من الجهات . وجاء احدهم وهو  
يلبس « خرقة التصوف » ويلقى فى رقبته « بروازا »  
تطل منه « شهادة ليسانس فى الحقوق » ، ويقول  
صارخا مترنحا : « اتركوهم لا تفعلوا شيئا . انهم  
سيخرجون وحدهم من مصر بلا رجعة . فلا تفعلوا  
شيئا . اتركوهم . لقد آن اوان جلائهم عن البلاد » ،  
وكان يقصد « الانجليز المستعمرين » . وجاء الذى كان  
الصاغ احمد حسان وانا فى مؤسسة الزفاف الملكى  
وهو فى رتبة اللواء ويشغل منصب « حاكمدار العاصمة »  
مودعا الى غير رجعة ، ولما رأتى لم يستطع ان يخفى  
الصدمة التى اصابته وبرزت آثارها فى عينيه . كنت  
جالسا بجوار الصاغ مجدى وكان هو واقفا يحيى  
ويودع . وجاء صديق ابى « اللواء عبد العزيز راشد »  
وسلمت عليه فى حب واحترام وترك المكان وهو يرى  
مصيره القاتم . واحسست ان مجرد جلوسى بجوار الصاغ  
مجدى قد اضى على شخصى الضعيف مكانة اجتماعية

لم اذوقها فى حياتى من قبل . فكان يجرى الى اشخاص  
لا اعرفهم لكنى اكون وساطة بينهم وبين الصاغ مجدى .  
كان من هؤلاء كبار موظفى رئاسة مجلس الوزراء وبعض  
كبار موظفى وزارة الشؤون الاجتماعية ممن كنت اسمع  
منهم ولا اراهم . وكان رجال الصحافة يأخذون صوراً  
لى وحدى احياناً او مع الصاغ مجدى احياناً اخرى .  
وكانت تؤخذ صورنا ونحن فى صحبة الرئيس محمد  
نجيب فى المناسبات او فى غيرها . وكانت تنشر هذه  
الصور او بعضها فى الصحف . وانا اذكر احد موظفى  
رئاسة مجلس الوزراء الذى كان يتقن اللغة الانجليزية  
وكان يذهب الى الخارج فى المؤتمرات او من اجل اداء  
بعض المهام انه كان يأتى صباح كل يوم امام الصاغ  
مجدى ثم يقسم باغلظ الايمان بأنه ذهب بالامس الى  
ضريح « السيدة زينب » او الى ضريح « سيدنا  
الحسين » ودعا لتوطيد دعائم حركة الجيش . ويؤكد  
انه « كنس » الضريح حتى تجاب دعواته ، ثم يقدم الى  
الصاغ مجدى مايعن له من آراء ومقترحات اذا اطلع عليها  
احد لايرى بدا من ان يتسم ساخراً . وزيارات الاجانب  
الى مبنى الرئاسة كانت لا تنقطع وفى يوم من الايام جاء  
« فوستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ، وقابل  
من قابل ، ورايته من كتب يرد على أسئلة الصحفيين  
المصريين وغير المصريين . كانت الحياة فى هذه البقعة من  
ارض مصر زاخرة بأنماط السلوك البشرية المصرية التى  
كانت تصدر عن المصريين من كل مكان ومن كل لون ومن  
كل مستوى . وكان يجلس معى فى الحجرة التى خصصت  
لى والتى توجد بها الخزائنة التى احمل مفاتيحها ، الاستاد  
احمد فؤاد الذى لم اره من قبل وعرفت انه كان يعمل  
فى القضاء وقد اسهم من قبل فى قيام « حركة

الجيش » . ولم يكن بيننا سوى التحيات . ولكنى كنت ارى فى يديه او على مكتبه كتباً كنت اعرف عنهما الكثير . منها كتاب « ماذا حدث فى التاريخ ؟ » وكتاب « الانسان يصنع نفسه » وقد الفهما « البروفيسور جوردون شيلد » عضو الاكاديمية البريطانية . ورايت ايضا على مكتب الاستاذ احمد فؤاد كتاب كل من « سيدنى وب وزوجته بياتريس » وموضوعه « شيوعية السرفيت » ، وهو كتاب معروف نشر فى عام ١٩٣٥ عقب زيارتهما للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٣٢ ، وفيه غيرا رايهما عن « مذهب التطور او التدرج » الذى ظلا يعتنقانه ويخلصان له من قبل هذه الزيارة زمنا طويلا . وتأكد لى شىء عن فكر هذا الرجل وبخاصة عندما كان يزوره « الدكتور راشد البراوى » ويتحدثان معا دون ان يسمعهما احد . وكان الدكتور البراوى معروفا بميوله الماركسية . وزاد تأكيدى لما وصلت اليه عن فكر الاستاذ احمد فؤاد ما علمته فى ذلك الحين من بعض الثقات من انه كان مندوب الاتصال بين الضباط الاحرار وبين المنظمات الشيوعية المصرية وعلى راسها منظمة « حدثوا » الحركة الديمقراطية لتحرير الوطن » . اما هو فلم يكن يعلم عنى شيئا . ولعله كان يرى اننى مواطن يساعد الصاغ مجدى فى مشروعاته ويحمل مفاتيح خزانته . وتأكد لى هذا عندما جاء مع بعض الضيوف لزيارة « المعهد القومى للبحوث الاجتماعية » الذى تم انشاؤه فى عام ١٩٥٦ عندما زارنى فى مكتبى بصحبة المدير ورأنى ورايته وبدأ من سلوكه كأنه يرانى لأول مرة . وقد كنت قد عينت فى هذا المعهد عقب عودتى من الولايات المتحدة مباشرة بعد حصولى على درجة دكتوراه فى علم الاجتماع : تخصص علم الجريمة . .



وفى اثناء وجودى فى رئاسة مجلس الوزراء فى ذلك  
الحين ، ولدت فكرة مشروع « مديرية التحرير » .  
وكان الصاغ مجدى مهتما جدا بهذا المشروع . وفى يوم  
من الايام دعا الصاغ مجدى بعض مدرسى كلية الهندسة  
من جامعة الاسكندرية . وجاء ثلاثة منهم على ما ذكر ركان  
من بينهم الدكتور « عزيز صدقى » . وبعد ان شرح  
الصاغ مجدى فكرة المشروع وجدت احدهم ، ولم يكن  
الدكتور عزيز ، يقول متحمسا وموجها كلامه الى الصاغ  
مجدى بأنه مستعد للاسهام بشرط ان لا يضطر الى ترك  
عمله الاكاديمى فى الكلية . وانا لا اذكر اسم هذا المهندس  
ولا اذكر اسم المهندس الثالث . واذا كنت قد ذكرت  
اسم الدكتور عزيز فان ذلك يرجع الى انه الوحيد الذى  
قبل العمل عن طوعية فى المشروع والتفرغ له . ومالبث  
الصاغ مجدى ان عهد اليه بان يشرف على تنفيذه .  
وسرعان ما اعدت حجرة خاصة له لى يقوم بعمل  
الرسومات الهندسية الضرورية او ليشرف على عملها  
بعد زيارة المكان الذى يرى هو او معاونوه انه المكان  
الانسب لاقامة مديرية التحرير .

كانت حياتى اليومية فى ذلك الحين مشحونة بالعمل  
وبالمسئولية . فانا اجهل فى حقيقتى مبلغا كبيرا من  
المال نقودا وشيكات جاءت كلها من التبرعات لمشروع  
معونة الشتاء ، وعندما تسلمت مفاتيح الخزانة كنت  
مستولا لا عن هذا المبلغ فحسب « الذى وضعت  
فيها » بل ايضا عن اشياء اخرى ، منها على سبيل  
المثال بعض الساعات وبعض اقلام حبر « باركر » وعدد  
كبير من « دبل الخطوبة » كان فى لحظات حماس جارف  
قد تبرع بها بعض الضباط المتزوجين وغير المتزوجين  
لدعم المشروع . ومن العجيب ان الكثير من هؤلاء

الضباط جاءوا بعد أن فترت حدة الحماس يطالبون بأخذ ما أعطوه . وقد قمت بعد موافقة الصاغ مجدى برد ما أعطوا . وكنت أعمل أيضا مع السادة الضباط المشرفين على تنفيذ المشروع وبعض الموظفين الآخرين . كان ذلك فى سراى أرض المعارض بالجزيرة . ويرجع قيامى بالعمل الأخير الى مفاجأة كانت قد حدثت بعد الانتهاء من التخطيط للمشروع وبداية عملية تنفيذه . كنت مع الصاغ مجدى فى رئاسة مجلس الوزراء حين رايت الضابط « حمزة البسيونى » وكان برتبة « صاغ » ومعه ضابطان ورتبة كل واحد منهما « ملازم أول » . رايتهم يدخلون من الباب العمومى الصاغ حمزه فى الوسط وكل ضابط من الضباطين على أحد جانبيه . ورائهم معى الصاغ مجدى فقام من مكانه لاستقبالهم باسم ثم ضاحكا وهو يترنم بالنشيد المشهور :

« يا عم حمزه . احند التلامذه »

وفوجيء الجميع عندما سلم على الصاغ حمزة بحرارة وأكد بذلك بأنه يعرفنى . وأنا كنت أعرفه منذ عام ١٩٤٢ عندما كنت مديرا لمؤسسة الزفاف الملكى وكان هو ضابطا برتبة « الملازم الثانى » فى « الجيش الم رابط » الذى كان موقعه بجوار مبنى المؤسسة مباشرة . كان فى معسكر الجيش الم رابط « تليفون » ولكن الملازم حمزه الذى كان فارغ الطول ذا وجه وسيم وشوارب صفراء اللون ذات حجم يلفت الانظار لا يحلو له الا ان يتحدث من تليفون المؤسسة . كان يتحدث يوميا بالتليفون مرة او مرتين او اكثر . وكان يتبرع بدفع تقود نظير كسل محادثة تليفونية . لم اكن أدري من الذى يتحدث معه ولم يكن يهمنى ان أعرف . وكان يحدثنى عن الجيش الم رابط وعن بعض أحواله الشخصية . فهو لم يتزوج

ولكنه يحب سيدة متزوجة . وتراه يقسم لى بأقلظ  
الايمان بانها اذا ماطلقت فانه سيتزوجها فى الحال . وفى  
يوم من الايام جاءنى يتحدث عن نقص فى العهدة التى هو  
مستول عنها وكانت كلها « بطاطين » . فما كان منه  
الى ان مرق البطانية الى نصفين وحسب كل نصف وكأنه  
بطانية . وبذلك خرج من المأزق . وفى يوم آخر ذكر  
لى ما افزعنى وذلك انه كان فى النادى والمسدس  
« الذى هو عهده معه » فاذا بالمسدس دون ما قصد  
ينطلق فتخرج منه رصاصة فتقتل زميلا . واذا كنت انا  
قد فزعت حقا فقد كان هو غير مبال . انه لم يقصد ولتكن  
نتيجة التحقيق ماتكون . وتركت المؤسسة فى اواخر  
ديسمبر عام ١٩٤٣ الى مكتب الخدمة الاجتماعية  
لمحكمة الاحداث . ومرت الايام وجاءت الحرب الاولى  
لفلسطين فى عام ١٩٤٨ ، وسافرت الى لندن للمرة الاولى  
وعدت فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٨ ، وفى خلال الفترة  
التي تلت ذلك سافرت الى لندن للمرة الثانية فى شهر  
فبراير عام ١٩٥١ - فى خلال هذه الفترة قابلت الصاغ  
حمزه فى ميدان العتبة الخضراء . . وبدا لى وجهه  
متغيرا فقد اصيب فى المعركة فى خده ومع ذلك فقد  
ظل وجهه غير قبيح . وكانت مقابلة حارة . ولم اره  
بعد ذلك الا وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء عندما  
راه الجميع وهو يسلم على بحرارة ويابتسامة عريضة !  
ولان رتبة حمزة البسيونى كانت أعلى فأصبح المسئول  
عن توزيع تبرعات معونة الشتاء السنية . وعرفت انه  
كان احد الضباط الاحرار . وكان احد ضباط سلاح  
خدمة الجيش وقد اشرف ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام  
١٩٥٢ على اعداد سيارات النقل التابعة للسلاح التى  
كانت تحمل الدخائر وكذلك عربات نقل الجنود لنقل

سرايا الكتيبة ١٣ الى مواقعهم فى تلك الليلة . أما الضابطان الآخران اللذان كانا يصحبانه ويعاونانه فى عمليات توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية فقد كانا الملازم اول ابراهيم اسماعيل ابراهيم والملازم اول محمد عبده الشنارى . وكانا ايضا من الضباط الاحرار وقد لعبا دورا خطيرا فى نفس هذه الليلة مع الصباغ مجدى حسنين . وكان هذا الدور احتلال « اذاعة ابى زعبل » . وقد كنت اعمل مع هؤلاء الضباط عندما كانت ترد التبرعات العينية المختلفة من بيوت المصريين القادرين او من محلات بيعها او تصنيعها حتى ملئت كل او معظم الحجرات او السرايات فى ارض المعارض بالجزيرة . وضم الى هؤلاء الضباط احد الضباط الجدد وكان برتبة ملازم ثان ، وفوجئت بحضور الضابط جمال زكى وكان برتبة اليوزباشى . ولم يكن الضابطان الاخيران من الضباط الاحرار . وبدا لى ان الضابط جمال زكى قد سعى سعيا حثيثا لى يكون احد المنفذين للمشروع ، ولم اكن اعرفه من قبل وان كنت اعرف اخاه دكتور سيد زكى الذى كان يحاول بدوره ان يتصل برجال حركة الجيش بكل الوسائل . وبالإضافة الى هؤلاء انتدب بعض موظفى مصلحة المهمات للقيام بأعمال الفرز والإصلاح وغيرها لما يأتى من التبرعات العينية . وقد رأيت ان اولى الجهات بالتبرع لها هى الجمعيات الاهلية التى تشرف على العديد من الاعضاء فى الاحياء المختلفة بمدينة القاهرة ، ثم عندما وجدت ان نوع بعض الملابس وبخاصة « البلاطى والبدل والاحدية » نوع جيد ويكاد ان يكون جديدا ، اقترحت ان نتبرع لطلبة الجامعة المحتاجين على شرط ان نحرس على السرية التامة خشية ان يذاع اسم احدهم . وكانوا فى ضوء كشوف قدمت

من الجامعة يأتون فرادى ، وكنت ترى الواحد منهم يدخل الحجرة لينتقى مايليق به من ملابس ثم يستلمها دون ان يراه احد . وفى كل صباح كانت تأتى العربية التى كانت تحمل الملازم اول ابراهيم اسماعيل ، وكان يسكن فى « الخرنفش » ، الى حيث اسكن فى « الدراسة » ونذهب مع السائق الى ارض المعارض لنعمل او نحاول ان نعمل عملا رشيدا . وانا اقول ذلك لانه لم يكن كل ما عملناه يتفق مع الخطة التى وضعتها وتم الاتفاساق عليها . كان حمزه البسيونى يفعل مايشاء ولا يبالي . لقد اغضب الجميع بتصرفاته بطريق مباشر احيانا او بطريق غير مباشر احيانا اخرى . لم يستثن واحدا . وكان العسكرى « المراسلة » موضع سخطة احيانا وفى لحظات تجده موضع رضاه . وقد رايته يضرب هذا المراسلة بكل قواه ضربا مبرحا حتى بدا يلهث ، وعلى الرغم من محاولاتي العديدة لمنعه من مواصلة الضرب رافعة به وبالمراسلة فانه كان يستمر ، ولكنه كبشر اصابه التعب الشديد فجلس ليستريح . ثم نادى بعسك فتره على المراسلة واعطاه نقودا وتفضل عليه بأجازة ٨ ساعة ا وانا اذكر انه عندما قبض على بعض ضباط سلاح المدفعية فى خلال شهر يناير عام ١٩٥٣ ، طلب منى الصاغ حمزه ان يرافقنى الى حيث اقيم ، وركبت معه العربية التى ساقها بنفسه ثم فاجأنى بخبر القبض على هؤلاء الضباط وكان اغلبهم من الضباط الاحرار ثم ارانى مسدسا كان يحمله وصاح مهددا انه لن يسعه الا ان يفرغ رصاصات هذا المسدس فيمن يجرؤ على القبض عليه ! وكنت على الرغم من سابق معرفتى بالصاغ حمزه اقرب الى قلب كل من الملازم اول ابراهيم اسماعيل والملازم اول محمد عبده الشناوى . احبتهما حبسا



انسانيا ووطنيا . وبخاصة عندما كانا او كان احدهما  
يقص على دوره في ليلة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .  
وقد ذكر لى احدهم وكان متزوجا حديثا وانجب ابنة  
في شهورها الاولى انه بعد ان اتم مهمته جلس وحده  
واضعا راسه بين كفيه وسرح فكره بعيدا فوجد نفسه  
وقد قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالاعدام ، وبدا له  
هذا المستقبل القائم الخيالى وكأنه حقيقة ، فذكر ابنته  
الطفلة كما ذكر زوجته وذويه الاقربين وتساءل ما الذى  
كان يحدث لهم لو ان هذا كان حقيقة فعلا . وعندما  
غضب احد هذين الضابطين من تصرفات الصاغ حمزه  
التي مسه منها بعض الرشاش ذكر لى وكأنه يقلل من  
شان الدور الذى قام به الاخير في ليلة ٢٣ من شهر  
يوليو عام ١٩٥٢ ، انه بعد خروج سيارات النقل ذهب  
« يقصد الصاغ حمزه » الى الحجرة لينام وكان ما حدث  
لم يحدث اى ليخفى اية شبهة عن اشتراكه في اى عمل  
من الاعمال التي كان عليه ان يقوم بها كأحد ضباط  
الاحرار . ولم يدر بخلد هذا الضابط ان الصاغ حمزه  
سوف يؤدى في المستقبل القريب والبعيد ادوارا اخرى  
اعظم خطرا . ولم يدر بخلده ايضا ان هذا الرجل ذو  
شخصية سيكوباتية وان وقوع الاختيار عليه ليقسم  
بالادوار المستقبلية كان اختيارا موقفا . وكان من هذه  
الادوار كما حدث بعد ذلك ان يقوم الصاغ حمزه بإدارة  
« السجن الحربى » واستقبال المعتقلين فيه من ذوى  
الرأى ومعاملتهم المعاملة التي لاتليق بأدمى . ولم اكن  
في مصرنا الخالدة في ذلك الحين ، فقد سافرت الى  
الولايات المتحدة في خلال الفترة من يوم ١٥ من شهر  
اغسطس عام ١٩٥٣ حتى آخر يوم من شهر مايو عام  
١٩٥٦ . لاكمال دراساتي العليا من أجل الحصول على

درجة الدكتوراه . ولكنى عندما عدت علمت من الكثير عما فعله حمزه البسيونى . كان اسم هذا الرجل على السنة الجميع ممن اعرف وممن لا اعرف . وقيل لى ان ما فعله لا يمكن لاحد ان يصفه ، واذا استطاع فان وصفه يحتاج الى مجلدات تنضح بالتعذيب والارهاب والمعاملة غير الانسانية . وانا اذكر اننى بطريق الصدفة عرفت رقم التليفون الخاص بـحمزه البسيونى . وكنت ارفع السماعة واطلب الرقم ثم اضع السماعة ثوبا ، وذلك لان ما سمعته جعلنى تصور ان هذا الرجل قد اصبح وحشا كاسرا . وكان لهذا التصور اثر فى نفسى . لقد قابلت بعض من عديهم ، وروى كل واحد منهم ما حدث له او حدث لرفاقه فى السجن الحربى . لم اكن ادهش قائما اعرف الرجل ، اى اننى اعرف شذوذه العقلى والنفسى . ولكنى كنت كمصرى فى ضوء ثقافتى المصرية انفر واحزن حزنا شديدا . وعولت على الاتصال به . واصلت به فعلا تليفونيا ، وبدا ظرفه وهو يتحدث معى ووافق على مقابلتى فى السجن الحربى وحددنا الموعد للقاء ، وذهبت فى الموعد المحدد . كان الدافع الى مقابلته ان لراه وان اتحدث معه فقط ، وان اذكره بالايام الماضية لعلى ان اعلم عن شخصيته اكثر . وانى انتظرت امام باب السجن الحربى قبل ان يفتح اكثر من نصف ساعة . وكانت الشمس تتأهب للغروب . وكان الزمن خريفا فى عام ١٩٦٠ بعد عودتى من الولايات المتحدة بسنوات . ونجاة فتح الباب وقادنى احد العساكر الى مكتب حمزه البسيونى . ووجدته جالسا على اريكة وكانت جثته قد تضخمت كثيرا ، وبدأ لى وكأنه احد القراصنة فقد كان يفلق احدى عينيه ويفتح الاخرى . وتأكدت منذ اللحظة التى وقفت فيها على باب السجن من اننى كنت مراقبا .

وقام ليسلم على وطلب لى فنجانا من الشائى . وعندما  
 جلست وجدتنى أنظر الى حوائط الحجرة فاذا عليها  
 صورة « جمال عبد الناصر » وصورة « عبد الحكيم عامر »  
 ولانتات فيها بعض العبارات الشائعة . ولم يخل حائط  
 من لافتة مكتوب عليها عبارة مثل « يارب استر »  
 و « سترك يارب » و « الستر يا كريم » . وفى اثناء  
 تعاطي الشائى وقبل ذلك كنا نتحدث سويا . وقد بدأت  
 الحديث ، أولا ذاكرا له عن احوالى وماذا اعمل فى  
 الوقت الحاضر . وماذا كنت اعمل فى الفترة التى تركت  
 فيها مصرنا الخالدة . وبدأ يتحدث حمزه البسيونى  
 عندما سألته عن زواجه من السيدة « المتزوجة » التى  
 كان يرغب فى زواجها اذا ماطلقت . فقال انه تزوجها  
 فعلا ولكنه بعد فترة طلقها . واكد لى انه لا يتعاطى  
 خمر او مخدرات من نوع ما . واكد لى ايضا انه لا يذهب  
 الى مسرح او الى سينما . وصرح بأنه مثل المعتقلين فى  
 السجن فهو فى حقيقة الامر معتقل ايضا ، وارانى سريرا  
 حجرة جانبية وذكر انه لا يبرح السرير الا اذا كان هناك  
 عمل يقتضى وجوده فى مكان آخر . وقال مؤكدا أن ما فعله  
 لا يلام عليه فانه ان لم يكن قد فعله كان غيره بالضرورة  
 قد فعله . وسرعان ما قلت له اذن فانت الآن تستطيع  
 ان تنام دون ماقلق . فأكد على صحة قولى . وكان هذا  
 التأكيد يؤكد على انه شخص ذو شخصية سيكوباتية  
 يبرر كل تصرفاته ولا يندم على اى منها فالقيم اية قيم  
 لا تقف حائلا فى سبيل اى عمل يقوم به ولعل من يحتاج  
 له فرصة الاطلاع على ملف خدمة هذا الطاغية ان يجيد  
 الكثير الكثير مما يبرر هذا الوصف . وهو كشخص  
 سيكوباتى تراه كريما ذا ابتسامة جذابة . ومكثت معه  
 منذ الساعة السابعة مساء حتى الساعة العاشرة مساء ،

وكنيت في اثناء هذه الفترة الطويلة تحت المراقبة . كان باب الغرفة التي نجلس فيها « مواربا » وكان جندي يحمل السلاح يمر عليها بين لحظة واخرى . وفي اثناء هذه الفترة كنت احاول ان استاذن فكان يلح على بالجلوس ويطلب مشروبا آخر . وقد تعاطيت بعد الشاي فنجانا من القرفة ، ومرة ثانية فنجانا من الشاي . وبدأ لي كما اذكر ان وجودي معه ذكره بالماضي الذي لم يكن ابيض ناصعا ولكنه افضل من الحاضر الاسود وان كان يبرز عوامل هذا السواد . وكان يتحدث عن عبد الحكيم عامر بقوله « الراجل الكبير » . وعندما ذكرت له عن عوامل عدم تركه الجيش مثل العديد غيره من الضباط الاحرار قال وكأنه يفتخر صائحا : لقد طلب مني ترك الجيش وانا رفضت ، لانني افضل العمل بالجيش عن اى عمل آخر . وكان عندما زرته قد وصل الى « رتبة اللواء » . ولم يعلم هذا الرجل ابدا ان الاختيار وقع عليه لانه خير من يقوم بأعمال الارهاب والعنف والتعذيب ومعاملة الشرفاء معاملة غير انسانية . انه في ضوء تاريخه الذي اعرفه ، وكان هذا الذي اعرفه قليلا جدا ، وفي ضوء مراقفه التي ذكرت بعضها بالتفصيل قبل ذلك ، كل ذلك وغيره يؤكد عبقرية من وقع اختياره عليه ليكتب لنفسه صفحة قاتمة مع الذين قاموا بمثل اعماله سواء كانوا من المصريين او من غير المصريين . ان مآل هذا الرجل والآخرين امثاله « زبالة التاريخ » حتما . ولعله ان يكون عبرة لغيره .

وانا اذكر في عام ١٩٦٤ في شهر يناير على الأرجح انني كنت في مدينة « نيش » بجمهورية يوغسلافيا . كنت ازور سجنها المشهور ، ومكثت اياما ، وفي اثنائها زرت « برج الجماجم الادمية » الذي شيده « خورشيد

باشا « - لعله ان يكون هو نفس أحمد خورشيد باشا  
الذى كان واليا على مصر حتى عام ١٨٠٥ بعد أن خلعه  
المصريون وولوا محمد على « القائد التركى فى عسك  
١٨٠٩ . شيد من جماجم المصريين الاحرار الذين  
قاتلوه كمفتصب فى سبيل استقلال وطنهم . قاد الزعيم  
الثائر « ستيفان سنجاليتش » جنوده المصريين ضد  
الأتراك المستعمرين . وكان عدد الجنود المصريين ثلاثة  
آلاف مقاتل . وكانوا يقاتلون حوالى ١٨٠٠٠ من الجنود  
الأتراك برهامة خورشيد باشا . واستغرق القتال نحو  
اثنى عشرة ساعة مات الصربون فى خلاله ماعدا  
ستيفان سنجاليتش وحوالى خمسين مقاتلا صربيا .  
ولم يستسلم الآخرون . بل واصلوا القتال حتى قتلوا  
جميعا ومات معهم حوالى مائتين من الجنود الأتراك .  
وقد ضرب الصربون الآثرون مثلا وطنيا رائعا جعل  
خورشيد يفكر ويقدر . وعرف أن خصومه لا يخشون  
الموت . فآلموت عندهم أصل الحياة . واذا هان الموت  
وهبت الحياة . وكان خورشيد انانيا لانه كان طاغية لم  
يذكر الا نفسه وكرامته وهيبته . وكل هذه ترهات لا يابه  
بها الزمن . ولا يعترف بها الا الاغبياء . فماذا فعل هذا  
الانانى الطاغية ؟ اتخذ من الطاغية « تيمورلنك » مثالا  
يحتذى . الم بين تيمورلنك سورا من جماجم أعدائه  
ليرهبهم ؟ فليفعل هو ذلك . وليتمسك بهذا السلاح  
الواهى . وكان ماكان . وقد بنى هذا البرج فى عام  
١٨٠٩ ، وتبلغ مساحته اربعة اقدام مربعة وارتفاعه  
خمسة اقدام . بنى هذا البرج وكانت ادوات البناء  
الرئيسية ٩٥٢ من الرؤوس الأدمية وبعض الطين  
والحجارة . ولعل هذا المعتوه ان شفى غليله . ولعل هذا  
الانانى الطاغية ان تصور ان هذه هى نهاية الاحراب . ومن



يذهب الى مدينة نيش يجد هذا الابر قائما . ولعل من  
يذهب الان يجسد ٦٢ من الرؤوس الادمية فقط .  
فالحائط الشرقى للبرج قد تحطمت جماجمه بسبب  
الرياح الشرقية . ومن يذهب الان الى مدينة نيش يجد  
ابناء الضحايا او ابناء ابنائهم يعيشون حياة الاشراف  
المستقلين ، ينون حضارتهم من البائين من ابناء جمهورية  
يوغسلافيا . ومن يذهب الان الى مدينة نيش يجد  
حتما اللعنة الابدية التي اختارها خورشيد لنفسه .  
نصب جامها ، بكل اللغات على ام رأس هذا الملعون .

ولا اخفى على القارئ شيئا فقد زرت هذا الابر  
ثلاث مرات . ولم اكن الصور عندما سمعت عن وجوده  
ان ترى عيناى ما راى . ما اشنع مارايت فى كل مرة .  
قلم تكن الجماجم كلها فى هذا البرج الذى بناه الملعون  
سليمة . فقد تركت عوامل التعرية ، بمرور الوقت ،  
بصماتها عليها . فتري بعض هذه الجماجم قد تهشم  
وتحطم او كاد . . لم يبق منه سوى ماكان يمكن ان يكون  
العيون او الجباه او الانوف او الافواه . ومع ذلك فقد  
تري بعض هذه الجماجم سليما . يكاد ان ينطق بالوان  
العذاب التي لاقاها اصحابها . وآه من فتحات الافواه  
فى هذه الجماجم . وآثار تقلصات الشفاه التي مات  
اصحابها عليها . وآه من بقايا الصرخات التي كانت .  
 وآه من سمات الهلع التي تبدو . وآه مما كانت تقول  
للرائى .

وفى كل مرة كنت ازور برج الجماجم الادمية عندما  
كنت فى مدينة نيش فى جمهورية يوغسلافيا ، كنت  
الذكر حمزه البسيونى . او فى الواقع كنت الذكر من  
كانوا يستعملونه . وكنت اردد صامتا آيات الشعر التي

قالها الشاعر الفرنسي « لامارتين » عندما زار هذا البرج  
في عام ١٨٣٣ وتتضمن :

« فليحتفظ الشعب الصربي بهذا الاثر .. انه سيعلم  
اطفالهم القيمة التي تتضمن استقلال شعب .. وانه  
سيريه فداحة الثمن الذي دفعه آباؤهم في سبيل هذا  
الاستقلال » .

وشاهدوا ذا الشعب الصربي العظيم قد اصبح يملك  
زمام امره على الرغم من الاتراك ، وخورشيد واحد منهم ،  
وعلى الرغم من « هتلر » وزمرته من الفاشيين وغيرهم  
وعلى الرغم من التجارب الرهيبة التي عاش بلایاها  
وأهوالها فما جدوى الاستبداد والظلم اذن ؟ ما جدوى  
ارهاب حمزة البسيوني وتعذيبه ومن حدا حدوه اذن ؟ الا  
يبدو استبداد هؤلاء الطغاة ، ومن يستعملونهم ، بالناس  
وظلمهم اياهم وارهابهم وتعذيبهم ليست كلها ، على  
الرغم مما يبدو من بعضها من شر ، شرا مطلقا . ان  
المواقف وحدها هي التي تفسر الشر وهي التي  
تقرر الخير . ان ما يبدو خيرا في موقف معين هو الشر  
بعينه في موقف آخر . والعكس صحيح . ان ما قصده  
حمزة البسيوني والذين كانوا يستعملونه كان شرا مطلقا  
ما في ذلك من شك . ولكنه ومن كانوا من ورائه كانوا في  
ضلال . والتاريخ وحده هو الحكم والشعب المصري  
العظيم سيبقى ابد الدهر عظيما .

وفي اثناء وجودي في مبنى رئاسة مجلس الوزراء  
حدثت احداث كثيرة هزت ثقة العديد من المصريين  
المتفائلين . كانوا وانا منهم يتوقعون اجراء الانتخابات  
في شهر فبراير عام ١٩٥٣ ، ولكن الشعب المصري

فوجيء في يوم ١٠ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٢ بقيام « مجلس الثورة » بإلغاء دستور عام ١٩٢٣ . وفي يوم ١٧ من شهر يناير عام ١٩٥٣ أعلن هذا المجلس عن فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات وعلى أن تؤجل الانتخابات البرلمانية حتى انتهاء هذه الفترة . وفي الوقت ذاته تقرر حل الأحزاب والهيئات السياسية ومصادرة أموالها فيما عدا « جمعية الإخوان المسلمين » باعتبارها منظمة دينية خاصة . وفي يوم ١٠ من شهر فبراير عام ١٩٥٣ أعلن الدستور المؤقت لفترة الانتقال والذي سيحل محل دستور عام ١٩٢٣ . وأعطى هذا الدستور سلطة السيادة لقائد الثورة في مجلس قيادة الثورة « كقيادة جماعية » وبصفة خاصة التدابير التي يراها ضرورية لحماية الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافها . وأصبح لمجلس الوزراء الحق في ممارسة السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية . وأما رسم السياسة العامة للدولة فيقوم به مؤتمر مشترك ينعقد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وأعضاء مجلس الوزراء . وقد أعلن في الوقت نفسه عن قيام « هيئة التحرير » كتنظيم سياسي ليشغل الفراغ الذي سينتج عن حل الأحزاب في خلال فترة الانتقال .

أحداث كثيرة سريعة لم يكن يتوقعها الكثير وان كانت قد دلت على ما كان يهدف إليه من قاموا بحركة الجيش التي ولدت ما سمي بـ « مجلس الثورة » عندما أعلن أن هذه الحركة أن هي إلا ثورة . وقد كان تأثير كل ذلك على كمواطن يرنو إلى حرية أهل بلده الذين عاشوا في ظل الحكم الاجنبي منذ « قمبيز » أي منذ عام ١٩٢٥ ق.م .

حتى قيام محمد نجيب بأعباء الرئاسة كمصرى لأول مرة  
كان التأثير عنيفا حقا . ولكن الأمل في المستقبل المشرق  
لبلادى ظل يداعب خيالى ، وبخاصة عندما أعلن مجلس  
قيادة الثورة إلغاء النظام الملكى وقيام الجمهورية بدلا منه  
فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣ . لقد سمعت  
هذا الإعلان فى الإذاعة وكان يعلنه « الأستاذ يوسف  
وهبى » بصوته الجمهورى . ولم البث ان تذكرت « رفاعة  
الطهطاوى » الذى كان فى باريس وقت قيام ثورة عام  
١٨٣٠ وعزل فيها الملك « شارل العاشر » ، وتذكرت  
أيضا موقفه منها ، كما تذكرت قوله :

« ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : ان ظلم الاتباع  
مضاف الى المتبوع ! »

وعلى الرغم من عواطفى ومشاعرى وآلامى وآمالى  
وما عفت ضد الاخيرة من حوادث وحادثات ، فأننى لم  
اكن أتوانى عن الذهاب الى دروس المعهد البريطانى ،  
وبخاصة بعد ان وضع إمامى ماكان غامضا على من قبله .  
بل بعد ان وضع امام جماهير مصرنا الخالدة ماكان غامضا  
عليهم من قبل ، فقد برز اسم « جمال عبد الناصر »  
وأصبح بعد إعلان الجمهورية اسما لامعا . وعندما أعلنت  
الجمهورية أعيد تشكيل الوزارة وقبل رئاستها « الرئيس  
محمد نجيب » وأصبح جمال عبد الناصر الذى كان  
مجرد مدير مكتبه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة  
« قرار مجلس قيادة الثورة فى يوم ١٩ من شهر مايو  
عام ١٩٥٣ » ، كما أصبح « الصاغ » عبد الحكيم عامر  
قائدا عاما للقوات المسلحة مع منحه رتبة اللواء وذلك بدلا  
من محمد نجيب الذى رأى أن يكتفى برئاسة الجمهورية

والوزارة مع رئاسة مجلس قيادة الثورة ! وقد عين جمال عبد الناصر في الوزارة المشكلة بعد اعلان الجمهورية وزيرا للداخلية . ورايت الاستاذ احمد فؤاد قد اختفى من مبنى رئاسة مجلس الوزراء ليكون مديرا لمكتب وزير الداخلية . وقد تولى الصاغ ابراهيم الطحاوى واليوزباشى احمد طعيمة ادارة هيئة التحرير ، وقد ضم اليها الملازم محمد عبده الشناوى الذى كثيرا ما دعاني الى زيارة ادارتها ولكنى لم افعل ذلك .

كنت اذهب الى الدروس مساء وكان قلبى مفتوحا وبخاصة بعد ان تسلمت الكتب التى شحنتها في ميناء مرسيليا ، عن طريق « شركة كوك » من جمسارك الاسكندرية دون اية عوائق . كنت سعيد الحظ فعلا . فأننى عندما كنت اربها في الحقائق وانا في لندن معتزما العودة الى القاهرة ، لم اكن اعرف بلى لم اكن اتوقع قيام حركة الجيش التى اصبحت ثورة ٢٣ يوليو فيما بعد . كنت في ذلك الحين كما يذكر القاهىء في يوم ١٨ من شهر يوليو على التحديد في ميناء « الدوفر » بانجلترا وانا في طريقى الى باريس ثم الى مرسيليا . . . الخ . وكنت سعيد الحظ لان حركة الجيش التى قامت في يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ كما اطاحت بالملك فاروق اطاحت ايضا بالرقابة على المكتب فى الجمارك . وما اسعدنى عندما تسلمت تصريح الخروج من « بوابة » الجمارك وانا اركب « عربة الحانطور » الى محطة السكة الحديد لى الحق بالقطار الذاهب الى مدينة القاهرة الحبيبة . كنت وانا احتضن الحقائق وكأنى احتضن متعات الدنيا المعنوية كلها . كانت كتبى



دنياى وحياتى المعنوية والبوصلة التى أرشدتنى الى الطريق الاقوم والتى فى ضوء التجارب والخبرات كنت أرجو ان تظل كذلك . وبالإضافة الى كل ذلك فأننى فى أوائل عام ١٩٥٣ سارعت الى كتابة طلب خاص بمنحة دراسية الى الولايات المتحدة لمدة عام واحد . وكان من شروط الحصول على هذه المنحة النجاح فى امتحان اللغة الانجليزية ثم مقابلة لجنة مكونة من امريكيين ومصريين تطبق نوعا من الاختبار على كل طالب . ومقابلة هذه اللجنة مشروطة بنجاح الطالب فى امتحان اللغة الانجليزية . وكان شهر يونيو عام ١٩٥٣ شهرا مليئا بالامتحانات عندى . فانا فى خلاله جلست الى امتحان « الدبلوم العام العالى للتربية : جامعة لندن » وجلست ايضا امام لجنة المنحة بعد نجاحى فى امتحان اللغة الانجليزية بتفوق . ولم البث ان عرفت رسميا بأننى حصلت على المنحة الدراسية وكان ذلك فى اواخر شهر يونيو عام ١٩٥٣ . وكنت أنتظر نتيجة امتحان الدبلوم وانا جد متفائل . وظهر امامى فى ذلك الحين مخرج لازماتى النفسية التى عانيت منها وانا فى مبنى رئاسة مجلس الوزراء وفى ارض المعارض بالجزيرة فى اثناء حملة معونة الشتاء التى انتهت بمجرد انتهاء فصل الشتاء وتسليم المشروع الى وزارة الشؤون الاجتماعية . وبعد ان لاحظت اننى اصبحت وحدى اقوم بالعمل مع الصاغ مجدى كلما دعت الضرورة الى ذلك وبخاصة بعد ان اودعت المبالغ المجرعة على ذمة هذا المشروع فى بنك مصر باسم الرئيس محمد نجيب بعد ان تكونت لجنة خاصة للقيام بعملية التسليم والتسلم ، وبعد ان سلمت

عهدتى ومفاتيح الخزانة الى الصاغ مجدى .  
وحصرلى على المنحة الدراسية جلب الى وجع دماغى  
عدت الى حيرتى التى تجيء وتذهب كلما بان فى الافق  
مايسر سفرى الى الخارج لكى اكمل دراساتى العالية .  
اسرتى الصغيرة كانت اول ما فكرت فى مصيرها عند  
غياي . احمد اصبح فى التاسعة عشرة من عمره وبدأ  
دراسته الجامعية وآمال قد بلغت سن السادسة عشرة  
وسمير اصبح فى سن الرابعة عشرة وتيسر قد بلغت  
سن الثانية عشرة ومسعد قد بلغ سن العاشرة ومعهم  
زوجتى الشابة والجميع يعيشون فى شقة متواضعة فى  
حي الدراسة . ان ابنائى كانوا فى عمر الزهور . انهم  
فى مسيس الحاجة الى الرعاية والعناية . ان دورى كآب  
يحتم على ان امارس ابوتى ، وان من حقهم على ان اكون  
بجانبهم لكى يشعروا بالامن والامان . ان من حق زوجتى  
ايضا ان لا اتركها وهى فى عنفوان شبابها . لقد بلغت  
سنها الاربعين او كادت . سن خطير مانى ذلك من شك .  
اما انا اذا ماسافرت فانى ساواجه المجهول وما اصعب  
هذه المواجهة . صحيح اننى جربت ذلك من قبل ، وان  
تجربتى قد زودتنى بالكثير مما يجعلنى فى حصن حصين  
من المفريات . ولم تكن تجربتى فى السفر وحدها بل  
كانت كل تجاربى وبخاصة بعد ان مات ابي فى يوم ١٨  
من يناير عام ١٩٣٠ . اى منذ حوالى ٢٣ عاما او يزيد .  
كل ذلك كان قد اضى على الكثير من الثقة فى نفسى  
والتعود على مواجهة الحياة بحلوها ومرها وحدى .  
ودراساتى الاكاديمية فى لندن وفى المعهد البريطانى فى  
القاهرة وقبل ذلك فى مدرسة الخدمة الاجتماعية واعمالى  
التطبيقية فى ميدان الاحداث الجانبين حيث اتاحت  
لى الفرصة لكى اطبق طريقتى فى خدمة الجماعة وخدمة

الفرد فضلا عن البحث العلمى الاجتماعى - كل ذلك قد صاغ شخصيتى لكى تعرف اكثر وتفهم ما يواجهها فهما موضوعيا . ان بصمات اساتذتى منذ الفترة التى كنت اجلس بين يدى الامام الشيخ محمود خطاب ثم بعد ذلك الفترة التى عملت فيها تحت رئاسة السيد الزاى ثابت والاستاذ يعقوب فام ، ثم فى لندن فى اثناء جلساتى مع استاذى البروفسور جون لويس سواء كانت فى قاعة المحاضرات او فى محل اقامتى ، وجليساتى مع الاستاذ ترى نيومان فى منزله ومع اصدقائه المثقفين من الشباب . كانت هذه البصمات ، وما زالت ، محفورة فى محددات شخصيتى الثقافية الاجتماعية . وخبرائى العديدة منذ ان عدت الى القاهرة واجه ثورة يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، بل وأسهم فى بعض نشاطاتها ، اضافت الكثير ، على الرغم من قصر المدة ، الى الخبرات السابقة . وخرجت من كل ذلك بنتيجة واحدة هى انه مازال ينقصنى الكثير ، وان اكمال دراسائى العالية قد اصبح ضرورة . وبدأت اعيش احلامى من جديد . واعتذرت لنفسى ولابنائى ولزوجتى قائنا لا ابغى الا ان اتعلم لكى اعلم ، والاباء والازواج فى كل مكان يجندون من اجل اهداف لا انسانية يجد فى تحقيقها تجار الحروب وانا قد جندت نفسى لكى اعمل عملا صالحا من اجل مصرنا الخالدة . من اجل ابنائها كلهم وبخاصة ابناء الثورة الجديدة . اننى كنت ارتعد خوفا وهلعا من مصيرهم . ان كل ما حدث حتى لحظة مغادرتى البلاد فى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ كان صراعا على السلطة فى الاغلب الاعم . ان ممارسة الديمقراطية الحققة قد عطلت وكان هذا امرا يحزننى حقا : ان العنصر البشرى فى شخص اطفال المجتمع لم يلتفت اليه . والامية لم يبدأ

مستول في التفكير في مواجهتها وكفاحها . ومع ذلك  
فقد كان الامل ان يتغير ذلك الي الافضل بعد ان يعيش  
اعضاء المجتمع حياة اكثر استقرارا في ظل ايدولوجية  
واضحة المعالم والاهداف . كان املى ان يحدث ذلك وانا  
اؤهل نفسي في الخارج حتى اذا ماعدت كانت واجباتي  
نحو الوطن المفدى اكثر وضوحا . وقررت قبول المنحة  
الدراسية والسفر من اجلها الى الولايات المتحدة .  
ولكن العقبات بدأت تقف في سبيل هذا السفر من كل  
جانب . وكان اصرارى اقوى من كل العقبات . لم تقف  
اسرتى الصغيرة عقبة في سبيل هذا السفر ، بل على  
العكس وافقت زوجتى كما وافق ابنى احمد وابنتى آمال  
على سفرى . ولعلمهم ان فعلوا ذلك لانهم لم يجدوا سبيلا  
آخر الى غيره . كانت مشكلتى الحقيقية ان توافق  
الوزارة التى اتبع لها على منحى اجازة لمدة عام بمرتب  
اتركه لاسرتى لتنفق منه ، اما انا فيكفينى مرتب المنحة  
الشهرى وكان قدره ١٥٠ دولارا . وكان املى في موافقة  
الوزارة املا كبيرا فالوزير الحالى كان الدكتور عباس  
عمار ، وكانت صلتى به صلة طيبة . وكنت أعرف عنه  
انه كان رجلا مكافحا ، وانا مثله رجل مكافح فلعله ان  
يتعاطف مع قضيتى . كان هذا املى . فبادرت الى طلب  
مقابلته وكانت معى مذكرة اعددتها خصيصا عن الموضوع  
بالتفصيل . وما كان عليه الا ان يتفضل بالموافقة على  
منحى الاجازة لمدة عام بمرتب . وحدد موعد المقابلة  
بسرعة وكان الوزير يتوقع حضورى . وماكدت ان اصافح  
سكرتيره الخاص واسمع ماقاله لى الا وتوجست خيفة .  
قال لى السكرتير وكان الزميل الاستاذ منير القصبى :  
« انت فين يا عويس . الوزير قالب الدنيا علشانك . وبينى  
وبينك هو زعلان قوى منك » . وقد فاجانى قول هذا

الرجل الطيب الذى اعرف عنه ممارسة التصوف وعلاقته  
 اليقظة باحدى الطرق الصوفية المنتشرة فى المجتمع  
 المصرى . ولكنى باسم الله جل وعلا دخلت الى حضرة  
 الوزير . ولم يكن متجهما ولكنه بعد ان طلب منى الجلوس  
 اخذ يعيرنى بأننى « اجرى وراء الضباط » فى الوقت  
 الذى تحتاجنى ادارة الاحداث بمصلحة الخدمات . ولم  
 اكن افعل مما قاله شيئا . فانا لم اذهب الى مبنى قيادة  
 الوزارة الا باذن المسئولين فى المصلحة . وانا لم الهث  
 وراء احد . وانا فعلت ما فعلت محاولة منى للخدمة العامة  
 فى حدود قدراتى . وبفضل الله فعلت الكثير من اجل  
 العديد من المواطنين والمواطنات . وقلت لعباس عمار كل  
 ذلك . ولكنه فى محاولة لى يقنعنى طلب منى ان اؤجل  
 قبول المنحة عاما واحدا ثم اسافر بعد ذلك . وعندما ذكرته  
 بسنى فقد كنت فى الاربعين من عمري وهذه فرصتى ،  
 كتب على المذكرة التى قدمتها اليه « تأشيرة » لم يرفض  
 فيها طلبى ولم يقبله تاركا الامر للسيد مدير مصلحة  
 الخدمات الاستاذ محمد حسن صاحب كتاب « الامتحانات  
 العامة » الذى تحدثت عنه سابقا والذى جلب له الشهرة  
 فى محيط طلبة المدارس الثانوية وبخاصة الذين كانوا  
 يجلسون الى امتحانات « شهادة الكفاءة وشهادة  
 البكالوريا » . وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت الى محمد  
 حسن فى مكتبه وكان يجلس معه الزميل « بدر اوى محمد  
 فهمى » والاستاذ « شمس » لاعب كرة القدم المعتزل .  
 وما ان رآنى افتح الباب اذا به يقفز من على كرسيه  
 مرحبا بى ومحيا ، وكنت احمل « شنطة » فيها بعض  
 الاوراق الهامة آمنتى على حفظها الصاغ مجسدى ،  
 ودهشت لما فعله المدير ، واسوة بما فعل رجب بى  
 الجبالسان معه ترحيبا حارا . وذكرت له امر مقابلتى



للوزير وقدمت له المذكرة وعليها « التأشيرة » فاذا به يسارع الى آلة التليفون وتحدث مع الوزير بشئان مضمون المذكرة . ولم اسمع ماقاله له الوزير ، ولكن محمد حسن سرعان ماتجهم وجهه وتغيرت سحنته وقال لى آمرا : اذهب يافندى وروح على مكتبك ولا تذهب الى مجلس الوزراء . . هذا امر . فذكرت له دون ان ابدو منفعلا للتغيير المفاجيء الذى حدث للرجل الذى قام من على كرسيه واستقبلنى مرحبا وانا على وشك الدخول من باب حجراته امام الشخصين اللذين كانا معه ، ثم صدور الامر الاخير من نفس هذا الرجل بعد دقائق بمجرد ان انتهى حديثه التليفونى مع عباس عمار الوزير - ذكرت له ان هذا الامر لن ينفذ لسبب بسيط هو اننى احمل فى شنطتى التى احملها فى يدى اوراقا هامة ولا بد لى من تسليمها . وتركنت الحجرة وانصرفت . وخرجت من مبنى المجمع حيث تقع حجرة مدير مصلحة الخدمات الى « كوبرى قصر النيل » لاستوعب ماحدث وافكر فيما يجب على ان افعله . تماما كما فعلت ذلك ذات مرة وانا فى مصلحة الحدود فى شهر مايو عام ١٩٣٧ اى منذ حوالى ستة عشر عاما . وقفت فى المرتين امام الكوبرى المذكور استنشيق الهواء المنعش الذى يحيط به لعلى ان اهتدى الى مخرج . ولم اجد هذا المخرج فى المرة الثانية الا ان اذهب الى الصاغ مجدى واذكر له ماحدث بالتمام والكمال . فكان كريما وانسانا فاضلا حقا . ذكر لى ان محمد حسن وامثاله ما هم الا جثا محنطة وقد آن الاوان للتخلص منها . وذكر لى ايضا ان عباس عمار كتب له مرات من اجل عودتى الى المصلحة ولكنه كان يرمى فى كل مرة الخطاب المرسل اليه فى سلة المهملات . وذكر لى كذلك انه قال له ذات مرة اننى كنت

أعمل في مؤسسة الزفاف الملكي وكان يقصد بهذه المعلومة الوقية بيني وبين النظام الجديد ، أى أن عباس عمار كان يريد أن يقول أنتى كنت من أهل الحظوة فى السراى الملكية وان ولائى كان ولايزال للملك المخلوع . ولكنه أى الصاغ مجدى لم يابه لما قاله عباس عمار البزير الى الدرجة انه لم يسألنى عن هذه المعلومة . عندما سمعها لأول مرة ، شيئاً . وكانت دهشتى كبيرة حقاً لما سمعت عن محاولة عباس عمار الوقية بهذا الاستنوب الدنيء . ان عباس عمار فى خلال فترة من الزمان انتدب عميداً لمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وكان يدعى وهو وزير انه جاء الى الوزارة لكى يحقق احلامه فى فرس مهنة الخدمة الاجتماعية وحماية العاملين فى ميادينها . وكان يعلم هذا الرجل ماهى « مؤسسة الزفاف الملكي » نزلاتها واهدافها والمسئوليات الضخمة التى كانت على عاتقى لكى اجعل وزملائى منها البيئة الصالحة لكى تيسر تكوين او اعادة تكوين شخصيات نزلاتها ، وهم أحداث جانحون ، لكى يصبحوا مواطنين صالحين . كان عباس عمار يعلم كل ذلك حق العلم ، وكان عندما يزور المؤسسة بسدى آيات التشجيع لى ولزملائى وقد زار المؤسسة اكثر من مرة . ولكنه الانسان الذى لا يرى الا مصلحته وفى سبيل تحقيقها يتخذ من الاساليب ما يروق له . وقد اتخذ عباس عمار الاساليب الملتوية دون ماداع فى سبيل تحقيق مآربه فى شخصى . ولكن اذا كان الله معنا فمن علينا ؟

وقد طيب الصاغ مجدى خاطرى وحاول ان يثينى عن السفر ولكنى ذكرت له تصميمى وبينت له اسباب هذا التصميم ومن أهمها ما بلغت من العمر وسفرى فى الوقت الراهن هو فرصتى . واقتنع الرجل وطلب منى

ان اعد مع الاستاذ « عبد الرحمن ابو العينين » مدير  
ادارة المستخدمين في مجلس الوزراء في ذلك الحين  
المكاتب اللازمة لاستخراج « جواز السفر » والموافقة  
على السفر الى الخارج . وتم كل ذلك وامضى على  
المكاتب المعدة . وسارعت الى ادارة « الجوازات » وتم  
المراد في فترة قصيرة جداً ، فالاوراق كانت قد خرجت  
من ادارة مستخدمي مجلس الوزراء والذي امضى عليها  
كان الصاغ مجدى حسنين . وكان في ذلك الوقت علما  
مشهورا . وفي جيبى وضعت الجواز منتظرا تحديد موعد  
السفر الذى حدد فعلا في يوم ١٥ من شهر اغسطس عام  
١٩٥٢ وتركت الماضى باكملة ورائى ونظرت الى الامام .  
الى المستقبل المجهول . مسلسلحا بالايمان هادفا الى  
تحصيل المعرفة والمزيد منها محققا بذلك امل ابى وامل  
امى واملى . لم اهتز عندما رايت بدراوى محمد فهمى  
فى الشارع وذهبت اليه بقلبي المفتوح فادار لى ظهره .  
ولم اذكر لاحد ماذا فعلت او ماذا انا فاعل . وعندما  
حدد الموعد اخبرت زوجتى وابنائى ، وصحبى يوم  
السفر احمد وآمال وكان معهما زميلان ابلفتهما بالموعد  
قبل يومين فأبديا استعدادهما لمصاحبتى . كانا الزميل  
حمدى مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . وفى  
الموعد سافرت ولم يعلم الوزير او مدير مصلحة الخدمات  
او غيرهما عن هذا السفر شيئا . ولكنى وقبل ان اركب  
الطائرة كنت قد اعددت خطابا للوزير ادعوه فيه مرة اخرى  
الى الموافقة على منحى اجازة لمدة عام بمرتب او حتى  
بدون مرتب ويبدو انه علم بالسفر عندما كنت فى طريقى  
الى الولايات المتحدة اى ربما عندما وصلت اليها فعلا .  
وقبل لى بعد ذلك انه ثار وانتظر حتى مرت خمسة

عشر يوما واعتبرتني اخذت اجازة بدون اذن ورفتنى من  
وظيفتى الحكومية . ونشر الخبر في جرائد القاهرة ولم  
يذكر اسمى وان ذكرت مخالفتى وهى اخذى اجازة اكثر  
من خمسة عشر يوما بدون اذن . ولعل عباس عمار بما  
فعله ضدى نسي ان لى اسرة كانت تفتات من مرتبى ولم  
يذكر الا انه كان وزيرا .

# السفر للخارج مرة ثالثة لطلب العلم ( الولايات المتحدة الامريكية )

وفى يوم ١٥ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ذهبت الى المطار ، وكان بصحبتي العزيز أحمد والعزيزة آمال . ركبنا العربية سويا واصر على الذهاب معنا الزميل حمدى مصطفى والزميل محمد نور الدين مبارك . كنت أنظر الى امام واحسست بأننى ابتدىء حياة جديدة . وكنت قد اطمأنتت على اترتى الصغيرة فقد كفلت السيدة الزا ثابت مصاريفها عن ثلاثة شهور قادمة . . ولم تكن معونة السيدة الزا مادية فحسب بل كانت ايضا معنوية ، شملتني كما شملت اعضاء أسرتي . وفجأة اذا بي في المطار امام الطائرة التى ستقلني الى « مدينة بيروت » . ولم احس بما حولى ولا بمن حولى . لم اكن ارى شيئا سوى الطائرة . ودفعت بخطاب ارسلته الى عباس عمار الوزير فى صندوق بريد المطار . وسلمت على ولدى وعلى الزميلين . واذا بي اجدنى جالسا على احد المقاعد فى الطائرة . كانت طائرة ، كما اذكر ، صغيرة الحجم ، وكان ركابها قليلين . وهانذا اترك مدينة القاهرة الحبيبة وما فيها ومن فيها . وعشت مع افكارى وآمسالى واهدافى . وكنت فى حقيقة الامر اواجه المجهول . وكم تعبت فى الماضى من مواجهة هذا المجهول . ولكنى كنت متفائلا . فأبى قبل ان يفارق الحياة بلحظات ذكرنى ، وأبى قبل ان تموت بلحظات كانت تدعو لى الدعوات الحانية . واذا اذكر حالتى التى كنت عليها وانا اكتب هذه السطور اذكر اننى كنت مدفوعا بيد خفية الى



ميسرى وقدرى . لم اكن افكر بعقلى لان كل تصرفاتى .  
كما ذكر لى بعض الزملاء فيما بعد ، كانت لا تمت الى  
منطق سليم ابدا . كنت أعيش فى الحقيقة لا مع افكارى  
وآمالى واهدافى فى ضوء التفكير الموضوعى وانما كنت  
اعيش معها تدفعنى اليها قوة اكبر من عقلى . ولم اكن  
ادرى ، كما اذكر الآن ، ماهية هذه القوة او مصدرها .  
كنت فى ذلك الحين اقول تبريرا لتصرفاتى اننى احاول  
تحقيق امنية ابى وامى . وكان هذا يكفينى لكى اسير  
على الدرب لعلى اصل . وبدا لى اننى لم اكن ابدو  
على مستوى الشخص الذى يتوقع وجود سماته الآخرون  
فقد فوجئت عندما سالت احدي مضيفات الطائرة بعد  
ان استقرت فى مطار مدينة بيروت عن عنوان الفندق  
الذى سابيت فيه ليلة واحدة لالحق بالطائرة الداهية  
الى « مدينة نيويورك » فى صباح اليوم التالى ، بأن  
قسمات وجهها قد تغيرت فجأة وان عينيها اخدت تنظر  
الى من اعلى الى اسفل وكأنها كانت تستنكر على ان  
اكون احد نزلاء فندق من الدرجة الاولى « المتأخرة »  
وانا فى ملابس مثل ملابسى واحمل حقيبة مثل الحقيبة  
التي كنت احملها . اننى لا اذكر اسم هذا الفندق  
الآن ، ولعله وانا اكتب هذه السطور قد اصبح  
خرابا بعد كل ما حدث لمدينة بيروت من دمار وماحدث  
لساكنيها واهليها من مذابح وحشية وتشريد وضياع .  
لم تكن تعلم هذه المضيغة اننى لم ادفع داتقا لكى انزل  
فى هذا الفندق ، ولعلها كانت تعلم ذلك ولكنها ابت ان  
تصدق ان شخصا مثلى يكون من حظه ان يعيش مع عليّة  
القوم القادرين تحت سقف واحد !! كانت لا تعلم عنى  
شيئا وانما لفت نظرها مظهرى اى ما البس وما احمل  
من حقائب . ولعلها كانت فى سريرتها تخبطنى او تحسدنى

او كانت تقول « يدي الحلق لى بلا ودان » . علم ذلك  
هند ربي . وعندما تسلمت حقيبتى التى كانت مودعة  
فى مخزن الطائفة وكانت بها ملابسى وبعض اللوازم ،  
حملتها مع حقيبة اليد الى اول « تاكسى » فى طريقى  
الى الفندق . واعطيت حجرة بها سريران وحمام خاص  
فضلا عن بعض الاثاث الذى كان يضم ضمن ما يضم  
محطة اذاعة محلية تعزف الموسيقى « الخفيفة » . ذكرتني  
هذه الحجرة بالحجرة التى امرنى استاذى يعقوب فام  
بالمبيت فيها ثلاث ليال فى « فندق شبرد » المشهور  
بمدينة القاهرة قبل ان يهدم عندما كان يشرف تربويا  
على مؤسسة الزفاف الملكى وكنت اقوم بمسئولية مدير  
المؤسسة . وقد دفعت مصاريف اقامتى فى فندق  
شبرد ادارة المؤسسة . وكان هدفه ان يعيش هذه  
الخبرة فلعلى ان اخوض مثلها فى مستقبل الايام . وكان  
هذا هو اسلوب الاستاذ يعقوب فام . كان لا يعظ بالكلام  
ولكنه لى يربى كان ييسر المواقف على تباينها لى  
يعيشها المتلقى ويحيا ماتاتى به هذه المواقف من خير  
او حتى من شر فهذا لا يهم . ان ما يهم ان يعيش الانسان  
الخبرة . وكان يرى رحمه الله ان « من جسر ايسر ومن  
هاب خاب » . ومع ذلك فلم يكن فندق مدينة بيروت  
هو الحجرة التى نزلت فيها لبيت ليلتى . ولكنه كان  
اعظم وافخم . فالاثاث الذى تضمنه « صالاته » اثاث  
انيق حقا ، والروائع الزكية تملأ كل ركن فيه ، والحديقة  
التي تلف مبانيه كانت يانعة ومملوءة بالورود والرياحين  
وكان النزلاء من طبقة غير الطبقة التى خرجت منها ولا زالت  
متمسكة بى فى حركاتى وفى سكناتى وفى حديثى وفى  
ايماءاتى . وكانوا من جنسيات شتى . كان منهم  
الانجليز ، وكان منهم الاميريكيون ، وكان منهم غير اولئك

وهؤلاء . وعندما حان وقت تناول طعام العشاء ذهبت  
مع من ذهب الى حجرة الطعام . ولم استطع فى ضوء  
ثقافتى ان اجارى الآخرين فى تناول الكميات التى  
التهموها من الوان الطعام . كنت اعرف بعضها فاكل  
منه ، اما الذى لم اكن اعرفه فقد فضلت ان لا اتجاسر  
واطلب منه قليلا او كثيرا . ولعل هذا الذى لم اكن  
اعرفه كان الذى واشهى . كنت اجلس على احدى الموائد  
وحدى . وكان النزلاء يجلسون جماعات . لقد عزلت  
نفسى لكى اتذوق حريرتى التى كانت عندى اثنى شئ فى  
الوجود . كانت فرصة لى لكى ارصد الوانا عديدة من  
تصرفات من حولى . وما كان أجمل ثيابهم . الرجال  
والنساء والاطفال على السواء . وما كان اقبحهم عندما  
كانوا يتناولون الطعام الذى امامهم . كنت أنظر الى  
عيونهم فأراها عيون وحوش مفترسة . كانوا يفترسون  
الطعام الذى يأكلونه افتراسا . وكانت عيونهم تفضح  
ذلك فيرتد بصرى الى ما انا مشغول به . وانتهى تناول  
طعام العشاء ، ورأيت ان اذهب الى حجرتى لكى أستعد  
للنوم واسمع الموسيقى الخفيفة حتى تهدأ اعصابى فقد  
كان يومى مملوءا ولم يكن فارغا . وفى خلاله عشت الوانا  
من المشاعر ، وواجهت الوانا من المواقف . وانا فى حاجة  
الى النوم لاستيقظ مبكرا حتى امتطى الطائرة الذاهبة  
الى مدينة نيويورك عن طريق « جزيرة شانون » بالملكة  
المتحدة حيث تبقى فترة من الوقت ، ينتهز خلالها  
الركاب او بعضهم الفرصة لشراء ما يحلو لهم من ملابس  
جاهزة او ما يلزمهم من حاجيات . وجزيرة شانون محطة  
ينزل فيها بعض الركاب ويمتطى الطائرة ركاب آخرون .  
لم اكن من الركاب الذين اشتروا شيئا وان كان يودى  
لو اننى اشتريت « جاكته » من الصوف الاسكتلندى .

ولم يكن ثمنها يعدو الأربعين دولارا . ولكنى إذا كنت قد اشتريتها كان يبقى في جيبى عشرون دولارا أخرى . ولم أكن أعرف شيئا كثيرا أو قليلا عندما تحط بى الطائرة فى المطار فى مدينه نيويورك . فلم أبغ المقامرة ولا المغامرة فأبقى فى جيبى عشرين دولارا فقط . وقد ندمت على ذلك فيما بعد . فقد كان الثمن رخيصا جدا بالنسبة للثمن الذى يمكن به شراء مثل هذه الجاكطة فى الولايات المتحدة . وتكون الجاكطة الأخيرة عادة مجرد شبيهة بالأولى . اننى اذكر هذه التفاصيل لكى ابين مدى حرصى فى ضوء ظروفى الاقتصادية التى كنت سأتوقعها فى الولايات المتحدة . فالمنحة التى حصلت عليها تتضمن دفع مصاريف الجامعة واعطائى مبلغ ١٥ دولارا شهريا . وأنا لم أكن ادرى شيئا عن تكاليف الحياة فى المجتمع الجديد . وكنت ادرى واتوقع ان يكون لاسرتى ، بعد ثلاثة شهور ، بالضرورة ، نصيب من المبلغ المذكور عندما استقر فى حياتى الجديدة المجهولة .

ركبت الطائرة من مطار بيروت الى مدينة نيويورك ، وكان يجلس بجانبى رجل انجليزى وكنا فى يوم ١٦ من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، والانجليز مازالوا ضيقا ثقلاء على قلوب وعقول بنى الوطن . كان الامل متعلقا بما قيل عن مفاوضات تجرى فى الخفاء او فى العلن بين حكومة الثورة وبين الانجليز المفتصبين . لم يكن أحد يستطيع ان يعرف ماذا ستسفر عنه هذه المفاوضات . وكنت فى ضوء تجربتى المحدودة مع بعض الضباط الاحرار وما علمت من صراعات فيما بينهم وما كان يحتمل ان يكون منها فيما بينهم وبين بعض الاحزاب المنحلة ، ارجو ان تكون نتائج هذه المفاوضات او بدايات المفاوضات فى صالح مصرنا الخالدة . ومع ذلك فان شكى فى ذلك

كان قائما . ولا يمكن ان انسى « زيارة تيوستر دلاس »  
وزير خارجية الولايات المتحدة في ذلك الحين الى مبنى  
مجلس الوزراء ، عندما قابل من قابل ، وخرج ليلقي  
الصحفيين المصريين وغير المصريين وانا ارقب ذلك عن  
بعد . كنت وكان الكثيرون معي يرون دور الولايات  
المتحدة الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية  
والآثار المترتبة على هذا الدور في منطقة الشرق  
الارسط ، وبخاصة وقد كنت اعلم وانا في لندن في خلال  
عام ١٩٤٨ ان « هاري ترومان » رئيس الولايات المتحدة  
في ذلك الحين كان اول من اعترف « بإسرائيل » كدولة  
هاري ترومان هذا الذي وقع امر القاء قنبلتى «هروشيما»  
و « نجازاكي » ، وكان هذا التوقيع يعنى دمار المدينتين  
وموت اكثر من ثمانين الفا من الادميين المسلمين . كان  
منهم الاطفال والشيوخ والشباب . وكان منهم من كان  
نائما او من كان في احضان زوجته او امه . وكان منهم  
المرضى في المستشفيات والذين كانوا يعيشون في بيوت  
المسنين . لم تكن الخشية في ذلك الحين من الانجليز  
ودولتهم في افول ، ولكن الخشية كانت في ذلك الحين  
من الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية  
الثانية في عام ١٩٤٥ وهي تملك « القنبلة الذرية » .  
وبدت في اعين جماهير العالم وكأنها عملاق . وقد  
لعبت الولايات المتحدة في عهد « ايزنهاور » دورا بارزا  
وبخاصة عندما اعلن عن المفاوضات بين حكام مصر الجدد  
وبين الانجليز . وكان الاميريكيون يرون في بجاجة ان  
قاعدة القنال لم تعد قاعدة بريطانية بقدر ما أصبحت  
قاعدة غربية استراتيجية اعدت للدفاع عن منطقة الشرق  
الارسط بأكملها !! كنت وانا جالس في مقعدى في الطائرة  
التي نقلتني الى مدينة نيويورك عن طريق جزيرة شانون



بالمملكة المتحدة ، وكان يجاورنى الراكب الانجليزى ،  
أفكر فى كل ماسبق . وكان جزعى على مصير المفاوضات  
منبثقا من احساسى وشواهدى المادية لبدايات الصراع  
الذى كان فى محيط رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة  
فهنا ينتهز العدو ، عدو زمان ، او العدو الذى بدأ يملأ  
الفراغ ، الفرصة ولن يعدم الوسائل لاييجاد الفرقة بين  
المفاوضين المصريين حتى يستطيع ان يضاعف المكاسب  
على حساب مصالح مصرنا الخالدة . وبدأ الحديث بينى  
وبين جارى فى امور شتى لم يكن من بينها امور سياسية  
سألنى عن ماربى من السفر وعن هويتى ، وسألته  
كذلك . تبادلنا الاسئلة كما تبادلنا الاجابات عن هذه  
الاسئلة حتى مر الوقت واذا بنا فى مطار جزيرة شانون ،  
ونزل الراكب الانجليزى وغيره وجاء آخرون ممن كان  
هدفهم الوصول الى مدينة نيويورك مثلى . وكنا فى  
منتصف الليل بتوقيت جرينتش . وعندما اقلعت الطائرة  
من جديد نمت . وفوجئت باننا جميعا قد وصلنا الى  
مدينة نيويورك سالمين فى صباح يوم ١٦ من شهر  
اغسطس بتوقيت الولايات المتحدة !!

وهأنذا فى المطار الذى يبعد عن محطة السكة الحديد  
مسافة استغرقها « الاوتوبيس » الذى اقلنى فى حوالى  
ثلاثة ارباع الساعة . وانا لم تتح لى فرصة ركوب هذا  
الاوتوبيس الا بعد ان تأكد المسئولون من صلاحية جواز  
سفرى ومن موافقة السفارة الامريكية بمدينة القاهرة على  
هذا السفر ، فضلا عن ذلك عندما تأكد المسئولون ايضا  
عن سلامة صحتى وخلوى من الامراض المعدية وبخاصة  
مرض « السل » ومرض « التراكوما » ، وكانت اوراقى  
تضم الاشعة والشهادات التى تدل على ذلك والتى  
صدرت من اطباء طلبت منى السفارة الامريكية فى

مدينة القاهرة الذهاب اليهم انفسهم ، فهم موضع ثقتها  
ومن ثم فهي لا ترضى عن غيرهم بديلا ولا تثق الا فيهم .  
وكان يقف في انتظارى امام محطة السكة الحديد مندوب  
« ادارة التربية الدولية »

التي تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات  
المتحدة . ورؤيتى له كانت نجدة لى . وقد عرفته توا .  
فقد كنت اتوقمه وكان هو ايضا يتوقعنى . كان يلبس  
شارة تدل على انه المندوب المنشود . ولعل لون جلدى  
اوحى له باننى العميل المنشود كذلك . وعلى الرغم من  
ان هذا اللون اسمر وليس اسود فقد واجهت بسبب  
ذلك مراقف اجتماعية غير انسانية لم اكن اتوقعها  
وبخاصة فى منطقة مثل منطقة « انجلترا الجديدة »  
التي تقع فيها الولاية التي سالتحق فيها باحدى جامعاتها  
اقصد ولاية « ماساتشوست » وجامعة « بوستن » .  
وقد نصحنى المندوب بان اركب قطارا معيننا لالذهب الى  
احدى الضواحي حيث اجتمع ببعض الدارسات  
والدارسين من الذين منحوا منحا مثلى لكى نمكث فترة  
اسبوعين حيث نحضر برنامجا معيننا نتعرف فيه عن  
طريق بعض النشاطات الثقافية والاجتماعية . تحت  
اشراف بعض المتخصصين ، على ملامح المجتمع  
الاميريكى . ويسمى هذا البرنامج عند المسئولين  
الامويكيين « برنامج التوجيه »

وكانت دهشتى كبيرة عندما وجدت  
احد الاشخاص ينتظرنى امام المحطة التي اقصدها . فما  
ان نزلت من القطار ، وكنت الوحيد الذى نزل ، فاذا  
بالشخص المنتظر يستقبلنى محييا مرحبا ، وسرعان  
ما طلب منى ان اصعبه فى احدى السيارات التي قادها  
حتى وصلنا حيث سبقنى من الدارسات والدارسين

أخرون . وجدت أنهم يعيشون فى احدى المسندارس  
« الداخلية » حيث كانت خالية من طلبتها . ثم وجهت  
الى حجرتى المختارة لى والمؤثثة اثاثا كافيا لى استريح  
واضع حقيبتى الكبيرة والصغيرة التى كنت احملها فى  
يدى ولم يكن لى غيرهما ، وذلك حتى يحين موعد  
تناول طعام الغداء . وعندما حان الوقت اسرعت الى  
الحجرة المعدة لذلك وانا فى شوق شديد الى الطعام .  
وفى حجرة الطعام قابلت الدارسات والدارسين . كانوا  
من بلاد شتى . كان منهم الانجليز والفرنسيون والالمانيون  
والهنديون والهنود والباكستانيون واليابانيون  
والعراقيون ، وكان منهم أيضا من اتوا من بلاد امريكا  
اللاتينية مثل البرازيل والارجنتين ، وكنت وزميل  
المصريين الوحيدين . لم اكن اعرف هذا الزميل من قبل  
ولم اكن اعرف من عمله او محصل اقامته فى مصر  
الخالدة شيئا . اننى اذكر ان اسمه كان « حبيب »  
وذكر لى انه عمدة فى احدى قرى الصعيد . كان عددنا  
حوالى ثلاثين شخصا . وكانت خلفياتنا العلمية والثقافية  
متباينة . وفى حجرة الطعام كان يحضر الطعام اعضاء  
منا فى نظير اجر يحصلون عليه ! كانوا قبل ان ندخل  
الحجرة يعدون الموائد ثم بعد ان ندخل ونجلس فى  
الاماكن المعدة يحضرون اطباق الطعام اصنافا والوانا  
وبكميات وفيرة . ومنذ هذه اللحظة تأكد عندى اهتمام  
الامريكيين بالنقود . فكل شيء فى الحياة عندهم له ثمن .  
ولا جدوى من التضحيات الانسانية والمجاملات التى  
لا جدوى منها . وزاد تأكدى عندما أعلن ونحن فى حجرة  
الطعام عن طلب اشخاص منا يستأجرون لى يجمعوا  
التفاح من حدائق مجاورة ، وان من يجد فى نفسه  
الكفاءة فليقدم على أن تكون اوقات العمل فى اوقات

الفراغ . ويدفع للشخص العامل عن ساعة العمل دولار  
أو دولاران لا أذكر بالضبط . وعرفت الاعضاء الزميلات  
الدارسات والزملاء الدارسين وعرفوني . كما عرفت  
المشرفين على البرنامج ولاحظت ان من بينهم اساتذة  
وبعض طلبة الدراسات العليا . كما نحن الاعضاء نحمل  
ثقافات متعددة بل قد يكون بعضها متعارضا مع ما يحمل  
الامير يكون من حولنا من ثقافة . وكان هم الاميركيين  
المشرفين والباحثين ان يحتكوا بنا ثقافيا . فقد كان من  
قبل الافتراض اننا بعض قادة مجتمعاتنا الثقافيين ،  
واننا في الواقع نمثل الى حد كبير او الى حد ما ثقافات  
مجتمعاتنا التي ولدنا فيها وكنا نعيش فيها قبل حضورنا  
الى الولايات المتحدة . انها فرصة رائعة لكي نكون تحت  
المجهر ليس فقط لدراسة كل شخص منا بل لما هو اهم  
واجدى اقصد لمحاولة دراسة - عن طريق تصرفاتنا  
وانماط سلوكنا - المجتمعات التي جئنا منها لكي تفهم  
عناصر ثقافتها . ومن ثم وضعت البرامج المسديدة  
ومعظمها ثقافي للتعرف على الاراء واذا تيسر للتعرف  
على الاتجاهات ، التي تموج بها تصرفاتنا وانماط سلوكنا  
كما نحضر الاجتماعات ونستمع الى المحاضرات ونذهب  
الى المناقشات السياسية وغير السياسية . وكان يحضر  
الينا القادة من المجتمع الاميركي سواء اكانوا اساتذة  
جامعات او زعماء نقابات او رجال اعمال لكي يحتكوا  
بنا واذا تيسر لكي نحتك بهم . وكان الاخرون يحضرون  
مستمعين لمن يحاضر ولان يناقش . وكنا نوضع في  
مواقف اجتماعية معينة لكي يظهر من ردود الفعل ما قد  
يكون قد خفي . وكانت السيدات الاميريكيات يلعبن  
دورا حاسما في هذا المضمار . وكان البرنامج يتضمن  
زيارات الى بيوت الاثرياء والى المصانع . وانا اذكر

اليوم أى وقت كتابة هذه السطور ، أى منذ حوالى  
ثلاثين عاما ، اننا زرنا مصانع آلات I.B.M. —  
لـى المصانع التى تصنع الآلات الحاسبة الإلكترونية ،  
وكانت هذه International Business Machine —  
الآلات قد صنعت فى عام ١٩٤٤ ، ونحن الآن فى عام  
١٩٥٣ . واللاحظ ان اول جهاز للحساب كان قد صنع  
فى مصر القديمة وفى الصين قبل العصر المسيحى .  
وكان جهازا بدائيا . ولكننا نحن الآن فى عام ١٩٥٣ حيث  
صنعت هذه الآلة بعد تحسينات جذرية ، واستمرت  
التحسينات حتى اصبح من المتيسر فى خلال سبع دقائق  
حل مسائل حسابية تتضمن أكثر من مليون عملية  
حسابية . هذا ما علمته مع الآخرين من العالم الذى  
كان يشرح لنا احدى الآلات . ولكن ماكان يعلمه أكثر  
عن هذه الآلات هم اليابانيون الزملاء . كنا ما هداهم  
مجرد متفرجين . اما هم فقد كانوا يناقشون مناقشة  
العارف بأسرار الآلة الحاسبة الإلكترونية الذى يحاول  
ان يعرف أكثر . وقد علمنا ضمن ما علمنا ان هذه الآلات  
لا تباع ولكنها كانت تؤجر . وأنا اذكر اننى كنت امام  
لفظ كبير وضعه الانسان المتقدم امامنا لكى نحاول ان  
نحله . وعلى الرغم من الفشل الذريع الذى حاق  
بالحاضرين ماعدا اليابانيين فقد كنت سعيدا جدا . لان  
تقدم الانسان وسيادته على الطبيعة وعلى المجتمع امران  
لا يختلف عليهما انسان يحب الحياة ويسعى جهده  
لتحقيق انسانية الانسان . وعندما كنا فى هذا المصنع  
رأيت مالم يره غيرى ، وذلك لاننى نظرت من النافذة  
فرايت فناء المصنع الواسع وهو مملوء بمئات من  
السيارات ، وعندما سألت عن أصحاب هذه السيارات  
قال احد الموظفين لى انها ملك لعمال المصنع !! وكان



المسؤولون عن برنامج التوجيه يحضرون المحاضرين من زعماء الزنوج وكان هؤلاء الزعماء مختارين اختيارا متعمدا ، وكنت ترى الواحد منهم خطيبا مفوها ولكنه لا يقول عن التفرقة العنصرية شيئا هاما . فكنت وأنا والحاضرون من الاعضاء وبعض الضيوف لا نسمع عن أهداف المعركة ضد التفرقة شيئا ، ولا نسمع عن النقائـل التي يجب مهاجمتها شيئا . وكان الخطيب الزنجي القائد المفوه لا يذكر شيئا عن الوسائل التي كان يجب اتـباعها ، ولا يذكر شيئا هاما عن دور القيادات القومية والمحلية في الصراع . ولم يجب واحد من هؤلاء القادة الزنوج عن وجوب او عدم وجوب وجود تنظيم واحد قيادي اجابة شافية ، وحتى اذا لم يكن ذلك ضروريا فلم نسمع شيئا عن ضرورة اهتمام مختلف التنظيمات بتحديد دور كل منها . كانوا يأتون ويذهبون لكي يبرروا الحالة المنحطة للزنوج في الفترة التي كنا موجودين فيها ، وكانت تتضمن التفرقة في التدريب المهني ، والتفرقة في التدريب على التلمذة الصناعية ، والتفرقة في النقابات والتنظيمات العمالية وخاصة في أعمال الميكانيكا والبناء ، والتفرقة في الخدمات التي تقدمها مكاتب العمل الحكومية ، والتفرقة في الخدمات والتشغيل في القوات المسلحة ، والتفرقة من جانب اصحاب العمل بما في ذلك العقود الحكومية . وكانوا يذكرون ويكررون ما يذكرون عن اعتمادهم على المحكمة العليا للولايات المتحدة التي اصدرت حكما في عام ١٩٣٥ يقضي ببراءة احد المحكوم عليهم من الزنوج لان هيئة المحلفين لم تضم زنوجا . وكانوا يذكرون ويكررون ما يذكرون عن ان المحكمة العليا في عام ١٩٣٨ امرت « ولاية ميسوري » اما ان تقبل السود في كلية الحقوق

واما ان تهيبء لهم كلية للحقوق يدرسون فيها . وكانوا  
يعملون على الحكم في القضية المشهورة عندما قاضت  
أسرة « براون » في « مدينة كانساس » السلطات لعدم  
سماحتها لابنتهم بدخول مدارس البيض . وكانت  
القضية امام المحكمة العليا في ذلك الحين ولكنها لم تكن  
قد أصدرت قرارها بعد . وكان المحاضرون الزنوج الذين  
جاءوا بهم اليها يأملون في ان يكون القرار منصفاً للزنوج  
كانوا يبدون لنا تفاؤلهم دائماً ويرون ان القسسان  
« الاميريكي » لا يعترف بالتفرقة في المدارس ومن ثم  
يجب ان تستعد المدارس لادخال السود فيها . وكان  
الدارسون الهنود اعلا الحاضرين صوتاً . كانوا يناقشون  
ويناقشون ، وكذلك كان الدارسون الفرنسيون مثل  
الدارسين الهنود يناقشون كثيراً . وكان يعرض لنا  
الاساتذة المشرفون على المناقشة وكان البعض يلبي  
والبعض لا يلبي . وكنت قد آثرت ان لعب دور المتفرج  
فلم اناقش كثيراً ولا قليلاً ، وكذلك لم اشترك في اللجان  
التي شكلت لادارة البرنامج تحسب اشراف الاساتذة  
المشرفين . كنت اشترك بالحضور في جميع النشاطات :  
الزيارات والحفلات والندوات والمحاضرات وغيرها . وكان  
اشتراكى الفعلى بين الدارسات والدارسين وبعض طلبة  
الدراسات العليا من الاميريكيين . اى اننى لم اكن سلبياً  
مائة في المائة فقد كان لى دور فى الحفلة الختامية  
للبرنامج التي حضرها المئات من الاميريكيين سواء كانوا  
من الذين اتصلنا بهم واتصلوا بنا او غيرهم . كان علمي  
ان اغني منفرداً غناء مصرياً . فغنيت اغنية كان ابناء  
مؤسسة الزفاف الملكي يغنونها في حفلات السمر . كما  
غنيت احدى الاغنيات التي حاولت ان اشرك الحاضرين  
في ترديد احد مقاطعها السهلة دون عمل « بروفات »

بالطبع . وكانت مجازفة ، ولكنها أثمرت فقد كنت  
أسمع الاطفال الذين كانوا يعيشون من حولنا يرددون  
المقطع وحدهم في صباح اليوم التالي . تماما كما كان  
اناء المؤسسة يرددون الاغاني التي توضع لهم في  
المؤسسة ، كما كانوا يغنونها في خارج المؤسسة . وقد  
كان مضمون الاغنية الفردية ريفيا مصرية . واننى اذكر  
منها :

دورى يا ساجية دورى  
واروى الارض حبة حبة دورى  
دا الزرع بين ايديك دورى  
وضلة العالى عليك ياساجية دورى  
دورى ياساجية دورى

اما الاغنية الجماعية التي حاولت ان يردد احد  
مقطوعاتها الحاضرون من غير عمل البروفات الكافية او  
غير الكافية ، فقد كانت اغنية « فرانكو آراب » اذكر  
منها :

يادنج دنجى يادنجى دنجى  
يادنج دنجى يادنج دنجى

مستر سمبث — Is a gentleman

وتملى جعان — He eats very much

ولم تتضمن الاغنية مستر « سمبث » وحده . بل  
تضمنت أسماء عديدة اخرى . وكانت هي أسماء بعض  
الدارسات والدارسين فى البرنامج .

ومر الاسبوعان من السحاب . وانتهى البرنامج .  
وتفرق الجمع كل الى حيث يريد . وكنت اهدف الى  
الوصول الى مدينة « بوستون » حيث التحق بالجامعة .  
وهذه المدينة هي عاصمة ولاية « ماساتشوست » احدى  
ولايات « انجلترا الجديدة » New England States —

وتضم انجلترا الجديدة غير ولاية ماساتشوست ولاية  
« كنتكت » و « نيوهامبشير » و « فيرمونت » و (مين) .  
وانا اذكر جيدا انه وانا فى طريقى الى بوستن اضطرت  
لكى ، انتظر القطار ، ان انام فى « المحطة » ساعات حتى  
يحضر . وكان فى فناء المحطة اماكن للجلوس عليها ،  
وكان يجلس معى الكثيرون الذين لا يعرفوننى ولا اعرف  
واحدا منهم . وكانت الحقيبتان الكبيرة والصغيرة فى  
حيازتى وكنت حريصا عليهما حرصى على ان انام . ولم  
ادر اذا كنت قد نمت او كنت متيقظا . كنت فى لهفة  
للوصول الى مدينة بوستن . وكانت هواجسى عديدة  
ومتباينة . فانا لا اعرف عنها شيئا ، ولا اعرف مصير  
التحاقى بالجامعة شيئا ايضا . ولكننى كنت ايضا مطمئنا  
الى اننى اذا وصلت الى المدينة ساجد مكانا للمبيت .  
ووصلت الى المدينة فعلا عند الغروب . وكان معى عنوان  
المكان الذى سأبيت فيه ورقم التليفون فى حالة الرغبة  
فى الاتصال بالمسؤولين عنه . كان المكان المنشود هو  
« محلة نورفولك » Nor Falk House centre —

« بحى روكسبرى » بالمدينة . وانى اذكر اننى عندما  
وصل القطار الى المدينة سارعت بالنزول منه حاملا  
الحقيبتين لاتحدث تليفونيا لكى اعرف من المسؤولين من  
المحلة عن ايسر الطرق الى الوصول الى بحى روكسبرى .  
وحاولت ان اتحدث تليفونيا فلم استطع . كانت  
« كابينات » التليفونات موجودة بالمحطة ولم يكن يشغلها  
احد . ولكنى لم اعرف كيف اتصل ، فخرجت من الكابينة  
الى اقرب شخص طالبا منه مساعدتى فلبى طلبى فى  
الحال . وكانت تلبية هذا الرجل « الغريب » لى قال  
حسنا . وتذكرت مدينة لندن فى الحال . فلقد كان من  
المستحيل ان اجد شخصا فى هذه المدينة لايعرفنى يؤدى

لى خدمة ما . ومع ذلك فقد ظلت مدينة لندن مدينتى  
الافضلة بعد ذاك وقتا طويلا . وتحديث فى التليفزيون  
وكان المجيب هو « مستر ديفيز » ولم اكن اعرف عنه  
شئيا ولكنه كان يتوقع مجيئى ، وعلمت بعد ذلك انه  
مدير محطة نورفولك . كان انسانا لطيفا حقا وطلب منى  
اكر احضر ان استاجر « عربة تاكسى » الى ميدان «جرين  
اليوت » ، وفى الميدان اجد « كنيسة » ويقع امامها مبنى  
المحطة المنشود وكان رقم ١٤ . ووجد فى لهجة بالغة  
الظرف والانسانية اننى ساجده امام المبنى ينتظرنى .  
وعندما وصلت الى المكان المقصود وجدت مستر ديفيز  
منتظرا . رحب بى ثم ساعدنى فحمل الحقيبة الصغيرة  
وترك لى حقيبتى الكبيرة وقادنى الى حجرتى ذاكر لى انها  
مؤقتة حتى يجد لى حجرة مناسبة لرجل جاء من افريقيا  
وكان يقصد من بلاد تكون درجة حرارة الطقس فيها  
عادة مرتفعة . ومالبثت الا لحظات بعد ان تركنى ، فاذا  
بى استعد للنوم ، وكنت فى حاجة الى النوم فعلا  
وحقا ، وفى السرير وجدتنى راقدًا وعلى من «البطاطين»  
مايكفى لى يعصمنى من برد الخريف فى مدينة بوستن .  
ونمت نوما طويلا عميقا كما اذكر اذا استيقظت ظهر اليوم  
التالى ، واحسست بالجوع الشديد . وانصت وانا مازلت  
فى السرير فلم اسمع لاحد من الادميين او غيرهم صوتا .  
وقمت لاستعد للخروج . وعندما خرجت من المبنى قابلنى  
مستر ديفيز واعطانى مفتاحا لى افتح الباب عند  
عودتى من الخارج . وكان للمبنى بابان وكان المفتاح  
بصليح لفتح ايهما . ولم اشأ ان اطلب من مستر ديفيز  
ان يدلنى على مكان حيث اتناول فيه الطعام . كنت اود ،  
كما كنت افعل دائما ومازلت افعل حتى الان اذا ذهبت  
الى بلد اجنبى ، ان التمس بنفسى طريقى . وخرجت الى



الشارع أو الى ميدان جون اليوت ، وكان الهواء باردا  
 منعشا حقا . وسألت احد اصحاب الحوانيت التي تقع  
 بجوار المحلة ، كان اول حانوت . فأرشدنى الى مكان  
 بعيد ، وجدته صيدلية يديرها مع زوجته رجل من اصل  
 يونانى . وسألت عن الطعام لكى اتناوله ، فعدد لى  
 اصنافا عديدة من « الساندويتشات » ، وطلبت مارايت  
 انه يكفينى مع فنجان من القهوة . وجلست حيث يجلس  
 الآوان . وجاءنى الصيدلى وانا ارتشف فنجان القهوة  
 وبدأ يتحدث معى . عرف اننى مصرى جاء يطلب العلم  
 فى بلاد « المم سام » وعرفت منه انه يونانى الاصل  
 وان السيدة التى تعمل معه وتعاونه هى زوجته وان له  
 ابن وابنة وكلاهما فى التعليم الثانوى . وكان يطمع فى  
 ان يحل ابنه محله فى ادارة الصيدلية فى يوم من الايام  
 بعد ان يكون قد تاهل للقيام بهذه المسئولية وقد اتضح  
 للرجل اننى اتحدث اللغة الانجليزية الفصحى . ومن  
 ثم فانا لست من نفس المكانة التى يتسم بها معظم اهالى  
 حى روكسبرى . ذلك الحى الذى بدأ السكان الزوج  
 يزحفون اليه افرادا وجماعات . وقد أحسست بدفء  
 مشاعر هذا الصيدلى . وعولت على ان اواظب تناول  
 طعام الافطار عنده كلما كان ذلك ممكنا . واستأذنت  
 للانصراف بعد ان دفعت ثمن ماطلبت . وفى اثناء العودة  
 وجدت « المكوجى » فى طريقى . وعندما مررت امام  
 الحانوت الاول الذى ارشدنى صاحبه الى الصيدلية ،  
 وجدت بجواره « مطعما » فيه من اللون الطعام مايشتهيه  
 كل جوعان . ودهشت لان الرجل لم يرشدنى اليه واثّر  
 ان يرشدنى الى الصيدلية . ولم اهتم لان اعرف سبب  
 ذلك ابدا . ولكنى سعدت بأن علمت ان صيدليات  
 الولايات المتحدة لا تبيع الادوية فحسب ولكنها تيسر

شراء الحلوى واصنافا من الطعام والشراب ومنهنا  
الساندويتشات وتعاطي القهوة والشاي و « الجيلاته »  
ايضا !! . وكانت سعادتي اكثر لاننى عرفت الصيدلى  
ذا الاصل اليونانى الذى بدا لى انه فرح مثلى لكى  
يبادلنى الاحاديث كلما ذهبت الى الصيدلية . وعدت  
الى المحلة ومعى المفتاح الذى سلم الى واستمر فى جيبى  
واذا احرص عليه حرصى على تقودى فى خلال المدة من  
شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ .  
وكنت قد حرصت فى اثناء العودة على ان اشترى نسخا  
من جرائد بوستن وبخاصة جريدة « كريستيان سينس  
«ونيتز» وغيرها لكى اتصفحها واعيش فى دنياى  
الجديدة . وكما توقعت لم اجد احدا فى طريقى الى  
حجرتى ولم اسمع همسات او همهمات . كنت وحدى ،  
ويسدو ان مستر ديفيز واسرته كانوا وحدهم بشاركونى  
مبنى محطة نورفلك . ذلك المبنى الذى يتكون من مائة  
وثلاث من الحجرات بالاضافة الى « ملعب داخلى لكرة  
السلة » ، وقاعة كبيرة فى الدور الارضى من المبنى . وبينما  
كنت منهمكا فى قراءة الصحف فى حجرتى ، اذا بمستر  
ديفيز يدعونى الى الانتقال الى حجرة اخرى اصبحت  
حجرتى طوال الفترة التى مكثتها فى المحلة وهى نفس  
الفترة التى مكثتها فى مدينة بوستن . كانت واسعة  
بها سريران ومكتبة فضلا عن نافذة كبيرة ارى من خلالها  
شجرة تلعب باوراقها رياح الخريف . ومنذ اللحظة الاولى  
اصبحت هذه الشجرة صديقتى . كنت اراها على مدى  
العام واوراقها تسقط ثم يغطيها الجليد وهى عارية ،  
ثم بعد ذلك تورق وتخضر بدءا من شهر الربيع حتى  
فصل الخريف عندما تبدأ اوراقها فى السقوط مرة  
اخرى . كنت لاحظ ذلك فى دقة . وكانت هى اول

ما اراه عندما استيقظ . وكان بالحجرة ايضا دولا ب  
داخل الحائط كنت اضع فيه ملابسى . وبمرور الوقت بدا  
نزلاء المحلة من الطالبات والطلبة يفدون . كانوا جميعا  
من الاميركيين من بنات وابناء الولايات المتحدة . وكان  
منهم امريكى من كندا يدعى « جيمس اين » . كانوا فى  
الاغلب الاعم من المسيحيين ، وكانوا ذكورا واناثا . وكان  
معظمهم من الشباب . كما كان معظمهم من طلاب الجامعة  
وكنت ومعى احدهم ندرس للحصول على درجة  
الدكتوراه . واذا كانوا فى الاغلب الاعم من المسيحيين  
فقد كانوا يتبعون فى الغالب المذهب الكاثوليكي ، وقد  
وجد معى ، انا المسلم ، آنستان يهوديتان . كنا عشرين  
شخصا . عشر من الاناث وعشرة من الذكور . وانا اذكر  
يوم ان اكتمل الجمع انه طلب منا حضور اجتماع  
برئاسة مستر ديفيز فى المكان المخصص لنا لكى نستريح  
او لكى ندعو ضيوفنا فيه حيث يوجد مطبخ مجهز بكل  
الادوات على احدث طراز ، وحجرة خاصة بها جهاز  
« تليفزيون » وآلة « البيانو » . وفى الاجتماع كان  
المتحدث الوحيد مدير المحلة وكان حديثه لنا يتضمن  
حقوق كل واحد منا وواجباته . وكانت الواجبات ان  
نسهم فى ادارة المحلة عندما تستقبل اعضاءها من بنات  
وابناء الحي ، كل حسب مؤهلاته ومواهبه وخبراته .  
اما حقوقنا فهى البيت فى حجرة دون ان ندفع داتقا ،  
وان نستعمل المكان المخصص للراحة والمطبخ فضلا عن  
مشاهدة برامج التليفزيون او ممارسة اللعب على البيانو  
ان يستطيع فى اوقات الفراغ . اى الاوقات التى لا تؤدى  
فيها عملا تتصل بنشاطات المحلة فى خلال يومين فى  
الفترة المسائية حيث يبدأ النشاط فى الساعة السادسة  
مساء الى الساعة التاسعة مساء . اى اثنى على نظير

المبيت في حجرتي والاستمتاع بحقوقى ان اعطى من  
وقتى ست ساعات في المساء اسبوعيا واخترت يومى  
الاثنين والاربعاء من كل اسبوع لاؤدى عملى كأخصائى  
اجتماعى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة . وكنت  
الرائد لحدى الجماعات من الاولاد الزوج ، الذين  
يسكنون فى حى روكسبرى ، التى تلتحق بالمحلة لاول مرة  
وقد اختارنى مستر ديفيز لهذا العمل لاننى اولا مارست  
مهنة الخدمة الاجتماعية فى بلادى ليس فقط كمتخصص  
فى طريقة خدمة الجماعة بل وايضا فى طريقة خدمة  
الفرد فضلا عن البحث العلمى الاجتماعى . ولاننى ثانيا  
وهذا امر هام مواطن مصرى جئت من قارة افريقيا حيث  
لا توجد تفرقة عنصرية ويؤكد ذلك لون جلدى الاسمر .  
اى اننى فى نظره صالح لقيادة جماعة الاولاد الزوج شكلا  
وموضوعا . وبمرور الوقت ابتعد مستر ديفيز عنا وبرز  
فى محيطنا شخص آخر عين وكيله له هو « مستر  
دونالديونج » وكنا نختصر اسمه ونناديه بمجرد « مستر  
دن » « بضم الدال » . وكان مستر دن هذا متزوجا وله  
ولدان ويسكن فى ثلاث حجرات بجوار حجرتى . وكانت  
نشاطاتى مع جماعة الاولاد الزوج الذين سموا أنفسهم  
« ذا فيبرز » اى « الافاعى السود » تحت اشراف مستر  
دن . وكان لكل واحد من اعضاء الجماعة « جاكيت »  
سوداء اللون مكتوب عليها باللون الابيض اسم الجماعة .  
وقد سعدت بكل شىء صادفته فى هذه المحلة . المناخ  
الثقافى ووجود الصحة والمشاركة فى العمل الذى احبه  
واسعى الى تحقيقه الا وهو محاولة تكوين المواطن الصالح  
او محاولة اعادة تكون هذا المواطن . وكنت اقوم بهذه  
المهمة فى ذلك الحين لافى مصرنا الخالدة ولكن فى الولايات  
المتحدة الاميركية . وكان عزائى اننى اعمل بين الاولاد

الزئوج الذين يعتبرهم « البيض » بعامة وحتى في مدينة  
بوستن « مدينة الحرية والاحرار » حيث يجد الزائر  
لمجلس نواب هذه المدينة نصبا اقيم تخليدا للذكرى اول  
زنجنى صرعه الانجليز فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠ ،  
انصاف مواطنين . وانا لا اقول هذا الكلام جزافا فقد  
ذكر لى « جون جراى » الزنجى الوحيد الذى كان بيننا  
وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن ، انه  
لم ينجى الى محله نورفلك الا بعد ان دار فى شوارع  
بوستن وحاراتها اياما لكى يسكن مع زميل له « ابيض »  
ولم يجد مكانا يؤويه الا احدى الكنائس التى وجهته  
الى المحلة . كان اصحاب الشقق للايجار يرحبون بزميله  
الابيض ويرفضونه هو . وكانت صدمة عنيفة له لانه  
كان يعتقد ان مدينة بوستن وهى مدينة لها تاريخها  
وتعتبر مصدر الحرية والاحرار الذين فروا من أوروبا  
الى الارض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى  
كانت مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين ، لا يمكن ان  
يجد فيها لونا من ألوان التفرقة العنصرية . ولكنه  
عندما وجد أثر ان يكون واحدا منا فى المحلة لكى يستكمل  
تعليمه العالى ويبنى لنفسه مستقبلا افضل . كان النزلاء  
كما ذكرت خليطا من الشباب وغيرهم . وكانوا متباينين  
فى السمات وفى الثقافات ، ولكنهم فى المحلة على المستوى  
الظاهر ، او من حيث المبدأ ، كانوا يعتبرون آدميين .  
وماداموا يؤدون واجباتهم فلهم حقوقهم على السواء .  
استرحت نفسيا لوجودى فى محله نورفلك ، ولكنى  
كنت قلقا على مصير التحاقى بالجامعة لكى ادرس  
الدراسات العليا التى تؤهلنى للحصول على درجة  
الدكتوراه . وانا اذكر الآن عندما ذهبت الى الجامعة .  
كانت وجهتى الذهاب الى « جامعة بوستن » التى انشئت



فى عام ١٨٣٩ فاذا بى اجدنى امام « كلية بوستن » .  
 وهى كلية للخدمة الاجتماعية انشأتها الكنيسة الكاثوليكية  
 لتخرج اخصائيين اجتماعيين من الشباب الكاثوليك .  
 وعندما عرفت خطاى ذهبت الى « جامعة بوستن » ،  
 فاذا بى امام عميد كلية الخدمة الاجتماعية بالجامعة ،  
 وعلمت منه أن الكلية لا تمنح الا درجة « الماجستير » ،  
 وفى ضوء تاريخ حياتى الاكاديمية يرى أنه من الخير لى  
 ان التحق بكلية الآداب « قسم الاجتماع والانثروبولوجيا »  
 وقال ذلك كما اذكر وهو يقلب بعض الاوراق التى كانت  
 بين يديه والتى عرفت فيما بعد أنها كانت تتضمن  
 خيراتى الاكاديمية والعملية ، وذكر ايضا اننى اذا وافقت  
 على ذلك فانه سيحول اوراقى الى كلية الآداب وذكر اسم  
 « البروفسور البرت موريس » الذى كان يرأس قسم  
 الاجتماع والانثروبولوجيا فى ذلك الحين لكى اذهب اليه  
 ويحقق رغبتى وهى حصولى على درجة الدكتوراه لا فى  
 الخدمة الاجتماعية ولكن فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا  
 حسب التخصص الذى ارغب فيه . وعندما سمعت اسم  
 البروفسور البرت موريس ، وافقت العميد على تحويل  
 اوراقى الى قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بكلية الآداب  
 بجامعة برسن . وكنت قد قابلت البروفسور موريس فى  
 القاهرة فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ وكان فى طريقه  
 الى الولايات المتحدة آتيا من استراليا مرورا بنيوزيلاندا .  
 كنت فى ذلك الحين فى رئاسة مجلس الوزراء حيث اقوم  
 بمساعدة الصاغ مجدى حسنين مدير مكتب رئيس مجلس  
 الوزراء فى ذلك الحين . وكان البروفسور موريس ضيفا  
 على مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة الذى  
 كنت اديره فى خلال الفترة من اول ديسمبر عام ١٩٤٤

حتى اوائل شهر فبراير عام ١٩٥١ عندما سافرت الى لندن للمرة الثانية لكي استأنف دراساتي العالية . وقد رأى مدير المكتب الذى حل محلى ان يدعونى الى تناول طعام الغداء مع البروفسور موريس ، وكان قد اعدّه فى احدى حجرات المكتب . وكان يشاركنا فى تناول الطعام آخرون لا اذكر واحدا منهم وقت كتابة هذه السطور . ولما علم البروفسور موريس عن خبراتى فى ميدان علاج الجريمة وجناح الاحداث ابدى اهتمامه بشخصى الضعيف . وقد تحدثنا كثيرا فى موضوعات شتى عن اساليب العلاج والمشاكل التى يصادفها الاختصاصى الاجتماعى المصرى فى اثناء عمله فى هذا الميدان . كانت مقابلة عابرة ولكنها تركت اثرا فى نفسى ، ويبدو انها تركت اثرا ايضا فى نفس البروفسور موريس . ذلك لاننى عندما قابلته فى مكتبه بعد ان حدد موعدا لهذه المقابلة ذكر لى انه تذكرنى بمجرد ان اطالع على الاوراق التى تتضمن خبراتى الاكاديمية والعملية . وقد رحب بالتحاقى بقسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا الذى يرأسه على ان يكون تخصصى « علم الاجرام » الذى كان هو استاذّه ، وعلى ان ابدا الدراسة فى الموعد المحدد للحصول على درجة الماجستير ثم نترك موضوع درجة الدكتوراه قيد البحث والدراسة بعد حصولى على الدرجة الاولى . وقد ابلغته بأن المنحة التى حصلت عليها لمدة عام فقط وان املئ فى ان احقق هدفى . كان موضوعيا فى تعليقه على هذا . فهو لم يعد بشيء وترك الامر كله فى يدي . ذلك لان مد المنحة عاما آخر او اكثر يتوقف على جهودى وليس على جهود احد غيرى ، وسرعان مابدأ البروفسور موريس فى اعداد

كشف بالعلوم التي يجب على ان ادرسها في الفصل الدراسي الاول من العام ، وأوقات حضور المحاضرات آخذا في الاعتبار انني قد جئت من بلد درجة الحرارة فيه بالنسبة لدرجة حرارة مدينة بوستن مرتفعة . ورأيت اهتمام البروفسور موريس وهو يعد الكشف باختبار الاساتذة أيضا . فاللأحظ ان العلم الواحد قد يكون له اكثر من استاذ . وقد علمت انه على ان امتحن في موضوعات دراسية يكون عدد ساعات القائها في الاسبوع في اثناء فترة الدراسة ٣ ساعة . فآثرت ان يكون اختيار موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي الاول عن العام الاكاديمي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ على اساس ١٥ ساعة في الاسبوع ، ويكون اختيار الموضوعات في الفصل الدراسي الثاني من هذا العام على نفس الاساس ، على ان ابدا في القيام باجراء بحث عن موضوع « نظام الاختبار القضائي في مصر الحديثة » الذي كنت قد أعددت له العدة من قبل . وفي ضوء خبراتي وافق البروفسور على هذا البرنامج بعد ان قال لي محذرا وهو يتسم « انني لا ارجب في ان تكون عودتك الى بلادك في تابوت ! » وكانت موافقة البروفسور موريس على اجراء هذا البحث مشروطة بأن يكون تحت اشرافه على ان يعين استاذ آخر ليشاركة هذا الاشراف . ولم تسعني الدنيا عند الانتهاء من هذه المقابلة ، وتركت البروفسور موريس راضيا متفائلا وشاكرا . وبدأت اردد في سري ان الامر كله « يتوقف على جهودي وليس على جهود احد غيري » . وكانت موضوعات الفصل الدراسي الاول تشمل « جناح الاحداث » الذي كان مسئولا عن تدريسه الاستاذ « ايدوين بورز » ، و « المذنب الشاذ » الذي

كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « ج . ك . ستروب »  
وكان استاذاً زائراً جاء من الدانيمارك ، و « علم  
الاجرام » الذى كان مسئولاً عن تدريسه « البروفسور  
البرت موريس » ، و « الابنية الاجتماعية المقارنة »  
الذى كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « مسسات  
كلير دريك » ، و « مناهج البحث فى الزواج » الذى كان  
مسئولاً عن تدريسه « البروفسور ج . ت . جرين » ،  
ثم « طريقة خدمة الفرد ورعاية الطفل » الذى كانت  
مسئولة عن تدريسه « الدكتورة ن . دنبار » ويلاحظ  
القارىء ان الموضوع الاخير هو احدى طرق الخدمة  
الاجتماعية . وكنت احضر المحاضرات فيه فى كلية  
الخدمة الاجتماعية بالجامعة . وذلك لان « الخدمة  
الاجتماعية » مثلها مثل « علم الاجرام » جزء لا يتجزء  
من علم الاجتماع . فعلم الاجتماع كما كانت تراه جامعة  
بوستن فى ذلك الحين ينقسم من حيث التخصص الى  
اربعة ميادين هي :

- علم الاجتماع العام .
  - علم الاجتماع التطبيقى .
  - نظريات علم الاجتماع .
  - مناهج البحث فى علم الاجتماع .
- ومن ثم فقد كان اختياري لعلم الاجرام يعنى ان ميدان  
تخصصى هو علم الاجتماع التطبيقى . اما موضوعات  
الفصل الدراسى الثانى ، فقد كانت تشمل « حلقة بحث  
فى علم الاجرام » وكان المشرف عليها « البروفسور  
موريس » ، و « حلقة بحث فى النظريات الاجتماعية »  
وكان المشرف عليها « البروفسور ا . زالنجر » و«المجتمع  
والثقافة والشخصية » الذى كان مسئولاً عن تدريسه  
البروفسور زالنجر ايضاً ، و « المجتمعات الحضرية »

الذى كان مسئولاً عن تدريسه « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « مناعج البحث فى الزواج » الذى كان مسئولاً عن تدريسه البروفسور جرين .

واذا كانت ميادين علم الاجتماع كما كانت تراها جامعة بوستن فى ذلك الحين اربعة ميادين ، وان على عالم الاجتماع ان يستخدم قوانينه فى حل المشاكل الاجتماعية مثل البطالة والجرائم والفقر والامراض والتعصب العنصرى والامراض العقلية والحروب ، فان ذلك يرجع الى الاهتمام فى ذلك الحين بالقيام بدراسة تأثير العلم المادى على المجتمع وبالتعاون لا فى سبيل تقدم العلم المادى فحسب ، وانما فى سبيل توطيد السلام والحرية الفكرية بين الامم ، حتى يتسنى للعلم المادى ان يوالى تقدمه وانتشاره ، وان يضى خيرا به سخاء على النوع البشرى . ومن ثم فان الدعوة الى ان يستدعى ميدان الخدمة الاجتماعية تلازم البحث الاجتماعى والعمل الاجتماعى اصبحت فى هذا الضوء ضرورة . فقد كان يقال فى ذلك الحين انه ليس من المعقول ان ندع المجتمع يتهدم رغبة فى ان نهى لاحد الباحثين فرصة لدراسة عملية التهدم بهدوء وعدم اكتراث . ولذلك كان يدعو البروفسور « ويندل كيللاند » استاذ علم الاجتماع بالجامعة الاميريكية بالقاهرة ، اول من علمنى ا ب علم الاجتماع ، علماء الاجتماع الى ان يتشعروا بروح ملؤها العطف المتزايد مجهودات الاجتماعيين فى الميادين العملية ، والى استخدام علم الاجتماع فى حل المشاكل الاجتماعية بقصد القضاء عليها . ولم يكن من غير المتوقع ان لا يدعو البروفسور كيللاند هذه الدعوة فى ذلك الحين ، وذلك لان جامعات الولايات المتحدة ، ومنها جامعة بوستن ، كانت تدعو الى نفس هذه الدعوة . وقد اصبحت بمرور الزمن لعلم الاجتماع



كمفهوم انساني ليست فقط معاني عديدة بل أصبحت  
 له أيضا صور عديدة . فنحن نجد الآن « في الثمانينات »  
 علم الاجتماع التاريخي وعلم الاجتماع الصناعي وعلم  
 الاجتماع الطبي وعلم الاجتماع العائلي « الأسرة والزواج  
 والقرباة » وعلم الاجتماع المعرفي وعلم الاجتماع الريفي  
 وعلم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع السياسي مثلا  
 وبدأ اساتذة الخدمة الاجتماعية في مصر أسوة بغيرهم  
 في البلاد الأخرى بأن يقوموا بإجراء البحوث والدراسات  
 أنفسهم أو بأن يشرفوا عليها لكي يصنعوا دعائم « علم  
 الخدمة الاجتماعية كعلم مستقل كغيره من العلوم  
 الإنسانية ، أسوة بما حدث فعلا في علم الاجرام وعلم  
 جناح الأحداث وعلم العقاب .. الخ . ولعله ان يكون  
 لعلم الخدمة الاجتماعية المستقل في المستقبل القريب  
 أو البعيد صور مستقلة جديدة أسوة بعلم الاجتماع  
 مثل « علم خدمة الفرد » و « علم خدمة الجماعة »  
 و « علم تنمية المجتمع » .. الخ . ومهما يكن من الامر  
 فإننا نوصي القارئ كل ذلك بتحقيق هذا الطموح العلمي  
 لأننا نرى الآن لدى المسؤولين من الناحية الاجتماعية  
 في مصر الجهود المستمرة وذلك عن طريق « تحرير المنظمة  
 أي عن طريق نتائج البحوث الواقعية في المجتمع المصري  
 لذلك ونحارب بكل ما في وسعنا النظام القائم الذي يمارسه  
 ومن ثم القضاء على كل ما يهدد المجتمع من الفساد والخراب  
 وأننى أدعو الى ذلك فائسى أرجو أن يبدأ المسؤولون عن  
 الخدمة الاجتماعية في مصر بالاهتمام بتقييم طسوق  
 الخدمة الاجتماعية المهنية ، كما تطبق في مجتمعنا ،  
 تقييما علميا ، أي عن طريق البحوث الواقعية ، تمهيدا  
 لتقنينها وفقا لظروف مجتمعنا الثقافية الاجتماعية  
 والاقتصادية ، في الريف وفي الحضر وفي مجتمع

البداوة .

وقبل ان اوصل حديثى فانتى اود ان اؤكد هنا انه اذا كان المغفور له الشيخ محمود خطاب والسيدة الزا ثابت والاستاذ يعقوب فام والبروفسور جون لويس قد تركوا ، كاساتذة لى ، بصماتهم على شخصيتى ، كل فى حدود اختصاصه وفى حدود الاساليب التى اتبعها معى ، فان البروفسور البرت موريس هو ايضا كاستاذى قد ترك بصماته على شخصيتى . انه كان فى تخصصه كعالم اجتماع متخصص فى علم الاجرام موسوعة حية . وقد شهدت بذلك كتبه والجامعات العديدة التى كان يذهب اليها سنويا كاستاذ زائر فضلا عن آلاف الطالبات والطلبة الذين خرجوا من تحت عيادته . سواء كانوا من بنات وابناء الولايات المتحدة او من غيرهم . كان البروفسور موريس فضلا عن فيض علمه الفزير ابا وحيما لى . لم يكن وحده الاب الكريم الذى احتضننى وانا التائه الغريب فى محيط الحياة فى مدينة بوستن ، بل كانت السيدة الفاضلة زوجته « دوروثى » الام السكريمة الرحيمة التى كانت تستقبلنى ، عندما كان يدعونى البروفسور موريس الى تناول طعام الفداء او طعام العشاء فى بيتها ، وكأنتى احد ابنائها . اننى بكل الصدق والامانة وانا الان اكتب هذه السطور فى الوقت الذى كدت ان ابلغ سن السبعين من عمري ، اذكر بالحب والاحترام هذا الرجل . انه كان يقول لى دائما عندما اشكره على شىء كريم بذله من اجلى « لا تشكرنى ياسيد انت تستحق كل الرأى التشجيع التى اسديها اليك كما يسديها اليك اساتذتك الآخرون . لانك طالب جاد ومجد ولانك شخص مهذب ولانك صديق » . كنت احس وانا معه فى المكتب او فى العربة بجواره وهو

يسوقها أو في بيته بالسعادة الحققة تغمرنى . فقد كان مصدرا للحب ومصدرا للاحترام ومصدرا للعلم والمعرفة كان وأنا جالس معه يشع كل ذلك ، وكنت أتذوق كل ذلك بنهم المحروم الذى يعيش مقتربا في بلاد الغربية . وكان البروفسور موريس رجلا كريما حقا . ولا يرضى على الآخرين بشيء يملكه ، معنويا كان أو ماديا ، إذا كان السائل في حاجة إليه . واقصد بالشئ المادى هنا المراجع النادرة التى لا تجدها الا في مكتبته . فلم يكن يعطى نقودا لاحد مثلا . ولكنه اذا عرف ان شخصا في حاجة الى مال ويستحق ذلك فانه يسعى جهده لكى يجد العمل الذى يدر عليه هذا المال . انظر اليه وهو يحاضر الطالبات والطلبة . تجده لا يحاضر فقط في علم الاجرام ولكن يضيف الكثير من خبراته التى استقناها من المجتمعات التى زارها وهى عديدة منها المجتمعات المحلية « كاليفورنيا ونيوميكسيكو وكولومبيا مثلا » او المجتمعات الاجنبية « ملبورن باستراليا ونيوزيلاندا ومصر والدانيمارك مثلا » . وكان أسلوب ألقائه واضحا سلسا عذبا . كنت وأنا الاجنبى في الفترة الاولى من حياتى في جامعة بوستن افهم كل ماكان يقبوله في المحاضرة ، على عكس الاساتذة الآخرين فكنت افهم من بعضهم ٥٠٪ مما كانوا يقولون ومن بعضهم الآخر ٧٠٪ مما كانوا يقولون . وخبراته في صميم علم الاجرام كانت عديدة وعميقة . فقد كان رئيس اللجنة التى كانت تخطط من اجل وضع برنامج خاص للشباب في مدينه بوستن ، وكان مستشارا للجنة المتفرعة من « اللجنة التشريعية لمجلس الشيوخ الامريكى » عندما كانت تبحث مشكلة جناح الاحداث ، وكان عضوا في مجلس ادارة « الجمعية المتحدة للسجون في ولاية ماساتشوست » ،

وكان عضوا في مجلس إدارة « المنظمة الاميركية لالغاء الحكم بالاعدام » ، وكان عضوا في « جمعية علم الاجتماع الاميركية » ، وكان عضوا في « الجمعية الشرفية لعلم الاجتماع » ، وكان عضوا في « الاكاديمية الاميركية لعلم الاجتماع السياسى » ، وكان عضوا في « المؤتمر الاميركى للعقاب » . وقد مثل البروفسور موريس لسنوات العديد من الهيئات والمنظمات وكان فيها على سبيل المثال لا الحصر « جمعية علم الاجتماع الاميركية » و « منظمة السجون الاميركية » . وكم حاولت عندما عدت الى القاهرة الحبيبة أن تدعوه ادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عندما كان لا يزال « المعهد القومى للبحوث الجنائية » وكنت قد عينت فيه خبرا مساعدا ، وبخاصة في بدء حياة هذا المعهد لكي يمنحها هذا الاستاذ الكبير بعض خبراته ولكن جهودى في هذا الصدد مع الاسف الشديد ذهبت سدى . ان هدفى في ذلك الحين من مجيء رجل مثل البروفسور موريس وبخاصة في التوقيت الذى كنت قد ناديت بدعوته ، كما لا يخفى على القارىء ، ان نبدا عملنا على أسس سليمة وبخاصة فقد كانت مهنة البحث العلمى الاجتماعى بعامة والبحث العلمى الجنائى بخاصة مازالت في اول عهدها في المجتمع المصرى في ذلك الحين ، اقصد عند اكثر من خمسة وعشرين عاما عند كتابة هذه السطور .

وفى خلال شهر ابريل عام ١٩٥٤ ، فى الاسبوع الاخير منه ، بعد ان اديت امتحانات الموضوعات الدراسية للفصل الدراسى الثانى تمت الموافقة على البحث الذى قدمته عن موضوع « الاختبار القضائى فى مصر الحديثة » وفى يوم ٦ من شهر يونيو عام ١٩٥٤ ، منحت درجة

الماجستير . ولما كانت الدرجات التي حصلت عليها في الموضوعات الدراسية للفصل الاول والفصل الثاني درجات مرتفعة ، فقد حصلت على الدرجات النهائية في سبع موضوعات من احد عشر موضوعا ، فان البروفسور موريس قام بجهد كبير من اجل مد المنحة الدراسية سنة اخرى . كتب من اجل تحقيق هذا الهدف « الكبير » تقريرا لم ار مضمونه الى « ادارة التربية الدولية » التي كانت تشرف على علميا في اثناء وجودي في الولايات المتحدة ، وقد ضمن هذا التقرير خبر حصولي على « الدبلوم العالي للتربية : جامعة لندن » الذي جاءني عنه خطاب رسمي من جامعة لندن قبل ذلك ، وعلم به البروفسور موريس في حينه . وكانت النتيجة ان وافقت الادارة « على مد المنحة لمدة عام آخر . وكان حصولي على درجة الماجستير قد اسعدني حقا ، وبدأ الامل يداعبنى في الحصول على درجة الدكتوراه . لم اكن اعلم متى سيحدث ذلك . ولكن كما قال لي البروفسور موريس ذات مرة ان الامر كله « يتوقف على جهودى وليس على جهود احد غيرى » . وجاء يوم التخرج والجامعة تحتفل بهذا اليوم احتفالا كبيرا . كان كل الخريجات والخريجين مع ذويهم وضيوف الجامعة يحضرون هذا الاحتفال المهيّب . وكان على ان استاجر « روبا » من الجامعة لكي البسه وانا اتسلم الشهادة الدالة على حصولي على الدرجة الممنوحة لي . وكان كل خريج عندما ينادى على اسمه ويعطى هذه الشهادة يرفعها بيده لكي يراها الحاضرون ومنهم من بالضرورة أعضاء أسرته . واتنى اذكر انه قد نودى على اسمى وتسلمت الشهادة ورفعتها بيدي لكي يراها الحاضرون الذين بسبب الدموع التي غطت عيني لم



ار امامى منهم احدا . كنت الوح بالشهادة كما كان  
يفعل غيرى فحسب . ولم اكن ادري اذا كانت دموعى  
دموع فرح وانتصار او دموع حزن واسى . فقد كنت فى  
هذا الاحتفال ، على الرغم من جموع الادميين الذين كانوا  
حولى ، وحدى . لم يكن اعضاء اسرتى الصغيرة بينهم .  
لم يرئى واحد منهم . ان من رآنى لم يكن يمتون لى بصلة  
قرايية . كانوا من البشر مافى ذلك من شك . وربما فرح  
بعضهم من اجل حصولى على الدرجة فرحا صادقا .  
وربما لم يفرح احد . ولكننى كنت متاكدا عندما يعلم  
اعضاء اسرتى الصغيرة اذا ما نقلت اليهم عن طسريق  
خطاب خبر نجاحى انهم سيفرحون حقاً وصادقا .

وكان امامى شهر ثلاثة اعيشها خارج الجامعة حتى  
بدا الدراسة فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٤ . وفوجئت  
بان زميلائى وزملائى بالمحلة قد غادروها الى اسرهم .  
وبقيت مع الشاب الكندى الذى آثر البقاء فى المحلة .  
وقد توطدت الصلة بيننا . فقد كنا نتحدث سويا وناكل  
سويا ونقرأ الجرائد سويا . ونذهب الى دار السينما  
« احيانا » سويا . ومع ذلك فان معظم الوقت كنت  
وحدى . وكنت فى الليل ابقى ساهرا اذكر الماضى  
القريب عندما بدأت الحياة فى محلة نورفلك وقابلنى مستر  
ديفيز مديرها . تذكرت الجماعة التى كنت اشرف  
عليها ، اقصد « جماعة الفيبرز » الشبان الزنوج . كيف  
بدأت معهم وكيف كان رد الفعل عندما علموا باننى ساكون  
المشرف عليهم كاعضاء فى المحلة . كنت لا املك لهم ،  
وانا لا املك غير ذلك ، الا الحب والاحترام . كانوا فى  
اول الامر لا يثقون فى الثقة التى ابقياها منهم لكى  
اقيدهم بخبرائى وافيد بخبرائهم . كانت اللفسة ن

اول الامر عائقا بينى وبينهم ، فقد كانوا يتحدثون اللغة « الاميريكية » بأسلوب الرجل العادى غير المثقف ، وكانوا اذ يتحدثون معى او مع بعضهم البعض ، يتحدثون بسرعة . وكنت عندما اتحدث اليهم وكانت لغتى هى اللغة الفصحى يسخرون من لغتى ويداهبوننى . كنسا تتقابل يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة مساء . وكنت اسبق حضورهم ، اذ كانوا يتلکاون فى الحضور ويتأخرون عن المواعيد المحددة . وكنت اجلس انتظر مؤمنا بان حبنى لهم واحترامى سيشعرون بهما حتما فى يوم من الايام . وفى احدى الليالى فى اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ انتظرت جماعة الفيرز ، ولكن لم يحضر احد . ومر الوقت فاذا بالساعة تشير الى الساعة والنصف مساء . فحزمت امرى على ان اذهب اليهم ، فقد كنت اعلم ان المدارس فى حى روكسبرى تفتح ابوابها للشباب مساء لكى يقضوا اوقات فراغهم كلما عن لهم ذلك . لم يكن هناك اشراف مهنى فى هذه المدارس على من يحضر من شباب الحى او من غيرهم من الشباب . وذكرت لمستر « دن يونج » ما عزمتم عليه فلم يقف فى سبيلى وترك الامر لى . وذهبت فى شوارع حى روكسبرى التمس المدارس التى تقع فيه ، وكان البرد قارسا حقا ، وسرعان ما وجدت اعضاء جماعة الفيرز فى احد الملاعب فى احدى المدارس . رايتهم وما ان راونى حتى سارعوا الى استقبالى وطلبت منهم الذهاب معى الى محلة نورفلك ، فقد انتظرت طويلا ولم يحضر احد . وابلغتهم فى حب واحترام ان هذه المحلة قد اتاحت لهم الفرصة كي ينشطوا ماشاء لهم من النشاط المشروع فى حدود الوقت المحدود . ورايتهم يحيطون بى ويتبعوننى ، وذهبا

الى المحلة ودخلنا من الباب الى الحجرة المخصصة لنا حيث تعهد الجميع على عدم التأخير في يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع في خلال الفترة المسائية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة . وقد وفوا بوعدهم منذ ذلك الحين الى ان تركت المحلة بعد ان اديت مهمتى الدراسية بحصولي على درجة الدكتوراه في شهر مايو عام ١٩٥٦ . لقد ايقنت منذ تلك الليلة في اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ باننى كسرت « لوح الثلج » الذى كان يقف عائقا بينى وبين جماعة الفيرز . وقد تاكد ذلك عندما تبرعوا لى يشتروا لى « هدية » بمناسبة « عيد الكريسماس » ، وعندما دعوتى لحضور كنيستهم صباح يوم احدى من الاحاد ، وعندما دعائى رئيسهم الى طعام الغداء فى بيتهم المجاور للمحلة . وعندما كنا نتبادل الزيارات العديدة بعد ذلك ، هم يأتون عندي فى المحلة وانا اذهب الى بيوتهم . وتوطدت صداقتى الخالصة بهم وبأعضاء أسرهم . ولن انسى ما حييت زيارتى لبيت عضوين منهما وهما « بنى » و « دى » . كان البيت فى احدى حواري حي روكسبرى الفقيرة جدا ، واذا بى وانا فى الشقة اجدها نظيفة جدا واثاثها يتضمن « البيانو » و « المكتبة » التى تتكسد فيها الكتب والمجلات من كل نوع . ولن انسى الرجل الزوجى كبير السن الذى قابلته فى احد الممرات ، كان الجد الكبير ، ويبدو انه كان فى الثمانين من عمره ، للعضوين المذكورين . وقد كان هذا الرجل الهرم لطيفا معى واجتنبى بى ، فانا قد جئت من قارة افريقيا ، احتفاء كبيرا . وتحدثت معى كثيرا وكان يقول لى فى يقين « يا بنى لا تثق ابدا فى الرجل الابيض ولا تذهب الى دار سينما ولا الى مطعم وتجنب الرجل الابيض » . وانا اذكر الآن اننى عندما ابلغت مستر « دن يونج » عن

اول دعوة الى زيارة بيت من بيوت أعضاء الجماعة ،  
شجعنى على الذهاب . فلولم ير فى حياته بيت زنجى  
من الداخل واذا اضطر الى الذهاب الى بيت احدهم  
فان اهل البيت لا يسمحون له بالدخول ويتعمدون ان  
يبنى واقفا امام البيت حتى يقضى حاجته . ان مستر  
دون يونج اعتبر هذه الدعوة الاولى لى نجاحا ساحقا لى  
فقد تأكد من توطيد الثقة بينى وبين أعضاء الجماعة .  
وانا اذا ذكرت « بنى وديى » فأننى لايمكن ان أنسى ذكر  
« البرنى ومنك واريك » . كان عدد أعضاء الجماعة  
خمس عشرة شابا من سن الخامسة عشرة الى سن  
العشرين . وكانت مواهبهم شتى . كانوا يغنون وكانوا  
يرقصون وكانوا يتقنون لعبة كرة السلة . وكانوا فى كل  
هذه النشاطات وغيرها موضع حسد باقى أعضاء المحلة .  
واعتبرونى اخا كبيرا لهم ، وكان بعضهم يعتبرنى ابا .  
وكان عندى يوم الاثنين مساء ويوم الاربعاء مساء من  
اسبعد الايام التى قضيتها لا فى محلة نورفلك فحسب بل  
فى الولايات المتحدة الاميركية كلها . كنت انتظر هذين  
اليومين . فقد كانا لى بمثابة العلاج لما كنت أعانى من  
ألوان الاغتراب فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه فى ذلك  
الحين . كنت اشعر بأنهم اقرب للناس الى وائنى من  
اقرب الناس اليهم . كان بعضهم من السمر ، وكان  
بعضهم من السود ، وكان من بينهم شاب ملامح وجهه  
كلها ملامح وجه اى شخص اسود وكان شعره « اكرت »  
ولكنه كان ابيض ذا شعر احمر . وقد قبله أعضاء  
الجماعة على انه زنجى لانه كان من المحال ان يقبله الاعضاء  
البيض على انه ابيض مثلهم . كان هذا الشاب قريبا الى  
نفسى لاننى كنت أحس بكل ماكان يشعر به ، ولعلنى  
ان نجحت فى تفسير اشتراكه مع أعضاء جماعة الفبيرز

فى كل نشاطاتهم . كان هذا الشاب يتسول الاعتراف  
 به بل كان يتسول الحنان والحب من الآخرين . تماما  
 كما كنت افعل . فانا فى حجرتى اذا دخل على واحد  
 من النزلاء زملائى كنت ابادر بان اقدم له كل ما عندى  
 من فاكهة او حلوى او .. او . كان هؤلاء الزملاء  
 يعرفون ذلك عنى فيتناوبون الدخول الى حجرتى لكن  
 يأخذوا دون ان يعطوا ، وكنت اعلم ذلك علم اليقين  
 ولكنى كنت راضيا عن تصرفى كل الرضا . ذلك لان  
 حضور احدهم عنى وجود انيس لى كما يعنى الاعتراف  
 بوجودى ، ويعنى كذلك كسر حدة الاغتراب الذى كنت  
 اعانيه . كل ذلك نظير ثمن بخص : برقالة مثلا او  
 تفاحة مثلا او قطعة من الشيكولاته مثلا . وكان الاطفال  
 يسارعون الى لى يفعلوا ما كان يفعله الكبار ، كانوا  
 لا يكفيهم ما امدهم به من حاجات عينية ولكنهم كانوا  
 يطلبون نقودا لا تعدو بضعة السنتات . وعندما يخرج  
 احدهم من الحجرة ومعه « نيكل » « ماياوزى خمسة  
 سنتات » مثلا يذهب توا الى امه او الى ابيه او الى اخته  
 او الى اخيه ليرى من يذهب اليه كيف نجح فى « نشل »  
 هذا المبلغ منى ! ولكنى كنت سعيدا بكل ذلك فقد كان  
 هؤلاء الاطفال يدكرونى باطفالى عندما كانوا فى مشيل  
 سننى ، وكانوا يملأون كيانى بالسعادة الحقة . فانا كنت  
 نفسا فى حاجة الى حضورهم كما كنت ايضا فى حاجة  
 الى حضور آبائهم او حضور النزلاء الشبان زملائى .  
 اننى كنت كما ذكرت اتسول الاعتراف بى واتسول  
 الحنان والحب من الآخرين نظير ثمن بخص . ولم تمنع  
 نشاطاتى فى المحلة وزيارات ضيوفى من النزلاء والاطفال  
 من استذكار دروسى فى المواعيد المقررة . بل علم العكس  
 لقد كانت عوننا على ذلك . كما كانت فرصة رائعة لاغوص



في بعض الالوان من الظواهر الاجتماعية والروابط  
الانسانية وانماط السلوك البشري ، ومن ثم تزداد  
خبرتي بالانسان مما يسر لي ان اعلم اكثر لكي افهم  
اكثر ومن ثم استطيع ان اعلم اكثر . اليس من تعلم  
عليه ان يعلم ؟ وانا قد نذرت نفسي لذلك سواء كنت في  
الولايات المتحدة الاميركية او في مصرنا الخالدة . وكان  
ما اسعدني ان ارى مصريا ، واني اذكر انني رايت احد  
المواطنين الذين يدرسون للحصول على درجة الدكتوراه  
في اللاهوت . وكان وحيدا مثلي . فدعوته الى تناول  
الطعام العشاء في احد المطاعم التي يديرها بعض  
اللبنانيين وهم كثير في مدينة بوستن لكي تأكل بعض  
اصناف الطعام التي تعودنا عليها في وطننا العزيز مثل  
« المحشى » و « الكباب » و « الكسكسي » . الخ .  
وذهبنا وكان البرد قارسا ، ولكن حرارة اللقاء بددت  
برودة الجو . وتناولنا الطعام ، وكان طعام العشاء ،  
وحمدنا الله جل وعلا . ثم آثرنا ان نسير على الاقدام  
في الشارع على الرغم من البرودة القاسية . كانت  
المشاعر الحميدة تغمرني وتسعدني في نفس الوقت ،  
ولم اكن آبه الا انني في صحبة مواطن مكث معي بضع  
ساعات . وفي اثناء الطريق قابل المواطن احد القساوسة  
الاميركيين سائرا ايضا في الشارع ذاهبا الى الجهة  
المضادة ، فسلما بحرارة وتبادلا التحيات الطيبات وانا  
واقف بجوار مواطني وانا صامت حتى يقدمني الى  
صديقه . وقدمني اليه ومد الرجل يده وسرعان  
ما سحبها اذ سمع مواطني قوله انني فلان ادرس للحصول  
على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ، واني مسلم .  
ورأيت الرجل يمد يده للمصافحة فمدت يدي ولكن  
المصافحة لم تتم عندما سمع كلمة « مسلم » . وسرعان

ما احسست بحيات العرق تسيل من وجهي شجلا على الرغم من برودة الجو واكفهراره . واحسست بان حبات العرق قد تجمدت على وجهي . ثم سرنا الى مقصدنا ، الى سرت ومواطني الى حيث نسكن . كان يسكن بعيدا عني ، وكنت اقرب الى بيتي منه الى بيتي . وعندما عابته على أسلوب تقديمي الى هذا الرجل المتعصب اعتذر في حرارة ، وقبلت اعتذاره وانا ساخط . وسرت في طريقي وانا امارس كوني عضوا من اعضاء جماعات الاقلية في المجتمع الذي اعيش فيه . والتمست العذر لامضاء جماعات الاقلية في المجتمع المصري ، وبخاصة جماعة الاقباط على الرغم من سيادة قيمة التسامح في ربوع هذا المجتمع .

واذا كانت الحياة فيها الشر ويتمثل في البغض والكراهية والتعصب مثلا ، فان فيها ايضا الخير ويتمثل في المحبة والبلاء مثلا . وانا اذكر ذلك فالقارئ يعلم الان ما كان من امر استاذي البروفسور البرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه الكثير ، وهو يعلم ايضا ما اخاطني زملائي في المحلة في ضوء ثقافتهم من رعاية واهتمام وتشجيع . وحتى الزميلات كن في الغالب اكثر من زميلات ، وكن يحاولن وبخاصة في عطلة نهاية الاسبوع اقناعي واخرين من الشبان لنذهب الى احد محلات « هوارد جونسون » المشهورة لكي نتعاطى طعاما او شرابا . وكان يدفع كل واحد منا ثمن ما يتناوله . وكانت وسيلة الانتقال احدى السيارات التي يملكها احدهم او تملكها احدها . وانا اذكر انني ذهبت في اثناء احدى العطلات الى « ولاية فيرمونت » التي تلامس حدودها حدود « كندا » . واني اذكر ايضا اننا وصلنا الى هدفنا بعد اكثر من ست ساعات وسرنا في خلالها في حقول من التفاح التي

تركها اصحابها ثمر دون ان يجمعوا المحصول حتى لا يزيد العرض من التفاح في السوق فينقص الثمن . وكنا نأخذ من ثمرات التفاح « الطازجة » مانريد ولا رقيب ولا حسيب . ولا يمكن الا ان اذكر احد الزملاء من نزلاء محلة نورفلك الذي دعاني لقضاء عطلة « عيدالكريسماس » في منزله . وقد رحبت بي السيدة زوجته وابنته « ميكي » وكان في العاشرة من عمره وابنته « مارثا » وكانت في الثامنة من عمرها . رحبوا بي جميعا ، ونمت في احدى الحجرات وقضينا وقتا طيبا في البيت وفي خارج البيت . وقد ذكرت لي احدى الانسات المصريات التي قابلتها في الجامعة ان المشرفة على احدى الجمعيات والتي كانت تدير دارا للضيافة ينزل فيه من يحب نظير تادية بعض الخدمات ، سسمعت عن وجودي وتطلب مقابلتي . كانت « مس وليامز » وقد بدت لي عندما رايتها انها في الستين من عمرها ولكنها كانت في صحة جيدة جدا . وتحدثت اليها تليفونيا وسرعان ما دعنتني الى زيارتها . وزرتها فعلا وكانت كريمة في كل حركاتها وسكناتها وحديثها . واثني اذكر انني تناولت مع طالبة يابانية معها طعام العشاء ، فكانت - على الرغم من انها لم تسعد بممارسة الامومة - اما لنا . واتصلت علاقتي بهذه الانسانة وتكررت زياراتي لها . وقد اصرت على دعوتي الى مصيف « روك بورت » بعد حصولي على درجة الماجستير لقضاء اسبوع للاستجمام . وهذا المصيف عبارة عن مدينة صغيرة تقع على المحيط الاطلنطي وقد ذهبت فعلا الى المصيف ، وكنت ضيفا عليها طوال الفترة التي قضيتها في هذا المصيف ، وعندما قابلت « دكتور موريس ساندروز » الذي كان « ملحقا صحيا » في سفارة الولايات المتحدة بمدينة بيروت . وبدا لي منه

اول وهلة ان هذا المصيف مصيف كبار القوم . وتأكد  
لى حدسى بان عائلة « فوستر دلاس » لها بيت فيه ،  
وغيرها من الاسر ذات المكانات العالية سواء كانت هذه  
المكانات سياسية او اقتصادية او ثقافية لها بيوت فيه .  
وكان للدكتور ساندروز بيت كبير مزود بالاثاث الفاخر  
الذى يملأ الحجرات العديدة فيه . وفى روك بورت  
قابلت الكاتب المعروف « شارد بورز سميث » ، وهو  
مثل الكثيرين الذين يسكنون فى المصيف « يانسكى »  
مائة فى المائة تماما مثل دكتور ساندروز . ويكفى ان اقول  
هنا ان هذا الكاتب شاعر ومؤرخ ويكتب الرواية . وقد  
يخالفنى الرجل عندما ذكرت انه ياتكى مائة فى المائة .  
لانه يرى ان ٤/٣ سلالاته تتكون من سلالة « انجلترا  
الجديدة » اما الربع الاخير فمن سلالة هاجرت من  
انجلترا فى القرن التاسع عشر . والمعروف ان انجلترا  
الجديدة هى معقل كل « يانكى » فى الولايات المتحدة .  
كان هذا الرجل ضيفا مثلى فى صيف عام ١٩٥٤ على  
مائدة احدى السيدات الاميريكيات الثريات جدا التى  
كانت تستاجر الانسات « الاسكاندينيفيات » للعمل فى  
بيتها الفخم بأجر نقدى لا يقل عن ثلثمائة دولار شهريا  
اى بأجر يماثل ماكان يحصل عليه اخصائى اجتماع  
حائز على درجة الماجستير فى ذلك الحين . ولا يجب  
الاجر النقدى المشار اليه ان تحصل الأنسة العاملة على  
طعامها وملبسها وماشابه ذلك مجانا . اى ان الواحدة  
منهن كانت تحصل على ضعف ما حصل عليه من نقود  
المنحة الدراسية اثنى كنت ارسل منها الى أسرته  
الصغيرة ماييسر لاعضائها مواجهة ظروف الحياة . كان  
وجردى فى محلة نورفلك قد وفر على اجر المكان الذى  
كان يجب ان ابيت فيه . ولم يكن يقل هذا الاجر فى

ذلك الحين عن ٦٠ او ٧٠ دولارا شهريا . هذا اذا كان المكان متواضعا وليس عاديا . اى الذى قد لا توجد فيه مياه ساخنة او اجهزة للتدفئة مركزية او غير مركزية . وانا اذكر ان علاقتى بالمحلة والمشرفين عليها ونزيلاتها ونزلاتها كانت اكثر عمقا من علاقتى باساتلتى فى الجامعة ماعدا البروفسور موريس . كنت احترم هؤلاء الاساتذة نعم ، ولكنى فى السنة الاولى لم استطع ان اكون عنهم رايًا موضوعيا . ومهما يكن من الامر فان خبراتى عن المجتمع الذى كنت اعيش فيه فى خلال العام الدراسى الاول كانت مبتورة . فقد كنت كالطفل الذى تاه من ريسلك الطريق وحده وكأنه ضائع احيانا او شبه ضائع احيانا اخرى . ولكن العام مر مر الكرام ولم اشعر بالايام وهى تجرى وتمر مر السحاب . لقد افدت خبرات منتظمة وخبرات غير منتظمة فى خلال ذلك العام مافى ذلك من شك . وقد يسرت لى هذه الخبرات بنوعها استقبال العام الثانى استقبال الشخص الواثق بنفسه لا الشخص الحائر المتردد مافى ذلك من شك ايضا . وعلى الرقم من كل ماكان يواجهنى من مهام فقد كنت اتابع ماكان يجرى من احداث سياسية فى الولايات المتحدة وفى العالم وبخاصة فى مصرنا الغالية . كنت اقرا الصحف السيارة والمجلات ، وكنت اسمع للاذاعة ولكنى لم اكن اناقش احدا فى الامور السياسية . فقد عرفت من التجربة ان نوع هذه المناقشة على الرغم مما يقال عن حرية الراى فى المجتمع الامريكى من غير المرغوب فيه . وان مجرد نطق كلمة « شيوعية » او كلمة « اشتراكية » كان يعتبر طامة كبرى . ومع ذلك فقد كنت اجد فى الحجرة التى نستقبل نحن نزلاء محبة نورفلك ضيوفنا كتبًا عن نكبة هيروشيما ونجسازاكر



ملقاة على الكراسي ولا يعرف احد من الذي القها .  
انها وضعت لتقرأ . وفد وجدت يوما كتابا بعنوان  
« الحرية الاميريكية وقوة الكاثوليك : طبعة عام ١٩٤٩  
لؤلئنه » بول بلانشارد » ، وهو كتاب ينمى على هسله  
القوة التى تزداد يوما بعد يوم فى العالم . ويعتبر مدينة  
« روما » معقل الكاثوليكية مثل مدينة « موسكو » معقل  
الشيوعية . اى ان المدينتين فى الاهداف سواء . وفى  
خلال شهر مارس عام ١٩٥٤ جاء فى الاخبار خبر الازمة  
التى حدثت فى مصر فى ذلك الوقت . تلك الازمة التى  
كانت متوقعة وبرزت الى حيز الوجود فى ذلك الحين  
وكانت بين الرئيس محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة ،  
وفى نفس هذا الشهر وقع الاعتداء المشين على الفقه  
العالم الدكتور السنهورى ، وقام الاضراب العام الذى  
دبره عمال النقل فى مصر وانتهى هذا الاضراب فى يوم  
٣٠ من شهر مارس عام ١٩٥٤ ، وانتهى الامر فى يوم  
٢٦ من شهر اكتوبر ، من نفس العام ، الى حادث محاولة  
اغتيال عبد الناصر ، الذى امكنه بعد تصفية حركة  
الاخوان المسلمين وتتابع القوى السياسية المضادة من  
قبل ، ان يجعل السلطة الشرعية والفعليّة فى يده ،  
وبخاصة بعد ان فقد الرئيس محمد نجيب مبرر بقائه فى  
رئاسة الجمهورية فى يوم ١٤ من شهر نوفمبر عام  
١٩٥٤ ، لقد علمت بكل ذلك وغيره فى خلال عام  
١٩٥٤ وانا فى مدينة بومستن . فقد كنت اتابع الاخبار  
اولا بأول ، وتحققت نبوءة الدكتور « دريك » الذى كان  
يحاضرنا فى موضوع « الابنية الاجتماعية المقارنة » حيث  
كان يقول ان فى الثورات يأكل القائمون بها عادة بعضهم  
المعض وان ثورة عام ١٩٥٢ المصرية ليست استثناء  
ولن تكون . كان دكتور دريك يقول ذلك وهو يوجه بصره

الى امام الطالبات والطلبة الذين يحضرون المحاضرة . ولن  
انسى وساذكر دائما . وقع سقوط قلعة « ديان بيان فو »  
فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ ، وهى التى حاصرها  
الفيتناميون الاحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قيادة  
الولايات المتحدة السياسيين وغيرهم عندما استمعت  
الى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة ، كان رثاء  
« ندانة » مصرية ، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا ،  
وقد دهشت لان هذه القلعة تقع فى الشمال الغربى من  
« اقليم فيتنام » ، وان الذين هزموا كانوا من جنود  
وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط  
جيش الولايات المتحدة . ولكنه الغرب ومصالح الغرب  
ومستقبل الغرب ، كلها ، هى التى دفعت هذا المذيع  
المكلوم الحزين ان يثث مرثاته على بنات وابناء الشعب  
الاميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ .  
وبعد ان استمعت الى هذا الرثاء تذكرت « مسستر  
وسمز بريموكوم » وضيوفهما من النزيلات والنزلاء ،  
وكان بينهم غيرى اجانب آخرون ، وكان من بين هؤلاء  
التي كانت تسكن فى لندن ، وكانوا يتحدثون الفرنسية ،  
شبابان من فيتنام . وقد جاء معظمهم عند هذه الاسرة  
لكى يتدربوا على الحديث باللغة الانجليزية ، تذكرت  
حياتى فى حضانة هذه الاسرة فى خلال عام ١٩٤٨ عندما  
ذهبت الى مدينة لندن لاول مرة ، وتذكرت الشباب  
الفيتناميين بعد ان تم انتصار الاحرار من مواطنيهم على  
الاستعمار الغادر . وقلت فى نفسى لعلهما كانا ضسمن  
المحاربين او لعل واحدا منهما كان ورجوت من صميم  
فؤادى ان يكونا قد خرجا اذا كانا قد حاربوا بعد الانتصار  
سالمين . واذا كان الانتصار يولد الانتصار مثل العنف  
يولد العنف ، فقد طالعتنا الصحف فى خلال شهر مايو

عام ١٩٥٤ بظهور اكتشاف « مركب الشمس » فى مصرنا  
العزيزة بالقرب من الهرم الاكبر ، هرم خوفو ، لقد  
دوى هذا الخبر فى الولايات المتحدة بل فى العالم دويا  
مفرحا . اكد عظمة بلادى ، كما اكد قدمها وتخلودها .  
لقد كان هذا الاكتشاف يرجع الى حوالى ٢٦٥٠ ق.م  
الى مايزيد على ٤٦ قرنا من الزمان . والمعروف ان  
مصرنا الخالدة قد عرفت عقيدة عبادة الشمس منذ فجر  
تاريخها ، وكان القدماء يفسرون سير الشمس من الشرق  
الى الغرب بان الاله « رع » كان ينتقل فى مركبه عبر  
السماء حتى يصل الى الغرب ثم يقطع بها العالم الاخر  
فى اثناء ساعات الليل لتولد الشمس من جديد فى  
صباح اليوم التالى . واذا اعتبرنا ان المركب التى  
اكتشفت هى مركب الملك خوفو او احدى مراكبه ، حيث  
ان المصريين القدامى قد ذكروا فى نصوص الاهرام اسماء  
اكثر من خمس مراكب كان الملك يحتاج اليها فى حياته  
الاخرى : واحدة منها لرحلة الشمس فى اثناء النهار ،  
وثانية لرحلة الليل ، اما المراكب الاخرى فكانت لنزهاته  
فى نيل العالم الاخر او ليركبها فى اثناء عبوره لبعض  
البحيرات فى العالم الاخر ايضا . فان المركب المكتشفة فى  
خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كما وصفتها الصحف  
فى ذلك الحين ، كانت فى داخل حفرة مستطيلة منقورة  
فى صخر هضبة الجيزة جنوبى الهرم الاكبر . لقد  
كانت مفككة الى اجزاء صنعت من قطع عديدة من خشب  
الارز التى رتبت بدقة داخل الحفرة . وكان طول  
الحفرة المستطيلة ٣١ مترا وعرضها ٢.٦ متر وعمقها  
٣.٥ متر وتغطبها وتحكم غلقها ٤١ كتلة حجرية تزن  
الواحدة منها ١٨ طنا فى المتوسط حمتها من تسرب

المياه وتأثيرات المناخ . كنت اقرأ هذه الأوصاف والحقائق وأنا مذهول . وأيقنت ان سعادتي الحقيقية تغمسني دائما كلما وجدت نفسي امام انتصار الانسان ، انتصاره على الزمن او انتصاره على الطبيعة وظواهرها ! او انتصاره على اية ظاهرة اجتماعية تواجهه وهو يعيش في المجتمع . والانتصار هنا لايعنى وجود هزيمة هناك ، وانما يعنى التسلط من اجل التغيير الى الافضل حتى ترتفع هامة الانسان الى آفاق الآفاق . وفي خلال الفترة التي تلت اكتشاف مركب الشمس من خلال شهر مايو عام ١٩٥٤ ، كنت ، وأنا في بلد الغرب ، اعيش حالات الاغتراب ، موضع اعجاب من حولي . وكنت عندما يثار الموضوع اؤكد لهم ان فكرة المركب من ورائها افكار وافكار ، اهمها فكرة البعث . فالشمس تحيا في اثناء النهار . وفي الغروب تبدأ في الموت ، وتموت فعلا في اثناء الليل ، ثم تولد من جديد مع خيول الفجر . وهكذا دواليك . كذلك الانسان يولد ثم يموت ثم يبعث . عقيدة قديمة قدم الدهر يسرت للانسان ان يعتنق عقيدة قيامة الاموات ، وهذه بدورها قد يسرت عقيدة محاسبة الاموات بعد قيامهم ، اى يسرت الاعتقاد بالمسئولية الخلقية في الحياة الآخرة ، اى ان الحياة بعد الموت ستكون حياة الثواب والعقاب وفقا لسلوك الانسان على وجه الارض . وفي هذا الضوء اعتقد المصريون القدماء ان الانسان بعد موته سيمثل امام القضاة شأن هذا السلوك . وعقيدة الحياة بعد الموت لم تجب ان تكون الحياة قبل الموت عند المصريين القدامى مشتهاة . وكنت في اثناء احاديثي حول هذه الموضوعات التي اوجدها الى حيز الوجود اكتشاف مركب الشمس جنوبى الهرم الاكبر اؤكد على ان المصريين طوال التاريخ وحتى الان

يكرهون الموت ويتخشونه ولكنهم لا يتخشون الموتى . وقد  
كانوا ، وما زالوا ، يخصصون جزءا قير صغير من أموالهم  
لتدبير الطرق والوسائل لفلبة الموت . وذكرت لهم فى  
الثناء حديثى ان عدم خشية الموتى عند المصريين القدماء  
والمحدثين يثبتة الايمان بقيامتهم وانتشار سرقة مقابرهم  
ومهما يكن من الامر فان اكتشاف مركب هرم خوفو كان  
مندى انتصارا لبلدى وانتصارا على الوان عديدة من القلبي  
التي كانت تساورنى فى ذلك الحين . لقد بدأت بهذا  
الاكتشاف صفحة جديدة فى حياتى كان من شأنها ان  
زادت من تفاؤلى وان بددت بعض احزائى . وقد ساعدنى  
على ذلك بعض المواقف التي كنت أواجهها من حين لآخر .  
فقد كنت قد تعودت عندما اذهب الى الخارج ، فى  
الرحلات الاولى من وصولى الى البلد الذى اقصده ،  
خصوصا اذا كانت فترة حياتى فيه طويلة ، ان افعل  
ثلاثة امور : ان اشترى خريطة تبين معالم البلد ، وان  
اشترى « راديو صغير » ، لاننى اعتبر جهاز الراديو نافذة  
رائعة تطل على البانوراما الثقافية الاجتماعية للبلد ، وان  
اشترى جهازا متواضعا لسماع الموسيقى « بيك آب »  
وبعض الاسطوانات الموسيقية التي اعرفها ، وبعض  
الاسطوانات الموسيقية الاخرى التي احاول ان اتعرف  
عليها . فالموسيقى فى رايى قداء روحى لا يمكن الاستغناء  
عنه خصوصا وانا فى غربتى . وقد فعلت ذلك فى التو  
واللحظة عندما وصلت الى مدينة بوستن ، كما فعلته  
من قبل عندما وصلت الى مدينة لندن . وفى يوم من  
ايام الاحاد ، وانا الذاكر الآن ذلك جيدا ، لاننى استيقظ  
فى هذا اليوم متأخرا . وهى عادة اكتسبتها من اعضاء  
مجتمع الولايات المتحدة . وقد اكتسبتها فى الواقع  
مضطرا منفذا حرفية المثل القائل « اذا كنت فى مدينة



روما افعل كما يفعل اهل مدينة روما « ا وكان قد مر على في مدينة بوستن اكثر من عام لم اسمع في خلال هذه الفترة كلاما عربيا ، ولم اتحدث بالطبع مع احسد باللغة العربية . استيقظت في ذلك اليوم متأخرا ، وحاولت ان افتح الراديو الصغير ، وكان بجوار السرير . وكنت مازلت شبه نائم ، ويبدو ان المشير الى المحطات قد تحرك في اثناء ذلك وأشار الى محطة معينة لم اكن اعيرها اهتماما من قبل ، لاني ايام الاحاد ولا في غيرها . وبعد برهة سمعت من هذه المحطة ما اذهلني . كنت نائما او شبه نائم فاستيقظت ، عيناي مفتوحتان ، ونبضات قلبي تدق في عنف ، والدم دمي يسري في سرعة مذهلة الى وجنتي . ووجدت نفسي على الارض ارض الحجرة تاركا السرير ارقص على نغمات اغنية « المطربة اسمهان » ، واذكر انها كانت اغنية :

« اهوى .. اهوى .. يامين يقوللى قهوة »

وعرفت المحطة ، وتأكدت من رقم موجتها ، ومن فترة العمل بها . وعرفت انها تذيع برنامجا عربيا خاصا بالاقلية السورية واللبنانية التي تعيش في مدينة بوستن وكان يذاع هذا البرنامج كل يوم احد في نفس الوقت الذي حدث لي فيه ماحدث ولمدة نحو ساعة . وكنت دائما مع هذا البرنامج في مواعده المحدد طوال الفترة التي مكثتها في مدينة بوستن بعد ذلك . وكان اذا حدث لسبب قهرى اننى لم استمع له كنت اشعر بأننى فقدت شيئا عزيزا . ومما دهشت له ، ولا ازال ، ان التغيرات التي حدثت في كياني ، وبخاصة البيولوجية منها ، عندما استمعت لهذا البرنامج في اول مرة كانت تحدث وتكرر في كل مرة استمعت له . واننى اذكر ان بعض زملائي في محطة نورفلك قد عرفوا ذلك . فكانوا

هم ايضا ياتون فى الموعد المحدد ويستمعون للبرنامج .  
وكانوا يرونتى وانا على هذه الحال من السرور الغريب  
الذى كان يملأ على كيانى . كما كانوا يرون انفعالاتى  
وآثار ازدياد نبضات قلبى واحمرار وجنتى وخفتى  
ورقصى .. الخ . اما هم فقد كانوا يجلسون كالأصنام  
مبهوتين ، ينظرون الى أفواههم شبه مفتوحة . اما  
الموسيقى فقد كانوا لا يعيرونها أى اهتمام ، وكذلك  
الآغاني . وكان اذا حاول احدهم ان « يتظرف » او  
يسخر ينطلق مقلدا الموسيقى او الاغنية المذاعة بصوته  
المزعج مما كان يدعونى الى الثورة عليه ويدعو الآخرين  
الصامتين الى محاولة اسكاته مجاملة لى . وانا اسائل  
نفسى فى هذه اللحظة ، لحظة كتابة هذه السطور قائلا :  
اذا حدثت التغيرات البيولوجية عند استماعى لهذا  
البرنامج فى كيانى ؟ وانا لا اعرف الاجابة الشافية عن  
هذا السؤال .. ولكن لعلى ان لا اكون مخطئا خطأ  
جسيما اذا بدا لى ان الجهاز العصبى فى جسمى يفعل  
مايفعله الجهاز الهضمى . فالجهاز الهضمى اذا اكلت  
كسرة من الخبز ، مثلا ، يضعها ثم يبلعها ثم يهضمها  
ثم يتمثلها ، ويصبح الجزء الصالح منها بعد ذلك جزءا  
من جسمى . فهل يفعل الجهاز العصبى ، ياترى ، ذلك  
فى كيانى بطريقة او باخرى ازاء المواقف الاجتماعية التى  
اواجهها والخبرات الثقافية الاجتماعية التى اعيشها ،  
وازاء القيم التى اعتنقها فضلا عن الاتجاهات التى تكون  
من ورائها عادة هذه القيم ؟ اى هل الجهاز العصبى  
يستوعب هذه الامور ثم يهضمها ثم يتمثلها ؟ ولكن  
يلاحظ ان كسرة الخبز تؤثر مافى ذلك من شك . فى  
جسمى بيولوجيا . ومن التجارب السابقة فعلت ذلك  
فى جسمى : الموسيقى العربية التى سمعتها وكذلك الاغاني

العربية وحتى الالفاظ العربية . وكسرة الخبز كما يعلم القارىء شيء مادي والاستماع للموسيقى العربية أو للأغاني العربية أو للالفاظ العربية يعنى الاستماع لقبم وافكار . فهل يعنى هذا أن المادة « كسرة الخبز مثلا » وان الفكرة « قطعة الموسيقى او الاغاني او الالفاظ العربية المشار اليها مثلا » تتلاقيان ؟ او ان الجهاز العصبى والجهاز الهضمى يعملان متعاونين ؟ وإذا كانت المادة فى شخص كسرة الخبز مثلا والفكرة فى شخص قطعة الموسيقى او الاغاني او الالفاظ العربية مثلا تتلاقيان ، فهل هما تتلاقيان فى شخصيتى وفى شخصية كل من الاشخاص الذين يمرون بنفس التجارب؟ هل هما ، فى ضوء كل هذه الامور ، شيء واحد ؟ اى هل المادة تغنى عن الفكرة؟ او بالاحرى هل الفكرة تغنى عن المادة فى بعض الاحيان ، عشت فى هذا المحيط من الاسئلة والاجابات وتذكرت الحديث الشريف :

« ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز ، والمساء رواه الترمذى وقال حديث صحيح . « الجلف : الخبز ليس معه ادام » .

ومن المواقف التى لايمكن الا ان اتذكرها موقف أحد الزملاء فى محلة نورفلك . كان اذا اتى عيد «الكريسماس» يصر على دعوتى . فالكل يذهبون الى ذويهم فكان يابى أن يتركنى وحدى . وقد مرت على وانا اعيش فى مدينة بوستن ثلاثة اعياد ، ذهبت فى اثنائها كلها معه فى منزل اسرة ابيه حيث نجد امه واخوته الذكور الاربعة وزوجاتهم وبناتهم وبنيتهم . وكان الجميع وبخاصة الاب والام يعاملاننى وكأننى ابن لهما . وكنت أعيش هذه الفترة مع الجميع وانا احاول بصعوبة نفسية شديدة ان اكون

ابنا للأسرة الكبيرة . كنت أفعل مايفعلون . فاذا أكلوا  
أكلت وإذا شربوا شربت وعندما كانوا يحوطون حول  
« شجرة الكريسماس » كنت تجدني معهم . وكانت  
توزع الهدايا وكان لي نصيب منها . كانت اسرة بسيطة  
وكان اعضاؤها على اختلاف مشاربهم مرحين . تجدهم  
يغنون بأصواتهم على نغمات آلة الكمنجة التي كان يتقن  
اللاعب عليها أكثر من واحد منهم . ويمر الوقت سريعا  
وسط الضجيج والضحكات والنكات وانغام الأغاني  
والوسيقى ، ثم يستعد الجميع الى العودة بعد ان يبيتون  
للتهم ، وكانت الام تهتم بمكان النوم الذي اختير لي  
لكر ، أبيت فيه . كنت اشعر بصدق حنانها واهتمامها  
بي . وكان لسانى لا يفتر عن شكرها الشكر الجزيل على  
الكرم الذي اولانى به جميع اعضاء الاسرة وهى على  
راسهم . وانا اذكر اننى عندما كنت استيقظ فى صباح  
يوم ٢٥ من شهر ديسمبر يكون طعام الافطار معدا لي  
ويكون ابناء الاسرة وزوجاتهم وبناتهم وبنيتهم ماعدا زميلتي  
فى محلة نورفلك قد عادوا من حيث اتوا بعد أن ادى  
كل واحد منهم واجبه نحو الاب الشيخ والام العجوز .  
وابقى مع زميلتي فترة من الوقت مع الاب الذى كان  
يحادثنى فى شتى الامور فى مايعرفه منها حق المعرفة  
ومالا يعرفه منها حق المعرفة ، وكنت احاول ان اسعده  
بالانصات اليه ، وكنت قد قررت عدم مناقشة مايقول  
ولكنى مع الأسف الشديد لم اكن التزم بقرارى فى بعض  
الاحيان . ومهما يكن من الامر فان قضاء الوقت مع هذه  
الاسرة البسيطة المرحية المتناسكة فى ذلك الوقت من  
العام كان يعتبر تغييرا لطيفا لجميع الاطراف . وقبل  
الظهيرة او بعدها نعود بدورنا زميلتي وانا الى محلة نورفلك  
اي من حيث اتينا . وتكرر الذهاب الى هذه الاسرة

ثلاث مرات . وكانت المرة الأخيرة عندي أسعد المرات .  
لأنني كنت قد أدت بعدها مهمتي العلمية وحن الحين  
لكي أعود الى مصرنا الخالدة .

واستقبلني الفصل الدراسي الأول من العام الأكاديمي  
١٩٥٤ - ١٩٥٥ كخطوة في سبيل الحصول على الدرجة  
المرموقة « أقصد درجة الدكتوراه » . واستقبلته بترحاب  
شددة . وقد علمت أنه على أن أمتحن في موضوعات دراسية  
يكون عدد ساعات قائها في الأسبوع من خلال فترة  
الدراسة ٨ ساعة للحصول على هذه الدرجة . وبالإضافة  
إلى ذلك على أن أقدم بحثا في موضوع مبتكر يضيف  
شيئا جديدا الى الدراسات التي يهتم بها علم الاجرام  
ميدان تخصصي الذي اختير لي . ويعني ذلك أنني  
لا أستطيع أن أقوم بهذا العبء في عام أكاديمي واحد .  
ومن ثم طلبت مساعدة البروفسور موريس في اختيار  
موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي الأول كما فعلت  
قبل ذلك . وقد رجوت البروفسور موريس أن يأخذ  
في اعتباره عند الاختيار أن أواصل الدراسة في خلال  
شهور الصيف إذا كان ذلك متاحا . ومن حسن حظي  
أن ذلك كان متاحا . وقد تم اختيار موضوعات الدراسة  
في الفصل الدراسي الأول من العام الأكاديمي  
١٩٥٤ - ١٩٥٥ على أساس ١٥ ساعة في الأسبوع . على  
أن يكون اختيار موضوعات الدراسة في الفصل الدراسي  
الثاني من هذا العام على نفس الأساس . وفي خلال  
شهور الصيف أدرس موضوعات أخرى على أساس ست  
ساعات في الأسبوع . ويعني ذلك أنني إذا نجحت في  
هذه الموضوعات أكون قد درست حتى بداية الفصل



الدراسي الاول من العام الثاني ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها في الاسبوع في فترة الدراسة المشار اليها ٣٦ ساعة . وتبقى بعد ذلك موضوعات دراسية يكون عدد ساعاتها في الاسبوع ١٢ ساعة على ان احضر محاضراتها وانجح في امتحاناتها . ومن ثم يتسرع لي الوقت بعد ذلك للشروع في القياس باجراء البحث المطلوب . وبعد النجاح في كل الدراسات في خلال عامي الدراسة الاكاديمية ٥٤ - ١٩٥٥ و ٥٥ - ١٩٥٦ وبعد مناقشة البحث الذي سوف تظمه رسالة تقدم الى الكلية تحت اشراف البروفسور البرت موريس ، وبعد ان تتم هذه المناقشة بنجاح فاني اكون مستحقا لدرجة الدكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجرام . وكانت موضوعات الفصل الدراسي الاول للعام الاكاديمي ٥٤ - ١٩٥٥ تشمل « الحركات الاجتماعية المعاصرة » الذي كان مسئولاً عن تدريسه « الدكتور ج . بارنز » ، و « علم الاجتماع الحربي » الذي كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « ا . ل كايوتس » ، و « علم النفس والشواذ » الذي كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « ج . ف . سوندرز » ، و « علم النفس والوراثة » الذي كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور سوندرز ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذي كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « د . ماکول » . اما موضوعات الفصل الدراسي الثاني ، فقد كانت تشمل « النظريات السوسيولوجية » الذي كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور « ت . س . ماياكاوا » ، و « حلقة بحث في البحث الاجتماعي » وكان المشرف عليها « البروفسور ف . ا . سويتسر » ، و « حلقة بحث في افريقيا المعاصرة » وكان المشرف عليها « البروفسور و . براون » و « حلقة بحث في مناهج

البحث في علم الاجرام » وكان يشرف عليها « البروفسور  
البرت موريس » ، و « شعوب وثقافات افريقيا » الذي  
كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور ماکول . وفي خلال  
شهور الصيف من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى  
يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ تفرغت مع تسعة من  
طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة « مادة العلاج  
الجماعي » تحت اشراف الدكتور « روبرت و . هايد »  
وكيل المستشفى السيكوباتي بمدينة بوستن في ذلك  
الحين . وكان مكان الدراسة في هذا المستشفى ذاته .  
وكنا نذهب الى المستشفى من الساعة التاسعة صباحا  
ولا نبرحه الا في الساعة السادسة مساء . ومن ثم  
احتسبت دراسة هذا الموضوع لكل منا على أساس ست  
ساعات في الاسبوع . اى اننى وقد نجحت في كسل  
موضوعات الدراسة في الفصلين الدراسيين للعام  
الاكاديمى ١٩٥٤-١٩٥٥ وكذلك تم نجاحى بتفوق في مادة  
العلاج الجماعي ، اصبحت عدد ساعات الدراسة في الاسبوع  
حتى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ ، التى حصلت  
عليها ، ٣٦ ساعة . وبقي لى من الساعات ١٢ ساعة  
أدرس فى خلالها موضوعات دراسية بنفس عدد هذه  
الساعات فى الاسبوع . وبدأت هذه المهمة فى خلال  
الفصل الدراسى الاول من العام الاكاديمى الثانى  
للدراسة للحصول على درجة الدكتوراه اى فى خلال  
الفصل الدراسى من عام ١٩٥٥-١٩٥٦ . وكسنت  
موضوعات الدراسة المطلوبة « النظريات السوسولوجية »  
الذى كان مسئولاً عن تدريسه الدكتور ماياكاواه ،  
و « حلقة بحث فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها  
البروفسور براون ، و « حلقة بحث فى مناهج البحث  
فى علم الاجرام » وكان يشرف عليها البروفسور البرن

مويس . وقد اجتزت الامتحانات كلها ونلت شرفاً  
 وحصلت على الدرجات النهائية في اثني عشر موضوعاً  
 من خمسة عشر موضوعاً . وبدأت في اختيار أحد  
 الموضوعات لأقوم بإجراء البحث المطلوب للرسالة التي  
 سأقدمها الى الكلية . وكان هذا الموضوع هو : « تطبيق  
 مفهوم منطقة الجناح في مجتمع غير غربي » وكان عبارة  
 عن دراسة لحي « روكسبري » في مدينة بوسستن  
 بمنطقة جناح بالمقارنة بحي « بولاق » في مدينة القاهرة  
 بمنطقة جناح أيضاً . وكان الاشراف على هذا البحث  
 البروفسور البرنت موريس بوصفه أستاذاً لعلم الاجرام  
 بالجامعة ويشترك معه في الاشراف الأستاذ « ايدون  
 بورز » استاذ « علم العقاب » المعروف والذي اشرف  
 على اجراء البحث المشهور عن « تجربة في الوقاية من  
 الجناح » . وكنت قد بدأت في اثناء الدراسة الأكاديمية  
 في اجراء البحث المشار اليه . وكان قد وصفتني  
 البروفسور موريس بأنه بمجرد اتمام الرسالة على الوجه  
 المرغى سيقوم أساتذة القسم ، كمنسا هي العادة ،  
 بمناقشتي قيد مناقشة غير ملزمة تواف . ويعني ذلك انني  
 سأناقش الرسالة ومن ثم احصل على درجة الدكتوراه  
 قبل مرور عامين منذ حصولي على درجة الماجستير .  
 وكنت اعمل ليل نهار حتى يتحقق هذا الوعد واعود الى  
 اهتمام اسرتي العشرة أجيالي واعزائي . وثلاث سنوات  
 ان دعاني البروفسور موريس الى مكتبه ذات مساء  
 بمجرد اتمام الفصل الدراسي الاول من العام الأكاديمي  
 ٥٥-١٩٥٦ ، أي بمجرد اتمام الساعات المقررة فضلاً  
 عن اتمام الرسالة التي كانت بين يديه منذ أكثر من  
 أسبوعين . وذهبت في الموعد الذي تحدد ووجدت  
 بعض أساتذة القسم الكبار . ولحست على وجهه

البروفسور موريس علامات هدم الارياح . وظل في مكانه ولم يتكلم كلمة واحدة . وترك للاساتذة الحاضرين الحديث الذي وجهوه الى وكان ملخصه انه لا يمكن للجامعة ان تمنحني درجة الدكتوراه الا بعد مرور سنتين على الاقل منذ حصولي على درجة الماجستير . وهذا الشرط بالنسبة لي لم يتحقق ومن ثم فعلى ان اصبر حتى شهر مايو عام ١٩٥٦ حتى يمكن تحقيق هذا الهدف . وقال كل استاذ كلمة في الموضوع نفس الموضوع واكد اُحدهم انه حصل على درجة الدكتوراه بعد مرور اكثر من خمس سنوات من حصوله على درجة الماجستير وقال آخر وهو يوجه الكلام الى انه من حقى ان استريح من عناء الدرس والدراسة وان الايام تجرى وتمر . وقال ثالث مثلاً شعبياً باللغة الانجليزية معناه « اننى لا يصح ان اقضم اللقمة الكبيرة التى لا استطيع ان امضفها اذ قال سيادته Don't bite more than you can .

.. تكلموا جميعاً ولم

chew

يقل البروفسور موريس شيئاً . كان قد وعدنى ولكنه ازاء هذه « الهبة » من اساتذة القسم حاول ان يتركهم لكى يقنعونى بالصبر شهورا خمسة . وما كان لى الا ان اقتنع والا ان اصبر هذه الشهور الخمسة . ولكن كان موقف البروفسور موريس الصامت قد حزن فى نفسى . ولم اكن له شيئاً بغيضاً ابداً ، بل على العكس التمسيت له الاعذار كل الاعذار ، ولم انسى له مواقفه الاخرى الكريمة معى . وسالذكرها دائماً بالشكر والعرفان بالجميل وهل يتطرق الى ذهنى نسيان موقفه معى فى صيف عام ١٩٥٥ عندما لم استلم مبلغ الـ ١٥٠ دولارا الشهرى من « ادارة التربية الدولية » التى كسانت تشرف على علميا فى اثناء وجودى فى الولايات المتحدة . يومها

أحيست بالدنيا تدور بي وأنا ادور بها ، وكادت الأرض  
من تحتى ان تميد . وكان دور البروفسور موريس بلسما  
شافيا . فعندما علم بما حدث طلبنى وطلب منى ان اعمل  
معه نظير النقود ، وربما اكثر ، التى كانت ادارة التربية  
الدولية تبعثها الى شهريا . قال جزاه الله خيرا اننى  
اما ان اختار لاعمل معه فى اوقات الفراغ فى مكتبه او  
ان اختار مساعدته فى المحاضرات التى كان يلقيها او ان  
اختار ان اعمل فى بيتى ما يطلبه من انجازات . وشكرته  
من صميم فؤادى بكل الحب والصدق والاخلاص .  
وعند عودتى الى محلة نورفولك بيتى وجدت خطابا  
مرسلا الى من ادارة التربية الدولية ومرفق به الشيك  
كالمعتاد . وقد تضمن الخطاب ان المنحة الدراسية  
قد مدت عاما ثالثا . وكان المفاجأة سارة جدا لى .  
وسرعان ما تحدثت الى البروفسور موريس عن عودة  
المياه الى مجاريها . وبعد ان اطمأن قال لى ، وكان  
صادقا مافى ذلك من شك ، ان العرض الذى عرضه على  
مازال قائما ، ولكنى ابلفته بأن هذا العرض فى ضوء  
ماجد من ظروف اولى به طالب فى حاجة اليه . لايمكن  
لشخص مثلى الا ان يذكر هذا الموقف الكريم الذى وقفه  
معى البروفسور موريس . ولهذا فأننى لم اكن له فى  
الماضى الى الان وبعد الان الا الحب والاحترام . وقد  
التمست له الاعذار عندما اضطرته الظروف الى ان  
يواجهنى ببعض أساتذة القسم الذى يرأسه بشأن تأجيل  
حصولى على درجة الدكتوراه الى شهر مايو عام ١٩٥٦  
وقلت لنفسى فى ذلك الحين ، وكثيرا ما اقول لنفسى ،  
وتقول نفسى لى ، ان اعقل الناس اعذرهم للناس .  
وفى ضوء مرور فترة ثلاث سنوات أكاديمية فى جامعة  
بونستن لمكنت من استخلاص بعض الحقائق من الاساتذة



الذين تشرقت بالتلمذة على أيديهم . كانوا على وجه العموم أساتذة مجتهدين وان كان يبرزهم بالضرورة البروفسور موريس والاستاذ ايدون بورز والدكتور هايد والدكتور ماياكادوا والبروفسور زالنجر والبروفسور براون والدكتور ماکول . هؤلاء كسانوا أساتذة يعملون في هيئة التدريس بالجامعة ويستثنى منهم الدكتور هايد الذي كان يعمل وكيلا للمستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى ذلك الحين . وكان من الاساتذة الذين كانوا يعملون خارج الجامعة ، وكانوا فى الغالب من الاساتذة الزائرين الذين لم يكن لهم موضوع معين يقومون بتدريسه وان كانوا يجيئون لالقاء بعض المحاضرات فى بعض الموضوعات المقررة أو القريبة منها ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، « البروفسور كلايد كلاكهون » و « البروفسور تالكوت بارسونز » . وكان وجود هذين الاستاذين فى حرم جامعة بوستن يعتبر حدثا اجتماعيا لامعا لما كانا يتمتعان من شهرة علمية . وانا اذكر ان الاول قد شرح لنا كيف يقوم الانثروبولوجى بعمله فى الميدان وبخاصة اذا كان يعمل مع فريق ، وكان العمل مع فريق فى رأى كلاكهون امرا ضروريا . وضرب المثال بعد المثال من تجاربه العلمية التى اشترك فيها مع اخصائى نفسى واخصائى اجتماعى عندما كسانوا بدرسون اسر احدى قبائل الهنود الاميريكيين . اما تالكوت بارسونز فانتى اذكر الآن وانا اكتب هذه السطور اصراره فى احدى محاضراته على ان « القانون » . علم . واخذ يدلل على ذلك بالامثلة الواقعية التى تمتلىء بها خزائن خبراته وتجاربه . ومنها ان حقائق القانون كلها هى من الواقع الاجتماعى وان نصوص القانون تعكس او يجب ان تعكس هذا الواقع الاجتماعى . وحتى اذا

وجدت الهوة بين النصوص والواقع ، وكثيرا ما يحدث ذلك ، فان على المتخصص فى القانون ، كعلم ، ان يبادر الى تضيق هذه الهوة وذلك عن طريق البحث العلمى الاجتماعى الواقعى . اما أساتذة الجامعة فقد وجدت ان من بينهم من يخرج عن الموضوع دون ماداع او من كان يستغل استاذيته فيحاول ان يرهب الطالبات والطلبة الذين يستمعون لمحاضراته او يحسبون ان يتعلق بعض هؤلاء الطالبات والطلبة . واذا ذكرت بعض هؤلاء فأننى اذكر الاستثناء لا القاعدة . كان الدكتور « بارنز » الذى كان . كما سبق ان اوضحت ، مسئولا عن تدريس موضوع « الحركات الاجتماعية المعاصرة » يرهبنا نحن الطالبات والطلبة وبخاصة فى المحاضرات الاولى . فقد كان علينا ان ندرس حركات مثل الفاشية والماركسية والراسمالية والصهيونية وغيرها . وكان عدد الطلبة لا يعدو العشرين طالبا وقد وزع الحركات التى اشرف على تدريسها وكانت عشرا على ان يكون نصيب كل اثنين منا حركه يقومان بدراستها ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان من نصيبى ومعى احدى الطالبات ان تقوم بدراسة الماركسية ثم عرضها فى الموعد المحدد . وكان الدكتور بارنز لا يكتفى بالعرض بل كان يطلب من باقى الحاضرين من الطالبات والطلبة ان يناقشوا ماتم عرضه ، ثم يترك لنفسه بعد ان تتم المناقشة التعليق على كل ما قيل . وانا اذكر لهذا الرجل موقفين لايتوقع ابدا ان يصدرا عن استاذ يحترم العلم ومن يقوم بتعليمهم . درست وزميلتى « الماركسية » دراسة وافية ، وجاء الموعد لعرض الدراسة . وتركت لى زميلتى ان ابدا الحديث ، وما ان بدأت الحديث

وبعد مرور ثلاث دقائق فقط وجدت الدكتور بارنز يقاطعنى قائلا فى سخريه ان ماقلته امر معروف للجميع وعندما حاولت الاحتجاج فمازال وقت العرض « وكان عشر دقائق » لم يستنفد ، صاح امام الجميع قائلا انه هنا يسأل من المسئولين فى الدولة عن كل طالبة وطالب ويبحث بتقرير عن مدى تصرفاتهم سواء كانت هذه التصرفات فى اثناء العرض او فى المناقشة . وحاولت زميلتى ان تقول شيئا ولكنه قاطعها . وبدأ الحاضرون يلقون السؤال تلو السؤال ولكن بارنز كان المجيب ولم يترك لى ولا لزميلتى الاجابة . وانتهت فترة المحاضرة وخرجت من حجرة الدراسة وأنا لا ادرى موضعا لقدمى . وعندما ذهبت الى « الكافيتريا » لاناول فنجانا من القهوة وجدت بعض الزميلات والزملاء يلتفون حولى ، وقد بدأوا يستنكرون ما فعله بارنز ولكنى لم اعلق بكلمة . فقد وعيت الدرس الذى كان قد ذكره لنا الزميل محمد محمد شلبى عندما كان يدرس فى كلية الآداب بجامعة كولومبيا بنيويورك : قسم الاجتماع للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع بعد حصوله على درجة الماجستير فى شهر مايو عام ١٩٤٩ ، وطلب منه استاذه ان يكون موضوع رسالته « اتجاهات المصريين المسلمين نحو اليهود » فأبى الزميل ذلك . فما كان من الاستاذ الا ان اضطره الى ان ينتقل الى كلية التربية ليحصل على درجة الدكتوراه ان اراد . وقد فعل الزميل ذلك ، اى انه التحق فعلا بكلية التربية وحصل على درجة الدكتوراه فى التربية . وقد اضطره الاستاذ الى هذا التغير عندما التف حوله بعض الزميلات والزملاء منددين بتعسف الاستاذ وضغطه المعنوى على الزميل دون مبرر . فما كان من الزميل شلبى الا ان

اخرج مافى نفسه ومافى مكنونات مشاعره نحو الاستاذ ، فنقل زميلاته وزملاؤه كل ما قاله الى الاستاذ . ومن ثم كان اصرار الاستاذ على ان ينقل الزميل شلبى ، وكان وعيده المردول انه لن يحصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من الجامعة مادام ، اى هذا الاستاذ ، حيا يرزق . وعيت الدرس فصمت ولم اتحدث الا فى امور لاتمت بصلة لما حدث . واذكر لنفس الرجل موقفا عندما جاء موعد عرض الحركة الصهيونية . يومها اخذت فى حقيبة كتبى بعض الوثائق عما حدث لفلسطين من شهر مايو عام ١٩٤٨ وقبل ذلك وبعد ذلك استعدادا لما قد يحدث من مفاجآت ، ويومها قلت لنفسي ان استمع ولا اناقش ، ويومها اصبح عدد من كان فى الفصل اكثر من اربعين شخصا . دعى ضيوف لا تعرف عنهم شيئا . كان منهم الزوج وكان منهم البيض . كان منهم الشبان والشابات وكان منهم كبار السن . وتحسدت الطالبان عن الصهيونية ، وبدأت المناقشة ، وناقش معظم الزميلات والزملاء ، ولكنى لم اناقش . وفوجئت بالرجل مشيرا الى وطالبا منى ان اسهم فى المناقشة . واذا كان للطالبين المسئولين عن عرض الموضوع عشر دقائق ليعرضا فيها كلاهما او احدهما ماعن لهما ان يعرضا ، فان من حق المناقش من الوقت دقيقتين . فبدأت اتحدث عن آثار الصهيونية فيما يتعلق بفلسطين وبمصر المليون لاجئ من الشيوخ والاطفال والنساء والرجال ، واكدت حديثى بما معنى من وثائق ، وبدأت اشرح الآثار الاخرى وخاصة ما يتعلق منها بالسلام والحرب ولكن الرجل قاطعنى لكى اصمت ولم يكن قد مر على حديثى سوى نصف دقيقة بالتعام والكمال . كنت اتوقع ذلك من برزق فقد سبق ان اخرجنى دون ماسبرز ، وحاول

ان يرهبنى وان يرهب الآخرين عندما ذكر من قال عنهم  
 المسؤولين في الدولة . وقد ذكرني ما حدث بمسوقف  
 واجهته عندما وصلت الى مدينة بوستن وقابلت نزيلات  
 ونزلاء محطة نورفلك . جاءني احدهم في حجرتي ولم  
 يكن قد مر من الوقت على وصولي الى هذه المدينة اكثر  
 من شهر ، وتحدث معي في اشياء كثيرة . وكان ضمن  
 ما تحدث فيه « اسرائيل » وقال ضمن ما قال ، وبدأ  
 الاصرار على ما قال : « اسرائيل وجدت لتبقى » ! ويومها  
 قلت لهذا الشخص ان لا ينسى « الحروب الصليبية » .  
 وان يذكر دائما « صلاح الدين » فلن يعدم العرب ان  
 يجلبوا في المستقبل القريب اكثر من صلاح الدين ، كنت  
 متحمسا ومتفائلا ، ولكنه كان الامل ، في ضوء وقائع  
 التاريخ ، هو الذي جعلني متحمسا ومتفائلا ولا ازال .  
 وفي يوم من الايام دعاني البروفسور موريس الى تناول  
 الشاي مع آخرين في احد مباني الجامعة ، اي بعيدا  
 عن مباني كلية الاداب التي يعمل فيها وأدرس فيها .  
 وفوجئت بالآخرين فقد كانوا رجالا ونساء لم اعرف منهم  
 احدا . وتركني البروفسور موريس اجلس في المقعد  
 الذي اختاره . ولا أدري اذا كان قد تركني عن عمد  
 او ليترك لي الحرية في ان افعل ما اشاء . وترك من  
 كان يجلس بجواره معقده لآخر . ووجه الشخص الآخر  
 الذي جلس سؤالا لي على مسمع من الحاضرين ومنهم  
 البروفسور موريس . وكان وهو يوجه سؤاله يخرج من  
 محفظة نقوده ورقة صغيرة مقطوعة من جريدة يومية .  
 وقال لي الرجل اقرأ ما في هذه الورقة قل لنا رأيك في  
 مضمونها . وقد كتب في هذه الورقة « ان زوجا مسلما  
 ضرب زوجته المسلمة ، فلما اشتكت الزوجة زوجها  
 للمحكمة في الاردن ايدت المحكمة ما فعله الزوج » .



قلت له أن الزوج تحت راية الديانة المسيحية ان يفعل ذلك ، فله أن يؤدب زوجته اذا كانت ناشزا ولم تكن مطيعة له . والكتاب المقدس قد جعل الرجل راسا للمرأة ومن حقه أن يؤدبها اذا لم ترع قدسية الحياة الزوجية ، او اذا اساءت التصرف بما يسىء الى سمعة الزوج وسمعتها . بيد أن التأديب ليس معناه ان يقسو الرجل على زوجته أو يغدر بها أو يضربها ضربا شديدا يحدث عاهة ، بل ينبغي أن يكون بهدف الاصلاح والتقويم لا بهدف الانتقام والايذاء والاضرار وكل ذلك ما يدعو اليه الاسلام . قلت كل ذلك على مسمع من الحاضرات والحاضرين . ولم اكن اظن ان من بينهم يهودا أو صهاينة فالبروفسور موريس مسيحي الديانة ، وكنت اظن ان اعضاء الجمع الموجودين مسيحيون ايضا . واتضح لى ان الشخص الذى ابرز الورقة التى تتضمن حكم المحكمة الشرعية فى الاردن والتى قطعها خصيصة من جريدة يومية ووضعها فى محفظة نقوده كان يهوديا بل كان صهيونيا . وكان ردى عليه غير متوقع . لذلك جئنا بمواضيع أخرى بدأ يتحدث الحاضرون فيها ونحن نتعاطى الشئ . ولكن الرجل ظل يلزمنى وتحدث الى على افراد عن موضوع « السد العالى » ويبدو انه كان فى الدوائر السياسية الاميركية موضوع الساعة . وقد تحدث الرجل عن هذا الموضوع فى اوائل عام ١٩٥٦ ، ولم اكن أدري عنه شيئا . وقال لى ضمن ما قال ان هذا السد لن يقام أبدا . واننى اذكر اننى رددت عليه ، وكنت عنيدا فى ردى ما فى ذلك من شك ، ومن أدراك أنه لن يقام ؟ ان الشعب المصرى قادر على المعجزات . ولن يكون السد العالى آخر معجزة يقوم هذا الشعب بانجازها . وانا اليوم ، وقت كتابة هذه السطور ،

اعجب مما حدث بينى وبين هذا الرجل وبخاصة فيما يتعلق بموضوع السد العالى . لعله كان اعلم منى بيواطن الامور ولم اكن ادرى . اتنى لم اعرف اسمه ولم اعرف عمله فى ذلك الحين وحتى الآن . وعلى غرار الدكتور بارنز كان الدكتور « كايوتس » ، بدا ههنا الاستاذ حياته قسيسا . وهو من اصل مجرى . وكانت لى معه ومع زوجته المجرية الاصل ايضا علاقات ، فقد دعيتانى الى منزلها مرارا وبخاصة فى عطلة نهاية الاسبوع . وكان الدكتور كايوتس وهو يحاضر يرفع صوته وكأنه يلقي موعظة . وكان يبدأ حديثه فى المحاضرة مناققا بقوله مثلا « ان ثقافتنا اليهودية المسيحية » « وكان يقصد ثقافة المجتمع الأمريكى » يقولها وهو يناق الطالبات والطلبة اليهود الذين كانوا يدرسون معنا . وفى محاضراته كان يدعو بعض كبار رجال الاعمال ليلقوا علينا حديثا فى ضوء خبراتهم العملية . وقد دعا أحدهم فى احدى المحاضرات . وبدأ رجل الاعمال الضيف يتحدث عن مصر وعن الفساد الذى يستشري فيها ، فقاطعه كايوتس قائلا وهو يشير الى « ان هذا الشاب المذهب مصرى » . ولم يواصل الضيف حديثه عن مصر وغير مجرى حديثه . وكانت العادة انه بعد ان ينتهى المحدث الضيف مسن حديثه يسأله الحاضرون بعض الاسئلة وكان يجيب عن كل سؤال . اما ضيفنا رجل الاعمال فعندما سئل عن الاسباب التى جعلت من مصر موطننا للفساد فانه تنحى عن الإجابة وأشار الى لى اجيب انا . ولم اجب عن السؤال نفسه ولكنى ذكرت ما أعلمه عن مجتمع الولايات المتحدة من فساد وفساد ، ثم قلت ان الاستعمار الذى كان ولا يزال كابوسا على قلب مصر كان فى معظم الاحيان بل فى كل الاحيان اصل الفساد فى مصر ومصدر

الافساد . ولم يعقب على اجابتي احد . فما قلت إلا  
حقائق اول من يعلمها رجل الاعمال الضيف . ومع ذلك  
فقد كانت زيارتي الى منزل الدكتور كايوتس وزوجته  
تغيراً حقيقياً لى . كانا يأتيان الى محلة نورفلك فى  
سيارتهما واذهب معهما الى المنزل ويعودان بى الى  
نورفلك بعد ان اكون قد قضيت نهار يوم السبت أو  
يوم الاحد معهما . كانا وحيدين فأولادهما قد تزوجوا  
وتفرقوا فى انحاء الولايات المتحدة . وكانا يعيشان فى  
جناح من قصر منيف يملكه زوج ابنتهما الوسطى لى  
يرعيا أطفالهما الصغار ويعيشان فى كنف أسرة ابنتهما  
التي يملك زوجها الفنى هذا القصر المنيف ، وكنت أعيش  
وقتى مع الأطفال ، فقد كانوا يذكروننى بأعز من عندى  
ومن اعتز بهم : اولادى عندما كانوا لا يزالون أطفالاً ؛  
أحمد وآمال وسهير وتيسير ومسعد . وكان الدكتور  
كايوتس وزوجته كريمين معى . وكان كرجل دين يود لو  
اننى اعتنقت الديانة المسيحية . قالها لى ذات مرة مبرراً  
انه « مسيحى ميثودى » وان ابنته وزوجها من  
« الكويكرز » واننى اذكر اننى قلت له الا تعلم اننى كمسلم  
اومن بالسيد المسيح واهم السيدة مريم العذراء . ان  
الاسلام يقر كل الاديان السماوية لانه دين سماوى .  
ولا يمكن الا ان اذكر ولن انسى ماقاله لى الدكتور  
كايوتس امام زوجته من ان محادثة تليفونية جاءت من  
جهة عليا وكلف بمهمة سرية يؤديها فى المجر ، وقال  
ماقاله مفاخرًا . فهو قد اختير من بين آلاف أو أكثر لست  
أدرى ليقوم بأداء هذه المهمة وكان ذلك فى شتاء عام  
١٩٥٥ ، اى قبل ان تحدث حوادث المجر فى اثناء الاعتداء  
الثلاثى على مصرنا الخالدة فى شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ .  
واذا كان القارىء يرى اننى فى روايتى عن الدكتور

كابوتس اشكك في تصرفاته وبخاصة عندما ادى ما قال  
 عنها مهمة سرية كلف بها من جهة عليا . فربما كان الحق  
 معي . فالتوقيت اقصد توقيت المهمة كان معقولا ،  
 والرجل مجرى الاصل امريكى الجنسية وكان قد جاء  
 الى الولايات المتحدة مهاجرا وهو يافع . اى ان اللغة  
 الهنغارية التى كان مازال يتقنها فضلا عن سمات وجهه  
 واساليب تصرفاته تنم كلها على انه مجرى . وهو اذا  
 كان قد ادى المهمة التى وكلت اليه وهدفها ان يشهر  
 الشعب المجرى على حكامه ، فانما فعل ذلك كما يبدو لى  
 الان وقبل الان وحيثا من الدين الذى يعتنقه ولا اقول  
 وحيثا من وطنيته كشخص امريكى الجنسية . ان عقيدته  
 تقف متعارضة مع عقيدة قادة الشعب المجرى الشيوعيين  
 مافى ذلك من شك . واود هنا ان اقول شيئا من  
 البروفسور موريس ودعوته الى حفل الشاى الذى ذكرته  
 من قبل والذى حدث فيه ما حدث . اننى اذكر الان  
 وانا اكتب السطور الحالية ان البروفسور موريس لم  
 يقصد احراجى قبل ذلك ابدا . ومن ثم فانى اشك فى  
 انه جاء بى خصيصا الى ذلك الحفل لى يخرجنى .  
 ان هذا الرجل على الرغم من علمه الغزير لا يعرف الكثير  
 عن السياسة او عن رجال السياسة . انه يعيش حياته  
 الاكاديمية حتى الثمالة . وتراه اذ يتحدث عن رجال  
 « الكرملين » وهو يقصد حكام روسيا السوفيتية  
 يشتبههم برجال عصابات « مدينة شيكاغو » الامريكية .  
 تفكير سياسى ساذج لا يصدر عن شخص يعرف السياسة  
 ويحاول ان يحلل مواقفها وآثارها واهدافها . انه بهذا  
 التفكير كنت اراه ومازلت افعل بجارى رجل الشارع  
 الامريكى الذى يترك لحكومته عادة ان تفكر له . اننى  
 لا ادافع عن البروفسور موريس اذ دعانى الى حفل

الشئى وحدث تحت سمعه وبصره ما حدث لى . وانا  
 لا انزه نفسى عن ان اكون متحيزا له لانى ومازلت احب  
 الرجل . وهذا يذكرنى بموقف آخر واجهته عندما  
 جرت الانتخابات المحلية ولم يذهب الى صناديق  
 الانتخابات سوى ٢٠٪ من الذين من حقهم ان ينتخبوا ،  
 وعندما ابدت دهشتى من ذلك قال احد الاسساتذة  
 لا اذكر اسمه الآن ، ولماذا الدهشة ؟ ان الشوارع تكنس  
 وتنظف والتيار الكهربائى لا يتوقف والمرافق تسير على  
 مايرام فلماذا يذهب الناخبون وتتعطل الاعمال ويقفل  
 الانتاج مادام كل شئ يسير وفقا للنظام المعتساده ؟  
 ولما قلت له ان رجلا يدعى «كيندى» ولم يكن من عائلة  
 كيندى المعروفة قد اخذ اكثر الاصوات وهو مسجون  
 لحكم صدر ضده . فوجدت هذا الاستاذ الذى لا اذكر  
 اسمه الان يبتسم وابت ابتسامته لى فى ذلك الحين  
 ابتسامة بلهاء . واستاذى بروفيسور براون كان مديرا  
 « لمعهد الدراسات الافريقية » التابع لجامعة بوستن .  
 وكان هذا المعهد الاول من نوعه فى الولايات المتحدة .  
 وعندما كنت اتلقى دروس عن موضوع « افريقيا المعاصرة »  
 او عن موضوع « مشاكل افريقيا المعاصرة » كسان  
 البروفيسور براون يرى ان افريقيا هى « ما تحنت  
 الصحراء الكبرى » ولا يعتبر دول شمال افريقيا جزءا  
 من القارة . وكان اذا ذكر دول شمال افريقيا يذكر ،  
 بطريقة تعسفية ، انها ليست دولا عربية ولكن « البربر »  
 فيها شأن سياسى واجتماعى كبير . وكان هذا الاستاذ  
 الذى جاب افريقيا شبرا شبرا اذا تحدث عن حركة  
 « الماو ماو » فى كينيا مثلا يشوب حديثه السخرية .  
 وكان الدارسون فى حلقة البحث التى يشرف عليها  
 البروفيسور براون كلهم من الرجال . كانوا يتماطون معنا



متباينة . فقد كان منهم القسيس والصحفي وطالب الدراسات العليا والمشتغل بالسياسة وبخاصة ما تعلق منها بأفريقيا « السوداء » . وكان لا يذهب صحفي غير دارس في المعهد الى أى بلد أفريقي إلا اذا مر على المعهد لبتزود من ملفاته و « اضايره » المعلومات عن هذا البلد . لم تكن هذه المعلومات جغرافية فقط أو اقتصادية أو سياسية فحسب ، بل كانت معلومات عن قادة البلد وزعمائه كذلك . لان هذه المعلومات كانت تتضمن سجلا حافلا عن كل واحد منهم يشتمل على مستوى ثقافته ومستواه الاقتصادي وحالته الصحية ونزواته فضلا عن مدى سلطانه على شعب البلد وميوله السياسية وماضيه منذ ان ولد حتى اللحظة الراهنة . والملاحظ أن هذه الملفات والاضاير كانت كلها ضمن محفوظات وزارة الخارجية الامريكية وكانت تعتبر محتوياتها في ظروف معينة سرية جدا . ولما تغيرت الظروف تسر للمعهد أن يحصل عليها كخلفية ثقافية للبلاد الافريقية التي تكون موضوعات دراساته ، فهي بالنسبة لدارسيه تعتبر مراجع ، وهي بالنسبة لغير الدارسين المهتمين ببلاد افريقيا تسر لهم الاطلاع على أمور قد يكونون هم في حاجة اليها . ومع البروفسور براون كان لي جولات . وكنت أومن في ذلك الوقت بالزعيم السسكينى هي فقط « ماتحت الصحراء الكبرى » كما كان يدعى . وكنت أومن في ذلك الوقت بالزعيم السسكينى « جوموكينياتا » الذى عرفت عنه وأنا في لندن ، وتصفحنت في ذلك الحين رسالته التي قدمها للجامعة . كنت أكن له الاحترام والتقدير . وعندما وجدت براون يسخر من « حركة ناوماو » الكينية التي أشعل شرارتها كينياتا وزملاؤه اعترضت على السخرية ،

وأكدت له أمام الحاضرين ان الذى يستدعى اژه هذه الحركة هو الاعجاب لا السخرية . وعندما برز فى اثناء حلقة البحث موضوع تحكم الاقلية فى الاغلبية وبخاصة فى جنوب افريقيا ، لم اتمالك الا ان اقول اننا لا نجد هذا النوع من التحكم الا فى السجون والمعتقلات . وكان معنا قسيسان من الكاثوليك يعملان فى بلدين من البلاد الافريقية . وقد حاول احدهما عندما ذكر موضوع « التفرقة العنصرية » ان يؤكد ان الناس كلهم سواسية قدم الجميع ذو لون واحد ، ومن ثم فان هذه التفرقة غير ذات موضوع . انه كلام ذكره هذا القسيس الكريم فى اثناء فترة من فترات حلقة البحث التى تضمنا والتى كان يشرف عليها براون . ولكن العبرة عندي ، وهذا ما حاولت ان اقوله ، ليس فى القول النظرى ولكن فى الممارسة . وكانت من القضايا التى اثارها براون فى اثناء المناقشة انه وهو فى مدينة « الخرطوم » وكان ينزل فى احد فنادقها الذى وصفه وصفا غير لائق قابل بعض المسيحيين من الاقباط المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، وذكر انه علم منهم ان الحكومة المصرية تعتمد ان تظهر نسبة عدد مسيحيى مصر ، فى التعداد العام ، اقل مما هى عليه فى الحقيقة . اى ان هذه النسبة ليست فى ذلك الحين نحو ٧٪ كما كان يسجلها التعداد العام المصرى « الرسمى » . بل هى أعلى من ذلك . كان ذلك فى اوائل عام ١٩٥٥ ، وكنت اسمع هذه المعلومات لأول مرة ، ولم استطع ان اكذب ذلك ولا ان اصدقه ، وظهر تحيز بروفيسور براون عندما حضر أحد المتخصصين الفرنسيين الى الحلقة كمحاضر زائر . ولما اعترضت على بعض ماقاله هذا الضيف من ان الدائن الاسلامى يبيع للرجال فى شمال افريقيا

« تونس والمغرب والجزائر مثلا » ان يتزوجوا اكثر من اربع زوجات بل ربما عشرات من الزوجات ، كان موقف براون منى موقفا لا يمكن الا ان اصفه بأنه غير موضوعي . حدث كل ذلك في خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الاكاديمي ١٩٥٤-١٩٥٥ عندما كنت احد الدارسين في « حلقة بحث في افريقيا المعاصرة » . وقد فوجئ البروفسور براون عندما وجدني سجلت نفسي لكي احضر « حلقة بحث في مشاكل افريقيا المعاصرة » في خلال الفصل الدراسي الاول من العام الاكاديمي ١٩٥٥-١٩٥٦ وانا لم افعل ذلك الا لانني افدت فعلا من الحلقة الاولى ، ولانني وجدت هذا البروفسور على الرغم مما قلته عنه استاذنا فحلا في تخصصه واثني اولى من غيري لاكون احد تلاميذه استقي من فيض علمه ما استطيع . كان براون عالما حقا ، ولكنه كبشر كان متحيزا للغرب ضد ماهو غير غربي .

وانني اعتقد انه من الصواب ان اتحدث قليلا عن تجربتي في المستشفى السيكوباتي بمدينة بوسنتن لدراسة مادة « العلاج الجماعي » تحت اشراف « الدكتور روبرت و . هايد » وكيل هذا المستشفى . كنت كما ذكرت من قبل واحدا من عشرة من طلبة الدارسات العليا بجامعة بوسنتن الذين وقع الاختيار عليهم لدراسة مادة العلاج الجماعي في خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وكان الطلبة المختارون من الذكور ومنهم سبعة من اميريكيين البيض وواحد امريكي زنجي وواحد اندونيسي ، وكل هؤلاء كانوا قساوسة من غير المذهب الكاثوليكي او المذهب الارثوذكسي ، ويضاف اليهم كاتب هذه السطور . وقد تضمنت الدراسة اوجها عديدة

من النشاط . منها التعرف على جهاز المستشفي  
العلمي : اعضاءه ووظائفه ، والاشتراك في اوجه نشاطه  
في حرية وبطريقة تلقائية . ومنها عقد اجتماعات  
نهارية ومساءية . وكانت الاجتماعات النهارية يعقدها  
الطلاب وحدهم . وكان يحضر الدكتور هايد الاجتماعات  
المساءية باستمرار . وقد جرى التقليد في السنين  
السابقة على ان يقوم طلبة مادة العلاج الجماعي باختيار  
مشروع بحث معين وكتابة تقرير عنه . وعلى الرغم من  
ان هذا كان تقليدا فقد تركت للطلبة حرية الاختار به او  
عدم الاختار به . وعلى هذا فقد كان من الجائز ان لا يخرج  
هذا البحث الى حيز الوجود . فقد افهم الطلبة في  
صراحة تامة انهم ، كجماعة ، احرار في القيام او عدم  
القيام بهذا المشروع . كما تركت لهم الحرية في اختيار اي  
موضوع للبحث في حالة قيامهم به . واعتقد الطلبة  
منذ البداية انه في حالة اخذ قرار بعدم القيام بهذا  
المشروع فلا يترتب على هذا القرار ابداء الاسباب التي  
في ضوءها رفضوا القيام به . ولكن امضاء جماعة الطلبة  
بعد مناقشات طويلة وعنيفة وصلوا الى قرار بخصوص  
موضوع البحث . وكان الموضوع الذي اجمعوا على  
اختياره هو « محاولة تفسير الشعور بالعداوة » .  
وبعد الوصول الى هذا تحمس الاعضاء وارتفعت روحهم  
المعنوية ، وعلى الرغم من ان الوقت كان محددا تحديدا  
تصفييا ، بمعنى انه للقيام ببحث الموضوع المشار اليه  
وكتابة التقرير النهائي عنه ، يجب الانتهاء من كل ذلك  
في خلال الفترة المحددة لدراسة مادة العلاج الجماعي .  
وقد تقدم الاعضاء فعلا في يوم ٨ من شهر يوليو عام  
١٩٥٥ بتقرير مكتوب عن الموضوع المختار . واذا كنت  
ادعي بان معظم المواد التي درستها في الجامعة منذ

أول فصل دراسي من العام الأكاديمي ١٩٥٣-١٩٥٤ حتى الانتهاء من دراستي وحصولي على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجرام قد سبق وعرفت الكثير عنها من الدراسات الأكاديمية وغيرها من الدراسات التي حصلت بها في خلال الفترة من شهر فبراير عام ١٩٥١ حتى شهر يوليو عام ١٩٥٢ وأنا في مدينة لندن . فأننى مافى ذلك من شك مدين للاستاذ هايد الى خبرته الواسعة التي كان لا يرضى على وعلى زملائى بها فضلا عن المنهج الذى اتبعه معنا في الاجتماعات المسائية . لقد نجح هذا الرجل في الوصول الى أعماق اعماق كل واحد من الطلبة ويكشفها للجميع . لم يفعل شيئا مشيرا ولكنه كان يتبع منهاجا يسر لكل واحد منا ان يكشف عن نفسه ويعريها لكي يعرفها الآخرون لكي يقوموا بدورهم بالكشف عن نفوسهم وتعريتها فتعم الفائدة الجميع . ان هذا الرجل الذى يسر لى ان يحاول معرفة نفسى عن طريق معرفتى عن نفوس الآخرين وأن يعرف الآخرين بدورهم عن نفسى ، يسر لى ايضا ان اتحلل من مشاكل نفسية كانت تعيش في أعماقى منذ طفولتى وعندما كنت صبيا ويا فعا ثم شابا ورجلا ، وبهذا أمكننى فى ضوء هذه الخبرة ان احاول التعرف على نفوس الآخرين الذين تضطرنى الحياة ان اتعامل معهم سواء اكانوا من الكبار ام من غيرهم . من الاناث ام من الذكور ، ولست بهذا احاول ان اقلل مما بدله اساتذتى الآخرون معى وبخاصة البروفسور البرت موريس . فقد افدت منهم ما فى ذلك من شك . وكان أهم ما افدته منهم فى الواقع ان اتأكد من صحة ما كنت اعرفه من قبل . فأنا كطالب علم كنت ، ومازلت ، فى شوق الى التعرف على وجهات



النظر الاخرى المبينة لاننى كنت على استعداد لتفسير  
رأى اذا تبين لى خطأه . ويقدر شوقى الى تحقيق هذا  
الامر فاننى لم اغير كثيرا مما ثبت فى ذهنى من معلومات  
وخبرات استطعت فى فترة الثمانية عشر شهرا التى  
قضيتها فى لندن ، المشار اليها ، ان امثلها . ان التعليم  
فى جامعة بوستن يختلف اختلافا كبيرا عن التعليم فى  
جامعة انجليزية او حتى مصرية . فالجامعة الاميركية  
كجامعة بوستن مثلا تحرص على ان تثبت فى طالبها  
منهجها اكاديميا وتترك له الخيار فى استيعاب او تمثيل  
ما يختار من موضوعات . وعلى العكس من ذلك فقد  
كنت اجد ان الجامعة الانجليزية ترى ان يكون مضمون  
المادة التى تدرس محفوظا فى دماغ الطالب ويجرى فى  
تلافيف هذا الدماغ مجرى الدم فى عروقه . وفى جامعة  
بوستن وكما علمت فى غيرها من الجامعات الاميركية  
كان يعطى للطلاب اسئلة الامتحان لى يجيب عنها وهو  
فى منزله ثم يحضرها الى الاستاذ فى حدود فترة معينة .  
ان الجامعة الاميركية ترى ان العلم فى الكتب ويستطيع  
الطالب الذى يكتسب موهبة اكاديمية معينة ان يفيد من  
الكتب انى وجدت . فالعبرة ليست فى حفظ الدروس  
ولكن فى كيفية استخراج المعلومات من مصادرها والافادة  
منها . واثنى اذكر عندما امتحنت فى اللغة الفرنسية  
استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه التى  
تقضى بأن يمتحن الطالب فى لغتين اجنبيتين ، ورات  
الجامعة ان اللغة الانجليزية هى اللغة الاصلية واللغة  
العربية ، لغة امى ، هى اللغة الاجنبية الثانية - ابيع  
لى ان احضر القواميس معى فى الامتحان . وكذلك  
عندما امتحنت فى احدى المواد امتحانا تحريريا وكان  
من واجبي ان اجيب عن اربعة اسئلة ، فلما تبينت

اننى اجبت عن ثلاثة فقط اخبرت استاذ المادة بذلك  
فترك لى حجرته بعد انتهاء موعد الامتحان لى اجيب  
من السؤال الرابع المطلوب وطلب منى ان اضبع ورقة  
اجابتي فى مكان معين ثم اغلق باب حجرته من ورائى  
بعد الانتهاء من الاجابة عن السؤال الرابع المطلوب .  
وكانت التجارب التى خضتها وانا فى المستشفى  
السيكوباتى بمدينة بوستن عديدة . لقد توجتها خبرتى  
مع الدكتور هايد كما سبق ان اوضحت . والعمل  
الجماعى مع زملاء التسعة وقد كانوا من القساوسة  
كان مشمرا حقا . كانت الثقافات بيننا متباينة والاديان  
مختلفة ومع ذلك فقد عشنا زملاء احباء معظم الفترة  
التي قضيناها سويا فى المستشفى . لقد احسست فى  
الجزء الاول من هذه الفترة بنفور بعض هؤلاء الزملاء  
فقد كنت الوحيد الذى على وشك الحصول على درجة  
الدكتوراه فضلا عن التباين الثقافى الدينى الذى ذكرته  
ولون جلدى الاسمر . كان القسيسان الزنجى  
والاندونيسى يشتركان معى فى لون الجلد . ولكن  
سرعان ما التأم الجمع وتأكدت صلاحية العمل كفريق  
بيننا وبخاصة ونحن نجرى البحث الذى اجريناه ،  
كجماعة ، عن موضوع الشعور بالعداوة . ومن الصدف  
الحسنة ان هذا البحث قد انتهى الى « ان الخطيئة  
الاولى فى سبيل التعبير عن الشعور بالعداوة تعبيراً  
سليماً هي الاعتراف بوجود هذا الشعور . ويوفق الانسان  
منا فى تحقيق هذه الخطوة اذا ما استطاع التعرف على  
الاسلوب او الاساليب التى عبر بها عن الشعور بالعداوة ،  
ومن الواضح ان الانسان قد اُصبح فى الكثير من الاحيان  
ماهرًا جداً فى اخفاء الشعور بالعداوة عن الآخرين فضلاً عن

اختناؤه عن نفسه . وفي بعض الاحيان نجد انه من الضروري محاولة ادراك اساليبنا الظاهرة المعبرة عن الشعور بالعداوة قبل ان نتأكد من وجود هذا الشعور فينا . ومع هذا فالاعتراف بوجود الشعور بالعداوة ليس بالامر السهل . ولكنه الخطوة الاولى في سبيل تحقيق التعبير السليم عن شعورنا بالعداوة . والخطوة الثانية في هذه العملية هي ان نحاول معرفة العوامل او مصادر الشعور بالعداوة في نطاق انفسنا اولاً ثم في خارج هذا النطاق . فغالبا ما تكون انفسنا مصدر الشعور بالعداوة ضد الآخرين وربما يكون ذلك عن طريق عملية «التحويل» التي قد يكون مبعثها علاقة سلبية سابقة . والخطوة الثالثة والاخيرة هي محاولة بناء علاقة طيبة مع الشخص او الاشخاص الذين نشعر بالعداوة ضدهم . وخير وسيلة لبناء هذه العلاقة هي ان يذهب الشخص الى من يشعر بالعداوة ضده ليحلا المشاكل سويا . فهذه الوسيلة تحقق ثلاثة امور كلها توصل الى بناء علاقات طيبة هي :

— انها في ذاتها أسلوب من اساليب التعبير عن الشعور بالعداوة وقد لا تدعو الحاجة الى التعبير عن الشعور بالعداوة بأسلوب آخر .

— عندما يتحدث شخصان في موضوع شعورهما بالعداوة المتبادل فانه يحاول كل منهما ان يذكر الاسباب التي دعت الى اثاره الشعور بالعداوة في نفسه . فاذا امكن وصولهما الى التفاهم على هذا المستوى اللفظي فيكون تفاهما حقيقيا اذا عبرت الالفاظ عن شعورهما بالعداوة تعبيرا حقيقيا كذلك . وقد تحدث اخطاء في بعض الاحيان ولكن بما ايسر اصلاح هذه الاخطاء

باستخدام الالفاظ كاسلوب للتعبير . ومهما يكن من الامر فان هذا الاسلوب ، استخدام الالفاظ مجرد الالفاظ خير ألف مرة من استخدام اسلوب المعاملة الصامتة . ان اتصال الناس بعضهم ببعض عن طريق استخدام الالفاظ واحد من الانواع العديدة للاتصال ، ولكنه ليس اسلوب لاتصال الناس وهو اصلح اسلوب لحل مشاكل الشعور بالعداوة بينهم .

— عندما يتحدث شخصان في موضوع شعورهم بالعداوة المتبادل فانهما في الواقع يتحدثان عن موضوع مشترك يهمهما وحدهما . والعلاقات الانسانية تبنى عادة اذا تحقق للناس وجود اشياء مشتركة تهتم جميعا . والشعور بالعداوة هو شعور عميق ، فاذا ما طسرح للمناقشة مع شخص آخر ، وليكن هذا الشخص هو الشخص الموجه ضده هذا الشعور فانه تتولد رابطة مشتركة بينهما تساعد على بناء علاقة طيبة بينهما . والملاحظ ان التعبير السليم عن الشعور بالعداوة المذكور وان كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته ومحاولة اثبات فاعليته عن طريق التجربة ، فهو يتفق اجمالا من غير تفصيل مع مضمون الآية القرآنية الكريمة :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم »  
« ٣٤ ك فصلت : ٤١ » .

وكانت علاقاتنا بالمرضى ، وكانوا من النساء والرجال تتراوح بين العلاقات العادية والعلاقات المتوترة . كان كل واحد منا يحمل « مفتاح » يفتح جميع حجب المستشفى ، وكان من حق كل واحد منا أن يجسوب

المستشفى ليرى بنفسه ويواجه التجارب وحده . كنا  
نلبس الملابس العادية ، وكان المرضى يلبسون أيضا الملابس  
العادية . ولم يكن يعرف المرضى أن العشرة من الطلاب  
طلاب . وقد كان يخطئ المريض ويظن أن أحدنا مريض  
مثله . وكنا نشترك معهم في مشاهدة برامج التلفزيون ،  
كما كنا نشترك أيضا في اللعب معهم كرة « تنس  
الطاولة » . وقد نذهب مع بعضهم إلى الشاطئ وكان  
لا يعرف أحد من المصطفين أنهم مرضى . وكانوا دائما  
تحت أعيننا وإشرافنا نعد حركاتهم وسكناتهم ونسجلها  
لكي نقدم ما يحدث بيننا وبينهم إلى المسؤولين . وكنت  
لعوامل كثيرة محط أنظار بعض المرضى . وقد ذكرت  
بعض هذه العوامل من قبل . وكنت أتحدث معهم  
ويتحدثون معي أو كانوا عادة يبدأون الحديث معي .  
وقد نجحت في إخراج أحد المرضى من صمته الطويل  
فتحدث معي وكان هذا في رأي الدكتور هايد والمسؤولين  
خطوة إلى الإمام نحو شفاء هذا المريض . كان هذا  
المريض لا يتحدث مع أطبائه ولا مع زملائه من المرضى ولا  
مع أحد من أعضاء أسرته عندما يزورونه . ولكنه تحدث  
معي وتحدثت معه . وكان هذا توفيقا من الله جل وعلا .  
وأنا أذكر الآن نزيلة محطة نورفلك « جاي » التي تركت  
المحطة في مايو عام ١٩٥٤ . وكنت أعلم أنها حاولت  
الانتحار مرة ومرة ، كانت تجلس أمام حجرة الدكتور  
هايد وتوقعت أنها على موعد معه ، ولكنها عندما رأتني  
في المستشفى جرت ورائي وطلبت مني ، وهي تظن أنني  
مريض مثلها ، أن وجودي في الولايات المتحدة وحدي  
ضار نفسيا بي ، وأنه من الخير لي أن أعود إلى بلدي  
الحبيب . وكانت هناك نزيلة أخرى من نزيلات محطة  
نورفلك التي التحقت بالمحطة في خلال العام الدراسي



الأكاديمية ١٩٥٤ - ١٩٥٥ . وكنت وبعض النزلاء قد لاحظنا أنها لا تسلك السلوك العادي الذي تسلكه زميلاتها النزيلات . وكانت قد ذكرت أنها من ولاية «فيرمونت» إحدى ولايات «انجلترا الجديدة» وهي نفس الولاية التي نشيء فيها الدكتور هايد الذي كنت أراه يوميا في مستشفى بوستن السيكيوباتي . واني اذكر انني رايت هذه الأنسة عند الدكتور هايد عندما كنت أدرس على يديه «العلاج الجماعي» . ولكنني نجحت في ان اخفي لكي لا ترائي .»

ولما انتهيت من أعمالى الأكاديمية : الدراسات وكتابة الرسالة ونجحت في امتحان اللغة الفرنسية ، واجهت الفراغ فترة لا تقل عن خمسة شهور بالتمام والكمال . لم يكن فراغا مطلقا ولا كان وقتا ضائعا فقد كنت في نورفك اعمل مع جماعية الفيرز ، وكنت في الاوقات الأخرى اقرأ مايعن لى من قراءات ، وكنت أسير في الشوارع اقرأ صفحاتها من ظواهر وانماط سلوك وعلاقات اجتماعية . ومنذ العام الثانى لى في نورفك عسرفنى الحيران وعرفت الكثير من أحوالهم وانماط حياتهم التي يعيشونها . وقد تغير بعض النزيلات والنزلاء في محلة نورفك ، ذهب « دى » ذو الاصل الايطالى كما ذهب « جورج » ذو الاصل السورى ، وذهبت « سالى » و « ملبريد » المواطنتان الأمريكيتان ، ذهبت الاولى الى استراليا لتعمل ممرضة والثانية الى المانيا الغربية لتتزوج من شاب المانى الجنسية كان أحد نزلاء محلة نورفك قبل ان آتى اليها، وتمت بينهما العلاقات الانسانية ذات المشاعر العاطفية وتوج كل ذلك بالزواج . وذهبت « هاي » الامريكية وكانت تعالج في مستشفى بوستن السيكيوباتي ومعها « سونيا » التي كانت طالبة

فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن ليعيشا سويا  
اى لتعيش جاي تحت سمع وبصر واشراف سونيا . وجا  
الى المحلة اخرون منهم « لافاي وميزى » وكانتا من  
« هوائى » احدى ولايات الولايات المتحدة ، ومنهم  
« دوروثى » التى كنا نختصر اسمها ونناديها « بدوتى »  
وكانت زنجية من جنوب الولايات المتحدة « ولاية  
الباما » و « بارى فريمان » وهو مواطن امريكى من  
البيض . وبقي معنا جون جراى الزنجى ، كما بقى  
الشباب الكندى « اين » و « هيلسين » و « مارى »  
و « جريس » المواطنات الامريكيات ، والتحق بموظفى  
المحلة اخصائى اجتماعى امريكى الجنسية ومن اصل  
يابانى واسمه « شيبا » . وتكونت جماعة من الشابات  
الزنجيات وكن من معارف او صديقات الشبان الزنوج  
الذين كنت اشرف عليهم . وعهد الى « جريس » وهى  
طالبة فى كلية الخدمة الاجتماعية بجامعة بوستن الاشراف  
على جماعة الشابات الزنجيات . وبعد مرور فترة من  
الوقت اى فى شهر اكتوبر او شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ،  
التحقت كنزيلة آنسة تدعى « بابارة بيل » ، وكان  
الجمع فى المحلة ينادىها باسم « ب . ب » على غرار  
الاسم الذى تعرف به النجمة السينمائية الفرنسية  
« برجيت باردو » ! وبقي معنا مستر « ديفيز » مديرا  
للمحلة ومعه مستر « دن يونج » وكيلاله . وكان  
يساعدهما شاب متزوج يعيش مع زوجته يدعى « ديفيد »  
لا كموظف فى المحلة ولكن كنزيل متزوج . وكان يدرس  
لكى يتخصص فى علم النفس التحليلى . وكان وزوجته  
يتوقعان ضيفا جديدا عليهما . وعندما حدث ذلك  
اضيفت الى النزلاء طفلة جديدة . ولاحظت اننى المسلم  
الوحيد بين النزلاء وان ديفيد وزوجته وابنته الطفلة فضلا

عن الأنستين اللتين كانتا ضمن نزلاء العام السابق من اليهود . أما باقي النزلاء وموظفي المحلة ، فثنيين واداريين وبوابي المحلة ، فقد كانوا من الكاثوليك ماعدا باري فريمان فقد كان ينتمي الى جماعة « الكويكرز » . وكان العمل في محلة نورفلك يسير وفقا لبرنامج محدد ، وكان الجميع يعملون ، كل في موقع عمله ، باخلاص وتفان . وكنا او بعضنا على مائدة العشاء فناكل سويا ما تطهره « مدام ستيللا سليفيا » طباحة المحلة وهي أمريكية الجنسية من اصل بولاندى . وكان من يتناول طعام العشاء يدفع ثمن مايأكله وكان في العادة ثمننا يستطيع كل واحد منا أن يدفعه . وقد كنت في نظر الجميع شخصا يحب كل واحد من النزلاء أن يتحدث اليه ليعرف شيئا من ثقافته وعن بلده مصيرنا الخالدة وعن موضوعات اخرى . كنت في نظرهم شخصا فريدا . فانا لست من البيض وانا لست من الزوج وان كان لون جلدى اسمر . وكان حديثى باللغة الانجليزية حديثا بقرب من حديث الانجليز لا الاميركيين . ويرجع ذلك الى تأثير اساتذتى الانجليز الذين بدءوا يعلموننى اللغة الانجليزية منذ دراستى الثانوية فى مدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم بعد ذلك فى المملكة المتحدة وفى المعهد البريطانى بالقاهرة لفترة سنوات . وعلى الرقم من جلدى الاسمر فقد كان بعض الاميركيين يظنوننى اسبانيا . وقد فعل ذلك « ترى نيومان » الذى كان يدرس « علم المنطق » فى لندن . وبمرور الوقت توطدت صداقتى ببعض نزلاء محلة نورفلك . كان يجمعنا المستوى الثقافى والنظرة نحو الحياة . وقد حدث فى تلك الفترة ، أى فى خلال عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ان هب على المجتمع الاميركى زوابع « جوزيف مكارثى » الذى كان يظنسه

بعث الناس من خارج الولايات المتحدة انه القسامة  
الاميركي « دوجلاس ماك آرثر » الذي قاد القوات  
الاميركية في الشرق الاقصى في الحرب العالمية  
الثانية ، والقوات المتحالفة المحتلة لليابان بعد هذه  
الحرب . اما جوزيف مكارتى فقد كان عضوا بمجلس  
الشيوخ الاميركي عن ولاية « وسكونسن » وكان من  
اصل ايرلندي وكاثوليكي وينتمي الى الحزب الجمهوري ،  
كان هو واتباعه في تلك الفترة يتعقبون بالشبهة  
والشائعة العديد من المثقفين ويتهمونهم بالموالاة للشهوعية  
واثارة الفتن . وكانت جلسات محاكمة الاخيرين تعقد  
وتبث وتشاهد في التليفزيون يوميا تقريبا . وكانت  
مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع في خلالها ملايين  
الاميركيين حول التليفزيونات متتبعين ما يدور فيها .  
وكنت مع معظم نزلاء محطة نورفلك حريصين على أن تفعل  
ذلك ونرى امامنا ما يحدث وكأننا نرى فيلما سينمائيا  
مخيفا . وقد تأكدت أن مكارتى وأعوانه ومن كانوا  
وراءهم كانوا ينفون أن لا يلفتوا نظر أعضاء المجتمع  
الاميركي الى ما يهمهم من أمور عن عمد بوساطة جذب  
انتباههم الى ما كان يحدث في هذه المحاكمات . ان مجتمع  
الولايات المتحدة كما كنت اراه ويراها غيرى من العلماء  
والمثقفين الاميركيين كان مجتمعا يستشري فيه الفساد  
في نواح كثيرة . فقد كانت اكبر نسبة من الجرائم توجد  
في هذا المجتمع ، وكانت اكبر نسبة من مرضى القلب  
توجد في هذا المجتمع ايضا . وكانت من كل عشر أنسأت  
أو سيدات أربع مريضات بمرض نفسى أو عقلى ، وكان  
من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسية  
المثلية . وكان جناح الاحداث في ذلك الحين يستشري  
في أكثر من مليون حدث . كل هذه الحقائق وغيرها مثلها

قد عرفتها وعرفها قهرى في ضوء نتائج بحوث اجتماعية  
 علمية أجريت في تلك المجالات في ذلك الحين . صحيح  
 ان مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الأمريكى  
 مستوى عال مافى ذلك من شك . وان مستوى المعيشة  
 فى مخطط الأمريكيين مستوى عال مافى ذلك من شك  
 أيضا . ولكن القارىء يعلم كما اعلم تماما انه ليس  
 بالخبر وحده يحيا الإنسان . ومهما يكن من الامر فانا  
 نجد فى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة ظواهر تشابه  
 « ظاهرة المكارثية » . أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت  
 فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة . والملاحظ ان مقومات  
 هذه الظواهر كانت فى الاغلب الاعم متشابهة . فنجد  
 انها تستند الى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة  
 غبية وأن غيابها مستحكم لدرجة انها لا تستطيع نقد  
 نفسها ذاتيا أو ان تكون فكرة أو تصورا عن ذاتها ،  
 وهى تستند أيضا الى الأندفاع العصابى أما لتحقيق  
 القوة أو للاحتفاظ بها ، وهى تستند كذلك الى ما تزود  
 به من شجاعة حيوانية وضحالة اخلاقية التى تيسر لها  
 التبرير لما تقوم به من العنف أو النزوع الى الحصول  
 الى المغنم غير المشروعة ، فضلا عما تقوم به من أنواء  
 الحق وتعمد الاذى والرديلة . كانت هذه المقومات ،  
 كلها ، تحدث عن نفسها أمامنا ، وأمام الملايين من أعضاء  
 المجتمع الأمريكى ، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية  
 على شاشة التليفزيون . وقد شهدنا قطعا أعضاء هذا  
 المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا من  
 أعضاء « مذهب الكويكرز » وأعضاء مذهب البابتستس «  
 « المعمدون البروتستانتيون » ، وما حدث فى عام ١٦٩٢  
 عندما طوردت « الساحرات » وعذبن فى مدينة سالام  
 « بولاية ماساتشوست » لمدة ستة شهور . وفى خلال



اعوام ١٨٤٠ - ١٨٥٠ عندما ظهرت الحركة المضادة  
للمذهب الكاثوليكي . ولم اكن ادهش كثيرا عندما كنت  
ارى تابعا من اتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى  
كنت اراها كما كان يراها الملايين غيرى على شاشة  
التلفزيون . كنت ارى فى هذا التابع ظلام الجهل الذى  
يعشش فى دماغه ، وكنت ارى فيه الشعور بالنقص  
واضحاً ، اما رغبته فى تحطيم من كان افضل واعظم منه  
فلم تكن تخفى على احد . وكنت ارى فى هذا التابع كذلك  
محاولته التى كان يصر عليها ليظهر قدرته على اظهار  
كل ما هو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته . وكانت  
تنتهى المحكمة واذكر اننا نزلاء محطة نورفك كنا نمكث  
على مقاعدنا قليلا . وكان لا يتكلم منا احد . ثم نتفرق  
واحدا وراء الآخر . لم يكن يتحدث معى عن ما راينساه  
وسمعناه احد ولم اكن انا ايضا اتحدث مع احد . حتى  
مع من كان يجمعنى وايامهم المستوى الثقافى والنظرة  
نحو الحياة . لم يكن يجرؤ واحد منهم ان يقول لى  
شيئا او يعلق على مراه وسمعه بشيء . ولعل ذلك  
ان يرجع الى اننى كونت فى حجرة المطبخ فى الساعة  
الواحدة صباحا فى يوم من ايام هذه الفترة وكان معى  
« ايز » الشاب الكندى . كنا نلتصق طعاما نسكت به  
« المصافير » التى كانت تترقق فى بطن كل منا . واذا  
بالنزىل الزنجى « جون جراى » يأتى الى حيث كنا .  
كان فى الخارج وفى اثناء دخوله من باب المحلة ناداه  
احد رجال الشرطة من الزنوج . وقال لنا جون انه سأل  
عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون ؟ فنفى جون انه  
سمع شيئا غير عادى او رأى فعلا استثنائيا . كان  
جون يقول لنا ذلك وهو معتق الوجهه وكانت بداه  
ترتشان . ولم نعلق بشيء ولكننا عرفنا اننا اى نزلاء

المحلة تحت المراقبة . ومن كان تحت المراقبة وهو في بلاد الغربة مثلى يصح له ان يعيش حياة الاغتراب في يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود في آن واحد . ان المسألة ، كما كنت اقول لنفسي ، ليست جيبا او خوفا او خشية ، ولكن المسألة اهم من ذلك واعظم وهي ان احرص على حياتي ان تهدم بلا مبرر . اننى كنت اقتفى مثال « اسبارتاكوس » العبد الثائر ، الذى ثار على روما والدولة الرومانية فى عنفوانها . كان اسبارتاكوس حريصا على ان يبقى حيا لكى يبدأ مهمته العظيمة ولكى يتمها بنجاح . وكان ينصح زملاءه بان يحرصوا ما استطاعوا على صحتهم لكى يبقوا احياء لكى يؤدوا ما عليهم من واجبات نحو انفسهم ونحو زملائهم ونحو المستقبل ، اقصد مستقبل الانسان لكى تتحقق انسانيته فعلا وحقا . وقد سمعت وقرأت عن مؤتمر « باندونج » الذى عقد فى شهر ابريل عام ١٩٥٥ ، وضم فى ذلك الحين تسعة وعشرين دولة من آسيا وافريقيا ، ممثلة فى رؤسائها ، وبحثت فيه موضوع مناهضة « الاستعمار » والتعاون الاقتصادى والثقافى فيما بينها . وكان الرئيس « جمال عبد الناصر » ومعه الزعيم الهندى « نهرو » والزعيم اليوغسلافى « تيتو » اول من اعدوا لهذا المؤتمر وشجعوا عليه توطئة لخلق « حركة عدم الانحياز » لتحقيق هذه الاهداف العظيمة . وقد عرفت ان الدولة المضيفة كانت « اندونيسيا » وان مدينة باندونج تقم فى جزيرة « جاوة » وهى واحدة من جزائر اندونيسيا العديدة . وكانت هذه المعلومات عندى جديدة ولكنها مهمة للغاية . وحاولت ان اتبعها فى الجسراىء وفى الاذاعات . وما ان علمت بان احد أعضاء مجلس النواب الأمريكى الذى ذهب مع من ذهبوا لحضور هذا المؤتمر ، قد اعد زيارات الى مدن الولايات المتحدة ليلقى فيها

محاضرات عن مؤتمر باندونج وان من بين هذه المدن مدينة  
بوسطن ، وانه قد تحدد موعد حضوره في مدينة بوسطن  
في خلال شهر يوليو عام ١٩٥٥ - ما ان علمت بذلك  
الا وسارعت الى حجز مقعد لي في الصالة التي ستلقى  
فيها المحاضرة في نظير مبلغ معين لا اذكره الان . وعشت  
متربحا الموعد حتى جاء ، وذهبت فوجدت القاعة غاصة  
بالمواطنين الاميركيين من الزوج . ولم يكن من بينهم  
من غير الزوج سوى عدد قليل جدا . وعلمت وانا في  
القاعة ان المحاضر زنجري . وتمنيت ان استمع الى معلومات  
تشبع حب الاستطلاع لدى . فهاهو رجل شاهد عيان  
سيتحدث الينا عما راي وعما سمع في مؤتمر باندونج  
الذي يعتبر كما كنت اعتقد في ذلك الحين انه علامة  
تاريخية سيكون لها آثار في سبيل تقدم البشرية .  
ولكن ماذا قال المحاضر ؟ كان محاضرا لبقا ما في ذلك من  
شك ، تتدفق الكلمات من فيه بلهجة الزنجية الراقية  
سلسلة عذبة . بدأ حديثه بان وصف الفندق الذي نزل  
فيه . وصف طوابقه والصالات التي توجد فيه . ثم  
وصف الحجرة التي نزل فيها من حيث الاثاث الذي كان  
فيها ونوعه . ثم اذا به يتحدث عن الطعام الذي كان  
يتناوله : طعام الافطار وطعام الغداء وطعام العشاء .  
وعندما ذكر الاسعار التي تدفع نظير كل وجبة وجدت  
القاعة تضج والحاضرين يصفقون وهم مندهشون  
من رخص الاسعار . ثم بدأ المحاضر بذكر بالتفصيل  
ما رآه في شوارع مدينة باندونج من الناس والبيوت من  
حيث ارتفاع طبقاتها ونظافتها . وكان في كل ما قاله  
« الخطيب المفوه الذي يعي مايقول والغرض مما يقول » .  
وقد رايت بعض الحاضرين عند ذكر اصناف الطعام قد  
سال لعابهم . واستمر هذا الخطيب المفوه يبدى ويعيد

ويكرر ما كان يقوله محاولاً ان يستغرق من الوقت اطوله ،  
وختم حديثه ، وكان التصفيق حاداً ، عندما ذكر ان  
الملونين من الناس في العالم هم اضعاف البيض ، وان  
النصر سيكون حتما حليفهم . لم يقل شيئا عن المؤتمر  
ولا عن الخطاب التي اقيمت فيه ولا عن التوصيات شيئا .  
ان ما ذكره كان استشارة للفرايز اكثر مما كان ملهما  
للتفكير المستنير . وقد حزنت لانني وجدت مثل هذا  
القائد الزنجي الذي تخلى عن واجباته نحو ذويه واهله  
نظير دراهم معدودات يجمعها من هنا ومن هناك ويستزيد  
حتما عن تكاليف ذهابه الى مؤتمر باندونج اذا كان  
قد صرف فعلا من حسابه سنتا واحدا . فمثل هذا  
الرجل يرسل خصيصا من جهة من الجهات المستنواة  
عن تخطيط السياسة في الولايات المتحدة والنفقات  
تكون بالضرورة على حسابها . واثار هذا الحزن ذكرياتي  
عن زملائي المحاضرين الذين اتى بهم عندما كنت متحورا  
من اعضاء برنامج التوجيه الذي كنت قد حضرته في  
احدى ضواحي مدينة نيويورك من قبل . وقلت لنفسي  
ان الشر لن يكون مطلقا ، والخير موجود حتما . وان  
الانتهازيين ليسوا وحدهم في مجتمع الولايات المتحدة ،  
وان الاشراف اصحاب الرسائل والمبادئ موجودون  
بالضرورة ايضا في هذا المجتمع . ولم يكن هذا الكلام ،  
مضغون حديثي الى نفسي ، مجرد عزاء لي ، ولكني قلته  
وانا واثق مما اقول .

• وفوجئت كما فوجيء الملايين من اعضاء مجتمع  
الولايات المتحدة بالاذاعات تبث في خلال شهر سبتمبر  
عام ١٩٥٥ ، وكأنها تنعق ، خبر الاتفاق على عقد صفقة  
لشراء اسلحة سوفيتية وقعه جمال عبد الناصر . وقد  
ذكرت تفاصيل هذه الصفقة في الاذاعات وفي الصحف

اليومية والمجلات الاسبوعية . وأنا اذكر الآن بعض  
 ماقرأت وسمعت عن هذا الموضوع من انه في خلال عقد  
 مؤتمر باندونج في شهر ابريل عام ١٩٥٥ تحدث  
 عبد الناصر مع رئيس وزراء الصين الذي كان في ذلك  
 الوقت « شواين لاي » بشأن شراء مايلزم الجيش المصري  
 من سلاح من الصين . ولكن شواين لاي ابدى عدم قدرة  
 بلاده على توفير هذا السلاح ، ووعد بالعمل على الاتصال  
 بالسوفييت في هذا الخصوص . وجاءت موافقة الاتحاد  
 السوفيتي على عقد صفقة شراء الاسلحة المطلوبة في خلال  
 شهر يونية عام ١٩٥٥ . وأوفدت مصر بعثة عسكرية  
 الى « تشيكوسلوفاكيا » لهذا الغرض في خلال شهر  
 اغسطس عام ١٩٥٥ . وبدأ لي ان عقد صفقة شراء  
 الاسلحة السوفيتية كان ضربة للحكومة الاميركية وبخاصة  
 لوزير خارجيتها « مستر فوستر دالاس » . والدليل  
 عندي ان الاذاعات وكل وسائل الاتصال الاميركية لم  
 تقف نعيمها فترة من الزمان . وأحسست ، وكان هذا  
 الاحساس من دواعي اغتيابي وفرحي ، ان هذه الحكومة  
 قد جن جنونها مما حدث ، على الرغم من لجوء الحكومة  
 المصرية المرة تلو المرة الى حكومة الولايات المتحدة لشراء  
 ما يحتاجه الجيش المصري من اسلحة واصرار الحكومة  
 الاخيرة على عدم موافقتها على بيع سلاح لمصر . وكنت  
 حريصا على ان يكون اغتيابي وفرحي لنفسى ، فلم اذعه  
 او اتحدث عنه لاحد . وكنت اعتبر ان ما حدث هو  
 احدي حسنات الحكومة المصرية على الرغم من السيئات  
 العديدة التي اقترفتها وبخاصة ماعلق منها بسيادة  
 الحياة الديمقراطية واحترام الانسان المصري واعطائه  
 الفرصة وهو على وشك التحرر من الاستغلال الاجنبي  
 في ان لا يستغل من بنيه وذويه .



واتنى اذكر ، وقد جاء الشتاء ، واتانى مدينة بوستر ،  
وبدا العام الدراسى الاكاديمى ١٩٥٥ - ١٩٥٦ اقصد  
وبدا الفصل الدراسى الاول منه ، ان الشعب الامريكى  
قد فوجئ فى اوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ بما قامت  
به السيدة الحائكة الزنجية « مسز روزا باريس » التى  
كانت تعمل فى معرض « مونتجومرى بولاية الاباما » ،  
واصبح ماقامت به هذه السيدة الزنجية تاريخا . كانت  
مسز روزا باركس بعد يوم شاق فى عملها فى طريقها  
الى « محطة الاوتوبيس » . وعندما ركبت وقفت فى القسم  
المخصص للزئوج وجلست فى اول المقاعد التالية للقسم  
المخصص للبيض . وكان « الاوتوبيس » مزدحما فامرها  
سائق الاتوبيس هى وثلاثة آخريين من الزئوج باخلاء  
مقاعدهم حتى يجلس مكانهم بعض الواقفين من البيض .  
واخلى الثلاثة الآخرون اماكنهم ، اما مسز باركس فقد  
رفضت . ولما كان مافعلته هذه السيدة الزنجية فى ضوء  
القانون بعد جريمة فقد قبض عليها وسيقت الى قسم  
الشرطة مشيعة ببعض ضجكات الركاب البيض ولعناتهم .  
وانقضى الحادث فى دقائق . ولكن من هذا الحادث  
الذى كان يبدو صغيرا انبثق مايشبه بالثورة فى محيط  
زئوج الولايات المتحدة . كان موقف مسز باركس يعتبر  
انقجارا دوى فى ارجاء الدولة ، وقد ابلغتنى « دوتى »  
النزيلة الزنجية فى محلة نورفلك انها تعرف هسله  
السيدة ، وانها سيدة طيبة « وفى حالها » ، وهى اى  
دوتى دهشت كثيرا لما حدث منها . والواقع ان دوتى  
لم تكن وحدها التى كانت تحاول اكتشاف السبب الذى  
حدا بمسز باركس الى اتخاذ هذا الموقف ، فقد علمنا  
ان سلطات مونتجومرى كانت تصر على ان « اتحاد تقدم  
اللونين » هو الذى دفعها الى ذلك والمتطرفون قالوا انها

عملية « شيوعية » . ولكن الحقيقة كما بدت لى أن مسز باركس انما عبرت عن روح العصر . لقد كانت واحدة من الزوج الذين قاض بهم الكيل . وكان القبض عليهما بمثابة الشرارة التى اشعلت نيران الحماس فى قسغوب بعض السيدات الزوجيات فكون لجنة منهن التى اتصلت بالقسس وغيرهم من القادة الزوج المدينين ، وطالبت هذه اللجنة بمقاطعة الزوج للاتوبيسات وقد كسانوا يكونون ٧٥٪ من ركاب الاتوبيسات . واخذ « قس » شاب على عاتقه مسئولية توزيع المطبوعات التى تدعو الى المقاطعة . وكان هذا القس هو « الدكتور مارتن لوثر كنج » . كانت هذه الحوادث تجرى بسرعة مذهلة ، وكنا انا ومن حولى فى محطة نورفك لى حتى فى الجامعة نترقبها اولا باول ولم تكن ندرى ما الذى سيكون مصيرها ، وان كنا ندرى ان ماحدث كله لم تكن ثورة ضد البيض بقدر ما كانت ثورة ضد قيادات الزوج واهدافهم . وبخاصة امثال المحاضرين الزوج الذين القوا محاضراتهم فى برنامج التوجيه الذى اعد لبعض الدراسات والدارسين الذين كانوا يزعمون الدراسة فى جامعات الولايات المتحدة عندما حضرت اليها فى النصف الثانى من شهر اغسطس عام ١٩٥٣ ، او من امثال المحاضر الذى ذهب الى مؤتمر باندونج ليحاضر عندما عاد عن احوال المعيشة فى باندونج وعن ألوان الطعام التى كان يتناولها وأسعارها الرخيصة التى كان يدفعها فى كل وجبة ، ولم يمس شيئا جوهريا عن ذلك المؤتمر . وفى اثناء هذه الفترة التى بداتها مسز باركس وما اعقبها من حوادث كنت اذكر ماحدث لى شخصا عندما احسست بالحاجة الى شراء « اسبرين » فى يوم كان حارا وطقسه رطبا . اذكر اننى ذهبت الى احد المحلات التجارية المنتشرة فى احدى

محطات الاوتوبيس. التي تقع في حي روكسبري ، لكي  
اشترى « الاسبرين » . والملاحظ ان جميع محطات  
الاوتوبيس كانت مملوءة بالمحال التجارية التي يجد فيها  
المرء منا ما يحتاج اليه ، وبخاصة اذا كان ما يحتاج اليه  
من الحاجات العادية كالسجائر وعلب الشيكولاته والجرائد  
والاسبرين وغيرها . ولما سألت البائعة عن الثمن الذي  
كان على ان ادفعه نظير الاسبرين المطلوب ، وكانت المرة  
الاولى التي اشترى فيها هذا الصنف ، فاذا بها تنظر  
الي بامتعاض ظانة اننى اتجاهل معرفة الثمن . واذا بها  
تندفع في غضب وتقول لى « الا تعرف الثمن ايهسىما  
النجر ؟ » لم تقل « ايها النجرو » امعانا فى اظهار فضولنا  
منى وازدراءنا . فلما قلت لها اننى لست « نجرو » او  
نجر » انما انا مصرى اطلب العلم فى جامعة بوستن لم  
يوقها كلامى وذلك لان جلدى الاسمر كان دليلا على صدق  
ماقالت . ولم يكن رد هذه البائعة على احتجاجى الا ان  
قالت لى « ادفع كذا ولا تزعجنى » ، ودفعت ماطلبت .  
ولكنى ذهبت الى حال سبيلى وانا اعذر زنوج الولايات  
المتحدة ومن فى حكمهم ، فقد عشت موقفا من المواقف  
التي يعيش الواحد منهم المئات منها فى كل يوم . وتذكرت  
الرجل الزنجى المحوز الذى استضافتنى امرته فى يوم  
من الايام لاتناول طعام الغداء عندما قال لى وهو  
بنصحنى « يا ولدى لاتثق ابدا فى الرجل الابيض » .  
ومما حزن فى قلبى انه كان يقف بجوارى احد الزنوج  
الشان عندما كان الحوار يجرى بينى وبين بائعة  
الاسبرين ، فاذا بى اراه وقد رأى قسما وجهى وقد  
تغيرت بعد المفاجأة التي سببها حديث البائعة لى ، يضحك  
ملء فمه . كان الموقف كما كان يبدو لى دراميا دعاه  
الى الضحك بصوت عال . ولم ادر فى ذلك الحين وحتى

الآن اذا كان ضحكك ستقرية منى او من اجل ماحدث  
لى . ولكنى وانا اترك المكان قلت لنفسى صحيح ان شر  
البلية ما يضحك :-

وانا اذكر ترحيبى الشديد عندما دعيت الى «الكنيسة  
الخلاصية» او «كنيسة الخلاصيين» ، تلك الكنيسة  
البروتستانتية التى يؤمن اعضاؤها ويعتقدون فى ان  
جميع الناس سينعمون آخر الامر بالخلاص . دعيت لا الى  
الصلاة ولكن لكى اشترك متطوعا فى الاشراف على دار  
حضانة أعدت للأطفال الذين يحضرون مع ذويهم الذين  
يحرصون على الصلاة فى هذه الكنيسة كل يوم احد .  
كان مبنى دار الحضانة ملحقا بالكنيسة وكان الآباء  
والامهات المصلون الذين يحضرون معهم اطفالهم يسلمونهم  
لدار الحضانة حتى تنتهى مراسيم الصلاة . وكان يشرف  
على هذه الدار سيدة مؤهلة حاصلة على درجة الماجستير  
فى علم النفس ، وقد دعيت لكى اساعدها فى الاشراف  
على اطفال الدار . وقد لبيت الدعوة لكى اعيش احدى  
التجارب فى الاشراف على الانسان عندما يكون طفلا ،  
كان الاطفال فى معظمهم من اعضاء مجتمع الولايات المتحدة  
وكان امامهم اللعب اشكالا والوانا واحجاما . وكان  
يترك لكل طفل ان يمارس ماشاء له ان يفعل . وكانت  
التعليمات الموجهة الى ان لا تدخل ضد رغبة اى طفل .  
وما على الا ان اراقبه واسجل مايقوم به من افعال او  
مايصدر عنه من انماط سلوكية . كانت تجربة رائعة لى  
وكنت ارجب رغبة اكيدة فى ان اواصل قيامى بها لولا  
الامتحانات والاستعداد لتحضير البحث الذى ستضمه  
الرسالة التى كنت ساقدمها للحصول على درجة  
الدكتوراه . ولم يمنع اشرافى على دار الحضانة ، اقصد  
الاشتراك فى هذا الاشراف اننى كنت اسمع الموعظة التى

تلقى في الكنيسة بعد الصلاة . كان مضمون أحدي هذه  
المواعظ لدهشتي الكبيرة دعوة للتبرع الي « الصين  
الشيوعية » حيث قد جرفت فياضانات بعض الانهار  
بعض الاماكن واغرقت من اغرقت ودمرت مدمرت ،  
وان من حق الصين ان تتبرع لها حتى تستطيع ان تواجه  
هذه الكوارث . والتبرعات قد تكون نقدية كما قد تكون  
عينية . وعندما نظرت الي سقف الكنيسة وجدت هذا  
السقف مزين بمثلثات كتبت على كل مثلث عقيدة من  
العقائد التي يعتنقها بنو الانسان على وجه الارض على  
اختلاف ألوانهم وجنسياتهم ومكاناتهم الاجتماعية . وكان  
للديانة الاسلامية مثلث في سقف الكنيسة الذي يظل  
المصلين ويؤدون ما من لهم من صلوات تحته . وقد  
علمت فيما بعد السبب الذي كان من وراء دعوتي  
للاشتراك في الاشراف على دار الحضانة متطوعا . كان  
السبب الاول وربما كان الاخير لانني اجنبي ، ووجودي  
بين الاطفال يعودهم على التعامل مع الاجانب فيما بعد  
عندما يشبون من الطوق . وربما كانت هناك اسباب  
اخرى لم يذكرها لي احد ولم استطع ان احدها .  
ومن التجارب التي خضتها في مجتمع الولايات  
المتحدة في خلال تلك الفترة معاملتى للطلبة الاجانب  
الذين كانوا يدرسون في الجامعة ومعاملتهم لي . كنا  
نجد أنفسنا دون ماسابق ترتيب نجتمع بعضنا ببعض في  
زاوية من زوايا « حرم الجامعة » او في « الكافيتريا » .  
اننا نعرف بعضنا بمجرد ان يرى احدانا الآخر . فلوننا  
مختلف وسمات وجوهنا متباينة وحتى اجسامنا من  
حيث الطول والقصر تكشف عن كوننا طلبة اجانب اذا  
كنا في حرم الجامعة او في الكافيتريا او مجرد اجانب  
اذا كنا نسير في الشارع او نركب الاوتوبيس . وكنت



اعرف طلبة من الهنود ومن الباكستانيين ومن سوريا ومن  
نيجيريا ومن السودان . وكنت أسعد بوجودي معهم في  
أوقات فراغي واعتقد انهم ايضا كانوا يستعدون  
بصحبتي . ولاحظت في إحدى المرات انني اذا كنت  
مجتمعا مع بعض الطلبة من الهنود لا ينضم اليها احد  
الطلاب من الهنود . واذا كنت اجتمع مع هذا الطاب  
لا يجتمع معنا غيره من الطلبة الهنود . وكنت اعلم ان  
الطالب الهندي كان يعمل قاضيا في بلده وانه جاء  
ليستكمل دراساته العليا . وعندما حاولت ان اعرف  
لماذا لا نجتمع جميعا نتجاذب الاحاديث ونتبادل الخبرات  
في المجتمع الذي نعيش فيه في ذلك الحين . قال لي  
طالب من الهنود وكان يعتنق العقيدة الهندوسية انه  
وزملاءه لا يمكن ان يجتمعوا بالطالب الهندي « القاضي »  
لانه لا يعتنق عقيدتنا وليس من طبقتنا فهو من طبقة  
المنبوذين في بلده . وذكرت له محتجا بانني وانتم معي  
والجميع من حولنا نعيشون في مجتمع مختلف من حيث  
القيم والعادات والتقاليد . وان هذا الطالب اولاً وقبل  
كل شيء آدمي مثلنا ، فضلا عن انه يمارس مهنة شريفة  
في بلده ، وهو الآن ، اي في ذلك الحين ، يؤدي دورا  
شريفا انا اؤديه وكلنا تؤديه هو دور الطالب . وذهبت  
احتجاجا على كلها وكل ما حاولت ان اذكره لانصاف هذا  
الطالب « المنبوذ » ادراج الرياح . وامتنع الطلبة الهنود  
الذين كانوا يعتنقون العقيدة الهندوسية عن مقابلة  
والاجتماع بي ، وتركتم يفعلون ذلك وانا غير آسف .  
وفي ضوء خبرتي الماضية تذكرت الرواية التي كتبها  
« مالك راج اناند » وكان عنوانها « المنبوذ : طبعة عام  
١٩٤٧ » . واتني اذكر انني كنت اقرؤها والقضب يملا  
على كياني والحزن على الانسان المقهور يعتمر قوادي .

اننى اذكر بطل هذه الرواية جيدا . كان اسمه «باخا» ،  
وكان يعمل « كناسا » ، وكان يعتبر ومن كانوا من طبقته  
انهم مجرد « قدارة » ولكنه ، كان كما كانوا ، فى ضوء  
الاعمال التى كانوا يقومون بها ، فى حقيقة الامر ، ينظفون  
قدارة « الآخرين » اكانت لدى هذه الخبرة وهذه  
المبادئ او المثل العليا ، ومع ذلك فانى احسست  
عندما قابلت الطالب الهندى المتبوء بعد ذلك لأول مرة  
احساسا قريبا لا يمت بالمبادئ والمثل العليا التى كنت ،  
ومازلت ، اتشددق بها عن الانسان وكرامة الانسان ، بصلة  
ماهذا الاحساس الذى شعرت به عندما قابلت هذا  
الطالب المقهور ياربى ؟ هل كنت اخدع نفسى ياترى ؟  
اننى لم اكن ادري ، وحتى الان ، وعلى الرغم من مواصلة  
معاملتى لهذا الطالب معاملة كلها الحب والاحترام حتى  
افترقنا، تفسير ما ساورنى من احساس عندما قابلته  
بعد ان قيل لى عنه انه من المتبوءين فى المجتمع  
الهندى . واذا اصف هذا الاحساس الان فانى اقول  
انه كان احساسا ظالما . ولكن من حسن الحظ انه لم  
يستمر سوى لحظات ، ولكننى مارسته . ولماذا حدث  
ذلك ياربى ؟ ولعل ماحدث لى كان من قبيل ما حدث  
عندما قابلت القسيس صديق مواطنى الذى كان ضيفى  
وكان يدرس للحصول على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ،  
فما ان عرف هذا القسيس صديق مواطنى هذا « اننى  
مسلم » رفض ان يصافحنى بعد ان مسستدت يدي  
لصافحته . انه مد يده لى فعلا استعدادا لصافحتى  
ولكنه سحبها ورفض ان يسلم على مجرد اننى كما قال  
له مواطنى ، دون ماداع ، « اننى مسلم » . ولعل ذلك  
مثل ماكان يحدث فى محيط جماعة الطالبات والطلبة  
الجامعيين فى جامعات مدينة بوستن ، الذين كسانوا

يتخذون محلة نورفلك مقرًا لهم في صيف كل عام .  
وذلك ليقوموا بعمليات تنظيف الشقق التي يسكن فيها  
فقراء « حتى روكسبري » ، بعد ان يتفقوا مع اصحابها  
في خلال فصل الشتاء . وكان اصحاب هذه الشقق  
من البيض الفقراء ومن الزنوج المطحونين . وكان طالبات  
وطلبة جامعات بوستن هؤلاء من الاسر التي تستطيع ان  
تدفع مصاريف الجامعة العالية فضلا عن المصاريف  
الاخرى التي تتطلبها المعيشة الرغدة لبناتها وابنائها .  
كان هؤلاء الطالبات والطلبة من طبقة غير الطبقة ،  
ويحاولون ان ينزلوا الى الطبقات الدنيا ليحتكوا ثقافيا  
بأعضائها فيفيدوا . وفي نظير ذلك او في سبيل تحقيق  
ذلك يلتصقون القيام بأداء خدمة مثل تنظيف الشقق  
عن طريق تبييضها او نقشها او اعادة تبييضها او  
نقشها . وكنت ترى اعضاء هذه الجماعة وقد حمل  
بعضهم على كتفهم « السلم الخشبي » او في ايديهم  
الفرشاة او « جردل البوية » ويسرون في الشارع  
بأصرار ودون ماوجل او خشية من احد . وكنت ارى  
ذلك مع من يرون ، وكنت ارى اعمق من ذلك في كل  
عضو من اعضاء الجماعة ، كنت ارى الحماس « العاقل » ،  
وكنت ارى الزهو أحيانا ، وكنت ارى التواضع او ما كان  
يبدو لي انه تواضع . ولانني كنت احد نزلاء محلة  
نورفلك ، ولان وقت الفراغ عندي في خلال فترة الصيف  
اطول منه في فصل آخر ، فقد كان المسئول على اعضاء  
الجماعة يوجه الدعوة الى لحضور اجتماعها بعد ان  
يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية . لم تكن هذه الدعوة  
توجه الى يوميا بالطبع . فالجماعة لها نظامها وتقاليدها  
وقيمها ولم اكن عضوا فيها . وكانت الجماعة تعيش في  
محلة نورفلك في فترة الصيف حيث لا عمل فيها او في

الجامعة . أن أعضائها في حقيقة الأمر كانوا يقيمون في  
المحلة إقامة فعلية لفترة لا تقل عن شهر . وفي الاجتماع  
الذي كنت أحضره ، أجد أن كل عضو يدلي من ورفة  
بشيء يشبه التقرير عما مر به من تجارب وما اكتسب من  
خبرات . وكان من بين أعضاء الجماعة من كانوا من ولايات  
الجنوب مثل « ولاية الباما » و « ولاية جورجيا » . وفي  
أحد الاجتماعات أدلى أحدهم وكان من إحدى العائلات  
البيض الثرية تقريره اليومي وكان مع آين يسهم في  
تنظيف إحدى الشقق لأسرة زنجية . كان هذا الشاب  
قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا في صفوف  
طلبة جامعة « هارفارد » في منطقة « كامبردج » التي  
لا يفصلها عن جامعة بوستن إلا كوبري صغير . وبدأت  
على وجه الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز  
والأزدراء جميعا . وقال ضمن ما قال أنه لا يطيق رؤية  
أحد الزنوج يسير في الشارع فكيف له أن يقوم بتنظيف  
شقة أسرة زنجية أو أن يسهم في هذا التنظيف . أنه ،  
وكان شابا ذكيا ، لا يرى بعقله ضرورة للتقزز والاشمئزاز  
والأزدراء من هذا العمل ، ولكن مشاعره تأبى عليه أن  
بواصل مابدا . كان الموقف حرجا وبخاصة وكنت حاضرا  
وكان رئيس الجماعة أو المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل  
النظر في هذه الحالة إلى جلسة مقبلة ، وسرعان ما قام  
بعض الأعضاء ليهدوا لكل من الحاضرين واثمنهم كوبا  
من الشاي ومعه نوع من « الكعك » الذي يسمونه في  
الولايات المتحدة « دونتس » . والذي لاحظت أن الأسرة  
التي ولدت لها طفلة حديثا توزع على الضيوف المهنئين  
هذا النوع من الكعك ، أما الأسرة التي ولد لها طفل  
ذكر حديثا فقد كانت توزع على الضيوف المهنسين  
« سيجارا » ! ومن هنا تبدأ التفرقة بين الذكر والانثى

حتى فى مجتمع الولايات المتحدة . اننى لا اذكر ما حدث  
امامى من هذا الطالب الذى ولد فى ولاية جورجيا  
ونشأ فى ظل مناخ ثقافتها حيث يعيش الزوج حياة  
لا آدمية ، وحيث ينظر اليهم وكأنهم اقرب الى الحيوانات  
منهم الى بنى الانسان ، وحيث يلاقون كل ما يتصور  
او لا يتصور من الوان القهر - لكى ابرر الاحساس  
الفريب الذى ساورنى عندما قابلت الشاب الهندى بعد  
ان علمت انه من طبقة المنبوذين فى بلده . اننى لم انشأ  
مناخ يؤكد كرامة الانسان وتكريمه وانه « لا فضل لعربى  
على اعجمى الا بالتقوى » . فلماذا احسست بما احسست  
هذه هى المسألة . لعل ذلك ان يكون بسبب ما قرأت  
عن المنبوذين فى المجتمع الهندى . ولعل ذلك ان يحدث  
عندما لا يجحد الذى يعمل فى مهنة كمهنة « الحائوتى »  
صديقا يزوره وهو مريض او حتى يزوره وهو سليم  
ولكنه يحتفل بزواجه او بزواج أحد اقربائه الاقربين ،  
ومهما يكن من الامر فانى قد تأكدت من ان تصرفات  
الانسان منا لا يمكن ان تكون مطلقة . فهى قد تكون  
تصرفات الاشرار الجبابرة الذين لا يرون الا اللذة فى  
التدمير والدمار . ومهما يكن من الامر « كل ابن آدم  
خطاء وخير الخطائين التوابون » . وارجو ان يلاحظ  
القارئ اننى لا انعى على مجتمع الولايات المتحدة التفرقة  
فيه بين الذكر والانثى . اننى لا ادعو الى المساواة  
المطلقة بين الذكر والانثى ، اى اننى اذا دعوت الى  
المساواة بينهما قائنا لا اقصد ابدأ التطابق بينهما بل اننى  
اقصد ان تكون المساواة بينهما مساواة فى الفرص . اى  
ان يتيح المجتمع اى مجتمع للانثى مثل الذكر فرص  
التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والفرص فى



قوة العمل والعمل السياسي والقيادة .. الخ ومهما يكن من الامر فلعل ما حدث من احساس غريب ازاء الشاب الهندي « المنبوذ » كان رد فعل للمفاجأة التي واجهتها عندما أخبرني الطالب الذي يعتنق العقيدة الهندوسية منه انه من طبقة المنبوذين ، وان رد الفعل هذا كان ، في ضوء ما اعتنق من مبادئ اكتسبتها من تنشئتي الاجتماعية في ظل ثقافة المجتمع المصري الضال ، احتجاجا عنيفاً على ما سمعت بلغ من عنفه أن وصل الى اعماق فكان هذا الاحساس الغريب .

واستمرت زيارتي لس ويليامز في المؤسسة التي تشرف عليها احيانا ، او في مصيف « روك بورت » عندما كانت تدعوني في خلال فصل الصيف اذا كان وقتي يسمح بذلك احيانا اخرى . وكما قابلت الدكتور موريس ساندروز عندها في مصيف روك بورت في صيف عام ١٩٥٤ ، فأننى في المؤسسة قابلت المواطن « حليم الضبع » وهو موسيقار او اصبح كما تشهد صحف الولايات المتحدة ومنها « كريستان سينس مونيتور » موسيقارا يؤلف الموسيقى وله مريدوه الذين يحبون موسيقاه ذات الطابع الخاص . قابلت المواطن حليم وعلمت منه انه جاء الى الولايات المتحدة كخريج كلية الزراعة ولكنه كان يمشق الموسيقى وبخاصة العزف على آلة « البيانو » ، فاذا به يترك البعثة التي جاء من اجلها الى الولايات المتحدة ويدرس الموسيقى . كان مازال في اول السلم . وانا اذكر اننى عندما قابلته لأول مرة كان يعزف وحده امام جمهور ليس كبيرا موسيقي من تأليفه ، وكان يستعمل مع آلة البيانو « الطبله » التي نعرفها في مصر حق المعرفة ، ونراها في الأفراح وفي المناسبات السعيدة بين أيدي البنات المصريات يعزفن

عليها لحنا راقصا يحفز البنات الأخريات وحتى النساء  
الى الرقص . وكانت آلة الطبله هذه آلة لا يعرفها في  
الغالب عامة شعب الولايات المتحدة . فكان وجودها  
حليم وهو يعزف عليها باتقان مدعاة للاعجاب . انتهى  
المواطن حليم من عزفه واستحسن بعض الحاضرين ماعزف  
وكان ماعزف عند البعض الآخر شيئا ينم على الغرابة .  
وكنت اجلس بين الحاضرين وانا مشفق كل الاشفاق  
متمنيا لمواطني النجاح والتوفيق . وكانت تجلس  
بجوارى سيدة شابة ابلغتني انها زوجة حليم وانهما  
قد انجبا ابنة اطلق عليها اسم « شادية » تيمنا بالمغنية  
المصرية المعروفة « شادية » . وقد تزاورت مع مواطني  
حليم . كنت اذهب اليه عندما ازور مصر وليامز وكان  
يزورني في المحلة وكنا نقضى في كل مرة وقتا سعيدا .  
وقد يسرت مس وليامز له مكانا لكي يسكن فيه على ان  
تقوم زوجته « ماري » وهذا اسمها بالخدمة في المؤسسة  
التي تشرف عليها لفترة ساعات محددة في كل اسبوع .  
وكانت ماري تعمل كل مافي وسعها لكي تيسر لمواطني  
حليم الضبع « مشروع الموسيقى » في ذلك الحين .  
المناخ الثقافي الصحي لكي يتفرغ لموسيقاه . كانت هذه  
الزوجة تؤمن ايمانا عميقا بموهبة زوجها . وكانت  
ترفض اقتراح عودة حليم الى بلده لكي يشق طريقه  
فيه . كانت ترى انه سيقابل بالهبات الكؤود مما يبدد  
طاقته فيما لم تخلق له . ان هذه الطاقة طاقة حليم ،  
كما كانت تقول زوجته ، طاقة ثمينة ويجب ان تستنفد  
في دراسة الموسيقى وتاليف الموسيقى والتفكير  
للموسيقى . وقد ابلغتني ماري كيف قابلت حليم لأول  
مرة . كانت قد تسلمت تلا من التلال التي توجد في  
الولايات المتحدة . وكانت وحدها . ثم وصلت لله .

ولمعت أن من يأتى بعدها يكون شابا ، وأن يكون هلالا  
الشاب من نصيبها كزوج المستقبل . وائى حلیم فعسلا  
متسلقا التل بعدها . وتعارفا . وكان من نصيبها ان  
يكون زوجها وأبا لابنتها شادية التى عندما رأيتها لأول  
مرة كانت طفلة تحملها عربة يد ولم يكن قد بلغ عمرها  
اكثر من عدة شهور . وانا لا اعلم منذ عودتى الى مصرنا  
الخالدة عن حلیم الضبع الموسيقار ولا عن زوجته ماري  
ولا عن ابنته شادية او غيرها من ابناء او بنات شيئا .  
ولكنى مازلت اذكر الساعات الحلوة المثمرة التى كنا  
نقضيها فى اوقات فراغنا . وقد علمت ان حلیم عاد الى  
مصرنا الخالدة ليجمع بعض الاغاني الشعبية المصرية من  
بلاد النوبة قبل الانتهاء من بناء السد العالى ، وغيرها .  
ثم غادر البلد الطيب ، ولم احظ بمقابلته ، بما حمل من  
كنوز الى حيث ولدت زوجته ماري وابنته شادية ..

ومنذ ان قابلت الدكتور موريس ساندروز عند مس  
وليامز فى مصيف بورت فى عام ١٩٥٣ ، وهو لم يقطع  
زياراته لى فى محلة نورفلك . كان يأتى الى ليزورنى  
ويتحدث معى مرة فى كل اسبوع او مرة فى كل  
اسبوعين . كان يحاول ان يعرف عنى الشئ الكثير .  
وكنت تراه يقلب فى الكتب التى اقتنيها . وكنت اشترى  
هذه الكتب كلما مررت بمكتبة تباع الكتب . انها زادى  
العلمى والثقافى . وان لم تكن المصدر الوحيد لهذا  
الزاد . كان يأتينى على حين غرة ودون سابق ميعاد ،  
ويتصافد وجود اطفال الاسر التى تعيش معى فى المحلة  
عندى ، كانوا يأتون الى لى ، كما كانوا يتصورون ،  
« يضحكوا على ذقنى » فياخذوا بعض الحلوى والفاكهة  
التي عندى وقد يطلبون نقودا . وكنت البى رغباتهم فهم  
عندى لا يضيعون وقتى بل على العكس كانوا يزودونى

باسمى العواطف التى كانت تتغذى روحى عليها فاجدنى  
بعد أن يذهبوا غانمين أنشط لاستذكر دروسى أو أبدأ  
صفحة جديدة فى البحث الذى أقوم بإجرائه . وإذا جاء  
دكتور موريس وكان الاطفال عندى قانهم كانوا يصابون  
بغيبه امل كبيرة ويرفضون باباء كل مداعباته التى كان  
يحاول ان يجتذبهم بها اليه . وذات مرة وجدت احدهم  
وكانت « المسطرة » التى استعملها على مكتبى ياخذها  
ويمسكها بيديه ويصوبها نحو دكتور موريس وكأنها  
« بندقية » وأنه يقصد ان يقتله . وإذا كان من حظى ومن  
حظه يأتى وأنا وحيد فان الفرصة تكون متاحة للحديث .  
تحدثنا عن بيروت المدينة التى كان يعمل فيها ، وتحدثت  
عن ذهابى الى مدينة بيروت لأول مرة فى عام ١٩٤٩  
لاحضر « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية » ،  
وتحدثت عن مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر وكيف  
نشأت ، وكان ضمن من تحدثت عنهم « الدكتور ويندل  
كليلاى » الذى أسهم فى انشاء « الجمعية المصرية  
للدراسات الاجتماعية » . وكان الدكتور موريس يتحدث  
عن « القضية الفلسطينية » وكان يؤكد ايمانه بحقوق  
العرب ويشيد بمن عرفهم من قادتهم . ويحاول دائما  
ان يبدى التعاطف نحو قضيتهم . وكان يأتينى بأخبار  
عن أناس شاهدوني وأنا فى « حلقة الدراسات الاجتماعية  
الدول العربية » التى كنت أحد اعضائها ممثلا للجمعية  
المصرية للدراسات الاجتماعية . او يأتينى بتحيات  
دكتور ويندل كليلاى الذى قال عنه انه يعمل الان أى  
فى ذلك الحين فى وزارة الخارجية الاميركية ! وفى  
يوم من الأيام ذكر لى عن « الدكتور حليم مبرى » الذى  
كان يعمل معنا فى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحاكمة  
الاحداث لفترة قصيرة من الوقت ثم هاجر الى الولايات

المتحدة . وقال عن الدكتور حليم انه يود ان يرانى واعطانى رقم تليفون منزله واكد لى على الوقت الذى اجدته فى المنزل اذا كانت لى رغبة فى التحدث اليه والاتفاق معه على موعد . ومن احاديث الدكتور موريس ومن الاخبار التى كان يأتى بها عنى علم اليقين اننى تحت مراقبته . اى انه كان يحاول ان يتأكد من صدق المعلومات التى كنت ادلى بها اليه عن نفسى وعن مهنتى وخبرائى ومن اعرف من الناس . ووجدته ذات مرة وهو يزورنى فى حجرتى فى محطة نورفلك يقفز كاللسوع عندما رأى كتابا كنت قد اشتريته لتوى ويتضمن « دراسة حالة » بعض شيوعى مجتمع الولايات المتحدة ، وانتهى مؤلف الكتاب الى بعض النتائج منها ان هؤلاء الاشخاص اما ان يكونوا مرضى عقليا او مرضى نفسيا ، وانهم فى ضوء دراسة كل منهم عاشوا فى اثناء مراحل طفولتهم حياة خالية من الحب واقرب الى التعاسة منها الى السعادة . اى ان مؤلف الكتاب يحاول باسم العلم او باسم الدراسة العلمية ان يشجب « المذهب الشيوعى » عن طريق بعض قاده الاميركيين . ومع ذلك فان الدكتور موريس بدا منزعجا لان مكتبتى تضم هذا الكتاب وطلب منى ان اسمح له باستعارته لى يقرأه ، واننى اذكر اننى اجبته الى طلبه . واذا ابحت عن هذا الكتاب فى مكتبتى منذ عودتى من الولايات المتحدة فلا اجدته وتذكرت اخيرا ان الدكتور موريس لم يرده منسدا ان استعاره منى . ومع ذلك فان هذا الرجل كان من العوامل الهامة لى اعرف الكثير عن المجتمع الاميركى وبخاصة عن اعضائه الذين يفخرون بانهم « ياتكيون » اى الذين يرون انفسهم من الصفوة المختارة فى هذا المجتمع . وترأهم ، والمجتمع الاميركى فى تغير مستمر ،



يدعون بأنهم هم أصل الحضارة الأميركية وأن الثقافات الفرعية مازالت تدين لثقافتهم الأولى بالشئ الكثير . فالفردية مازالت سائدة في المجتمع الأمريكي . وفضلا عن ذلك فإن حب المبادرة وعشق النجاح المادي وروح المغامرة ، كلها ، من سمات هذا المجتمع . وقد تضاف الى هذه السمات كذلك سمات التدين والمثالية والمساواة والاستقلال في ابداء الرأي والديمقراطية سواء كانت سياسية او اقتصادية « ومن قيم الأخيرة ان المستهلك ملك مثلا » . وكان موريس ساندروز يدعوني الى لقاء المجازرات ، وهو يباهى نفسه ويباهى الآخرين ، في الجمعيات المنتشرة في روك بورك حيث يعيش معظم ايام السنة . وكان يفاخر بي كأحد الدارسين الذين على وشك الحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ، واذكر بهذا الصدد ان إحدى الفتيات المعوقات ، وكانت من أسرة ثرية جدا ، ولا تجد الا اوقات الفراغ تملأ عليها حياتها . لا صديق ولا حبيب ولا زوج . فاستغلت هذه الاوقات لكي تتعلم الرسم ، وكانت لديها الموهبة فعلا ، فأنتهت الى الاعداد لقيام معرض لها ، ولم يكن المعرض الاول ، تتضمن لوحاته وجوه اشخاص متباينين ، ذكورا واناثا ، فاختارني الدكتور موريس لآكون واحدا من هؤلاء . واذكر ان هذا المعرض قد أقيم فعلا وحضر جميع من قاموا بدور « الموديل » من الذكور والاناث وغيرهم من الضيوف وكان يوما حافلا بدأ الناس الذين قاموا بدور الموديل وغيرهم ينظرون الى الصورة والى الاصل ويعجبون أو يبدون وكأنهم يعجبون . قالفتاة كانت لا اصابع لها ، واقدامها لا تستطيع الوقوف عليها ومع ذلك فقد كانت مثالا للشجاعة والاصرار . ولعل ظروفها الثقافية الاجتماعية والاقتصادية قد سرت لها ان

تقوم بما كانت تقوم به وان تشغل أوقات قراءتها بعمليات  
الخلق الفنية وتذوق كل ماهو جميل . وقد جلست أمام  
هذه الفتاة بضعة أيام ، ولكننى كنت اجلس فى كل يوم  
بضع ساعات فقط حيث اجدالخدم والحشم من حولى  
يحاولون ان يفرقونى بالالوان العديدة من المأكولات  
والمشروبات التى تدل لا على الكرم بقدر ماتدل على الثراء  
الفاحش . فالوانى التى كانت تقدم فيها هذه المأكولات  
والمشروبات لا تقدر بثمان أو لا يستطيع شخص مثلى أن  
يقدرها بثمان . وكان موقع المكان الذى كنت اجلس فيه  
قطعة حية من الجمال بالوانه المختلفة . كان كل شيء  
جميلاً: الحديقة وما فيها من ورود وثمار والارائك  
والكراسى والنظافة التى تلمسها فى الحوائط وعلى  
الأرض وقطع الاثاث الفنية التى تزين كل ركن فى الحجرة  
فضلا عن الحديث والكلاسيكى من الصور التى تزدان  
بها الحوائط . اجل كان كل شيء جميلاً وقد تعمده  
أصحاب القصر ان يجعلوا المكان كذلك لكى يجتذب انظار  
الزائرين فلا يرون فتاتهم المعوقة الا وهى فى هذه البيئة  
الخاصة فتجذبهم الاشياء الجميلة التى فيها اكثر مما  
تجذبهم ماكان تعاني الفتاة من عاهات وتشوهات . وفى  
الحقيقة ان كل ذلك بالاضافة الى المهارة التى كانت  
تبديها وهى تمارس عمليات الرسم والشجاعة والاصرار  
التي كانت تمكسها قسما وجهها الدميم ، وقيرها ،  
كانت تجعلنى وانا جالس امامها لا أرى الا جمالا محببا  
سواء اكان هذا الجمال ماديا ام معنويا .

وقد تحدثت تليفونيا مع الدكتور حليم مبرى  
وتواعدنا لاقابله ويقابلنى . فقد كان هذا الرجل انسانا  
كريما . كان اول من لى لفحص امى عندما مرضت  
مرضها الاخير . فكان له على حق كبير . وكان لا يرفض

أداء خدمة طبية لأحد وبخاصة للفقراء وذوى الحاجة  
فكنت تراه فى عيادته فى ميدان الجيزة وكأنه ساسا  
مستترصف خيرى . وقد كان شخصا مثقفا حقا ويتقن  
اللغات كما كان يتقن أداء مهنته كطبيب . كان يعمل  
معنا كعضو من أعضاء أسرة مكتب الخدمة الاجتماعية  
لمحكمة الأحداث بالقاهرة . وعندما صمم على الهجرة  
الى الولايات المتحدة ليدرس علم النفس التحليلى ولكى  
يؤهل ليصبح طبيبا نفسيا ، ودعناه وكان حينا واحترامنا  
له يسبقنا . ذهبت مع الزميلات والزملاء الى المحطة  
لنقول له الى اللقاء والقطار يسير به الى مدينة  
بورسعيد حيث يأخذ السفينة التى كانت ستقله الى  
مصره . وكانت لحظات ، وبالحا من لحظات . كنا  
نحن الاخصائيين الاجتماعيين ومعنا السيدة الزا ثابت  
قد أحسننا وكاننا فقدناه الى الابد . وتقابلنا فى  
الموعد وكان سعيدا باللقاء وكنت باللقاء ايضا سعيدا .  
وجلسنا ساعة او بعض الساعة نتحدث عن الماضى وعن  
الحاضر . كان قد حقق امنيته واصبح طبيبا نفسيا  
ناجحا فى أحد المستشفيات . وقبل أن نفترق تحدثت  
معه عن المواطن حليم الضبع وزوجته ماري وابنتهما  
شادية ، فرحب بمقابلتهم فى مسكنهم ، وتم اللقاء فى  
مسكن حليم الضبع بعد موافقته هو وزوجته . وكانت  
جلستنا طويلة واحاديثنا اطول . تحدثنا عن مصرنا  
الخالدة وعن الفنون بالوانها وعلى راسها فن الموسيقى  
الذى يمارسه حليم الضبع . وكنت وهو من حين الى  
حين نتذكر الماضى ، الاماكن والاشخاص . وقد بدا لى  
انه تفسر بعض الشئ فى الوقت الذى أبدى نفس  
الملاحظة عنى ، فقد لاحظ أن شعر راسى بدأ يتساقط .  
وداعبنى فى هذا الشأن مداعبة أسعدتني كما أسعدت

المضيف وزوجته . ثم حان الحين لكى نتصرف ولكن الدكتور حليم مترى اصر على دعوتنا على تناول عشاء . وعلى الرغم من سنه الذى جاوز الخمسين فقد كان لم يتزوج ، ومن ثم كان تناول العشاء فى احد المطاعم المعروفة . وذهبنا حليم الضبع ومارى وأنا ووجدناه ينتظرنا فى الموعد والمكان المحددين . وكانت ليلة سعيدة حقا . كان الطعام شهيا فعلا وكانت الاحاديث اشهى . وتفرقنا ولم ار الدكتور حليم مترى الا بعد ان انتهيت من مهمتى وتحدد موعد عودتى الى القاهرة ، وكنت وحدى ، وأبلغنى رسالة شفوية للسيدة اخته عندما اعود . ولكنى كنت ارى المواطن حليم الضبع ومارى وشادية فى خلال الفترة التى كنت مازلت انتظر فى خلالها تحديد موعد مناقشة الرسالة التى قدمتها وفاء لمطالب الحصول على درجة الدكتوراه .

وعندما حان موعد مناقشة هذه الرسالة فى اول شهر مايو عام ١٩٥٦ كانت سعادتى مابعدا ولا قبلها سعادة . فقد مرت الايام التى كنت انتظر فيها هذا الموعد ثقالا وخفيفة . وكان بعضها حلوا وكان بعضها مرأ . وحتى فى اثناء الايام الحلو التى مرت بى فقد كنت اشعر دائما بأننى احد اعضاء احدى اقلية مجتمع الولايات المتحدة . وقد عانيت المرض مرارا وتكرارا . وكنت أحيانا اشعر بالمرض واعرف نوعه . وكان للصيدلى امريكى الجنسية اليونانى المولد الفضل الاكبر فى تخفيف آلامى . وقد كنت مريضا بعد انتهيت مهمتى ولم اكس ادرى بمرضى حتى اكتشفه الاستاذ الدكتور « جان دوس جالى » عندما عدت الى القاهرة . ويبدو ان انقاذى من الاستجابة للنزوات الانسانية لم يكن مبعثه المرض وحده بقدر ما كان مبعثه استغراقى الشديد وعطلى التواصل من أجل تحقيق المهمة التى من اجلها جئت الى الولايات

المتحدة في يوم ١٥ من شهر أغسطس عام ١٩٥٣ . وكم  
ألني هذا الاستفراق الشديد وهذا العمل المتواصل ،  
وكم هانيت منهما نفسيا . وقد أصبحت في نظر من  
جولي « هزيلا » وتشتع ميثاق الحزن الدفين . ومهما يكن  
من الامر فإن الاستفراق الشديد والعمل المتواصل كانا  
من عوامل خروجي من أزماتي النفسية ، كما كانا في  
الوقت نفسه من عوامل الامراض التي ألمت بي . اقصد  
الامراض الجسمية التي كان من بينها « مرض التهاب  
الكلية اليمنى ومرض التهاب المرارة » اللذين بسببهما  
او بسبب احدهما أصبت بمسرح ارتفاع ضغط  
الدم » . وانا اذ احاول ان اشخص ما ألم بي ، مسن  
حيث لا ادري ، وانا اكتب هذه السطور ، فان هذه  
المحاولة هي مجرد اجتهاد . وذلك لانني في ضوء تعاليم  
الطبيب خضعت لاجراء عملية جراحية في « كليتي اليمنى »  
ولكن كان مرض « ضغط الدم » مازال قائما وكنت من  
اجل ذلك اتعاطى الادوية المستمرة لفترة طويلة ، ولما  
خضعت مرة اخرى لاجراء عملية « استئصال المرارة » ،  
لم يصف الطبيب دواء لضغط الدم ، وان كان قد وصف  
ادوية اخرى تتعلق باستئصال المرارة . ولم اكن اشعر  
فحسب بأنني احد اعضاء احدى اقلية مجتمع الولايات  
المتحدة ، ولكنني كنت اشعر انني تحت المراقبة . كانت  
مس وليامز تكاد ان تطاردني ب « عزاييها » ودعواتها ،  
وكان الدكتور كاوتس وزوجته المجريين الاصل الاميريكيين  
الجنسية يطارداني فعلا لكي احضر اسبوعيا الى منزلهما  
واقضي النهار بطوله معهما ، وكان الدكتور موريس  
ساتدرز لا يفتي ان يحضر الى في محلة نورفك في كل  
حين دون ماسابق انذار وكان يحاول ان يرسل الرسائل  
الى مدينة بيروت او الى مدينة واشنطن والى غيرها  
ليتأكد من « هويتي » ولكن يعرف عني ماشاء ان يحاول



ان يعرف . اتنى فى البداية كنت اشكر الجميع  
لاهتمامهم بى ، ولكننى تأكلت بمرور الوقت أن هذا  
الاهتمام لم يكن « لسواد عيني » . وائنى عندما كنت  
احس بالافترا ب وائنى موجود وقير موجود فى آن واحد  
اسعد بصحبة هؤلاء الناس ، ولكن سرعان ما كنت افيق  
لنفسى واحاسبها على كل كلمة اقولها . وعندما تحدد  
موعد مناقشة الرسالة اصر الدكتور موريس ساندروز  
على أن يصحبنى الى حيث يناقشنى اعضاء هيئة  
التدريس فى قسم الاجتماع والانثروبولوجيا الذى كان  
يرأسه البروفسور البرت موريس . وناقشنى الاساتذة  
لمدة ساعتين مناقشة غير علنية . وقد كان الفضل  
للبروفسور موريس عندما التام جمع الاساتذة وكنت  
جالسا فى احدى الحجرات وحدى وقال لى بأن لاخشي  
أحدا لائنى كما ذكر الوحيد الذى يعرف مضمون الرسالة  
من الالف الى الياء . وأنتهت المناقشة على خير مايرام .  
وهنائى الاساتذة وشكرت كل واحد منهم شكرا مخلصا .  
وآن الاوان لى اعود الى محلة نورفلك اقصد  
الى بلادى ، وخرجت الى الشارع فوجدت الدكتور  
موريس ساندروز منتظرا وسألنى عما حدث وما أن ذكرت  
له بعض ماحدث ونتيجة ماحدث اذا به يقترح على أن  
يدعونى الى احد المطاعم التى تقدم ألوانا من الطعام على  
الطريقة الفرنسية احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . وقد  
لبيت هذه الدعوة شاكرا حامدا . وعدت الى محلة  
نورفلك واستقبلنى الزملاء استقبالا طيبا واصرروا أن  
يحيوا احتفالا على شرفى بالمناسبة . فحددت لهم موعدا  
متأخرا حتى اقوم بحجز مكان لى على السفينة التى  
كانت ستقلنى الى بلادى . وبعد أن أتممت الاجراءات  
الضرورية ومنها أنه لا توجد على لحكومة الولايات المتحدة  
ضرائب مستحقة ، سارعت الى حجز مكان لى فى

السفينة التي كانت متقلع من مدينة نيويورك « في يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وأقام الزميلات والزملاء في يوم ٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ احتفالا على شرفي بمناسبة حصولي على درجة الدكتوراه . وقد شكرت لهم جميعا وبخاصة الذين تفضلوا بالإعداد والاشتراك . وقال كل منهم كلمة بالمناسبة ولكني ، كما كانوا وكان غيرهم يرونني ، كنت هزيلا وكان الحزن العميق العميق يبدو واضحا في بريق عيني . لم اكن حزينا لفراقهم ولكن لما لاقيت ، كما استطيع الآن ان افسر هذا الحزن الدفين العميق من ألوان العناء في ضوء التجارب التي خضتها منذ ان مات ابي في مساء يوم السبت ١٨ من شهر يناير عام ١٩٣٠ ولا يعني هنسا التفسير انني اغبط حقوق هؤلاء الزميلات والزملاء على واحتضانهم لي وشغفهم بمحادثتي من حين الى حين واصرارهم على ان اكون بينهم في رحلاتهم وفي حفلاتهم في المناسبات ، ثم اخيرا وليس آخرا خطاباتهم التي ارسلوها لي بعد هودي الى القاهرة وكانت تتضمن مايدل على العلاقات الطيبة الكريمة التي كادت ان تتوطد بيننا . ولن انسى « البرقية » التي انتظرتني عندما اعطاها لي الشخص المسئول وانا في طريقى الى حجرتي في السفينة في يوم السابع من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولا اخفى على القاريء الشعور بالذنب الذي كان ينتابني كلما تذكرت معاني التعصبات التي قالها زملائي وزميلاتي في المحلة في الاحتفال الذي اقاموه على شرفي ، او ذكروها في خطاباتهم التي لم تنقطع لمد طويل ، وذلك لانني لم احزن ابدا لفراقهم . ولعل ذلك ان يرجع الى انني كنت اعيش في ظل مناخ ثقافي اجتماعي لم يكن يتفق في كثير من الامور مع مبادئ وقيمي وما اقدس من اهداف . وعزائي الوحيد انني مازلت على اتصال باستحاذي

البروفسور ألبرت موريس والسيدة الفاضلة حرمه ،  
اتصال الحب والاحترام واعترافي بالجميل . شسائي  
شان كل مصرى تتغلغل في كيانه النفسى قيمة « المجاملة »  
التي تعنى « المعاملة بالجميل » ولا تعنى أبدا المجاملة  
على حساب سلب حق الآخرين . ومهما كانت وجهة  
نظري نحو مجتمع الولايات المتحدة الذي عشت فيه  
مايقرب من ٣٤ شهرا ، فأننى مافى ذلك من شك قد  
أقذت كثيرا سواء كان مصدر افادتي المصادر الاكاديمية  
او غيرها . وكما ذكرت من قبل فان المصادر الاكاديمية  
وان زادتنى معرفة وخبرات فقد اكدت معرفتى وخبرائى  
السابقة وبخاصة ماكنت قد اكتسبتها فى خلال الفترة  
التي عشتها فى مدينة لندن للمرة الثانية ، اى فى خلال  
شهر فبراير عام ١٩٥١ الى شهر يوليو عام ١٩٥٢ .  
اى انها اكدت هذه المعرفة والخبرات التي اكتسبتها فى  
خلال ١٨ شهرا فى مدينة لندن وان عارضتها جذريا فى  
بعض الاحيان .

واننى اذكر اننى ذهبت توا الى المحلة بعد ان انتهيت  
من مناقشة الرسالة لكى ارتب كتبى واضعها فى صناديق  
مصنوعة من الصاج . كان عدد هذه الكتب حوالى  
خمسمائة كتاب وربما اكثر من ذلك . وقد حرصت على  
ان اشحنها الى مدينة نيويورك فى اليوم التالى لحجز  
مكان لى فى السفينة التي كانت ستقلع من هذه المدينة  
فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وكان هذا اليوم  
يوم ٢ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ولم يكن يعلم احد  
بميعاد الحجز . وتم شحن الكتب نهارا فى يوم ٣ من  
شهر مايو عام ١٩٥٦ ، وحرصت على ان لا اخبر احدا  
بذلك . وما ان انتهى الاحتفال مساء نفس ذلك اليوم  
حتى ذهبت الى حجرى لكى ارتب ملايى فى ثلاث  
حقائب ، منها حقيبتان كبيرتان واخرى صغيرة يمكن

إن أحملها بيدي . وفى يوم ٤ من شهر مايو عام ١٩٥٦ استأجرت « باكسيا » الى المحطة ومنها الى مدينة نيويورك التى وضعت اليها فى ظهر نفس اليوم ، وكنت قد حرصت على ان اكتب خطابا لكل النزليات والنزلاء و « مستر ديفيز » و « مستر دن يونج » و « مستر شيبا » الياباني الاصل والاميركي الجنسية . وكانت الخطابات كلها متشابهة وتتضمن الشكر الجزيل والتمنيات الطيبة لكل واحد منهم . ولم اسلم مكتاح ابواب المحطة لاحد ولكنى وضعت فى المكان المعد لمستر دن يونج لاستقبال الخطابات التى كانت ترد اليه . ويبدو اننى ذكرت موعد اقلاع السفينة الى « مس وليامز » التى اصررت على ان ابقى لحضور الاحتفال بيوم التخرج الذى تقيمه الجامعة سنويا . وكان هذا آخر ما كنت أفكر فيه او اقبله . وكفانى/ماقاسيت من عناء يوم الاحتفال بيوم حصولى على درجة الماجستير . . ولم تكن امصابى تتحمل عناء اكثر . ان كيانى كله فى ذلك الحين كان متوجها نحو مصرنا الخالدة . نحو مدينة القاهرة العجيبة حيث تعيش زوجتى وفى ظل حنايتها يعيش ابنائى : احمد وآمال وسمر وتيسرومسعد . اننى كما تركت كل شىء وراء ظهري عندما اقلعت الطائرة فى طريقها الى نيويورك ، تركت ايضا كل شىء وراء ظهري عندما كنت افادر مدينة بوستن الى مدينة نيويورك حتى اركب السفينة التى كانت ستقلنى ووجهة نظرها البحر الابيض المتوسط حيث تطل عليه عروسه الخالدة «مدينة الاسكندرية » . لقد ألحت على مس وليامز الحساحا شديدا لى ابقى الى يوم الاحتفال بيوم التخرج ووعدتنى بشراء هدية لى هى « روب » جديد يصبح ملكا لى بعد ان اؤدى مراسيم الاحتفال ! ويبدو اننى ذكرت لها موعد اقلاع الباخرة عندما كانت تحدثنى تليفونيا فى يوم

٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ لى اتخلص من العاجها المتكرر فى حديثها التليفونى الذى استغرق وقتا طويلا ، وكان ان ذكرت هذا الموعد بدورها للدكتور موريس ساندروز الذى وجدته امامى على ظهر السفينة فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٦ قبل ان تطلع من مدينة نيويورك ببضعة ساعات . وما ان وصلت الى هذه المدينة تذكرت زميلى محمد شلبى الذى كان يعمل فى هيئة الامم المتحدة ويحاول فى الوقت نفسه ان يحصل على درجة الدكتوراه ولكنى لم اكن اعرف عنوان مسكنه وحدثت ان يكون بالضرورة فى هذا المسكن تليفون . وكنت مازلت فى محطة السكة الحديد وحولى الحقائق التى اصطحبتها معى . وذهبت الى « كابينات » التليفونات العمومية الموجودة عادة فى محطات السكة الحديد فى الولايات المتحدة وحاولت ان اجد رقم تليفون الزميل شلبى من « دفتر » التليفون . ولكنى لم اجد دفترا واحدا بل دفاتر عديدة وتذكرت لتوى ان مدينة نيويورك ليست مدينة القاهرة . وعندما عثرت على رقم التليفون تنفست الصعداء ، ولكنى فى البناء محاولتى الاتصال كانت دقائق قلبى ، كما اذكر وقت كتابة هذه السطور ، تدق بعنف وبسرعة . فقد خشيت ان لا اجد الزميل شلبى فى منزله فى الساعة التى كنت احاول الاتصال به تليفونيا . اننى احسست فعلا وحقا فى تلك اللحظات باننى مجرد قطرة فى محيط ، فالنقود التى كنت احملها لم تكن مبلغا كبيرا وانا اجهل المدينة ولا اعرف الى اى فندق تكون اسعار استئجار حجراته تنفق ومافى من تقود . وكانت حاجتى الى الاتصال بزميلى لى يرشدنى الى هذا الفندق . ولكن من حسن حظى كان موجودا ورد على واستراحت نفسى فقد كان كريما لانه مالبث ان دعانى لزيارته فى منزله بعد



أن أعلمني بأرقام الأوتوبيسات التي كان يجب على أن أركبها لأصل إلى أقرب محطة إلى منزله . وعندما تركت الأتوبيس وجدته ينتظرني وكانت فرحتي لا تقدر فقد غاب عن ناظري سنوات . وأبلغني أنني سأبيت الليلة في منزله حتى يتصل ببعض المواطنين المصريين الذين يوجدون في مدينة نيويورك حيث يجدوا لي مكانا مناسباً لأنزل فيه ليلتين فقط : ليلة السادس وليلة السابع من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ونمت مع الزميل شلبي في سريره وكنا بعد أن تناولنا طعام العشاء قد تحدثنا طويلاً عن كل شيء اشتركنا فيه في الماضي منذ عام ١٩٣٧ أو مانود أن نفعله في مستقبل الأيام . وطلبنا الحديث حتى وجدنا الحاجة الماسة إلى النوم تطاردنا وقبل أن نستغرق في النوم تحدثنا ولكن كان الحديث حديث الشخص المتعب . واستيقظنا في الصباح فاذن بالزميل صباح الدين على والزميل عدلى سرجيوس ومعهما المهندس على رأفت يجيئون . وكان استقبالنا لهم واستقبالهم لنا حاراً حقاً . فلم أكن قد رأيت زميل الدراسة صباح منذ فترة طويلة جداً . وكانوا الثلاثة يدرسون للحصول على الدرجات العليا الماجستير ثم الدكتوراه . وقد نجح فيما بعد كل من الزميل شلبي والمهندس على رأفت في الحصول على درجة الدكتوراه في حين أن الزميل صباح والزميل عدلى اكتفيا بالحصول على درجة الماجستير . وعشت أيام ٥ و ٦ و ٧ مع الأخوة والزملاء لم يتركوني في اليومين الأولين إلا عند النوم . وقد لاحظت من كان يعرفني منهم كم كنت هزئياً في ذلك الحين . وأنا كنت في الواقع مريضاً ولكني لم أكن أدري . كانت الفترة القصيرة جداً التي مكثتها في مدينة نيويورك في تلك الأيام فترة استجمام لي . وعلمت

الكثير من الأختبار عن بلدنا الخالدة وقد تُصعني الزميل  
صباح اننى عندما اضع قدمي على ارض الكنانة المقدسة  
اذهب لتوى الى « سراي قصر القبة » لاسجل اسمي  
« في دفتر التشریفات » ، وان اقابل بالضرورة الصائم  
مجدى حسنين حتى ابدأ حياتي مطمئنا على مستقبلتي  
وعلى مستقبل اسرتي الصغيرة ولكنني لم افصل ذلك .  
وقد رافقوني جميعا الى السفينة في صباح يوم ٧  
من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وأصروا على التقاط صورة  
جماعية على ظهر السفينة قبل ان يرحوها مودعين .  
وما ان ذهبوا الى حال سبيلهم اذا بالدكتور موريس  
ساندرز يظهر امامي . وقد جاءني مودعا كما قال .  
ولكنني فوجئت بحضوره . ولم تدر آثار المفاجأة كثيرا ،  
فقد قدمني الى سيدة امريكية ذاهبة معنا ولم اعرف منة  
ولا منها الى اين كانت ذاهبة . وكان يصحبها زوجها  
الذي لم اره طوال الرحلة . ولم اعرف بدأ ما الذي قاله  
الدكتور ساندرز لها عنى وقد احساست انها سيدة  
من الطبقة العالية في مجتمع الولايات المتحدة . وانا غي  
آسف لاننى لا اذكر اسمها الان اى وقت كتابة هذه  
السطور . واخيرا ترك المودعون الباقيون السفينة وكان  
من بينهم الدكتور ساندرز بالطبع . وبقيت وحدي احاول  
بصعوبة كبيرة ان انسى ماضى وان انظر الى الامام .  
وكانت السيدة الامريكية تأينني من حين لآخر . فقد كان  
شكلى معروفا وتحدث الى حديثا رقيقا . كانت سيدة  
تبدو مثقفة ثقافة دبلوماسية . وكانت على الرقم مسم  
التجاعيد التي كانت تحاول ان تخفيها « بالمكياج » تبدو  
في صحة جيدة . لم تتحدث في شيء غير عادي .  
وكانت فترات حديثنا قصيرة . وكنت اتعمد ذلك لاننى  
كنت اعيش في دنياي . كنت اذكر السكتب التي

أحضرتها معي وكيف اتنى فرحت فرحا شديدا عندما  
 وجدتها قد وصلت الى السفينة باسمي في الوقت  
 المناسب ، اى قبل ان تغادر الميناء . كنت اعيش في  
 ثنايا هذه الكتب . واحاول ان اعدّها في ذاكرتى وان  
 اعيد عدها مرارا وتكرارا . كانت كتباً اكاديمية تتضمن  
 المراجع التى اضطررت الى شرائها عندما كنت ادرس  
 موضوعات الدراسة . وعلى الرغم من ان بعضها كان من  
 الناحية الاكاديمية يتضمن المغالطات وربما الخطأ فائنى  
 كنت اعتز بها . ولم انس ابدا الا اننى كنت اذكر كتب  
 استاذى « البرونسور البرت موريس » فى علم الاجرام  
 وكتاب « ايدون بورز » عن ( تجربة فى الوقاية من  
 الجناح ) وكتب « كلاكهوهن » وكتب « تالكوت بارسنز »  
 وكتب كل من « ولسن وكولب » و « روث بنديكت »  
 و « مارجريت ميد » و « جرث وميلز » و « كسوين  
 وكاربنتر » و « سدرلاند » و « تافت » و « لينتون »  
 و « جيلين » و « مالىنوسكى » . وكل هذه الكتب  
 وقهرها كانت مقررة . ومن غير هذه الكتب التى كانت  
 مقررة ايضا كتب « دوركايم » وخصوصا كتابه المعروف  
 عن « ظاهرة الانتحار » الذى قد قرأته باللغتين الانجليزية  
 والفرنسية ( لغته الاصلية ) ، وكتب « فيلغريدوباريتو »  
 و « روبرت ا . بارك » و « وليام ف . اوجيرن » ،  
 وكانت اهم كتب الاول كتاب « العقل والمجتمع طبعة عام  
 ١٩٣٥ » واهم كتب الثانى كتاب « السلالة والثقافة  
 طبعة عام ١٩٥٠ » وكتاب « المجتمعات الانسانية طبعة  
 عام ١٩٥٢ » واهم كتب الثالث كتاب « التغير الاجتماعى  
 طبعة عام ١٩٥٠ » . ونظرا عن هذه الكتب كنت اذكر  
 كتاب « الزوجى فى امريكا طبعة عام ١٩٤٨ » لمؤلفه  
 « ارنولد روز » ، وكتاب « الاطفال المحتاجون طبعة

عام ١٩٤٨ « الذي الفته » ميليتا سلمية يريبرج « وكتاب  
( الشباب المتمرد طبعة ١٩٥٥ ) مؤلفه « أوجسنت  
ايخهرون » وكتاب « وليد القرن طبعة ١٩٥٥ » تأليف  
« بن هينخت » وكتاب « الامس والشرق الاوسط »  
وتذكرت كيف اشتريت الكتاب الاخير . كنت مارا امام  
احد الحوانيت التي يبيع اصحابها الكتب ، فوجدت  
اعلانا ضخما عن هذا الكتاب ، وقد لفت نظري عنوانه ،  
ووجدته عندما تصفحت صفحاته عبارة عن « عريضة »  
امضى عليها العديد من رجال الكنائس في مجتمع  
الولايات المتحدة وغيرهم . وكان عدد هؤلاء الغير اقليل .  
وتضمن العريضة التي وجهت الى رئيس الولايات  
المتحدة الدعوة ضد تسليح الدول العربية . وقد تضمن  
الكتاب ١٦٩ صفحة : ١٤ منها كتب عليها نص العريضة  
والباقي عبارة عن حيثيات مملوءة بالمعلومات الخاطئة  
والآراء الحاقدة التي ان دلت على شيء فانما تدل على  
التعيز الواضح ضد القضية العربية . ولا يوجد في هذا  
الكتاب تاريخ ، ولكنني اذكر انني اشتريته في خلال عام  
١٩٥٥ وهو من سلسلة « كتب بالتين » . وكنت وانا على  
ظهر السفينة وهي تسير عبر المحيط الاطلنطي اذكر  
بعض الكتب الاخرى ومنها كتاب « اللاسامية عند  
الانسان طبعة عام ١٩٤٦ » وقد قام بتأليفه « جيمس  
باركر » وكتاب « تاريخ الحرب العالمية الثانية طبعة عام  
١٩٤٦ » تأليف « فرانسيس ت . ميلر » بمساعدة . .  
من الخبراء ، وكتاب « قبيلة الانجاس العراة : صائدو  
الجماجي الادمية في بلاد اسام في وقت السلم وفي وقت  
الحرب طبعة ١٩٩٦ » تأليف « الدكتور كريستوف فون  
قوهرر هيميندورف » استاذ علم الاثروبولوجيا وكتاب  
( التوترات التي تسبب الحروب طبعة ١٩٥٠ ) تحرير

« هادلي كاتريل » وكتاب « نار في الرماد طبعة ١٩٥٣ »  
تأليف « ثيودور هـ . هوايت » وكتاب « حقائق من  
الأرقام طبعة ١٩٥٤ » تأليف « م . ج . موروني » وكتاب  
« جذور الثقافة الأمريكية طبعة ١٩٤٢ » تحرير  
« كونستانس رورك » وكتاب « فن رؤية الفن طبعة  
١٩٥١ » تأليف « مييتو مارانجونى » . وبالإضافة الى  
هذه الكتب كنت اذكر روايات « همنجواى » و«ثيودور  
دريزر » و « جون شتينباك » و « آرثر ميللر » . وفضلا  
عن هذه الروايات كنت اذكر رواية « المصرى » تأليف  
« ميكا والتارى » و ( من هنا الى الابد طبعة ١٩٥٤ )  
تأليف « جيمس جونز » و « الشياطين والعقاقير والاطباء  
طبعة ١٩٥٢ » تأليف « هوارد هـ . هاجارد » و ( غابة  
السبورة طبعة ١٩٥٥ ) تأليف « ايفان هنتر » . وقد  
مضت هذه الرواية فيما بعد وحولت الى مسرحية  
عرضت في مصر باسم « مسرحية مدرسة المشاقبين » !!  
ورواية « ايفانهو طبعة ١٩٥٤ » تأليف « ولتر سكوت »  
ورواية « اللون المحلى طبعة ١٩٥٥ » تأليف « جون  
أندرو رايس » ورواية « الحائط طبعة ١٩٥٣ » تأليف  
« جون هيرسى » . كنت في معظم الاوقات أعيش وحدى  
وانا على ظهر السفينة ، وكنت اتعمد ذلك . وكنت قد  
تذكرت هذه الكتب والروايات وغيرها كثير . وقد  
صاغت هذه المؤلفات بعض افكارى وفتحت أمامى بعض  
الاتاق مافى ذلك من شك . وكنت سعيداً بالحصول  
عليها وعلى قُرْها والمذكرات التى كنت اكتبها وانا  
فى المحاضرات . وبعض النسخ من رسالتى الماجستير  
والدكتوراه كنت اذكرها كذلك فقد كانت تمثل عندى  
قطعة منى او مرحلة من حياتى . ولم تمر عشرة ايام وانا  
فى عرض المحيط حتى تذكرت زنوج الولايات المتحدة



وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن أحضان ذويهم  
الحاتية الى القارة الاميركية . كان الانجليز من اهم  
تجار « العبيد » . كانوا يوزون الاسبانيين والفرنسيين  
والبرتغاليين والهولنديين في هذه التجارة الانسانية .  
وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى  
المستعمرون ان زئوج افريقيا خير معين لهم في القيام  
بالاعمال الشاقة في مزارعهم الشاسعة . وتذكرت وانا  
وحيد في احد اركان السفينة كيف كان الانجليز يقومون  
بهذه التجارة . تذكرت « تجارة المثلث » حيث كانت  
تخرج المراكب من ميناء « ليفربول » أو ميناء « برستل »  
وهي فارغة ، ويقودها القراصنة من التجار الانجليز  
الذين كانوا يسولون لانفسهم تجارة البشر ، وتسير  
المراكب الى ان تصل الى مرساها عند ساحل افريقيا  
المطل على المحيط الاطلنطي . كانوا يحملون معهم  
الرجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والاسلحة  
النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من  
الحلى النافذة لكي يستبدلوا بها عبيدا من الذين كانوا  
يجدون بعد ان يصطادهم اللدئاب من التجار ثم يحشدونهم  
في أماكن تقع على ما يعرف الآن بـ « ساحل غينيا » .  
وتمثل هذه العمليات الضلع الاول من مثلث هذه التجارة  
العبيدية . ثم يحشد ماتم استبداله من العبيد في  
المراكب لكي يعبروا المحيط مرة ثانية في طريقهم الى  
المستعمرات الاميركية . وتصورت جشم التجار والرقبة  
في الربيع الكبير الذي كان في أعماق أعماق نفوسهم ،  
تصورت ذلك وانا اعبر المحيط الى بلادي ربما عندما  
كنت في نفس المكان الذي كانت تعبره المراكب المملوءة  
من البضائع الادمية الى إحدى المستعمرات في القارة  
الاميركية . وتحقيق هذا الهدف يكون قد استكمل

الضلع الثانى من تجارة المثلث . ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكس المواد المختلفة التى أنتجتها المستعمرات الاميريكىة ومن أهمها « عسل السكر » نظير مابقى من العبيد حسب أعمارهم ونوعهم ومابقى لهم من عافية وصحة ، فى نفس المراكب التى كانت تقلع لتذهب من حيث أتت أى الى ميناء ليغريول أو ميناء برستل . كنت أعيش فى هذه الدراما الانسانية المرعبة ساعات وساعات وكنت أتصور اننى كنت واحدا من هؤلاء العبيد واحايل ان انخيل التجربة أو التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التسماء من البشر . كنت أشعر بأن شعر رأسى يكاد ان يقف فزعا ورعبا واشمئززا . وقد تملكتنى فى ذات يوم وأنا على السفينة افكار سوداء عن الانسان وكيف يكون وحشا كاسرا نظير الريح الزائل حتما مهما طسال به الزمان . وسرعان ما تذكرت ابناء وطنى الذين كانوا مقيورين فترة طويلة جدا من الزمان . ومع كل ماعانوا وقاسوا بقوا حتى الآن يحافظون على الارض الطيبة . وهام اليوم يحاولون أن يرغبوا ، وهم مصرون ، الانجليز المعاصرين احفاد القراصنة وتجار العبيد ليكونوا آخر المستعمرين لهذه الارض الطيبة . ودعوت الله فى سرى أن يحقق هذا الامل الكبير . وعلى الرغم من اننى كنت أحاول ان انسى بعض ماضى فى اثناء وجودى فى مجتمع الولايات المتحدة ، فأننى تذكرت فجأة « الشجرة » التى كنت أشاهدها من نافذة حجرتى على مدار فصول السنة . كنت أسعد بالقاء تحية الصباح لها بنظراتى . فقد كانت انيسى الوحيد . ومالبثت أن تذكرت ماحدث لها عندما قام « اعصار » وخلصها فى شتاء ١٩٥٥ - ١٩٥٦ خلعا . لقد أُلِف هذا الاعصار العنيف اشياء كثيرة ودمرها ، ومنها مبنى احسدى

الكنايس المجاورة ، ولكنى تذكرت وانا فى عرض المحيط  
الاطلنطى ، والسفينة التى كانت تقلنى تسير قدما نحو  
مصرنا الخالدة ، كم حز فى نفسى ما حدث « لشجرتى » .  
إننى وانا اكتب هذه السطور لا اباهى برقة عواطفى  
ولا احاول ان اقلق القارئ بمشاعرى الذاتية ولكنى  
احاول جاهدا ان اكون صادقا مع نفسى ومع قارئى .  
لقد كان تدمير الشجرة التى كنت اراها يوميا لحظة ان  
افتتح عينى صباح كل يوم طوال ثلاثين شهرا او ربما  
اكثر من ذلك ، تدميرا لبعض ماكنت اعتز به واتمزي  
فى ضوء الظروف التى كنت اعيشها فى خلال تلك  
الفترة ومابعدها . وسرعان ما تركت هذه الحقائق  
السوداء التى تضمنتها مرحلة من حياتى ، وبادرت  
احتضن ذكرياتى عن بعض كتبى التى تقبع فى قساع  
الغرفة التى اعيش ، فى غضون شهر مايو عام ١٩٥٦ -  
عليها مرحلة اخرى من حياتى . كنت وانا فى « مدينة  
لندن » اتوق لكى ابتاع « الموسوعة البريطانية » المعروفة ،  
ولكن النقود لم تكن تكفى . وكنت امنى نفسى بأن افعل  
ذلك يوما ما . فانا ارى ان الموسوعة تتضمن افكار  
الصفوة من علماء الانسان ومشاهير الزمان الذين  
صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق عمل نافع او الذين  
صارعوا وكافحوا من اجل تحقيق الدمار واظهروا  
بجلاء صورا عديدة من انانية الانسان . كنت اتصور  
الموسوعة وهى بمجلداتها قابضة على « الرف » فى حركة  
دائبة . فقد كنت كلما مررت عليها فى مكتبة الجامعة  
اسمع همهمات زماتلبث ان تصبح همسات ثم صيحات .  
وكان يخيلى الى ان المفكرين الذين دونت افكارهم على  
صفحاتها قد انتصر بعضهم لبعض او اخذ بعضهم  
بتلابيب بعض . واذا اصارح القارئ فقد كانت امنيتى

ان يكون لى موسوعة تزودنى بالافكار واقرأ من خلال  
 سطورها الخبرات على اختلافها سواء اكانت تتعلق  
 بالانسان ام كانت هذه الخبرات تتعلق بالنبات او الحيوان  
 او بالارض او بالفضاء . وهانذا وانا فى عرض المحيط  
 الاطلنطى على السفينة بعد ان سارت سيرا متواصلا  
 خمسة عشر يوما التذكر بالفرحة واللهفة ان من بين كتبى  
 « الموسوعة العالمية المستوى » الاميركية التى اشرف  
 على تحريرها « البروفسور جوزيف لانان مورس »  
 وتحتوى على ٢٥ مجلدا بالتمام والكمال . وقد كانت  
 طبعة هذه الموسوعة التى تزدان بها كتبى من الطبعة  
 الأخيرة فى ذلك الحين ، وهى طبعة عام ١٩٥٥ ، ثم  
 ما لبثت افكارى ان تداعت وتذكرت كتاب « فلسفة  
 كان طبعة عام ١٩٣٥ » الذى ترجمه « س . ك أوجدن »  
 عن النسخة الاصلية التى ألفها « ه . فيهينجر » وكتاب  
 ( الموسيقى للجماهير طبعة عام ١٩٤٧ ) مؤلفه « سيدنى  
 هاريسون » وكتاب « عادات واعراف المصريين المحدثين  
 طبعة عام ١٩٥٤ » مؤلفه « ادوارد وليام لين » وكتاب  
 ( الاسهامات البريطانية فى الدراسات العربية طبعة  
 المجلس البريطانى مؤلفه « برنارد لويس » وكتسابى  
 « الياتكيون والاله طبعة عام ١٩٥٣ » و « سجلات  
 تاريخ الشعراء طبعة عام ١٩٣٥ » تأليف « شارل بورز  
 سمبث » . وقد ذكرت من قبل عن مقابلتى للمؤلف فى  
 « مصيف روك بورت » وكان معنا « الدكتور موريس  
 ساندرز » وكنا نحن الثلاثة فى ضيافة احدى السيدات  
 الاميركيات الثريات . وسرعان ما وجدت نفسى أمام فيله  
 سينمائى يحكى سيناريو هذا اللقاء . كان هذا المؤلف  
 هو المتحدث الاعلى صوتا فى هذا اللقاء . وكان ، على  
 الرغم من انه من حيث السلالة كان مزيجا امريكيا

انجليزيا كما ذكر في كتابه « اليانكيون والاله » وانه كان  
يعتبر نفسه وهو يزهو ويفتخر « يانكيا » ، يتحدث  
لا يفهمه فقط بل بكل أعضاء جسمه . وقد تحدث هذا  
الكاتب احاديث شتى اذكر منها عن « مذبحسة الزنوج  
المسيحيين » كما كان يسميها . فعلى الرغم من ان هؤلاء  
الزنوج قد اتخلدوا من الدين المسيحي وجاء وحماية فان  
هذا لم يمنع من ذبحهم في احدى الفترات التاريخية  
في احدى ولايات « انجلترا الجديدة » . وتنوعت  
احاديث شارل بورز سميت وتشتت ولكن موضوع هذه  
الاحاديث المفضل كان عن « البيوريتانز » « اى المتطهرين »  
الذين كانوا منذ هروبهم من انجلترا ووصولهم الى  
« انجلترا الجديدة » فى خلال القرنين السادس عشر  
والسابع عشر يطالبون بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك  
الشديد باهداب الفضيلة . كان يراهم سميت انهم  
كانوا ومازالوا عقل « انجلترا الجديدة الكبرى » الذى  
اصبح يسود على عناصر المناخ الثقافى الاجتماعى لمساحة  
من ارض الولايات المتحدة تضم حوالى ٦٥ مليوناً من  
السكان ، اى من ساحل انجلترا الجديدة « الاولى » الى  
ساحل المحيط الباسيفيكي . وسرعان ما ضقت ذرعاً  
بهذه الاحاديث وتركها لانظر الى الامام الى مصرنا  
الخالدة . وتذكرت توا « جمعية الخدمات الاجتماعية  
بحي بولاك » التى اسعدتني الحظ وشاركت فى تأسيسها  
فى عام ١٩٤٧ وساءلت نفسى وانا على ظهر السفينة  
وهى تسابق الريح ويحاول أن يسبقها الريح ماذا فعل  
الله بهذه الجمعية ؟ وكنت اعلم ان السيدة الزا ثابت  
« المدبرة » فى أوروبا تقضى بعض الوقت مع ذويها فى  
سويسرا ، الواقع اننى اذكر الجمعية فلا بد ان اذكر  
السيدة الزا فهى الروح المحركة لها فى ضوء نشاطها



الدائب وارادتها الفولاذية . ولست وحدي الذي يفعل ذلك فكل من يذكر جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق لابد أن يذكر السيدة الزا . وساءلت نفسى مرة اخرى ماذا فعل الله بهذه الجمعية فى غياب السيدة الزا ؟ وكنت متفائلا وامنى النفس بأنه عند عودتى الى القاهرة الحبيبة استأنف نشاطى فى هذه الجمعية . وتذكرت كيف جاءت فكرة تأسيسها وكيف نفذت هذه الفكرة ، والخطوات التى سارت فيها الجمعية من أجل تحقيق رسالتها التى تبلورت بمرور الزمن ، أى بعد مرور حوالى تسعة أعوام على تأسيسها . وتفاءلت على الرغم من المعاناة التى كنت أشعر بها فى ذلك الحين ، معاناة الوحدة ومواجهة المستقبل المجهول . كنت أشعر على الرغم من نور المعرفة التى استبقيتها فى بلاد العم سام اننى فى ظلام دامس . وهانذا اذكر الجمعية فينبشق بصيص من النور يبدد هذا الظلام الدامس . اننى اذا عدت سالما ساستأنف جهادى المحيب فى سبيل تكوين بنات مصرنا الخالدة وابنائها من سكان حى بولاق . وكنت أقول لنفسى ان هذا اذا تحقق فانى سأكون قد حققت واحدا من الهدفين اللذين كرسيت لهما حياتى . أما الهدف الثانى فقد كان كما يعلم القارئ البحث عن حقيقة أو حقائق المجتمع المصرى المعاصر . وكنت أقومى لنفسى اننى وقد تأملت علميا وعمليا من أجل تحقيق هذين الهدفين فلا معاناة بعد اليوم . وحتى اذا صادفت هذه المعاناة فى المستقبل القريب أو البعيد فانى فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة لابد أن ارتفع بنفسى فوق امواجها العاتية او حتى غير العاتية . اننى كنت وقد قربنا من « مناء نابلى » اعيش فى خضم هذه الامنيات المشرقة وذلك على الرغم من اننى كنت أعلم

علم اليقين بأنه لا مكان لى فى وزارة من الوزارات او فى مصلحة من المصالح الحكومية . فقد فعلها عباس عمار الوزير او الذى كان وزيرا لوزارة الشئون الاجتماعية ورفتنى من وظيفتى الحكومية بحجة اننى اخذت اجازة بدون اذن لمدة اكثر من خمسة عشر يوما . اى على الرغم من اننى عندما اعود الى القاهرة الحبيبة لن اجد لى منصبا . وقلت لنفسى « الارزاق على الله » وانه « لن يعدم الاسد ان يجد فريسته انى ذهب » . عبارة قالها « جمال الدين الافغانى » عندما اضطر لكى يترك مصرنا الخالدة منفيا وانى ان يتفضل عليه احد بشىء قبل ان يبرح البلاد . تمثلتها وانا اعلم علم اليقين اننى احد تلاميذ تلاميذ تلاميذ جمال الدين الافغانى . ولكن نحن شباب مصر فى ذلك الحين كان لنا من امثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الله النديم والشهيد محمد عبيد وغيرهم ، واكثرهم لم نرهم فى حياتهم ، قدوة حسنة . وقبل ان نصل الى ميناء نابلى وكانت السفينة قد سارت فى المحيط الاطلنطى عشرين يوما وواحدا ، اخترقت السفينة بوغاز « جبل طارق » . ولم تكن المرة الاولى التى مرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز . فقد مررنا ونحن ، الركاب وانا ، ذاهبون فى عام ١٩٤٨ الى المملكة المتحدة ، ومرت السفينة التى كنت اركبها بهذا البوغاز مسرة ثانية ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا فى عام ١٩٥١ الى المملكة المتحدة ايضا . وهذه هى المرة الثالثة التى تمر السفينة الآتية من مدينة نيويورك ونحن ، الركاب وانا ، فى طريقنا الى البحر الابيض المتوسط ليذهب كل منا الى حال سبيله . وكان حال سبيلى مدينة الاسكندرية عروس هذا البحر . وفجأة تذكرت فى ضوء

خبراني المتجددة تاريخ الاندلس منذ ان فتحها العرب المسلمون في عام ٧١٠ ميلادية . تذكرت الامجاد وتذكرت المحن ، اقصد امجاد هؤلاء العرب المسلمين ومحنهم . وتذكرت انه لم يأت عام ١٤٩١ ميلادية حتى كان نزيف المحن الذي سببته جراح اعداء الدويلات العربية في الاندلس قد بلغ بهذه الدويلات نهاية المطاف . لقد دام حكم العرب المسلمين في الاندلس نحواً من ثمانية قرون . الاندلس هذه ، كانت قد اصبحت مهجراً لعدد من القبائل العربية ، وكانت قد شهدت خسارة « تعريب » نموذجية وعملقة ، وكانت قد تحولت الى ما يشبه الجامعة الفكرية والمنارة العلمية التي تتلمذت عليها قوى اوروبا الجديدة ، كما ذكرت سابقاً ، التي قادت عصر البعث والاحياء . وقد تم هذا الانتصار وقد تذكرت ذلك وانا استعرض هذه الامور في ذهني ، مع الاسف الشديد ، لحساب غلاة الرجعيين في الكنيسة المسيحية ، وكانت بحور الدم الانساني التي جسرت يدافع اعاصير الحقد الاسود والجهالة وسوء التقدير ، وكانت أداة سفك الدماء الزكية محاكم التفتيش التي اغرقت ظلماً وعدواناً ليس فقط كل العرب الاندلسيين بل كذلك حضارتهم الانسانية في الاندلس . وفي ضوء تلك الظروف العاتية لم يستمر تطور انوار العلوم على اختلافها بل على العكس يذكر التاريخ ان آثار « العلامة ابن خلدون » ، مثلاً ، كانت معلومة في الاندلس في خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، ولكن من المؤكد انه لم ينتقل شيئاً من ابن خلدون عن طريق الاندلس ، ويرجع ذلك على حد قول ، كما اذكر الان « البروفسور ناتانيل سميث » الى احراق الكتب العربية عند اجلاء العرب عن الاندلس في عام ١٤٩١ ميلادية . اذ من

المعلوم أن « الكاردينال كسيمنس » الملكة ايزابيلا « كان قد أمر باحراق الكتب العربية عام ١٤٩٩ ميلادية ، عندما بدأ حملته الشرسة لآبادة كل ماهر عربي فضلا عن آبادة كل من هو مسلم سواء كان من سلالة عربية أو كان من سلالة أسبانية . تذكرت كل ذلك وأكثر . وكان وقع مآذكرته أليما . وكانت دهشتي عظيمة عندما لاحظت أنني تذكرت في المرة الثالثة عندما مرت السفينة التي كنت أركبها ببوغاز جبل طارق . طبعا أنني كنت أذكر في كل مرة « طارق ابن زياد » قائد العرب ، كما كنت أذكر كلمته المشهورة . ولكن التفاصيل فيما يتعلق بمحنة العرب في الأندلس ووقع هذه التفاصيل في نفسي وآثارها التاريخية والثقافية الاجتماعية والسياسية لم أكن أعيرها التفاتا . وبدأ لي أن أهتم بهذه الأمور في المرة الثالثة كان دليلا على مستوى النضج الفكري الذي وصلت إليه . أو لعل ذلك كان يرجع إلى التجارب التي منشرت بها وأنا في الولايات المتحدة وبخاصة ما يتعلق منها من موقف حكومتها وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي على رأس حكومات الغرب الأوروبية وبعض الحكومات الأخرى التي كانت تمد يدها إلى حكومة الولايات المتحدة وهي تستجدي عن طريق « مشروع مارشال » أو « مشروع النقطة الرابعة » . وكان هذا الموقف ، الذي أرجو أن لا يخفى على القارئ ، موقف الذي كان يرى بحق أو بغير حق أنه أولى بأن يرث المستعمرات أو ما يشبه المستعمرات التي كانت تحت نير دول أوروبا ، وأن يكون كلمته في هذا العالم هي العليا . وبينما كنت في خضم هذه الذكريات أخوضها ، فوجئت بالسيدة الأميركية العجوز المتصايبة ، زوجة

الرجل الذى قيل عنه انه يصحبها والذى لم اره طوال هذه الفترة ولم اعرف شيئا عنه الا انه رجل يحيط به الغموض ، وقد جاءت الى وهى تحمل « كارتا » لا يوجد فيه سوى اسم زوجها وقالت لى ان هذا الكارت من زوجها وهو جواز مرور الى السفارة الاميريكية بالقاهرة اذا رغبت فى ان اذهب اليها طالبا شيئا ما انا فى حاجة اليه . وقد اخذت منها الكارت ونظرت اليها نظرة عاجلة وشكرتها ، وذهبت وكان المحيط قد بلعها فلم ارها بعد ذلك ابدا . ولما كنت قد تركت الولايات المتحدة فى حالة نفسية وعقلية ووجدانية لم اكن احسد عليها ، فقد مزقت الكارت قطعا صغيرة ورميتها فى البحر الابيض المتوسط . وانا حتى اللحظة الحالية لا اذكر ما الذى كان مكتوبا على هذا الكارت . ولا اذكر اسم الزوج الغامض ولا اذكر ان كانت مكتوبا عليه هويته او اى شيء آخر . ان كل ما اذكره ان حجم الكارت كان حجما غير عادى . فلم يكن مثل حجم الكروت العادية التى يحملها من كان مثلى . ولست نادما على ما فعلت ، بل على العكس كنت وانا امزق الكارت وكأننى كنت امزق الخداع والنفاق والقوة العنيفة اللانسانية والافكار السوداء التى تجد مكانا فى المناخ الثقسانى الاجتماعى فتفرق بين الانسان واخيه الانسان وتجعل من الانسان سيذا احيانا ومن الانسان عبدا احيانا اخرى ، ومع ذلك يحس الانسان منا ان هذه السيدة وزوجها ومن على شاكلتهما يرون انهم احسن الناس واعظمهم . تراهم يرون ثقافتهم انها احسن الثقافات وانها فى كل لحظة موضع اعجابهم وافتخارهم . وهم اذ يدعون الى الحرية والديمقراطية او الى المساواة فانك تحس احساسا صادقا ان هذه الدعوة مزيفة وان القيم التى من ورائها



قيم هشة تنفر منها قيمنا المصرية التي مهمسا كانت الظروف فهي تحرس على كرامة الانسان بصرف النظر عن لونه او عقيدته . واذا كنا نحن المصريين نحرص على الاصلة فان امثال هذه السيدة وزوجها الفاضل الذي عاين معنا على السفينة ولم يره احد ، وكأنه الخفاس الذي لا يظهر الا في الظلام ، يحرصون على كبر الحجم والفخامة والفردية وكرامة المال والاعنياء . فالمال بكل صورته ومهما كان مصدره علامة عندهم على النجاح في الحياة . واذا كنا نحن المصريين نرى ان « استاذ الجامعة » رجل ناجح فهو يعتبر عندهم رجلا فاشلا اذا ما قورن برجل الاعمال عندهم او حتى اذا قورن بسائق « اللورى » الذي يحصل عادة على دخل مالى اكبر من الدخل المالى الذي يحصل عليه استاذ الجامعة عندهم . وفجأة تذكرت ما قبل لى عن احد الفنادق فى « ولاية فيرمونت » احدى ولايات انجلترا الجديدة الذي كتب على بابه بالخط الواضح « ممنوع دخول الكلاب واليهود » . تذكرت هذه الواقعة وانا والذين على السفينة على بعد مسيرة ليلة واحدة من ميناء نابلى . وتداعت ذكرياتى عن خبرتى عن هؤلاء اليهود . وهى خبرة بالضرورة محدودة سواء اكانت خبرة نظرية ام خبرة واقعية . وتداعى هذه الذكريات جاء كنتيجة مباشرة لتسلمى كارت زوج السيدة الاميركية التى حرص دكتور موريس ساندرز ان يقدمنى لها او يقدمها لى ، وانا لا اذكر ايها الان اى وقت كتابة هذه السطور ، عندما فاجانى بحضوره على سطح السفينة لوداعى قبل ان تطلع ، وانا اغادر مجتمع الولايات المتحدة نحو بلادى ، بوقت قليل . كان الكارت وما يحمل من مغزى السبيل الى ان اتذكر مساوىء مجتمع الولايات المتحدة العديدة . وكسان

السبيل أيضا الى تذكر ما حصل ليهود هذا المجتمع من نفوذ في ميادين المال والصحافة والاذاعة والتليفزيون والسينما وبعض الكليات ومنها كليات الخدمة الاجتماعية مثلا . تذكرت واقعة دعوة البروفسور موريس لي الى تناول الشاي مع بعض الاشخاص الذين بدا لي ، بعد ان حدث ما حدث وذكرته قبل ذلك ، ان نصف عددهم وربما اكثر من ذلك كانوا من اليهود والصهاينة ، وتذكرت ما ذكره لي البروفسور موريس من ان رجال المال من هؤلاء اليهود في مدينة بوستن لكي يزدوا من «الكوتا» بالنسبة للطلبة اليهود واساتذة الجامعة مثلا كانوا يتبرعون سنويا للجامعة بالمال الكثير الذي قد تبلغ قيمته مليون دولار . وكانوا يتبرعون للجامعة بتكاليف بناء معبد لليهود في حرم الجامعة اسوة بالكنائس الموجودة بالحرم وربما بها يزيد على هذه التكاليف . وتذكرت هؤلاء اليهود الصهاينة في فصول الدراسة بالجامعة وفي محيط الطلبة على الرغم من قلة عددهم نسبيا . تذكرت الاساتذة الذين كانوا يعتمدون نفاقهم والتقرب منهم . وتذكرت ما كان في رأبي أفدح عندما دفعني حب الاستطلاع أفتح الحجاب الذي كانت أمي تحرص على ان البسه فوق ملابس الداخلية وثمرت على ذلك عندما ذهبت الى المدرسة الابتدائية وبدأ التلاميذ بقيادة مدرس الألعاب الرياضية بالمدرسة اول فصل للألعاب الرياضية وخجلت من ان يراني التلاميذ بعد خلع ثيابي وأنا البسه فصمتت على خلعها الى الابد . وبعد مرور الايام وعندما كبرت فتحت هذا الحجاب لازى ما فيه ، وقد دهشيت لانني رايت « نجمة داود » مرسومة في ثنياه مرتين . وقد رسمت هذه النجمة على الغلاف الموضوع فيه الحجاب مرتين ايضا . وقد ذكرني ماقرات عن ذلك في كتاب « منبر

اصول الحكمة للبوني « الذي يشتمل على اربع وسائل  
مهمة في اصول العلوم والحكمة ! تأليف « الامام ابي  
العباس احمد بن علي البوني » المتوفى سنة ٦٢٢ هـ  
« ١٢٢٥ م » ، ومن هذه الرسائل شرح ما يسمى  
« الجملواتية الكبرى » ولها طريقتان : الصغرى  
والكبرى . وقد تضمنت الطريقة الكبرى ٣٦٦ بيتا من  
الشعر . ويعتبر البوني هذه القصيدة دعوة مباركة وبها  
يتصرف الطالب في كل ما يرومه من خير وشر وخواصها  
لا تحصى وتصاريفها لا تستقصى وهي تبدأ بخمسة ابيات  
من الشعر كنت مازلت احفظ نصها وهي :

بدأت بيسم الله ربي ومسالكي  
مطالع اسراري بسري اعلنت  
فاسماؤها العظمى بها الروح تهتدي  
الى سر اسرار بباطنها انطوت  
وصليت ياربي على اشرف الوري  
محمد المبعوث للخلق عمت  
وافضل مخلوق وخاتم رسلاها  
بسيبك قد زاح الضلالة والفلست  
صلاة وتسليما عليه وآله  
وصحب وكل التابعين ومن حوت  
وتنتهى بخمسة ابيات من الشعر كنت ايضا مازلت  
احفظ نصها وهي :

فيا قارئ الاسم العظيم قدره  
عليك بتقوى الله تنجو من الفلت  
بها العهد والميثاق والوعد والوفا  
وبالمسك والكافور والنند ختمت  
وابيات شين وشين تشنفت  
بها الاسرار عظام تجمعت

وبعد فحصل الله ربي دائما  
على المصطفى ما طار طير وغردت  
وآل واصحاب كرام ائمة

بهم زالت الاكدار عسا وزحزحت  
وكان البونى فى كتابه هذا يشرح ابيات قصيدة  
الطريقة الكبرى المشار اليها ويبين آثارها كقصيدة  
تتلى بعد حفظها او بعد تلاوتها ، وكان يرى حفظها اوار  
وانفع . ومن هذه الآثار ، وهذا ماكنت قد تذكرته قبل  
ان نصل الى نابلى بساعات ، انك اذا اردت ان تطرد  
الجن من بنى آدم فاطلق بخور اللبان الذكر والجنائى  
ونوى الخرنوب واقرا القصيدة سبع مرات فان الجن  
يرحلون من تلك البقعة ولا يعودون اليها ابدا . واذا اردت  
تسليط الجن على غريب فاكتب مشمن « حجاب » على  
قطعة من الحرير الاحمر واكتب حوله توكيلا للخدام  
بما تريد فعله للغريم مع اسمه واسم امه واقرا القصيدة  
ثلاث مرات ثم اجعلها فى مكان ضيق مظلم فانهم يتبعونه  
بالاذى حتى يموت فاتق الله تعالى ! كنت اقرا هذه  
الكتب وانا اعلم انها لاتساوى الخبر الذى كتبت به ولكن  
كان حب الاستطلاع يملكنى ، ولم اكن اعلم شيئا كثيرا  
او قليلا عن « النجوم » التى كانت تملأ الاحجية المنشورة  
فى هذا الكتاب وفى غيره من الكتب المماثلة . وقد  
تذكرت بهذه المناسبة احد عشر بيتا من القصيدة تعتبر  
سرى « قسم البرهتية » وهو القسم المعول عليه من قديم  
الزمان ، وكان القدماء يسمونه بالعهد القديم والميثاق  
العظيم والسر المصون والكنز المخزون والعهد الاكسر  
والنبريت الاحمر . تكلم به الحكماء الاول ثم « السيد  
سليمان بن داود » عليهما السلام ثم « آصف برخياثم  
الحكيم قلفيربوس » ثم من تتلمذ له الى يومنا هذا ! وهب

قسم عظيم لا يتخلف عنه ملك ولا يعصيه جنى ولا عفريت  
ولا مارد ولا شيطان وكل طالب لم يكن عنده هذا القسم  
او لم يكن له علم به فعلمه اجدم . كنت اذكر هذا كله  
وانا في ضوء عقيدتي لا اصدقه . ولكن حب الاستطلاع  
كان لدى قويا فما ان وقع في يدي كتاب البونى الا  
وجدتني اكاد احفظ ما في كل صفحة فيه . وكان  
هذا الكتاب ضمن مكتبة جدي لابي « الشيخ احمد  
عويس » الذي انتهى الى ابن عمي محمود شقيق ابي  
« عبد المنعم » . فاخذت اطالع ما في الكتاب وكنت  
مازلت في المدرسة الثانوية ونجحت في حفظ القصيدة  
المشار اليها « ٣٦٦ بيتا » عن ظهر قلب . وهانذا اذكر  
بعض ابياتها وبعض اثارها وبخاصة ما تعلق بالاحد عشر  
بيتا التي كانت تعتبر سر « قسم البرهتية » التي كانت  
تتضمن اربعة وعشرين اسما منها اسم « غياهاكيد هولا »  
الذي كما يقول البونى في كتابه ان من خواصه ان من  
كتبه مائة مرة مع قوله تعالى « والقي ما في يمينك تلقف  
ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر »  
حيث ان « ( ٢٠ ك طه : ٦٩ ) » وقوله « قال موسى  
ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل  
المفسدين » ( ١٠ ك يونس : ٨١ ) حروفا مفرقة حصول  
« وفق » معين مرسوم فيه ثلاث من نجمات داود ، فاذا  
حمل الشخص هذا وفق وكان مسحورا بطل عنه السحر  
ومن اراد الوصول التام الى ما وصل اليه السادة الاخيار  
فليختل تماما بشروط الخلوة ويكثر من ذكر اسمه  
« غياهاكيد هولا » فانه يحصل ما يريد ! وانا الان اذ  
اكتب هذه السطور بعد مرور اكثر من خمسة وعشرين  
عاما لم اكن ادرك مدى تغفل هذه الافكار التي لا يقرها  
الدين الخالص ولا العلم في ضوء منهجه والمعرفة التي



تصل إلى الإنسان عن طريق تطبيق هذا المنهج . ولم  
أكن أدرك السهم التي كانت تتغلغل في نفوس قارئ  
مثل كتاب البوني دعك ممن كانوا ولا يزالون يؤمنون  
بها فيها . صحيح أنني في ضوء تربيتي الدينية الصحيحة  
على يد أستاذي صاحب الفضيلة الشيخ محمود خطاب  
قد تطهرت أو كدت أن تطهر من هذه الترهات ، ومع  
ذلك فقد كان هناك ما يوحى من تصرفات هذا الأستاذ  
الكبير وبعض أتباعه من المشايخ بأن قراءة « الأوراد »  
وإن تنير مضمونها كانت مسألة حتمية على المرادين أن  
يقوموا بها . ومهما يكن من الأمر فأنني الآن وليس قبله  
ذلك أرى أن « التحدي » الثقافي اليهودي بين شعوب  
قراء اللغة العربية والمسلمين منهم بخاصة قد بدأ منذ  
هذه قديم جدا ، وإن هذا التحدي كان يهدف إلى أن  
يسدل الغشاوة تلو الغشاوة على عقول هؤلاء ومن يلوذون  
بهم أو يحترمونهم ويطلبون منهم العون . وأرجو أن  
يلاحظ القارئ أنني أذكر موضوع تغلغل هذه الأفكار  
التي لا يقرها الدين الخالص ولا العلم ، فأنني أقصد  
بالعلم هنا « العلم العصري » وليس كما يدعي الدجالون  
من أمثال البوني بأن ما يسطرونه هو علم أيضا يسمونه  
« علم السيميا » والمعروف أن لفظ السيميا أصله « شيم »  
وهو لفظ عبراني « معناه اسم الله تعالى » . وكان ركاب  
السفينة على مشارف ميناء « نابولي » فذهب من ذهب  
منهم يستطلعون ، وبقيت وحدي لا أبرح مكاني فتذكرت  
الفترة التي قضيتها في « كوم امبو » ، وتذكرت مقابلي  
الدكتور « هيرمان مانهايم » في لندن وما حدث فيها  
ونتيجتها ووجدت نفسي ابتسم ساخرا . وقفز إلى ذهني  
ما قرأت عن العالم « البرت انشتين » في كتاب « فؤاد  
صروف » عن ( أساطين العلم الحديث طبعة عسك

١٩٣٦ « الذى كان مقتنعا بوجوب خدمة » القضية اليهودية « وانتهى به الامر وهو العالم العالى العبرى الى ان تصبح « النزعة اليهودية » فى نظره حقيقة حية . ولعل نشتين وغيره من عباقرة اليهود فى فروع المعرفة المختلفة : فى الموسيقى وفى الفنون التشكيلية وفى العلوم الطبيعية والكيمائية والعلوم الانسانية وغيرها ان يلتمس لهم العذر فى ان ينحازوا وهم اليهود الى قضيتهم . وانا فى حدود خبراتى المحدودة لا يمكن الا ان اذكر الافلام التى اظهرت وحشية « هتلر » واتباعه فى حرق اليهود بالجملة نساء ورجالا وشبابا واطفالا . والمجازر التى لا قوها فى خلال التاريخ لا تعد ولا تحصى . ولعل « قصة الحائط طبعة عام ١٩٥٣ » الذى الفها « جون هيرسى » ان تؤرخ بعض ماعاناه يهود « وارسو » الذين كانوا يعيشون فى « حارتهم » فى مدينة « وارسو » ببولاندا فى اثناء الحرب العالمية الثانية . لقد سجل جون هيرسى فى هذه القصة الشجاعة ودفء المحبة فضلا عن الروح التى لا تقهر التى تحلى بها اهل « حارة اليهود » هؤلاء وهم يتحدون الموت وجها لوجه . ان اليهود كشعب قد عانوا مافى ذلك من شك ، وعبريهم قد ساعدوا الانسان لكى يتسلط على الطبيعة وعلى المجتمع مافى ذلك من شك ايضا . ولا يمكن الا ان اذكر « الدكتور زانجر » احد اساتذة « قسم علم الاجتماع والانثروبولوجيا » فى كلية الاداب بجامعة بوستن وهو يشرح لنا عن مآثر كل من « دوركيم » و « ماركس » و « فرويد » فى ميدان العلوم الانسانية ومحاولاتهم لفهم ليس فقط الظواهر الانسانية او المواقف الاجتماعية ولكن ايضا انماط السلوك البشرى . كان يقارن كل واحد

غيره ويظهر النقص في محاولوا ان يصيغوا من نظرياتهم  
 كما كان يظهر بوضوح وجلالة الاسهامات الرائعة التي اداها  
 كل واحد منهم في هذه الميادين . ان زالنجر كان يهوديا  
 وان العلماء الذين كان يقارن بعضهم ببعض كانوا من  
 اليهود ايضا . وكان استاذنا امينا . ولعله ، وهذا من  
 حقه ، اراد ان يفاخر ببني عقيدته او جنسه . ومع ذلك  
 فكنت تراه منصفاً عادلاً . ذكرت ذلك وانا اكاد اري ميناء  
 نابلي راي العين ، ولكن زالنجر ذكرني بأحد الاساتذة  
 الزائرين وكان هندي الجنسية ويحاضر في كلية اللاهوت  
 بجامعة بوستن . وكان هذا الاستاذ الهندي على عكس  
 زالنجر ، فقد علم بانني مصري مسلم وطلب مني الحضور  
 الى احدي حلقات البحث التي يشرف عليها ، وكانت  
 تتناول موضوع « القرآن الكريم » وانا شخص لا ادعي  
 ولم ادع ولن ادعي انني اعلم اكثر من الذين على شاكلتي  
 من القرآن الكريم . كنت اري في نفسي وانا لا اتواضع  
 بام العارفين . فلم تكن علوم القرآن من علوم التفسير  
 والفقه واسباب النزول او حتى التلاوة والحفظ وغير  
 ذلك من اختصاصاتي . ولكني مررت في اثناء رحلتي  
 العمرية بفترة كنت احاول ان اتعمق قليلا في هذه العلوم  
 لكي اكون على بينة من امرها ولكي اعرف الفث منها  
 والشمين ، كانت اهدافي التي حاولت ان احققها ، ولازال  
 ان اعرف الدين الاسلامي الخالص . وما ابعدني من  
 تحقيق هذه الاهداف وما اصعب هذا التحقيق . وذهبت  
 الى حلقة البحث في الموعد المحدد وكان الكتاب الذي  
 بين يدي الاستاذ المشرف هو « معنى القرآن المجيد  
 طبعة عام ١٩٥٣ » ترجمة تفسيرية لـ « محمد مار ماديوك  
 بيكتول » . كان هذا الكتاب باللغة الانجليزية ، وكنت  
 قد بادرت بشرائه عندما عرض للبيع . وكان الكتاب

يحتوى فضلا عن الترجمة التفسيرية على سجل بالسور وهل هي مكية او مدنية ورقم الصفحة التي تشير اليها في متن الكتاب ، وكان يحتوى هذا الكتاب ايضا على فهرس عام بالموضوعات الهامة التي تناولها « القرآن الكريم » وارقام السور وآياتها التي تدل عليها . ومن هذه الموضوعات نجد الطفولة والزواج والطلاق والعبادات وما يتعلق بموضوعات التشريع بغسامة وغيرها فمن هذه الموضوعات التي تهتم الباحث . وعندما ذهبت الى حلقة البحث لم اكن اعرف ماذا يراد مني ومن ثم فاني لم احضر معي هذا الكتاب او غيره من الكتب التي تهتم بالدين الاسلامي ، واعتمدت على ذاكرتي وخبرتي اذا ما وجه الى سؤال ما وانا بين الطلبة الذين كانوا يجلسون حول الاستاذ المشرف . وسألني الاستاذ عن موضوع حقوق المرأة في الاسلام كما تنص عليها آيات القرآن الكريم . وكان هذا الموضوع مدونا في الكتاب الذي بين يديه بالفهرس العام . ولما كنت لم اسعد بتجربة حفظ القرآن كله باللغة العربية وانما حفظت منه بعض الاجزاء، التي لا اجرؤ على ترجمة آية من آياتها الى اللغة الانجليزية ، فاني طلبت من الاستاذ المشرف ان يعطيني الكتاب الذي في يده لاطلع على الفهرس لكي اقرأ على الحاضرين كل الايات المتعلقة بموضوع السبـؤال . ولدهشتي وجدت ان سجل السور والفهرس العام بالموضوعات الهامة التي تناولها القرآن الكريم قد ازيل من الكتاب . واستفسرت عن سبب ازالتهما فلم ينطق الاستاذ بكلمة ، وذكرت له وللطلبة ان كتابي الذي اشتريته به هذا السجل وهذا الفهرس وانه بغيرهما لا يستطيع احد التعرف على الاجابة باللغة الانجليزية التي ترغبون في الحصول عليها واقترحت تأجيل هذه

الاجابة الى موعد آخر يحدده الاستاذ المشرف لكى احضر  
 معى كتابى « السليم » فوعد الاستاذ بأن يجيب هذا  
 الاقتراح ولكنه لم يفعل . وهنا كان الفرق عندى بين  
 زالنجر « اليهودى » وبين الاستاذ المسيحي الزائر  
 « الهندى » الذى كان يحاول تشويه الحقائق عن عمد  
 وذلك باعاقه الباحث عن الوصول الى هذه الحقائق كما  
 هم . وكان ماحدث وما كان يحدث مما ذكرت من قبل  
 دروبنا أفدت منها الكثير . وتأكد لى انه اذا كان العلماء  
 فى ميادين العلوم المادية على اختلاف عقائدهم  
 وايدىولوجياتهم يتفقون ، فان العلماء فى ميادين العلوم  
 الانسانية ينتظروهم وقت طويل طويل لكى يتفقوا . وهذا  
 لا يعنى أبدا ان نسلب حق هؤلاء العلماء فى أن يتباينوا ،  
 ولكن المحك فى التباين لابد ان يكون فى ضوء تطبيق  
 المنهج العلمى والافادة من ادواته فى جمع الحقائق على  
 أسس سليمة . أن العالم المتخصص فى العلوم الانسانية  
 قد يختار موضوع بحثه فى ضوء ايدىولوجية معينة  
 وعندما يفسر نتائج هذا البحث قد يفسرها فى ضوء  
 ايدىولوجية معينة ، ومع ذلك فان العبرة فى الافادة  
 مما وصل اليه من تفسير . ويقصد بالافادة هنا الوصول  
 الى التفسير المرجو . والعالم اذا كان متخصصا فى العلوم  
 المادية او اذا كان متخصصا فى العلوم الانسانية عليه أن  
 يتبع آداب المهنة فيكون حريصا كل الحرص على الوصول  
 الى الحقيقة ويكون أيضا حريصا كل الحرص على ايصالها  
 الى الآخرين ، وان يكون أميناً عندما يرجع الى مراجع  
 من سبقوه وعند عرضه لما وصل اليه من نتائج .  
 ووصلت السفينة الى ميناء نابلى وكان الوقت فى  
 الصباح فى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو عام  
 ١٩٥٦ . وكان على ان ابيت فى احد الفنادق ليلة واحدة



لكى أدرك سفينة أخرى فى صباح اليوم التالى أى فى يوم ٢٨ من شهر مايو عام ١٩٥٦ لتنقلنى ومن معى ووجهتها ميناء الاسكندرية لنصل اليها فى يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . ان المرحلة العلمية التى تركت من أجلها بلدى وأسرتى الصغيرة فى يوم ١٥ من شهر افسطس عام ١٩٥٣ ، والتى توجت بتحقيق الامسال ، أصبحت على وشك الانتهاء . وتركت افكارى وتداعياتها وعشت فى الحاضر لكى امارس النظر الى ظواهر مجتمع مدينة نابلى والمواقف الاجتماعية لأعضائه او بعض أعضائه والعلاقات الاجتماعية التى تبدو أمامى سواء كنت فى الشارع او فى الفندق وسواء كانت تمسنى من قريب او تمسنى من بعيد او لا تمسنى . وفى خلال الثلاثة أيام التى سارت السفينة من ميناء نابلى الى ميناء الاسكندرية لم يكن اهم افكارى سوى ماكان يدور حول مصرنا الخالدة وما كان يدور حول أسرتى الصغيرة . وكنت اعلم من الصحافة واجهزة الاعلام الاخرى فى الولايات المتحدة ، ثم بعد ذلك فى اثناء الرحلة على السفينة من ميناء نيويورك وهى فى طريقها الى ميناء نابلى ان الامر فى مصرنا الخالدة قد أصبح على الرفع من الخلافات بين أعضاء مجلس الثورة فى يد حديدية هى يد « جمال عبد الناصر » الذى أصبح يسخر منه « أنطونى ايدن » رئيس وزراء انجلترا فى ذلك الحين ويهاجمه فى خطبه وكلماته ويصفه بـ « الدكتاتور الصغير » الذى يعمل على هدم المصالح البريطانية فى منطقة الشرق الاوسط . وتذكرت توا ان الحكومة المصرية قد أعلنت ونحن فى عرض المحيط اعترافها بالصين الشيوعية . كان ذلك فى منتصف شهر مايو عام ١٩٥٦ ، ويومها سعدت بالخبر وتأكدت ان تصرفات

الحكومة المصرية قد أصبحت حرة سواء كانت هذه التصرفات خارجية او داخلية . ولكنى لم اكن على يقين كامل او حتى ناقص من رضا الشعب المصرى الخالد عما كان يجرى من أمور داخلية ، وان كان يقينى قد بدأ يقوى من حيث حرية حركة الحكومة المصرية فى سياستها الخارجية . فاحتكار توريد الاسلحة من الغرب قد أصبح فى خبر كان ، ومهاجمة حلف بغداد واستمرار مقاومته أصبحا من صميم هذه السياسة . وهماو ذا اعتراف الحكومة المصرية بالصين الشيوعية قد أصبح حقيقة واقعية . والسد العالى لم اسمع عنه كثيرا فى ذلك الحين ، وان كنت اعرف ان المشكلة التى كانت تلقى فى سبيل تحقيقه هى مشكلة المشاكل ، اقصد مشكلة التمويل التى اصبحت هى المعركة فضلا عن التنافس بين الشرق والغرب . ولم اكن اعرف شيئا عن حجم الاستثمارات المطلوبة لهذا المشروع ، ولم اكن اعرف ايضا ان كان من الممكن ان تعتمد مصر ذاتيا ليكون هذا التمويل من النقد المحلى والاجنبى . كانت معلوماتى عن ظروف مصرنا الخالدة الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ضئيلة ، وذلك لان مصادر هذه المعلومات كانت ضئيلة ايضا . وان كنت اعلم شيئا فأننى علمت وانا فى بوستن عن طريق خطاب أرسله لى صديق من القاهرة ان معظم الاشخاص الذين كنت اتعامل معهم وعلى رأسهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى آخر وزارة شكلها حزب الوفد قبل قيام الجيش بحركته فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، قد تواروا عن الانظار ولم يكن لهم نصيب فى الاسهام فى تدبير الامور . وقد علمت ايضا ان الحكومة المصرية قد وضعت مشروعا لدستور جديد سيقوم

الشعب المصري بالاستفتاء عليه وعلى رئاسة جمال  
مبد الناصر للجمهورية في يوم ٢٥ من شهر يونيو عام  
١٩٥٦ ، اى بعد ان اكون قد عدت الى بلادى . وقد  
ذكر كاتب الخطاب المرسل من القاهرة الى بهذا الشأن  
انه قد نص ولاول مرة على « ان مصر دولة عربية وهى  
جزء من الامة العربية . وان دين الدولة الاسلام » .  
وقد احسست عندما قرأت هذا النص بخيبة امل كبيرة .  
فانا فى ضوء دراساتي فى « معهد الدراسات الافريقية »  
بجامعة بوستن تأكدت من ان مصر اقرب الى افريقيا من  
العرب . وان النص كان يجب ان يكون « ان مصر دولة  
افريقية » وكنت اقول ان المستقبل هو مستقبل افريقيا  
التي كانوا يقولون عنها ولا يزال البعض يقول عنها  
« افريقيا السوداء » . وكنت اقول ان المصالح الحيوية  
لمصر المستقبل هى مصالح افريقيا المستقبل ، وحاجة  
مصر الى افريقيا مثل حاجة افريقيا الى مصر . وعلاقتنا  
بالعرب فى ضوء الخبرات التي تمخضت عنها التجارب  
منذ انشاء « الجامعة العربية » فى عام ١٩٤٥ تكفى لى  
تقرر ان تكون علاقات اقتصادية وسياسية فحسب .  
وكنت ارى فى ذلك الحين ان اللغة والدين لا يكفيان لتكون  
مصر عربية وجزءا من الامة العربية . فهناك التاريخ  
وهناك السمات الثقافية ومصادرها وهناك قســم  
المجتمعات واستمرارها . واذا كنت اقول ان مصر دولة  
افريقية فانا مع التاريخ ولست ضده ، واذا كنت لم اقل  
ان مصر جزء من « قومية افريقية » فانا على صواب .  
كنت اقول كل ذلك لنفسى فلم يكن معنى احد اتبادل  
الرأى معه . وهانذا فى طريقى الى مصر الطيبة ارجو  
وامنى النفس بالمجد الاثيل لها ورفعته السلطان لشعبها .  
فالشعب قد عانى من الحكام الاجانب منذ عام ٥٢٥ ق.م

اي منذ ان غزاها « قمبيز » الفارسي وحتى اعلنت  
الجمهورية واصبح « الرئيس محمد نجيب » اول رئيس  
جمهورية مصرى لها فى يوم ١٨ من شهر يونيو عام ١٩٥٣  
وكانت تدور افكار اخرى حول اسرتى الصغيرة . حول  
زوجتى التى عانت معى ومنى ما عانت وصبرت ما صبرت  
وابتسمت خلصة عندما تذكرت « لمبة الجاز » التى كنت  
استذكر دروسى فى ضوءها حتى تيسر لى الانتقال الى  
شقة يكون التيار الكهربائى من الشروط التى كان يجب  
ان تتوفر فيها . كم عانت زوجتى من هذه « اللبة »  
الى ان انتقلنا الى المسكن الجديد فى خلال شهر يونيو  
عام ١٩٤٠ عندما انتقلت للمرة الثانية الى مؤسسة  
الزفاف الملكى . لقد عانت كثيرا ، فمسرة قد يكون  
« شريط » اللبة قد يحتاج الى « المقص » لكى تكون  
حافته مستقيمة لانه اذا كانت معوجة كان الضوء الذى  
تسعه اللبة مشتتا فلا يوفر الراحة عندما كنت افرا  
او اكتب ، ومرة قد تكون كمية « البترول » غير كافية ،  
ومرة قد تكون المراة المركبة خصيصا فى اللبة لى  
تعكس الضوء فتضاعفه غير نظيفة النظافة المطلوبة ، ومرة  
قد تكون الزجاجاة التى تتركب عادة فى قطعة مستديرة  
تصنع من النحاس الرقيق وتسمى « العدة » فى حاجة  
الى اعادة مسحها لى يخرج الضوء من اللبة صافيا .  
وكانت ابتسامتى المختلطة دلالة واضحة على مسدى  
خجلى من نفسى اذ كنت وهى السيدة التى كانت ترعى  
امى الحبيبة وخمسة اطفال اتقدها تقدا مرا وانا قافل  
ولا ارى فى ضوء التفسير الخاطيء لكل ما يدور حول المراة  
المصرية من تراث ثقافى الا حقوقى كرب الاسرة . لم اكن  
التمس لزوجتى الاعذار على الرغم من عمق لدينى فى  
ذلك الحين . اننى طبعا كنت اؤدى كل واجباتى نحوها

ونحو باقي اعضاء اسرتي في حدود قدراتي ؛ ولكنني  
كنت اعامل معها كما كان رجال اسرتي الممتدة « اسرة  
التوجيه » يتعاملون مع زوجاتهم واناث الاسرة على وجه  
المعوم . وكانت ابتسامتي المختلصة تظهر بوضوح ان  
« الدين » اذا صح يجب ان يكون سلوكا وان يكون على  
اساس الدين الخالص . ان المسألة ليست مجرد آراء  
بل يجب ان تكون اتجاهات . اي ان ديني لايفيد كثيرا  
اذا كان يعتمد لظهاره على آرائي ولم يكن جزءا من  
شخصيتي التي اذ تواجه المواقف الاجتماعية العديدة  
تسلك أنماط السلوك التي تقرها تعاليم الدين الخالص .  
وكانت ابتسامتي المختلصة نقطة مضيئة في حياتي المقبلة،  
فقد عاهدت نفسي على ان تكون معامتي لزوجتي في  
المستقبل نموذجا كريما للمواطن الصالح الذي يعمل بما  
يعلم ، والذي يرى ان العلم النظري والتطبيقي كل  
عضوي لا يتجزأ . فقد راعني ماوجدت او قل ماكتشفت  
في ذلك الوقت المبكر من « ازدواجية ثقافية » تسود  
في المجتمع المصري ، بل اضافي المجتمعات الانسانية  
الاخرى على تباين ثقافاتنا وظروفها الاجتماعية  
والاقتصادية والسياسية . ولكنني كنت متاكدا من ان  
عوامل هذه الظاهرة اقصد ظاهرة الازدواجية الثقافية  
تباين عواملها من مجتمع لآخر تباين بمصادرها في  
المجتمعات الانسانية وتباين تاريخ هذه المجتمعات من  
حيث الطول والقصر ومن حيث الحادثات التي مرت  
بها . وما أن وصلت الى هذه النتائج اذا بي اهتز وجلا  
وخشبة . كان القلق على مصير ابنائي يملا على كياني .  
وكنت اساءل عما اذا كانوا سيشعرون بما انا فيه من  
عذاب هذا القلق . لقد اصبح احمد الآن في سن الثانية  
والعشرين من عمره فماذا كان يدور بخلداه نحوي يا ترى ؟



الآن وقد اتهمت مهمتى مكللا بالنجاح فهل هذا يرضيه  
ياترى ؟ ألم يكن يرى أن الثمن الذى دفعه من شبابه  
ومن آلامه وقلقه وانماط معاناته الاخرى ثمنا باهظا  
ياترى ؟ انه لم يكن يدري ابدا اننى كنت مدفوعا بقوى  
لم اكن اراها لكى افعل ما فعلت . انه كان قد رى . ولقد  
دفعت انا ايضا الثمن اضعافا . ولكن هل كان يعلم  
أحمد العزيز ذلك ياترى ؟ وكنت اسائل نفسى عما املت  
عليه مشاعره وعواطفه نحو النوع الآخر ؟ خل خفق قلبه  
بحب احدى الانسات ؟ وكنت ارى ان هذا حقه ، او ان  
ظروفه الجامعية والدور الذى كان يقوم به بوصفه الاب  
الاصغر او الزوج الاصغر قد حالت دون ان يرى نفسه  
فى مرآة قلوب العذراى من « اهل الحقة » او حتى من  
غيرهن ؟ وماذا عن سيره فى دراسته الجامعية . انه  
الآن فى « كلية الهندسة » فهل كان يسير فى دراسته  
سيرا عاديا ؟ واذا لم يكن ذلك كذلك فمن كان المسئول  
عن ذلك ؟ هل كان هو المسئول او كنت انا . المسئول ؟  
ان والدى مات وكنت لما ابلغ سن السابعة عشرة من  
عمرى . ومنذ تلك اللحظة وحتى الآن وانا اواجه امواج  
الحياة بحلوها ومرها وتواجهنى امواج الحياة بحلوها  
ومرها ، وكنت وحدى . فهل اعتبرنى العزيز احمد مثالا  
يحتذى او رآى فى تصرفاتى غير ذلك ؟ انه لا يعرف ابدا  
كم احبه وكم احترامه . ولكن هذا امر خارج عن  
الموضوع الذى كان يشغلنى ويقلقنى واهتز من اجله وجلا  
وخشية . كنت وانا فى مدينة بوستن لا ادع شيئا  
ما يشغلنى عما كنت بصدد . كنت اعزى نفسى قاقوا  
لها ان الزمان قد جندنى لاؤدى واجبا . كنت اقول  
لها اننى وقد اصبحت احد الجنود فى معركة الدراسات  
العليا فهذا قدرى . ألم تكن اهدافى سامية سمو اهداف

التحصيل العلمي ؟ ألم تكن هذه الاهداف خيرا مسر  
اهداف الممارك الحربية التي يقتل فيها الملايين من البشر  
باسم الوطنية تارة والحرية تارة أخرى وغيرها مسر  
المبادئ والمثل العليا التي كان يتشدد بها ولا يزالون  
تجار الحروب الذين كانوا يناصرون زعيما ضد آخر ؟  
أما معركتي فقد كانت من أجل ان اعمل عملا صالحا .  
وكنتم في ذلك الحين وحتى الآن أي حتى كتابة هذه  
السطور صادقا مع نفسي ولم اكن اتوقع ان اكون واحدا  
ابدا . فهل كان العزيز احمد وامه واخوته يرون ماكنتم  
أرى او كانوا يرون اني باسم اهداف معركتي اني كنت  
شخصا انانيا لا يرى في مرآة الحياة الا ذاته ، او كانوا  
يرون اني انتقم لنفسي فقد احسست عندما مات أبي  
انه خذلني ، فقد مات وكنتم يافعا لا ادرى عن الحياة  
الا النذر القليل ، وقد مات وتركتني وحيدا لا اخا لي  
ولا اختا ؟ وماذا عن العزيزة الغالية « آمال » لقد اصبح  
عمرها تسعة عشر عاما بل يزيد على ذلك ؟ بالهف نكسي  
عليك ايها العزيزة آمال . كم كنت اود ان اكون بجوارك  
وانت في هذه السن الفضة ؟ اتحدث اليك وتتحدثين  
الي وتبادل الضحكات والنكات واعرف عنك مكنونات  
قلبك وتعرفين عنى مكنونات قلبي . وكنتم اتساءل ماذا  
كان موقفها من العزيز احمد وماذا كان موقف العزيز  
احمد منها ؟ هل كانا يتعاملان معاملة الحب والاحترام  
وتبادل النصائح والمشورة ؟ هل كانا يتخاصمان ولكل  
منهما دواعيه او بلا داع ؟ لم اكن ادرى شيئا من ذلك  
وان كان قلبي عندما كنت أفكر واحاول ان استطلع  
الغيب يدق دقا عنيفا عنيفا . اين أمي التي كسنت  
للجميع اللبس الشافى ؟ اين أمي التي كانت ، وقد  
حرمتم من الابنة ، ترى في آمال لا ابنة لي بل كسنت

تراها اختا لى وابنة لها وتعاملها وكأنها كذلك . كانت  
امى تبتغى ان تكون آمال ابنتها التى تأمنها على اسرارها  
فالابنة عندنا نحن المصريين « حبيبة امها » لقد ذهبت  
امى وتركت آمال وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ؛  
آنسة صغيرة رقيقة كانت تعيش احلامها فى المستقبل  
القريب والبعيد وكانت ترى ان لها حقوقا فهى تحرص  
على هذه الحقوق وتكاد ان تنسى ان عليها ايضا واجبات .  
وكنت ارى ان من حقها ان تنسى هذه الواجبات لانها  
عاشت فى حضان امى من غير ان يطلب منها اداء واجبات  
وانى لها ان تؤدي واجبات وهى فى هذه السن وتعيش  
فى هذا المناخ الذى يشع لها الحب العميق من ذلك  
المصدر الذى لم ينضب الحب فيه ابدا ، قلب امى ؟  
وكنت وانا على السفينة والاسكندرية عروس البحر  
الابيض المتوسط على مقربة نصف يوم اذكر « العزيز  
سمير » والعزيرة « تيسير » و « العزيز مسعد »  
اذكرهم وانا اشعر بالذنب نحوهم فقد كان سمير  
العزيز فى السابعة عشرة من عمره او اقل من ذلك بقليل  
وكانت تيسير فى الخامسة عشرة من عمرها اما العزيز  
مسعد فقد بلغ سن الثالثة عشرة . كنت اشعر بالذنب  
لاننى كنت متأكدا من انهم كانوا غبشا كبيرا على زوجتى  
العزيرة وعلى احمد العزيز . كانوا فى ميسس الحاجة  
الى الرعاية وبخاصة وقد كانوا فى المراحل الاولى من  
الدراسة . واذا كنت اعلم بان العزيز احمد كان يدرس  
فى الجامعة وان العزيرة آمال كانت تستعد لامتحان  
« شهادة الثانوية العامة » فانى كنت اعلم ايضا ان  
الأعضاء سمير وتيسير ومسعد يستعدون لامتحان شهادة  
« الاعدادية » ان الثلاثة على الرغم من تسعين الاعمار  
يستعدون لامتحان معين . وكان التفكير فى هذا الموقف

وحده يجعلنى اتصيب ، على الرغم من هواء البحر المنعش ، عرقا . وكان الامل املئى ان تسكل مساعى الجميع بالنجاح وعندما اعود اليهم احاول ان اواجه النتائج . وكنت اقول لنفسى بصوت خافت احيانا وبصوت مسموع احيانا اخرى ان المهم هو ان ينجحوا ولاحاول بعد ذلك ان اواجه النتائج . المهم ان ننجحوا جميعا . وكنت الوم نفسى واتهمها بالجنون اذ تركت هؤلاء الابناء وحدهم الى مصيرهم وكانوا مازالوا فى صمر الزهور . ماذا كان قد حدث اذا لم اكن قد تركتهم وحدهم وسافرت لفترة حوالى اربعة وثلاثين شهرا ؟ . وكنت ارد على هذا السؤال بأنه سؤال غير ذى موضوع . لقد حدث ما حدث وتم الامر . وان اهم من الاجابة عنه ان انظر الى الامام واواجه فى شجاعة ما جنته على افكارى وآمالى ومبادئى . اننى لو كنت قد انصت الى مطلب استاذى البروفيسور موريس ، وكان قد طلب الى ملحا ان اعمل فى الولايات المتحدة ، لكنت مازلت هناك اكسب الكثير من الدولارات ، ولم يكن من نصيب زوجتى وابنائى سوى ما ارسل لهم من نقود وكان من المتوقع ان تكون نقودا كثيرة . اى اكثر مما كنت ارسلها لهم وانا اتقاضى مرتب المنحة الشهرى وقدره ١٥٠ دولارا فقط . كنت ساعمل وانا حاصل على درجة الدكتوراه واتقاضى اضعاف مرتب المنحة ما فى ذلك من شك . وكنت اذا لبيت دعوة البرت موريس اعيش حياة ارغد واكثر يسرا . ان معظم نقودى على قلتها كنت اصرفها على شراء كتبى ولم اكن اشبع من شراء الكتب . لم اشترى ملابس او اشياء غير عادية ابدا . ولكنى كنت اشترى الكتب القديمة والجديدة على السواء . كنت كالصحراء التى اذا ما افرقتها بالماء شربت الماء فى التو واللحظة .

وكانت كتبي مائي وكنت انا الصحراء التي لم تكن تشييم  
 من هذه الكتب اى من هذا الماء .. ماء الحياة ..  
 ياتى . لم الب مطلب البروفسور موريس او مطلب  
 ه ه فى البقاء فى مجتمع الولايات المتحدة لمسوا مل  
 عديدة منها بل ربما يكون همها الحرص على كيان اسرتى  
 الصغيرة . ومع ذلك فقد لاحظت وانا اقترب من ميناء  
 الاسكندرية ان اهم ما كان يقلقنى كانوا هؤلاء « الرفاق  
 الثلاثة الاعزاء » سمير وتيسير ومسعد . كانوا اعزاء  
 على قلبى وعقلى ، وكان كل ما يمكن ان اعطيهم ، فضلا  
 عن واجباتى كآب ، هو الحب والاحترام . وكنت ارجو  
 ان يكون ما اعطى كافيا . وكنت متفائلا فقد تعلمت بان  
 عطاء الحب للناس الغرباء واحترامهم كان عطاء مجزيا  
 فما بالك وهؤلاء هم دمي وأعصابى واحباتى . وكنت  
 متاكدا من النجاح ، ولكننى كنت متاكدا ايضا من ان  
 الضرورة كانت تحتم على الصبر اى ان احبس نفسى  
 عن الجزع ما استطعت الى ذلك سبيلا . وفى لحظة  
 رأيت ان السفينة قد رست على الميناء العتيد . فسارعت  
 الى حجرتى لكى اضع حاجاتى فى اماكنها فى الحقائب  
 الثلاثة . وكانت معى حقيبة من الورق مملوءة بالاقمشة  
 التى لا اعرف نوعها ولا اعرف ثمنها ، كان قد اعطاها  
 لى الزميل شلبى لكى اوصلها الى صديق له لم اكن  
 اعرفه ولم يكن يعرفنى . وحملت الحقائب وصناديق  
 الكتب الى ظهر السفينة ومعى الحقيبة المصنوعة من  
 الورق بما فيها . وما أن مكثت برهة الا وسمعت صوتا  
 ينادينى باسمى مشفوعا بلقب « الدكتور » ولاول مرة  
 اسمع ذلك . واذا كنت قد دهشت للمناداة على اسمى  
 فلم يكن للقب الدكتور تأثير مافى نفسى . كانت الدهشة  
 تملأ على كياتى فلم ار او اسمع شيئا آخر غير عادى .



واجبت من نادائي وعرف مكاني وسرعان ما جاء الرجال يحملون امتعتي كلها بما فيها كتبى . وكنت اول من غادر السفينة وكان المنادى مندوب صاحب الحقيبة المصنوعة من الورق اقصد صاحب هذه الحقيبة بما فيها من اقمشة ، وكان الرجال الذين جاءوا يحملون امتعتي هم الذين ارسلهم ليفعلوا ذلك . واخذ الرجل الحقيبة منى وبعد ان ذكر اسم صديق الزميل شلبى وخرجت من الجمر ك بامتعتي ومن بينها كتبى وكاننى خرجت من حمام ! ولم يقف فى سبيلى احد فقد يسر المندوب الطريق امامى ، وركبت « الحنطور » ومعى الامتعة والكتب الى محطة السكة الحديد ، ثم ركبت القطار الى مدينة القاهرة الحبيبة . وبدأ القطار فى السير فى الموعد المحدد وكنا فى الضحى . وكنت فى بيتى بعد ظهر يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وحاولت وانا فى القطار ان لا اتحدث مع احد ولكننى لم اتمكك من ذلك . وكانت الاحاديث المتداولة بينى وبين الركاب ، على تفاهتها ، بردا وسلاما . فقد مر الوقت الطويل وكأنه لحظات . وبدأت استعد نفسيا للقاء احبائى واعزائى : زوجتى واحمد وآنسال وسهير وتيسير ومسعد .

كتاب الهلال يقدم

محمد علي الكبير

بقلم  
شفيق غربال

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٨٦

رقم الايداع : ٤٧١١ / ٨٦

الترقيم الدولي : ٧ - ٢٥٨ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

# وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / عبد المال بسيوني زغلول -  
الكويت : الصفاة - ص. ب. رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

## اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٢٥ قرشا :

سوريا ٤٠٠٠ ق. س. لبنان ٤٠٠٠ ق. ل. الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠  
فلس ، العراق ٢٨٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٤٢٥ مليم ، الخليج ١٥  
درهما ، البرازيل ٧ دولارات ، السودان ٢٥٠ ق. - سودانيا ، المغرب ٢٠ درهما ،  
غزه والضفة ١٥٠ سنتا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، جيبوتي  
١٥٠ بنسا .





## هذا الكتاب

« ماء الحياة » الجزء الثانى من رائعة الدكتور سيد عويس  
« التاريخ الذى احمله على ظهرى » ، الكتاب الذى استقبله القراء  
استقبالا حارا ، والذى اعتبره العديد من النقاد اهم كتاب صدر عام  
١٩٨٥ ..

والذى يقوم ناشر فرنسى بترجمته إلى اللغة الفرنسية ، ويساهم  
فى نقل تجربة صادقة عن المجتمع المصرى ومشاكله الاجتماعية ..

وفى هذا الجزء يكتب سيد عويس رؤيته للحضارة الأوربية فى أول  
رحلة له إلى بريطانيا بعد بلوغه الخامسة والثلاثين .. وكما كتب  
توفيق الحكيم تجربته مع أوروبا فى «عصفور من الشرق» وكتب  
يحيى حقى رؤيته للعلاقة بين الشرق والغرب فى « قنديل أم هاشم » ،  
يعالج سيد عويس نفس القضية من خلال سيرته الذاتية ، التى هى  
فى الواقع مزيج بين التجربة الذاتية ودقة الملاحظة والبحث  
العلمى ، والتى صاغها فى حكاية شيقة .. تجمع الجوانب الثقافية  
والاجتماعية والتاريخية ، بعد أن غاص فى أعماق  
والفنون ، وامتدت تجربته إلى التراث العربى من  
الأوربية من جانب آخر .

وتلمح بين سطوره المستقبل المشرق الذى ينتظر  
التفاؤل القائم على الاستقراء والبحث العلمى ..

الجزء الثانى  
عدد خاص

Bibliotheca Alexandrina



0544956

